

THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY



حَارِيسُ بْنُ عَاصِمٍ

أَوْ

فَتْرَةٌ مِنَ الزَّمَنِ

لَمَنْشَأُهُ

مُحَمَّدُ الْمُوَلَّيْجِيُّ

الطبعة السابعة مع الرحلة الثانية

كأنه النبي عليه الصلاة والسلام
بمخرج ولا يقول إلا حقاً

حقوق الطبع محفوظة

منزلة الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

893.7M986

R4

893.7M986

ترجمة حياة المرحوم

السيد محمد المويلحي بك

السيد محمد المويلحي بك

السيد محمد المويلحي بك ابن السيد ابراهيم بك^(١) ابن السيد عبد الخالق بن السيد ابراهيم بك بن السيد أحمد بن السيد الشريف الأمير مصطفى وكيل المويلح ، ابن الشريف محمد الوكيل بن العارف بالله عبد المنعم بن السيد محمد بن السيد محمد أبي السرور بن الأستاذ القطب أبيض الوجه بن الأستاذ شيخ الإسلام أبي الحسن المعز بن الأستاذ عبد الرحمن جلال الدين^(٢) بن السيد عبد الملك بن السيد يرحم بن السيد محمد بن السيد حسان بن السيد سليمان بن السيد محمد بن السيد عبد الملك بن السيد حسن المكفوف ابن سيدنا الحسن الثالث بن سيدنا الحسن المثنى بن سيدنا الحسن السبط عليه السلام ابن السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

فأسرة المويلحي تمتد نسبها إلى الصادق الأمين محمد عليه الصلاة والسلام ، وإلى الصديق أبي بكر رضى الله عنه ، وهذا النسب الشريف ثابت ثبوتاً لا يحتمل الشك إذ أنه يرجع إلى أحكام قضائية شرعية ، لا إلى مجرد الإثبات الإداري المشهور في مصر .

والمويلحي نسبة إلى المويلح ، وهو ثغر في شبه جزيرة العرب على شاطئ البحر الأحمر وكان تابعاً لمصر في عهد على بك الكبير ، وظل هكذا إلى سنة ١٨٩٢ ، حيث ضم إلى ولاية الحجاز .

(١) ولد عام ١٢٦٢ هـ ، وتوفي عام ١٣٢٣ (١٩٠٦) وهو في الثانية والستين من عمره ، وستتحدث عن تاريخ حياته في كتابه « موسى بن عصام » الذي سينشر قريباً إن شاء الله .

(٢) السيد عبد الرحمن جلال الدين : هو ابن السيدة فاطمة الكبرى بنت السيد أحمد الكبرى ابن السيد محمد بن السيد أحمد بن السيد محمد بن السيد عوض بن السيد عبد الخالق بن السيد عبد المنعم بن السيد يحيى بن السيد حسن بن السيد موسى بن السيد يحيى بن السيد نجم ابن السيد عيسى بن السيد داود بن السيد محمد بن سيدنا أبو طلحة بن سيدنا عبد الله ابن سيدنا عبد الرحمن الصحابي ابن سيدنا أبي بكر الصديق رضى الله عنه

ولقد شيد فيه الأمير السيد مصطفى قلعة ، لا تزال باقية إلى الآن ، ولها دفاتر محفوظة في الخزن التركي بدار المحفوظات العمومية المصرية ، وتوجد لدى أسرة المويلحي حجة التملك الخاصة بهذه القلعة ، وهي بتوقيعات أعضاء الشرع الشريف المكون — إذاك — من عامر أفندى القاضى والأمير على أغا كتنخدا المرحوم الأمير خليل بيك والأمير حسن أغا سردار طائفة « گوكليان ^(١) » وغيرهم من الأمراء والحكام ومشايخ العرب .

ولقد جاء بهذه الحجة — بعد الديباجة — : « حضر بمجلس الشرع المشار إليه أعلاه بين يدي مولانا الأفندى المولى إليه (عامر أفندى القاضى) فخر الأكابر والأعيان السيد الشريف الأمير مصطفى أغا بن المرحوم محمد أغا المويلحي . . . » إلى أن ذكر « وصرف عليها من ماله وصلب حاله ٦١٧٧٣ نصف فضة » وتم تحرير هذه الحجة في ١٨ محرم ١١٨٦ هـ

هذا وقد انقسمت أسرة المويلحي إلى قسمين ، قدم أحدهما مصر واستوطنها ، وظل الآخر في المويلح .

وأول من وفد إلى مصر السيد أحمد ^(٢) — وبعد أن عاون المغفور له رأس الأسرة المالكة الكريمة محمد على باشا على قمع ثورة الوهابيين — أقام بالقاهرة ، وأسس بيتاً تجارياً لصناعة الحرير ، وقد بنى بالسيدة رابية البكرية بقبة الشيخ خليل البكرى فأعقب السيد ابراهيم ، وكان سر تجار مصر بعد مقتل السيد المحروق ، وكان مولعاً بالأدب ، فبلغت شهرته إلى حبيب أفندى كتنخدا المغفور له محمد على باشا ، فاتخذاه كاتب سره ، ورزق السيد ابراهيم بالسيد عبد الخالق ، الذى أنجب السيد ابراهيم — الكاتب العظيم والسياسى القدير — والسيد عبد السلام ، الذى لقب « بميراو » مصر .

ولد السيد محمد فى سنة ١٨٥٨ فى حجر والديه وظل جده السيد عبد الخالق ، وهو يومئذ صاحب أكبر بيت تجارى فى الشرق ، فنشأ معزراً ، لا مدلاً كأبناء الأسر الكبيرة ،

(١) ينطق : جوتوليان وهو لفظ تركى معناه : متطوعون .

(٢) توفى بالقاهرة فى يوم الاثنين من ذى القعدة سنة ١٢٢٩ هـ .

وقد عني والده بتربيته فبعث به وهو في سن التاسعة إلى مدرسة الخرنفش ، وكانت تسمى
إذ ذاك « بالمدرسة الكبيرة » ، فكان يتخلف أحياناً عن الذهاب إلى المدرسة ، فيعاتب
رئيسها Ildefonsus « الديفونسوس » والده ويطلب إليه أن يشتد عليه قليلاً ، حتى
لا يهجر المدرسة لأقل انحراف في صحته أو توعك في مزاجه ، لأنه يتفرس فيه النباهة وحدة
الذكاء ؛ ولقد كان — رغم تخلفه — متفوقاً على أقرانه في اللغة الفرنسية ، إذ كان يقضى
الأيام التي يلزم البيت فيها دائماً على المطالعة والمذاكرة تحت إشراف والده ، وظل يتابع
دروسه في المدرسة تارة وينقطع عنها طوراً ، حتى بلغ الخامسة عشرة ، فأثر والده أن يتلقى
دروسه العالية في البيت ، كما كانت العادة عند الأسر الكبيرة وقتئذ ، فاختر له
أحمد اسماعيل بك ناظر مدرسة الألسن « دار المعلمين العليا » لتعليم اللغة الفرنسية ،
والشيخ أحمد قطة العدوى رئيس مصححي المطبعة الأميرية لدراسة اللغة العربية وآدابها .
ولما حيل بين الخديو إسماعيل وبين العرش عام ١٨٧٩ وسافر إلى إيطاليا ، حيث
أقام في قصر الفافوريتا « La Favorita » بليفورنو « Livorno » بعث إلى المرحوم
إبراهيم بك يستقدمه إليه ، ليكون سكرتيراً خاصاً له ، فلبى الدعوة ، واستعفى من منصبه
في مصر ولحق بسموه .



ظل السيد محمد بعد ذلك تحت رعاية عمه السيد عبد السلام باشا . فاختر له
إبراهيم اللقاني بك لياخذ عنه العلم والأدب وليصحبه معه إلى حيث يليق بأمثاله من مجالس
العلماء وأندية الأدباء .

وفي ٥ أبريل سنة ١٨٨٢ التحق بخدمة الحكومة المصرية في منصب بوزارة الحقانية ،
ثم حدثت مذبحة الاسكندرية في ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ ، فسافر عبد السلام باشا إلى الشام
في يولييه ، وبقي محمد بك منفرداً في مصر ، فانضم إلى الثوار مع السيد حسن موسى العقاد
وأستاذه إبراهيم اللقاني بك ، وأرسل إليه والده بضع نسخ مطبوعة على الحجر من رسالة
عنوانها « الجنة تحت ظلال السيوف » ليوزعها على زعماء الثورة العربية ، حتى يزدادوا

حماسة وحمية ، وحسبك أنها كانت بقلم إبراهيم ، الذى كان يعرف مواضع الهوى من النفوس ، وكان يستطيع أن يقود الجمهور بقلمه الفذ البليغ ؛ فضبطت بعض نسخ هذه الرسالة عند محمد بك ، وألقى القبض عليه ، وطلب عثمان باشا ناظر الضبطية إحالته إلى مجلس عسكرى ، فتدخل بطرس غالى باشا وكيل الحقانية فى ذلك العهد ، وحال بينه وبين المحاكمة ، بدعوى أنه لا تجوز محاكمة شاب قاصر غاب عنه عمه وأبوه ، وأسفر هذا التدخل عن مجازاته إدارياً وفصله من وظيفته ، فسافر إلى والده فى إيطاليا ، وكان يجاوره فى المسكن فى ليثورنو محام إيطالى ، وكان صديقاً لإبراهيم بك ، فتخرج عليه السيد محمد فى اللغتين الإيطالية والفرنسية ، وألم بمبادئ اللغة اللاتينية ، وظل فى أوربا ثلاث سنين قضاهما بين إيطاليا وفرنسا وإنجلترا ، وتسنى له مصادقة اسكندر دوماس الابن وكثير من أدياء وعظماء الغربيين فى ذلك العهد .

هذا وقد اشترك ، وهو فى باريس ، مع والده والسيد جمال الدين الأفغانى فى تحرير « مرآة الشرق » .

ثم سافر المرحوم السيد إبراهيم بك إلى لوندرا ، وظل هناك إلى أواخر سنة ١٨٨٥ ، حيث لحق به نجله محمد بك ، وقد أراد السلطان عبد الحميد أن يقرب إليه إبراهيم بك ، ليأمن من نفثات قلمه ، فأرسل إليه أخويان باشا ناظر الخاصة السلطانية ليستقدمه إلى الآستانة بواسطة قسطنطين باشا سفير تركيا فى لوندرا ، فخشى إبراهيم أن يكون فى الأمر دسيسة ، لأنه لم يكن يتوقع عفو السلطان عنه بهذه السرعة ، فكلف السيد محمد بالسفر إلى الآستانة ليستطلع جلية الأمر ، فنفذ مشيئة والده وأرسل إليه كتاباً يطمئنه فيه من ناحية السلطان . فسافر إبراهيم إلى الآستانة وكتب إلى السلطان كتاباً يشكر له فيه عفو عنه ويعتذر عن تأخره عن المثل بين يديه ، فقبل معذرتة وأكرمه السلطان ، وعينه عضواً فى مجلس المعارف الأعلى (انجمن المعارف) .

وفى الآستانة وجد محمد بك نفسه بين مكاتب مكتظة بأنفس الكتب ومختلف الآثار ، الشرقية والغربية فكان كثير التردد عليها ، وعلم منيف باشا ناظر المعارف وصديق والده

برغبته في حب الاطلاع على مؤلفات أدباء الشرق والغرب وعلمائهما ، فأعطاه « إذنا » بالتردد على مكتبة « الفاتح » ليطالع على ماتحتويه من كتب قيمة ، فكان شغله الشاغل الاطلاع والدرس ، وتمكن أثناء ذلك من نسخ رسالة الغفران ورسائل الجاحظ في تربية الصبي وديوان ابن الرومي ، ومختارات ونتف من الأدبين العربي والغربي بين قصص وحكم وأمثال ونوادر ، وقد عني رحمه الله بتدوينها في سجلات كبيرة وما زالت موجودة في مكتبته إلى اليوم .

وفي سنة ١٨٨٦ اشترك مع عبد الله أفندي المغيرة في تحرير جريدة « المنبه » وكانت تصدر مرتين في الأسبوع .

ثم عاد إلى مصر عام ١٨٨٧ ، واشترك مع عارف بك المرديني في تحرير جريدة « القاهرة الحرة » اليومية ، وظل يكتب فيها حتى وقفها صاحبها لسفره إلى الآستانة بناء على دعوة من السلطان عبد الحميد .

ثم تابع مقالاته في مختلف الصحف المصرية ، فنشر في المقطم سلسلة مقالات تحت عنوان « الحرية المعتدلة ملاك السعادة » بتوقيع « مصري ببلدته عليم » وكان المقطم يقدمها بقوله « هذه مقالة بقلم من إذا عدت أعيان مصر كان في أوائلها ، وإذا عدت أرباب الأقلام كان أعظم فطاحلها » .

وفي سنة ١٨٩٢ وفد إلى مصر سلطان جوهور ، فاختار محمد بك ليقدمه إلى السلطان ، بواسطة والده ، فسافر معه إلى الآستانة ، وأنعم عليه السلطان بالنيشان الثاني المجيدي .

وفي سنة ١٨٩٥ عاد والده من الآستانة وعين محمد بك معاون إدارة مديرية القليوبية ثم مأموراً لمركز البرلس ، ولكنه مل الخدمة الحكومية ، فاعتزلها في أوائل عام ١٨٩٨ .

وفي ١٤ إبريل سنة ١٨٩٨ أصدر إبراهيم بك جريدة « مصباح الشرق » ، فاشترك مع والده في تحريرها ، ثم نشر في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٩٨ ، « فترة من الزمن ، أو حديث عيسى بن هشام » بامضاء « م » وهو أول حرف من اسمه ، وظل يتابع نشره ، حتى سافر

في ١٠ من شهر يونيه سنة ١٩٠٠ إلى إنجلترا في معية الخديو السابق عباس باشا الثاني لزيارة ملكة الإنجليز، فأرسل إلى والده وصف هذه الزيارة فنشرها في مصباح الشرق بالعدد رقم ١١٢ المؤرخ في ١٢ يولية سنة ١٩٠٠، ثم زار معرض باريس ونشر أول رسالة في وصفه بتاريخ ١٧ أغسطس سنة ١٩٠٠. وكان والده إبراهيم ينشر بمصباح الشرق في ذلك العهد كتابه «مرآة العالم، أو حديث موسى بن عصام» بامضاء (أ) وهو أول حروف اسمه. وظل محمد بك يوالى الكتابة في تلك الصحيفة مع والده حتى ١٥ أغسطس سنة ١٩٠٣ حيث وقف والده إصدارها بعد أن وصل إلى الغرض المطلوب منها، إلا أن محمداً لم ينقطع عن موالاة الصحف برسائله حتى عام ١٩١٠. وفي سنة ١٩٠٦ أنعم عليه الخديو عباس باشا برتبة الممايز.

وفي ١٥ مايو سنة ١٩١٠ عينه الخديو مديراً لإدارة الأوقاف، وظل في هذه الوظيفة إلى سنة ١٩١٥ حيث استقال وأثر العزلة وكان قد تخير لها من رجال الأدب والبيان من بين تلامذته ومريديه طائفة عاونته أصدق المعاونة على رفع شأن اللغة العربية فسيا بمستوى الكتابة في ذلك الحين إلى درجة رفيعة ونذكر من بينهم المرحومين: الأستاذ عبدالعزيز البشري وعبد الحليم المصرى والأساتذة عباس محمود العقاد وأحمد الكاشف ومحمد مصطفى الماخي. وخلف من تلامذته من انتفعوا بأثاره واهتدوا بهديه ولا يزالون يذكرون عهده بخير ما يذكر به مصلح حكيم.

وفي ديسمبر سنة ١٩٢١ نشر بجريدة الأهرام مقالاً ذكر فيه سبب عزله، ورحب باتحاد الأحزاب في مصر لما في الاتحاد من عزة للشرق.

وفي ١٩٢٥ طلب إليه صاحب جريدة مشهورة في مصر أن يكتب لجريدته مقالين في الشهر، على أن يتقيد بلون معين من الكتابة والسياسة، لقاء أجر قدره ثمانون جنياً، فأجابه بقوله: «قلم المويلحي لا يباع».

وفي عام ١٩٢٧ قررت وزارة المعارف «حديث عيسى بن هشام» المطالعة في مدارسها الثانوية، ولقد جاء بتقريرها ما نصه: «وحديث عيسى بن هشام إذا دخل في المطالعة لطلبة المدارس الثانوية أفادهم أجل فائدة من ناحية ما يأخذهم به من بلاغة الكلام، وسلامة

القول ، والصيغ الطريفة التي تناولت كثيراً من الأسباب الدائرة بين الناس ، وهو ما يعوز جميع الكتب التي وضعت في عصور متقدمة ، إلى مايفسح في ملكاتهم ، ويطبعهم على دقة الملاحظة ، وقوة التعبير ، وتديير ألوان الاحتجاج لطرفي الموضوع الواحد .

وفي ٢٩ من رمضان سنة ١٣٤٨ (آخر فبراير سنة ١٩٣٠) توفي رحمه الله ، تاركا آخر مؤلف له كان قد انتهى من تأليفه قبيل وفاته بأسابيع وأسماء : « رسائل في الأخلاق ، أو علاج النفس » فتولت وزارة المعارف طبعه في المطبعة الأميرية بحروف مشكلة وقررت المطالعة في مدارسها الثانوية عام ١٩٣٢ م .

ولقد رثاه شاعر النيل المرحوم حافظ إبراهيم بك بأبيات ثلاثة قالها ارتجالاً وقت خروج النعش :

غاب الأديب أديب مصر واختفى فلتبكيه الأقلام أو تقتصفا
لهفي على تلك الأنامل في البلى كم سطرت حكما وهزت مرهفا
مات الموليحي الحسان ولم يمت حتى غزا « عيسى » العقول وثقفا
وأبنته أمير الشعراء المغفور له أحمد شوقي بك بقصيدة طويلة مطلعها :

كاتب محسن البيان صناعه استخف العقول حينما يراعه
ابن مصر وإنما كل أرض تنطق الضاد مهده ورباعه

ومنها :

علم في البيان وابن لواء أخذ الشرق حقبة إبداعه
حسبه السحر من تراث أبيه إن تولت قصوره وضياعه
إنما السحر والبلاغة والحكمة بيت كلاهما مصراعه

هذا ولئن كانت صلاتي بصاحب الترجمة تحول بيني وبين التنويه بمكانته ومجوده في الحياة فحسبه ما ترك للأدب من تراث وما خلدت له آثاره الأدبية من شهرة تشهد له بالزعامة القلمية في عصره وتضعه من جمهرة كتّاب الشرق والغرب في صف حملة لواء الكتابة النثرية في ذلك العهد .

وإلى القراء بعض ما كتبه مسيو « هنري بيرز » المستشرق الفرنسى الشهير^(١) وأحد كتاب الأدب الفرنسى البارزين عن المويلحى وكتابه « حديث عيسى بن هشام » ننقله إلى العربية فيما يلى :

« إن حديث عيسى بن هشام يعد فى طليعة الكتب المؤلفة فى الأخلاق والعادات والنقد الاجتماعى ، ويمكننا أن نعتبره بحق مثالا لنهضة الأدب العربى فى الشرق . وقبل أن نتعرض لتحليل موضوعات هذا الكتاب ، يجب أن نتكلم أولاً عن حياة المويلحين الأب والابن إذ أن عبقرية الثانى قد تجلت مستمدة منها من حنكة الأول وخبرته السياسية ونشاطه التجارى وقوته الفكرية والأدبية . وبعد أن أفاض الكاتب فى ترجمته للمويلحين الكبير والصغير قال : « إن المويلحى الصغير كان مثل أبيه شديد الرغبة فى الاطلاع على الأديب الفرنسى والإنجليزى وربما نزعت نفسه إلى اللاتينى واليونانى أيضاً . وما من شك فى أن حديث عيسى بن هشام كان العامل الأول فى بناء صرح النهضة الحديثة للغة العربية وأن سلسلة لغته تعيد إلى الذاكرة أسلوب الكتابة الفنية لجونكور والإشياء الخيالى لهويسمان^(٢) . ولقد صور المويلحى الحياة المصرية فى شتى مظاهرها الاجتماعية بقلم جرى وصراحة واضحة وإخلاص بلغ حد القسوة فى تصوير الحقائق الواقعة تصويراً دقيقاً أذكرنا كتابة بلزاك وفلووير^(٣) . »

« ومع أن كتاب المويلحى قد مضى عليه أكثر من خمس وثلاثين سنة فإنه مازال فى مجموعه كأنه وليد اليوم يصف الحياة الحاضرة فى أسلوب يدخل السرور على النفس ويبعث فى القارئ روح الميل إلى تتبع حوادثه دون سأم ولا ملل . »

(١) Henri Perez المستشرق الفرنسى وعضو المعهد الفرنسى بدمشق وقد نشر بحثه هذا Bulletin d'Etudes Orientales،
فى مجلة

Tome X, 1943-1944-Beyrouth, 1944 = P.P. 101-118

(٢) Huysmans, Goncourt

(٣) Flaubert, Balzac

« ومما هو جدير بالذكر هنا أن نقد المويلحي لعادات وأخلاق معاصريه قد سائر الأيام والسنين فلم يقف أثره في الإصلاح عند زمان أو مكان معين ، بل تجاوز العصر الذي كتب فيه والمجتمع المصري الذي أوقف المؤلف كتابه على نقده — إلى مكان آخر ومجتمع آخر — فقد نقل أحد رجال الإصلاح من علماء شمال إفريقيا فصولاً كاملة من حديث عيسى بن هشام ضمنها كتاباً له في البدعة أسماء (الرحلة المراكشية) واتخذ من كتابه هذا أداة لنقد المجتمع الإسلامي في بلاد المغرب وتوجيهه إلى طريق الإصلاح ، غير أن الأديب المراكشي — وهو محمد بن محمد ابن عبد الله الموقت — لم ير ما يدعوه إلى نسبة تلك الفصول من حديث عيسى إلى كتابها ، ذلك لأن كتاب الأديب المصري غنى شهرته في العالم العربي وقوة أسلوبه الإنشائي الممتاز ، عن التنويه باسم مؤلفه « محمد بك المويلحي » .

ولقد أشار الكاتب الفرنسي في هذا المقام إلى طائفة من الكتب الأدبية لكثير من كتاب الأدب في مصر والشام وبلاد المغرب وقال إن هؤلاء حاولوا أن يحذوا حذو المويلحي في كتاباتهم وأن يسابقوه في هذا المضمار ، و بعد أن وزن بين أساليبهم وطريقتهم في النقد وما امتاز به المويلحي من نهج وأسلوب ، لم يتردد في الحكم عليهم بأنهم قد أخفقوا جميعاً في محاولتهم ، بل عجزوا آخر الأمر عن إدراك غايتهم في هذه الحيلة . ولقد ختم الأديب الفرنسي بحثه قائلاً : « يتعذر أن ينسج كاتب على منوال حديث عيسى بن هشام أو أن يصل إلى سمو أسلوبه مقلدٌ ، فقد بلغ المثل الأعلى للإنشاء الوصفي ودقة تصوير المجتمع ولقد بزغ نوره في فجر النهضة الحديثة للأدب العربي فمحت آيته مختلف المقامات الأدبية وهدى لنوره الرجعيين القدامى من كتاب الأدب ، واسترشد بسناه المجددون من الأدباء فسلكوا من بعده الطريق المعبد إلى المستقبل المثمر » .

ابراهيم المويلحي
حفيد المويلحي الكبير
وابن شقيق صاحب الترجمة

إهداء الكتب

ألف المؤلفون والكتاب أن يبدأوا كتبهم ، عند نشرها ، بإهداءها إلى بعض ذوى الشأن والفضل . والضعيفُ العاجزُ يُهدى هذا الكتاب إلى كل من يقرؤه : من أديبٍ يجد فيه طَرفاً من الأدب ، وحكيمٍ يرى فيه لمحةً من الحكمة ، وعالمٍ يبصر فيه شذرةً من العلم ، ولغوىٍ يصادف فيه أثرًا من الفصاحة ، وشاعرٍ يشعر فيه بمثل طيف الخيال من لطف الخيال .

وأهديه إلى أرواح المرحومين : الأديب الوالد ، والحكيم جمال الدين ، والعالم محمد عبده ، واللغوى الشنقيطى ، والشاعر البارودى ، أولئك الذين أنعم الله عليهم ، وأولئك الذين تأدّبتُ بأدبهم وأخذتُ بهديهم .

وأهدى هذه الرسالة ، التى اختصنى بها المرحوم الأستاذ جمال الدين الأفغانى بخطه الكريم منذ خمس عشرة سنة ، إلى جماعة أهل الفضل والأدب ، لما تضمنته من الحثِّ على طلب العلم وأدب النفس ، ولحسن أسلوبها فى كتب المودات . وهى لا تزال عندى إماماً يهدينى ، ونوراً أستضيء به . فأردت أن أشاركهم فى هذه الذخيرة التى يحق الضنُّ بها والحرص عليها ، ونقلتها هنا بصورة خطه الشريف تخليداً لأثر تلك اليد الكريمة ، وإذا قدرنا أن الشرقيين يتنافسون تنافس الغربيين فى اقتناء الرسائل التى تكون قد صدرت عن بعض عظماء الرجال بخطوطهم ، ويتسابقون إلى الحصول على بعض أدوات كتابتهم، ويبذلون فى سبيل ذلك من الأموال والمساعى مالا يُقدَّر ، فإنى أكون قد أهديت إلى أهل الفضل هدية يعتدُّون بها ، ويتقبلونها بالقبول الحسن إن شاء الله .

جبر مفضل

تفکک فی شئون الحال یشیع المصدور الحجة من حصرها
 و خوض فی فنون المآداب یریح قلوبا علفت بهک اما لهما
 و لیس بعدهما الکلام فی اللامعجزة و لک یومئذ انفسها
 و لقد عشت لللطيفة الموعودة فی مصرکة اخری و هذا توفی من الله
 فاستدبرنا و ابرم بما اوتیت من کلبانة و الحق انمرنا
 حتی تکن کلمة الحق می تعلی و لا تکن لکینی غنیمت انفسهم طر
 احوالها و رقتهم مطنون الا مهواة شقایها و حسوا انهم بحسب
 صفا و یصلون امر و کن عزاللحق و لوعی نفعک و لا تحق غیرک
 الا انفسهم عند عجبک لانهیة للفضیلة و له حد للحکما و لا توقف للدعای
 و انت بغیرتک می مینه او با بهامی غیرک و مسمی مجال مدی بحسبی مدعا

حبیبی الفاضل

تقلبك في شؤون الكمال يشرح الصدور الحرجة من حسرتها ، وخوضك في فنون الآداب يريح قلوباً علقت بك آمالها . وليس بعد الإرهاص إلا الإعجاز^(١) ولك يومئذ التحدثى . ولقد تمثلت اللطيفة الموسوية في مصر كرّةً أخرى ، وهذا توفيق من الله تعالى . فاشدد أزرها ، وأبرم بما أوتيت من الكياسة والحدق أمرها ، حتى تكون كلمة الحق هي العليا . ولا تكن كالذين غرتهم أنفسهم بباطل أهوائها ، وساقطهم الظنون إلى مهواة شقاءها ، وحسبوا أنهم يحسنون صنعا ، ويصلحون أمراً . وكُنْ عوناً للحق ولو على نفسك ، ولا تقف في سيرك إلى الفضائل عند عجبك . لا نهاية للفضيلة ، ولا حدٌ للكمال ، ولا موقف للعرفان ، وأنت بغريزتك السامية أولى بها من غيرك ، والسلام ما

صالح الدين الحسيني الأفعالي

(١) الإرهاص : الخارق للعادة الذي يظهر من النبي قبل أن يبعث .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله الواحد العدل ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي القرشي الأبطحي التهامي المكي المدني وآله الطيبين الطاهرين . وبعد فهذا الحديث — حديث عيسى بن هشام — وإن كان في نفسه موضوعاً على نسق التخييل والتصوير ، فهو حقيقة متبرجة في ثوب خيال ، لا أنه خيال مسبوك في قالب حقيقة ، حاولنا أن نشرح به أخلاق أهل العصر وأطوارهم ، وأن نصرف ما عليه الناس في مختلف طبقاتهم من النقائص التي يتعين اجتنابها ، والفضائل التي يجب التزامها .

وهذه الطبعة الرابعة ، بعد نفاذ الطبعة الثالثة ، تعهدناها أيضاً بما تقتضيه معاودة النظر من إصلاح مواضع النقص والإهمال ، ومداركة ما لا يخلو منه كل عمل من شائبة السهو والإغفال ، ومن الله التوفيق لكل حال ، والتسديد في كل مقال وفعل .

محمد المولى يحيى

العبرة

حدثنا عيسى بن هشام - قال : رأيت في المنام ، كأنني في صحراء « الإمام » ، أمشي بين القبور والرجام ^(١) ، في ليلة زهراء قمرء ، يستر بياضها نجوم الخضراء ^(٢) ، فيكاد في سنا نورها ينظم الدرّ ثاقبه ، ويرقب الذرّ راقبه . وكنت أحدث نفسي بين تلك القبور . وفوق هاتيك الصخور ، بغرور الإنسان وكبره ، وشموخه بمجده ونفخه ، وإغراقه في دعواه ، وإسرافه في هواه ، واستعظامه لنفسه ، ونسيانه لرمسه ؛ فقد شتمخ للغرور بأنفه ، حتى رام أن يثقب به الفلك ، استكباراً لما جمع ، واستعلاء بما ملأ . فأرغمه الموت فسدّ بذلك الأنف شقاً في لحدّه ، بعد أن وارى تحت صفائح صحائف عزه ومجده ^(٣) . وما زلت أسير وأتفكر ، وأجول وأتدبر ، حتى تذكرت في خطأي فوق رمال الصحراء ، قول الشاعر الحكيم أبي العلاء :

خَفَّفَ الوطء ما أَظُنُّ أديمَ الـ أرض إلا من هذه الأجسادِ

وقبيحُ بنا وإن قدُمُ المهدُ هوانُ الآباءِ والأجدادِ

سرُّ إن اسطعت في الهواء رويداً لا احتمالاً على رفات العبادِ

فقرعت سن الندم ، وخففت وطء القدم ؛ وإن في دهماء أولئك الأموات ، وغمار تلك الرمم والرفات ، لمباسم طالما حوّل العاشق قبلته لقبيلتها ، وباع عذوبة الكوثر بعذوبتها . قد امتزجت بغبار الغبراء واختلطت ثناياها بالخصى والخصباء ^(٤) .

وتذكرت أن تلك الحدود التي كان يغار منها الورد فيسكي بدموع الندى ، ويشتمل الفؤاد منها بنار الجوى ، ويقف الخال منها موقف الخليل من النيران ، أو ابن ماء السماء في شقائق النعمان ^(٥) ، ويترقق فيها ماء الحياء وماء الشباب . قد طوى الدهر حسنها طى الكتاب . وصارت بحكم القضاء ، أديماً لوجه القضاء .

(١) الرجام : جمع رجم وهو القبر (٢) الخضراء : السماء (٣) الصفائح : حجارة قبور .

(٤) الخصباء : صغار الحجارة واحدها حصبة (٥) ابن ماء السماء : هو ابن المنذر وكان أسود ،

وشقائق النعمان : زهر أحمر .

وَأَنَّ تِلْكَ الْعَيُونُ الَّتِي صَادَتْ بِأَهْدَابِهَا الْمُلُوكَ الصَّيْدَ^(١) . فَكَانُوا رُعَاةَ الْأُمِّ رَعَايَا
الْغَيْدِ . وَسَحَرَتْ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ . وَوَقَفَتْ مَوْقِفَ الْإِسْتِكَانَةِ رَبَّ الْجَلَالِ
وَالْجَبَرُوتِ . يَلْتَمِسُ — وَالتَّاجُ فِي يَمِينِهِ ، وَعَرَقَ الْحَيَاءُ فَوْقَ جَبِينِهِ — مِنْ خِلَالِ لِحَظَاتِهَا
قَبُولًا . كَسَائِلُ يَمِثُّ لَالْتِمَاسِ الْإِحْسَانِ كَشْكُولًا . قَدْ أُمِسَتْ تَرَابًا تَحْتَ الرَّمْسِ^(٢) . كَأَنَّ
لَمْ تَفْتِنَ بِالْأُمْسِ .

وَأَنَّ ذَلِكَ الْفَاحِمُ الْأَثِيثُ مِنَ الشَّعْرِ^(٣) ، الْخَاطِفَ بِهَرِيقِهِ سَوَادَ الْقَلْبِ وَالْبَصَرَ ، قَدْ
حَصَدَتْهُ مِنْ مَنَابِقِهِ يَدُ الزَّمَنِ ، فَتَسَجَّ الْأَجْلُ مِنْهُ ثُوبُ الْكُفَنِ .

وَأَنَّ تِلْكَ النُّهُودُ الَّتِي كَانَتْهَا حِقَاقُ مِنْ لَجِينِ تَزِينَتِ بِحَبِّ مِنَ الْمَرْجَانِ^(٤) أَوْ كُرَاتٍ
مِنْ جَلِيدٍ بَثَّقَ فِيهَا زَهْرٌ مِنَ الرِّمَانِ . قَدْ أَصْبَحَتْ كَالْمِخْلَافَةِ عَلَى الصَّدْرِ ، تَحْمِلُ الزَّادَ
لِدُرُودِ الْقَبْرِ .

كَمْ صَائِنٍ عَنْ قُبُلَةٍ خَدَّهٗ سُلِّطَتِ الْأَرْضُ عَلَى خَدِّهِ
وَحَامِلٍ ثِقْلَ الثَّرَى جِيدُهُ وَكَانَ يَشْكُو الضَّعْفَ مِنْ عِقْدِهِ
وَأَنَّ تِلْكَ الرِّفَاتُ وَالْعِظَامُ ، مِنْ بَقَايَا الْمُلُوكِ الْعِظَامُ ، الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَصْغِرُونَ الْأَرْضَ
دَارًا ، وَيَحَاوِلُونَ عِنْدَ النُّجُومِ جَوَارًا . وَتِلْكَ الضُّلُوعُ الَّتِي انْحَنَتْ عَلَى الْبَطْشِ وَالْحِلْمِ ،
وَالشَّفَاهُ الَّتِي طَالَمَا لَفِظَتْ أَمْرَ الْحَرْبِ وَالسَّلْمِ . وَتِلْكَ الْأَنَامِلُ الَّتِي كَانَتْ تَبْرِئُ الْقَلَمَ لِلْكِتَابِ ،
وَتَبْرِئُ السَّيْفِ الرِّقَابَ . وَتِلْكَ الْوُجُوهُ وَالرُّءُوسُ ، الَّتِي اسْتَعْبَدَتْ الْأَبْدَانُ وَالنَّفُوسُ ،
وَوُصِفَتْ تَارَةً بِالْبُدُورِ وَتَارَةً بِالشَّمُوسِ ، قَدْ تَسَاوَى الرَّئِيسُ فِيهَا بِالْمُرُؤُسِ . فَلَا تَفْرِيقَ
الْيَوْمَ وَلَا تَمْيِيزَ ، بَيْنَ الذَّلِيلِ مِنْهَا وَالْعَزِيزِ .

هُوَ الْمَوْتُ مُثَرٌّ عِنْدَهُ مِثْلُ مُقْتَرٍ وَقَاصِدُ نَهْجٍ مِثْلُ آخِرٍ نَاكِبٍ
وَدَرْعُ الْفَتَى فِي حِكْمِهِ دَرْعٌ غَادَةٌ وَأَبْيَاتُ كَسْرَى مِنْ بَيُوتِ الْعِنَاكِبِ
فَرُجْلٌ فِي غِبْرَاءٍ وَالْخَطْبُ فَارَسُ^(٥) وَمَا زَالَ فِي الْأَهْلِينَ أَشْرَفُ رَاكِبٍ

(١) الصيد : جمع أصيد وهو الملك المتكبر الزاهي (٢) الرمس : القبر
(٣) شعر أثيث : كثير عظيم (٤) اللجين : الفضة (٥) فارس : بمعنى مفترس

وما النعشُ إلا كالسفينه رامياً بغيرَ قاهُ في بحر الردى المتراكبِ
وبينا أنا في هذه المواضع والعبر ، وتلك الخواطر والفكر ، أتأمل في عجائب الحدّثان ،
وأعجب من تقلب الأزمان ، مستغرقاً في بدائع المقدور ، مستهدياً للبحث في أسرار البعث
واللشور ، إذا برجةً عنيفة من خلفي ، كادت تقضى بحتفي ، فالتفتُ التفاتة الخائف المذعور ،
فرأيت قبراً انشق من تلك القبور ، وقد خرج منه رجلٌ طويل القامة ، عظيم الهامة ، عليه
بهاء الهابة والجلالة ، ورؤاه^(١) الشرف والنبالة . فصعقتُ من هول الوهل^(٢) والوجل ،
صعقة موسى يوم دُكّ الجبل . ولما أفقتُ من غشيتي ، وانتبهت من دهشتي ، أخذت
أسرع في مشيتي ، فسمعتُه يناديني ، وأبصرته يدانيني ، فوفقت امتثالاً لأمره ، واتقاء لشره .
ثم دار الحديث بيننا وجري ، على نحو ما تسمع وترى ، بالتركية تارة والعربية أخرى :

(الدفين) — ما اسمك أيها الرجل ، وما عملك ، وما الذي جاء بك ؟

فقلت في نفسي : حقاً إن الرجل لقريب العهد بسؤال الماكين ، فهو يسأل على أسلوبهما ،
فاللهم أنقذني من الضيق ، وأوسع لي في الطريق ، لأخلص من مناقشة الحساب ، وأكتفي
شر هذا العذاب . ثم التفتُ إليه فأجبتُه :

(عيسى بن هشام) — اسمي عيسى بن هشام ، وعملی صناعة الأقلام ، وجئتُ هنا
لأعتبر بزيارة المقابر ، فهي عندي أوعظ من خطب المنابر .

(الدفين) — وأين دواتك يا معلم عيسى ودفتك ؟

(عيسى بن هشام) — أنا لست من كتّاب الحساب والديوان . ولكني من كتاب
الإنشاء والبيان .

(الدفين) — لا بأس بك ، فاذهب أيها السكاتب المنشئ ، فاطلب لي ثيابي وليأتوني
بفرسي « دحمان » .

(عيسى بن هشام) — وأين يا سيدي بيتكم فإني لا أعرفه ؟

(الدفين) مشمئزاً — قل لي بالله من أى الأقطار أنت ؟ فإنه يظهر لي أنك لست من أهل مصر، إذ ليس في القطر كله من أحد يجهل بيت أحمد باشا المنيكلي ناظر الجهادية المصرية . (عيسى بن هشام) — اعلم أيها الباشا أنني رجل من صميم أهل مصر، ولم أجعل بيتك إلا لأن البيوت في مصر أصبحت لا تعرف بأسماء أصحابها، بل بأسماء شوارعها وأزقتها وأرقاعها، فإذا تفضلت وأوضحت لي شارع بيتكم وزقاقه ورقمه انطلقت إليه وأتيك بما تطلبه .

(الباشا) مغضباً — ما أراك أيها الكاتب إلا أن بعقلك دخلاً . فتي كان للبيوت أرقام تُعرف بها ! وهل هي « إفادات أحكام » أو « عساكر نظام » ؟ والأولى أن تناولني رداءك أستتر به وتصاحبني حتى أصل إلى بيتي . قال عيسى بن هشام : فنزلت له عن ردائي^(١) — وقد كان المعهود أن سلب المارة لا يكون إلا من قطاع الطريق، فإذا هو أيضاً من سكان القبور . ثم ارتداه مستنكفاً متردداً وهو يقول :

(الباشا) — للضرورة أحكام ، وقد لبسنا أدنى من هذا الرداء في مصاحبتنا لأفندينا المرحوم إبراهيم باشا على طريقة التنكر و « التبديل » في الليالي التي كان يقضيها في البلد ليستطلع بنفسه أحوال الرعية . ولكن كيف العمل وكيف يتسنى الدخول ؟ (عيسى بن هشام) — ماذا تريد ؟

(الباشا) — أنسيت أننا في الثلث الأخير من الليل وليس من يعرفني بهذا الرداء على أبواب مصر، ولم يكن معنى كلمة « سرّ الليل » فكيف تُفتح لنا الأبواب ؟ (عيسى بن هشام) — كما أنك يا سيدي لم تعرف أرقام البيوت ولم تسمع بها في حياتك فأنما لا أعرف « سرّ الليل » ولم أسمع به .

(الباشا) مستهزئاً ضاحكاً — ألم أقل لك إنك غريب الديار، ألم تعلم أن « سرّ الليل » كلمة تصدر من القلعة في كل ليلة إلى « الضابط » وإلى جميع « القره قولات » والأبواب،

فلا يجيزون لأحد مشى الليل إلا إذا كان حافظاً لهذه الكلمة يلقيها في أذن البواب فيفتح له ، وهى تعطى لمن يطلبها من الحكومة سرّاً لقضاء أشغاله بالليل ، وتتغير في كل ليلة ، فليلة تكون كلمة « عدس » ، وليلة تكون « خضار » ، وليلة تكون « حمام » ، وليلة تكون « فراخ » ، وهلم جرا .

(عيسى بن هشام) - يظهر لى من كلامك هذا أنك لست أنت من أبناء مصر . فما علمنا أن هذه الأنفاظ تطلق فيها على غير الأطعمة ، ولم نسمع أنها تدل على الإجازة للناس بالسير فى ليالهم . على أن الفجر قد دنا ولم يبق بنا من حاجة لهذه الكلمات ولا غيرها .

(الباشا) - الأمر فى ذلك موكل إليك .

قال عيسى بن هشام : فسرنا فى طريقنا وأخذ الباشا يزيدنى تعريفاً بنفسه ، ويقص على من أبناء الحروب وأخبار الوقائع التى شاهدها بعينه وسمعا بأذنه ، ويذكر لى ما شاء من مآثر « محمد على » وشجاعة « إبراهيم » .

ومازلنا على تلك الحال حتى وصلنا فى ضوء النهار إلى ساحة القلعة ، فوقف وقفه المستكن الخاشع يقرأ سورة الفاتحة لضريح محمد على ويخاطب القلعة بقوله فى بلاغة تركيته :

« إيه لك يا مصدر النعم ، ومصرع الجبابة من عتاة الممالك ، وبابيت الملوك وحصن المملكة ، ومنبع العز ومهبط القوة ، ومُرْتَفَعُ المجد وموئل المستغيث ، وحجى المحتمى وكنز الرغائب ومنتهى المطالب ، ومشوى البطل الشهم ومقبر الملك الهمام . أيها الحصن كم فككت بالكرم عانياً ، وقيدت بالإحسان عافياً ، وكم أرغمت أنوفاً ، وسللت سيموفاً . وجمعت بين البأس والندى ، وداورت بين الحياة والردى . »

قال عيسى بن هشام : ثم التفت الباشا إلى وقال : أسرِعْ بنا نحو البيت لألبس ثيابى وأتقلد حسامى وأركب جوادى ، ثم أعود إلى القلعة فأثم أذبال ولى النعم الداورى الأعظم .

الشرطة أو البوليس

ولما غادرنا ساحة القلعة انحدرنا في الطريق ، و بينما نحن نسير إذ تعرض لنا مسكار يسوق حماره ، وقد راضه الخبيثُ على التعرض وسد الطريق على المارة ، فكلمنا سرنا وجدنا الحمار في وجهتنا والمسكارى ينبج بصوت قد بُحَّ حتى أمسك بذيل صاحبي يقول له : (المسكارى للبasha) — اركب يا أفندى فقد عطلتنى وأنا أسير وراءك منذ ساعتين .

(البasha للمسكارى) — كيف تدعونى أيها الشقُّ إلى ركوب الحمار وما رغبتُ فيه قط وما دعوتك في طريقى ! وكيف لمثلنى أن يركب الحمار الناهق ، مكان الجواد السابق !

(المسكارى) — وكيف تنكر إشارة يدك التى دعوتنى بها وأنت تتكلم مع صاحبك في طريق « الإمام » ، وقد دُعيتُ مراراً من السائرين فلم أقبل منهم ، ولم ألتفت إليهم ، لارتباطى معك بهذه الإشارة ، فاركب معى أو أعطنى أجرى .

(البasha) وهو يدفع المسكارى بيده — اذهب عنا أيها السففيه ، فلو كان سلاحى معى لقتلتك .

(المسكارى) متسافهاً في القول — كيف تجسر على هذا الكلام ! فإمّا أن تعطبنى أجرى ، وإمّا أن تذهب معى إلى « القسم » ، وسترى هناك ما يعاقبونك به على تهديك إياى بالقتل .

(البasha لعيسى بن هشام) — إني لأعجب من صبرك على هذا الفلاح السففيه الذى استرسل معنا في سفاهته ووقاحته ، فهلم فاضربه بالنيابة عنى حتى تريجه من عيشته وتريحنا منه .

(عيسى بن هشام) — كيف يكون ذلك وأين القانون وأين الحكم ؟

(البasha) — مالى أراك قد شقَّ الخوفُ قلبك ، وقطعَ الهلعُ أنفاسك ، أيعتريك الخوف وأنت معى ، إن هذا المعجيبُ منك !

(المسكاري) مستهيناً — العفو! العفو! مَنْ أَنْتَ وَمَنْ غَيْرُكَ ، ونحن في زمن الحرية

لا فرق بين الصغير والكبير ، ولا تفاوت بين المسكاري وبين الأمير .

(الباشا عيسى بن هشام) — ويحك هلم فاضربه أو دعني أقتله .

(عيسى بن هشام) — أنا لا أضرب أحداً وأنت لا تقتل أحداً ما دمت معي . وأعلم

أنه لا تصدر منا « مخالفة » أو « جنحة » أو « جناية » إلا والعقاب من ورائها ، فلا تعجب من طول صبري واحتمالي ، وأقول لك ما قاله الخضر لموسى عليه السلام : « إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ، وَكَيْفَ تُصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا » ، والطريقة للتلخص من سفاهة هذا السفیه أن أعطيه شيئاً من الدراهم فيتحول عنا إلى سوانا ، وأنا أسأل الله أن يبلغنا بيتك بالسلامة .

(الباشا) — لا تعط هذا الكلب النابح درهماً واحداً وقد أمرتك أن تضربه ، فإن لم تفعل فأنا أنزل إلى ضربه وتأديبه ، والفلاح لا يصلح جلده إلا بجلده .

قال عيسى بن هشام : ثم أمسك الباشا بعنق المسكاري وأوسعاه ضرباً ، وأخذ المسكاري يستغيث وينادي : يا « بوليس » يا « بوليس » ، وأنا أجتهد في إنقاذه من مخالبه ، وأستعيد بالله من شر هذا اليوم ، وأقول للباشا : ليس هذا مما يحمد عقباه ، فأفّق الله أيها الأمير في عباد الله ، فما أتممت هذا القول حتى رأيته اشتد به الغضب وتغلّبت عليه الحدة فتغير وجهه ، وانقلبت حماليقه ، وتقلصت شفقه واتسع منخره وصاقت جبهته ، فخفت أن يحمله جنون الغضب على البطش بي مع المسكاري فتداركت أمري وقلت له : مثلك أدام الله عزك لا يتنزل لمثل هذا الفعل ، فأنت أرفع قدراً من أن تمس بيدك الشريفة ، مثل هذه الجيفة . فسكنت بذلك من حدته ، وعمدت إلى المسكاري فوضعت في يده دُرِيَهَمَاتٍ على غير علم من الباشا وطلبت إليه أن ينصرف عنا ، فما ازداد اللثيم بذلك إلا استغاثه بالشرطة واستنجداً بالبوليس .

(الباشا عيسى بن هشام) — ألم أقل لك أن الفلاح لا يصلحه إلا الضرب ! ألم تعلم أن غاية ما ينتهي إليه أمره في رفع الألم عنه أن يعلو صياحه استغاثةً بالمشايخ والأولياء !

ولكن قل لى بالله : هل « بوليس » هذا الذى يناديه ويستغيث به ولىٌ جديد ؟
 (عيسى بن هشام) — نعم إن هذا البوليس هو ولىُّ الأمر احتلت فيه القوة الحاكمة .

(الباشا) — لست أفرقه هذا المعنى ، فأوضح لى حقيقة هذا البوليس .

(عيسى بن هشام) — هو « القواس » الذى تعرفه .

(الباشا) — وأين هذا « القواس » الذى لا يسمع النداء فإنى أرغب فى حضوره
 ليتلقى أمرى فى هذا الشق .

(المسكارى) — يا بوليس ! يا بوليس !

(الباشا لعيسى بن هشام) — هلم لمساعدته فى نداء القواس .

قال عيسى بن هشام : فقلت فى نفسى كيف أنادى البوليس ، وأنا أحمد الله على سكوته
 وسكونه ، وهو بمقربة منا لا يكثرث بنداء المستغيث . ثم التفتُ إلى الباشا وقلت له : إن
 البوليس هو الذى تراه أمامنا وليس يفيد فيه الآن صياحٌ أو نداء ، فإنه مشغول ببائع
 الفاكهة كما ترى . ولما لمح المسكارى البوليس أمامه أسرع إليه وتبعهُ مَنْ تَجَمَّع حولنا
 من النظارة ، فوجدوه واقفاً وفى يده منديل أحمر قد امتلأ بأصناف متنوعة مما جمعه فى
 صباحه من باعة الأسواق فى محافظته على « النظام » ، وهو لأمٍ بصاحب الدكان يأمره
 أن يضع فى داخلها ما عَرَضَهُ فى خارجها من « عيدان القصب » ، وفى يده عود منها
 يهدده به ويهزه فى وجهه هَزَّةَ الرمح ، ثم هو يضاحك من جهة أخرى طفلاً على كتف
 امرأة ويناغيه ، حتى إذا أقبلنا نحوه أقبل علينا والمنديل فى يده « وعود القصب »
 فى الأخرى .

(البوليس للجمع) — ما هذا الصياح فى الصباح ، وما هذا النداء وما هذا العناء ،

كأن كل واحد من الأهالى يجب أن يكون له واحد من البوليس خاص بخدمته !

(المسكارى) — أغثنى « يا سعادة الجاويش » فإن هذا الرجل ضربنى ولم يعطنى

أجرتى ، وأنت تعرفنى فى هذا « الموقف » وتعرف أنتى لست بمن يتشاجر أو يتخاصم .

(الباشا) — خذ أيها القواس هذا السفينة وضعه في السجن حتى يأتيك أمرى فيه .

(البوليس للمكارى) — من أين ركب معك هذا الرجل « يا مُرَبِّي » ؟

(المكارى) — ركب معى من جهة « الإمام » .

(الباشا للبوليس) — ما هذا الإبطاء فى تنفيذ أمرى ! أسرع به إلى السجن .

(البوليس) ضاحكاً هازئاً — أظنك أيها الرجل من « مجازيب الحضرة » فى « الإمام »

هلمّ معى إلى القسم فإن هيمتك تنبئ عن إفلاسك وعجزك عن دفع الأجرة .

قال عيسى بن هشام : وجذب الشرطى صاحبي من ذراعه فكاد يُغَمِّ عليه من الدهشة

فلم يدر ما يصنع . وأودع البوليس ما كان فى يديه من الفاكهة وغيرها عند الرجل الذى

أودع المكارى حماره عنده ، وسار صاحبي مسحوباً بذراع الشرطى ، والمكارى خلفهما ،

والجمع على أثرهم إلى « القسم » . فلما وصلوا إليه وصعدوا السلم بدأ المكارى يصرخ ويصيح ،

فقابلته أحد عساكر « المراسلة » فضر به ليسكته لأن « حضرة المعاون » غريق فى نومه ،

فدخلنا جميعاً فى حجرة « الصُول » لضبط الواقعة ، فوجدناه يأكل والقلم فى أذنه وقد نزع

« طربوشه » وخلع نعليه وحلّ أزرار ثيابه ، وبجانبه اثنان من الفلاحين ، أظنهما من أقربائه ،

يشاهدان ما يتمتع به من لذة الأمر والنهى وسعة سلطانه على الكبير والصغير فى عاصمة

القطر وقاعدة المُلُك ، وما فى قدرته من حبس أى شخص كأنثاً من كان وشهادته عليه بما

يجرى فى هواه . فطرَدنا جميعاً من الحجرة حتى ينتهى من طعامه ، فخرجنا ننتظر . وأراد

الباشا أن يستند على الجدار من شدة ما ألمَّ به من الحزن فخانتته يده فسقط فوق جنديّ

كان يكنس الأرض هناك ، فأخذ الجنديّ فى السب والشتم ودخل إلى حجرة « الصُول »

هاجماً فقال له : إن المتهم الذى يشتكى منه المكارى تعدّى علىّ « فى أثناء تأدية وظيفتى »

فضر بنى بكل جسمه . فأمر « الصُول » باحضاره ونادى كاتبه العسكرى فطلب منه أن

يجرر « محضرين » محضر مخالفة ومحضر جنحة ، وأُملى عليه كلاماً مصطلحاً عليه لم أفهم

منه حرفاً . وبعد أن شهد « البوليس » الذى جئنا معه فى محضر المخالفة بما ينفع للمكارى

فى تأييد دعواه ، وشهد « الصُول » نفسه فى محضر الجنحة بأنه شاهد المتهم يعتدى على أحد

عساكر القسم في أثناء تأدية وظيفته ، ختم الحضرين وأمر بالمتهم أن يؤخذ إلى « خشبة المقاس » وتحرير « ورقة التشبيه » ، فجاء العسكري صاحب الدعوى وأخذ يمين صاحبه وأجرى ذلك عليه بنفسه وأذاقه أنواعاً من الأذى في مقاسه . كل هذا والباشا كالمغشى عليه من الدهشة والذهول ، حتى إذا أفاق من غشيته التفت إلى يقول :

(الباشا) — أنا لا أتصور في هذه الحالة التي أنا عليها إلا أن يكون اليوم يوم حشر ، أو أن أكون حليماً في المنام ، أو أن يكون الداوري الأعظم غضب على غضباً شديداً فأمر بإهانتى على هذه الصورة الشنيعة .

(عيسى بن هشام) لا بد لك من التسليم والاحتمال على كل حال حتى نخلص من هذه النازلة بسلام .

قال عيسى بن هشام : ولما وقفنا أمام الكتاب لتحرير « ورقة التشبيه » سأل الباشا : هل له من ضامن يضمنه ، فقد مت نفسي لضمائنه فلم يقبلوا مني إلا بتصديق « شيخ الحارة » فخرت في أمري ، ومن أين أجد « شيخ الحارة » في الحال ؟ فألقى بعض العساكر في أذني : أن اخرج فإنك تجد « شيخ الحارة » بالباب فأعطه عشرة قروش للتصديق على الضمانة . ولحقني ذلك العسكري فدأني على شيخ الحارة وتوسط بيننا في منالة أجرة التصديق . ثم اشتغل عني بمشاهدة العساكر في ضرب أرباب القضايا الذين علا صياحهم وعويلهم ليخرسوهم خشية أن يوقظوا معاون من رقاذه ، ثم ما لبثوا أن رأيتهم قد امتنعوا عن الضرب في أقل من لمح البصر وتفرقوا مهرولين كأن نازلاً نزل عليهم من السماء ، ووجدت من كان من بينهم أشد إيذاء لعباد الله وأعظم حرصاً على راحة معاون في منامه قد هجم على باب الحجرة فدفعه بكل قواه ففتحه وأخذ يهز السرير هزاً عنيفاً ، فاستيقظ معاون فرعاً وعلم أن « الفتش » قد شوهد داخلاً من باب القسم ، فأسرع إلى ثيابه فلبسها في لحظة وهرب إلى استقباله ، فلما رآه وقف « وقفة النظام » . ولكن كان من نكد طالعه أنه ذهل عند لبس « الطربوش » فلم يجعل زرّه جهة اليمين بل تركه فوق الجهة ، وكان الشعر قد تجدد

في عارضيه لأنه لم يتمكن من حلقه في يومه ، فأخذ المفتش عليه ذلك ودخل إلى الحجرة مُغضباً فاشتغل بكتابة تقرير لمحاكمة المعاون على مخالفته في الزّى « للأوامر المستديمة » .
ولما رأى الباشا سكون الضرب والصياح مرة واحدة ، وما تولى العساكر من الخوف والاضطراب ، وما شاهده من حركات المعاون ، سألني عن شأن هذا الداخل الذي أورث ذلك الانقلاب ، فأعلمته بأنه « المفتش » جاء إلى « القسم » للتفتيش والتنقيب في « الأحوال » والنظر في شكاوى الشاكين وتطبيق أعمال العمال على ما يقضى به القانون والنظام . فقال : إذن لندخل إليه لنعرض عليه ما أصابنا من الإهانة . فدخلنا فوقفنا أمامه فوجدناه يكتب في تقريره ، فالتفت إلينا وسألنا عن أمرنا ، ولما بدأنا بذكر القصة أمر أحد العساكر بإخراجنا من حضرته ، ثم رأيناه قد وضع التقرير في جيبه بعد كتابته ونزل مسرعاً لم يلتفت في التفتيش والتنقيب غير زى المعاون . ولما انصرف عاد الضرب والصياح والضجيج في أنحاء القسم إلى أشد ما كان عليه قبل حضوره . وصاح أحد المضروبين في شدة ألمه بأنه لا بد أن يشتكى عمال القسم إلى « النيابة » فدخل أحد العساكر إلى المعاون ليخبره بما يقول الرجل ، فوضعتُ أذني عند الباب فسمعت المعاون يحادث نفسه بقوله : « ما هذه الخدمة وما هذا الذل ؟ ولعنة الله على ضرورة الحاجة في المعاش . ومع ذلك فالحمد لله إذ كان هذا المفتش من الأجانب ولم يكن من « أولاد العرب » فهو خير منهم لأن عجزه في فهم اللغة وجهله بالعمل جعله يقتصر في التفتيش على طربوشى ولحيتي ، ولو كان من « أولاد العرب » لأطلع على الاختلال الواقع في القضايا وما يرتكبه عمال القسم من مخالفة « الأصول » .

ثم التفت إلى العسكري وسمع منه ما ينقله إليّ من قول ذلك الرجل الذي عزم على الشكاية إلى « النيابة » فازداد همه واشتد غضبه فأمر بحبس المتهمين جميعاً أربعاً وعشرين ساعة والباشا داخل فيهم ، فذهبت إلى المعاون وكلمته فيه ليطلقه بعد ضمانتي له ، فأبى ذلك وقال لي بوجه عبوس : الأولي أن يبقى في القسم إلى الغد حتى يُكشف على « السوابق » ثم يرسل من هنا إلى النيابة . فدخل الباشا الحبس مع الداخلين .

النِيبَة

قال عيسى بن هشام : ولما تركت صاحبي في حبسه وذهبت إلى دارى بت طول ليلتي في هم وأرق . وقضيت رقادى في اضطراب وقلق ، لما أصاب الرجل من ضربات الدهر المتتالية ، وهو غريق في دهشته وحيرته لا يدرك مضي الزمن ولا يدري ما الحال ، ولا يعلم بتغيير الأمور وما أحدثه الدهر بعد عهده وزوال دولته من تبدل الأحكام وانقلاب الدول . وكنت هممت أن أكشفه بشرح الأحوال وتفصيل الأمور عند أول مصاحبتي له لولا مادهمنا به القضاء المحتوم فأوقعنا فيما ألم بنا . ثم فكرت بعد ذلك فكان من حسن التدبير وسداد الرأي عندي أن يبق الرجل جاهلاً بالأمر حتى ينتهى من خطبه ويكون جهله بتغيير الأحوال قائماً بعذره في التخاص من محاكمته . ثم عقدت العزيمة على أنى لا أفارق صحبته بعد ذلك حتى أرى ما لم ير ، وأسمع ما لم يسمع ، وأشرح له ما خفي عليه ونمض من تاريخ العصر الحاضر ، لأطلع على ما يكون من رأيه فيه عند مقابلته بالعصر الماضي ، ولأعلم أى العهدين أجلّ قدراً وأعظم نفعاً وما الفضل الذى يكون لأحدهما على الآخر . فبكرت إلى القسم في اليوم الثانى وحملت معى ما يليق بصاحبي من الثياب ليرتديها عند خروجه من حبسه ، فوجدت العسكرى يستعد به للذهاب إلى قلم « السوابق » في دار المحافظة ، فلما بصرتى نادانى بقوله :

(الباشا) — ما هذه الخطوب والملمات ، قد كنت أظن أن ما وقع لى أمس كان لسخط ولى نعمتنا الداورى الأعظم وغضبه على عهده بمكيدة كادها لى أعدائى أو فرية افتراها حسادى ، فلذلك صبرت لحكم الضرورة ، وامتمت على تلك الصورة . حتى أتمكن من التشرف بالأعتاب ، والمثول بين يدى مالك الرقاب ، فأزيل الشبهة وأنفى الريبة وأبرأ له ممارماني به الساعى والواشى ، وأجلى له حقيقة عبوديتى وإخلاصى فيضاعف على رضاه لحسن ما قمت به من الطاعة فى احتمال هذا الهوان .

طال منى تحمل خلت أنى قابض من أذاته فوق جمر

ثم إنى أعمد بعد ذلك إلى إفشاء العقاب ، عقاب القتل والصاب في هؤلاء الأذنياء السفهاء والأشقياء والأغبياء ، جزاء ما اجترواوا عليهم في معاملتي واقترفوه من جهل منزلي ، ولكني سمعت في الحبس — وياسوء ما سمعت — وعلمت — وياشر ما علمت — أن الدول دالت والأحوال حالت . وأنكم أصبحتم في زمان غير ذلك الزمان ، وفي حال من الفوضى يصح فيها قول ذلك المسكاري : « إنه هو والباشا في المنزلة سواء » وتلك التي :

تُصمُّ السميع وتعمى البصير ويُسألُ من مثلها العافية

فألههم عفوك وصفحك ، هل قامت القيامة وحن الحشر ، فانطوت المراتب وانحلت الرياضات ، وتساوى العزيز بالذليل ، والكبير بالصغير والعظيم بالحقير ، والعبد بالمولى ، ولم يبق لقرشي على حبشي فضل ، ولا لأمير منا على مصري أمر . ذلك ما لا يكون ولا تحتمله الظنون . ثم اعلم أيها الرجل أن ذنب أولئك السفهاء فيما جنوه على لا يهد في جانب ذنبك عندي إلا كالخردلة من الصخر ، والقطرة من البحر ، لكتمانك على الأمر ، حتى دخلت بي بلداً هذا حاله وذاك شأنه ، وأعوذ بالله منك ومن شياطين الجن .

(عيسى بن هشام) — إنما أقول لك أيها الأمير أيضاً ما قاله موسى للخضر عليهما السلام : « لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمرى عسراً » ولقد نزل بي من الخوف والذهول عند انتشارك من القبر ما أورثني التبلد والتحير ، ومنعني عن تبصرتك بالواقع وتنبيهك إلى ما تغيرت به الحال من بعد عهدك ، وما كدت أنتبه إلى تعريفك بها حتى دُهيناً بذلك المسكاري ودُهيناً بتلك الحادثة فلا ذنب لي فيما أتيت ، والعذر مقبول لديك ، فاصبر على ما تلاقيه ، واحتمل ما أنت فيه . وتقبل القضاء بوجه الرضاء ، ولا تأس على مافات . لتكفر عن السيئات .

(المسكاري للباشا) — هلم إلى « السوابق » .

(الباشا) — سبحان العزيز القادر ، أترعى قد زال عني يؤمى وانقشع نحسى ورجع إلى عزى فجاءوني بموكبي وخيلي .

(عيسى بن هشام) — ليس المقصود « بالسوابق » تلك الجياد الصافيات ، والعقاق
الصاهلات ، وإنما هو ديوان تَقْيِيدٍ فِيهِ سَحْنَةُ الْمُتَهَمِ وَسِيَّاهُ . وَيَكْشِفُ فِيهِ عَمَّا جَنَّتُهُ يَدَاهُ .
(العسكري للبasha) وهو يسحبُهُ — لَا تَطُلُ فِي الْكَلَامِ وَامْشِ مَعِيَ سَاكِنًا سَاكِنًا
(البasha) وهو يمتنع — مَا الْحِيلَةُ فِي الْقَضَاءِ ؟ وَمَا الْعَمَلُ فِي الْمَقْدُورِ ، وَكَيْفَ الْخُلَاصُ
وَأَيْنَ النِّجَاحُ ؟ وَمَنْ لِي بِالْمَوْتِ ثَانِيَةً لِيَرْدَنِي إِلَى رَاحَةِ الْقَبْرِ ؟

(عيسى بن هشام) وهو يتضرع — أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِدَفْنِ الْقَلْعَةِ ، وَوَقَعَ سَيُوفُكَ
فِي الْمَمْعَةِ ، إِلَّا مَا قَبِلْتَ نَصِيحَتِي وَعَمِلْتَ بِمَشُورَتِي ، فَلَا تَعَارِضْ وَلَا تَعَانِذْ فَإِنَّ الْاِمْتِنَاعَ
لَا يَفِيدُ وَلَا يَزِيدُنَا فِي مَلَهْتِنَا إِلَّا شِدَّةً . وَالْعَقْلُ يَرْشِدُنَا أَنْ نَسْلَمَ لِلْأَقْدَارِ حَيْثُ لَا عَمَلَ ،
وَأَنْ نَلْبَسَ لِكُلِّ حَالَةٍ لِبُوسَهَا . إِمَّا نَعِيمُهَا وَإِمَّا بُؤْسَهَا .
(البasha) مِمْتَثَلًا — اللَّهُمَّ لَا رَأْيَ مَعَ الْقَضَاءِ .

قال عيسى بن هشام : وَسِرْنَا مَعَ الْعَسْكَرِيِّ فَوَصَلْنَا إِلَى « قَلَمِ السَّوَابِقِ وَتَحْقِيقِ الشَّخْصِيَّةِ »
فَرَأَى الْبَاشَا هُنَاكَ مِنَ الشَّدَةِ مَا تَنَخَّلَ لَهُ الْقُلُوبُ وَتَشَيَّبَ مِنْهُ النَّوَاصِي ، فَجَرَدُوهُ مِنْ ثِيَابِهِ
وَحَصَوْا بَدَنَهُ عَضُوًّا عَضُوًّا ، وَقَاسَوْا وَجْهَهُ وَجَسَدَهُ وَحَدَّقُوا فِي عَيْنَيْهِ ، وَصَنَعُوا بِهِ مَا صَنَعُوا ،
وَهُوَ يَتَنَفَسُ الصُّعْدَاءَ حَتَّى اتَّهَمُوا مِنْ عَمَلِهِمْ . ثُمَّ سَأَلُوا عَنْ ضَمَانَتِهِ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ ضَمَانَةً ، لِأَنَّ
الْمَعَاوَنَ قَاتَلَهُ اللَّهُ رَدَّ شَمِخَ الْحَارَةِ عَنْ التَّصْدِيقِ عَلَى ضَمَانَتِهِ لِيَجُوزَ لَهُ الْحَبْسُ ، فَأَرْسَلُونَا مَعَ
الْعَسْكَرِيِّ إِلَى النِّيَابَةِ . وَلَمَّا دَخَلْنَا عَلَى النَّائِبِ وَجَدْنَا مَعَهُ قَضَايَا جَمَّةً ، وَأَصْحَابُهَا مُزْدَحْمُونَ
يَنْتَظِرُونَ نَوْبَهُمْ ، فَانْفَرَدْنَا نَاحِيَةً نَنْتَظِرُ نَوْبَتَنَا أَيْضًا ، وَالتَفْتُ إِلَى صَاحِبِي يَسْأَلُ وَيَسْتَفْهَمُ .
(البasha) — أَيْنَ نَحْنُ الْآنَ وَمَنْ هَذَا الْغَلَامُ وَمَا هَذَا الزَّحَامُ ؟

(عيسى بن هشام) — نَحْنُ أَمَامَ النِّيَابَةِ ، وَهَذَا عَضُو النِّيَابَةِ ، وَهَؤُلَاءِ أَرْبَابُ الدَّعَاوَى .
(البasha) — وَمَا النِّيَابَةُ ؟

(عيسى بن هشام) — النِّيَابَةُ فِي هَذَا النِّظَامِ الْجَدِيدِ هِيَ سُلْطَةُ قَضَائِيَّةٍ مَكْلَفَةٌ بِإِقَامَةِ
الدَّعَاوَى الْجَنَائِيَّةِ عَلَى الْمُجْرِمِينَ بِالنِّيَابَةِ عَنِ الْهَيْئَةِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ ، وَالْفَرَضُ مِنْ إِنْشَائِهَا أَلَّا تَبْقَى

جريمة بلا عقوبة ، ووظيفتها أن تدافع عن الحق فتظهر ذنب المذنب وتكشف عن براءة البريء .

(الباشا) - وما « الهيئة الاجتماعية » التي تنوب عنها ؟

(عيسى بن هشام) - هي مجموع الأمة .

(الباشا) - ومن هذا الأمير العظيم الذي اتفقت الأمة عليه لينوب عنها ؟

(عيسى بن هشام) - ليس هذا الذي تراه بأمر ولا بعظيم من عظماء الأمة وإنما هو أحد أبناء الفلاحين أرسله أبوه إلى المدارس فنال الشهادة فاستحق النيابة فتولى في الأمة ولاية الدماء والأعراض والأموال .

(الباشا) - نعمت المنزلة عند الله منزلة الشهادة ، وللشهيد في الجنة أعلى الدرجات ، ولكن كيف تتصور عقولكم - وأظنكم فقدتموها - أن تجتمع الشهادة في سبيل الله والحياة في الدنيا لأحد من الناس ؟ والذي يفوق ذلك مجباً ويزيد العقل خبلاً أن يحكم الناس فلاحاً وينوب عن الأمة حراثاً ! ويشهد الله أنني خرجت من شدة إلى شدة وانتهيت من خطب إلى خطب فسلمت وصبرت ، ولكن لا صبر لي على هذه الخارقة . فما أعظم الفاجعة وأشق النازلة ، لقد قنيت مني الصبر . ومن لي بفناء القبر ؟

(عيسى بن هشام) - اعلم أن هذه الشهادة ليست بشهادة الجهاد ، بل هي ورقة يأخذها التلميذ في نهاية دروسه ليثبت بها أنه تلقى العلوم وبرع فيها . وقيمتها ما يريد الحصول عليها ألف وخمسمائة فرنك في بعض الأحيان .

(الباشا) - مه مه كأنك تريد الإجازة التي يميزها علماء الأزهر لمن تلقى عليهم العلوم من الطلبة وفاق فيها . غير أننا ما سمعنا في دهرنا بهذه الأثمان وما عهدنا أن الأزهر الشريف يعرف ما الفرنكات أو يفقه من العملة سوى الجرايات .

(عيسى بن هشام) - ما هذه العلوم بعلوم الأزهر ، ولكنها علوم إفرنجية يتلقونها في بلاد الإفرنج . والفرنك عملة تلك البلاد ، ويقال لذلك القيمة عندهم رسم الشهادة ، وهي قيمة لا تذكر بالنسبة إلى كثرة فوائدها لأن القاعدة في هذا النظام « أن الشهادة بلا علم

خير من العلم بلا شهادة» ، وصاحبُ الشهادة إذا قدمها للحكومة يكون له الحق في الاستيلاء على مرتب وظيفته يزيد على الدوام ويرقى .

(الباشا) — الآن كدت أفهم ، وأظن هذه الشهادة تعادل « أوراق الالتزام » و « سراكي الروزناجه » في أيام حكومتنا .

قال عيسى بن هشام : وبيننا نحن في هذا الحديث إذا بشابين رشيقين رقيقين قد أقبلا يخطران في مشيتهما والطيب ينتشر في الجو من أردانهما ، وهما يصعران^(١) خديهما كبراً واختيالاً ، ولا يلتفتان إلى من حولهما تيمناً وإعجاباً ، أحدهما يشق الهواء بعصاه ، والثاني تلعب « بالنظارة » يدها . فشخصت إليهما الأنظار ، وتحولت نحوهما الأبصار ؛ والحاجب من أمامهما يدفع الناس من طريقهما ، حتى وصلا إلى باب النائب ، فقام لهما عن مجلسه وأمر بأرباب القضايا أن ينصرفوا من حضرته ، واشتغل الحاجب بسحبهم وجرحهم ، وطردهم ونهرهم ؛ واشتغل النائب بطى المحاضر ورفع المحابر ، حتى خلا لصاحبيه من كل شغل وعمل .

(الباشا لعيسى بن هشام) — يظهر لى أن هذين الشابين من أكبر أولاد الأمراء أو انهما مفتشان للنياحة كما رأينا المفتش للقسم .
(عيسى بن هشام) — ما أظنهما إلا زائرين من قرناء النائب في المدرسة كما يظهر لى من شمائلهما .

(الباشا) — وهذا أعجب وأعجب !

قال عيسى بن هشام : وأردت أن أخبر خبرهما وأكشف أمرهما ، فاتهمزت فرصة التزاحم بين الناس واشتغال الحاجب بهم ، فانزويت عقب الباب من وراء الستار بحيث أسمع وأرى ، فسمعت هذه المحاورة بينهم :

(الزائر الأول) بعد السلام والجلوس — لماذا تركتنا أمس أيها الخبيث من قبل أن ينتهى اللعب ؟

(١) صعر خده : أماله تكبراً

(النائب) - لأنه كان قد مضى من الليل أكثره ، وعندى من القضايا ما يضطرنى إلى التكبير .

(الزائر الثانى) - وهل سمع أحد أن القضايا تعوق الإنسان ، عن مجالسة الإخوان . ومثل هذا العذرُ يعتذر به لغير الواقفين على أعمال النيابة وقضاياها . أو لم تعلم أن فلاناً وفلاناً وسواهما من أقرانك لا تستغرق منه قضايا اليوم كله أكثر من ساعة واحدة . وأخص بالذكر منهم فلاناً فإنه يكتفى بأن يمر عليها بلحظة منه ويستغنى عن مطالعتها ويرتكز على توقد ذهنه ونباهة قريحته وكثرة تمرنه للإحاطة بفهمها . وما دام الشقاق والنزاع قد انتهى أمره بين النيابة والبوليس فالأولى الاكتفاء بمحاضر البوليس أو إعادتها إليه لاستيفائها ، ولا محل لتجديد التحقيق بعده وتضييع الوقت سدى فيما عساه أن يولد الشقاق أو يعيد النزاع مرة أخرى .

(النائب) - ذلك ما أفعله ، ولكن لا بد من التمسك « بالظواهر والأصول » على قدر الإمكان .

(الزائر الأول) - أما عندك الكاتب يقوم فى ذلك مقامك ويكفيك .

(النائب) - صدقت إن الكاتب ليكفى . والقول الصحيح أن السبب فى مفارقتكم أمس وفى ترك اللعب هو أننى خسرت ما كان معى من مرتب الشهر ونحن لا نزال فى أوائله . (الزائر الأول) - تلك هى عادتك فى ادعاء الخسارة دائماً مهما ربحت ومهما كسبت ، وما سمعت منك فى عمرى إلا أنك خسرت . أفلم ترح منى فى « اليد الأخيرة » التى كانت بيننا خمسة جنيهات ؟

(النائب) - وحق شرفى وذمتى ومستقبلى أنى قت من عندكم أمس بالخسارة .

(الزائر الثانى) - ما علينا . ولكن قل لى : هل أنت لا تزال على وعدك معنا فى

التوجه إلى صاحبنا لمشاهدة الرقص البلدى من فلانة المشهورة ؟

(النائب) - أسألك المسامحة فإنه لا يمكننى ذلك ، أولاً لأن هذا الرقص الذى يعجب أولاد البلد والفلاحين لا يعجبى ، وثانياً لأنى دعوت « مادموازيل فلانة » المشخصة فى

« الأوبرا » مع فلان وفلان المشخصين لتناول الغذاء في الأزبكية عند « سانتى » ،
وسنذهب بعد ذلك إلى « خان الخليلي » و « قصبة رضوان » و « مقابر الخلفاء » وبعض
الأماكن القديمة من البلد للتفكه والتسلى .

(الزائر الأول) — دعواك الآن أنه لم يبق معك من مرتب الشهر شيء ، فكيف لك
بما يلزم لمثل هذا من النفقات ؟

(النائب) — فاتنى أن أذكر لك أن معنا فلاناً المحامى ومعه صاحبه العمدة .
(الزائر الثانى) — وكيف يميل هذان الشخصان إلى مثل هذا المجلس الأفرجى أو
يستريحان له وهما لا يعرفان شيئاً من اللغات والاصطلاحات الأوربية .

(النائب) — ألم تعلم يا أخى أن أمنية المحامى أن يكون مصاحباً لأهل القضاء . وأمنية
الفلاح أن يتحكك بنا . والرغبة عند أمثالها عظيمة فى حضور المجلس الأفرنجية وإن
كلفهم ذلك ما كلفهم وخرجوا منها على غير فائدة لهم ؟

(الزائر الأول) مقتضباً — من أين اشتريت هذا « الكرافات » (رباط الرتبة) ؟
(النائب) — ما اشتريته يا « مونشير » (عزيزى) وإنما جاءنى مع ملابسى من عند
الخياط فى باريس وهو من آخر طرز .

(الزائر الثانى) — هل بلغك زواج فلان بمعشوقته ؟

(الزائر الأول) — هل ركبت مع فلان فى « الأتوموبيل » ؟

(النائب) — قد وقفت لك على سبب انتحار ابن فلان المتمول .

(الزائر الأول) — أنا أعرفه ، فهو الغرام .

(النائب) — لا .

(الزائر) — المال ؟

(النائب) — لا .

(الزائر) — المرض ؟

(النائب) — لا . وإنما هى سنة جديدة فى شبان باريس اقتدى المسكين بها .

(الزائر الأول) — وأنا وقفت لكما على سبب استعفاء فلان من وظيفته .

(النائب) — سيرته ؟

(الزائر) — لا .

(النائب) — وظيفته ؟

(الزائر) — لا .

(النائب) — فرنسيته ؟

(الزائر) — لا . وإنما هي « انكليزية » .

المحامى الأهلى

قال عيسى بن هشام : فسئمت من هذا الكلام الفارغ والحديث المقتضب وانتهرت دخول الحاجب ، فخرجت من مكنتى وعدت إلى الباشا صاحبى فوجدت بجانبه أحد سماسرة المحامين قد التصق به وهو يحاوره . فوقفت عن بُعد أسمع ما يدور بينهما :

(السمسار) — اعلم أن المحامى يدير القضاء فى يده بما يريد ، فيعاقب من يشاء ويبرى من يشاء ، وما أعضاء النيابة وقضاة الجلسات إلا طوع وإشارته ، ورهن كلمته وكالختام فى إصبعه ، فلا حكم إلا بقوله ولا قضاء إلا بأمره . وأنت ، على ما أراك ، رجل غريب حقيق بالرحمة والشفقة ، ولا يليق بالمرءة أن أدعك طعمة فى أيدى بعض المحامين من أهل الطبقة السفلى الذين اعتادوا سلب أموال الناس بطرق الغش والاحتيال وكاذب الوعود والآمال ، ولى صاحب معروف بين طائفة المحامين بالصدق والأمانة ، وله مقام سام بين القضاة والحكام ، فهو صديق الناظر وجليس المستشار ونديم القاضى وخدين النائب ووكيل « البرنس » . لو شاهدته يا سيدى مرة واحدة فى اجتماعه معهم فى السهر والسمر ، ورفع الكلفة بينه وبينهم فى ساعات الأنىس وأوقات السرور ، يشاربهم ويؤاكلهم ويمازحهم ويفاكهم وينظرهم ويقامرهم ، لأيقنت فى الحال أن كل طلب له يجاب ، وليس لأمره من راد ، فالجرم برىء والبرىء جانٍ على حسب المراد . فقل لى حينئذٍ عن مقدار ما تستطيع دفعه من « مقدم الأتعاب » فى تبرئتك من تهمتتك والانتقام لك من عدوك (الباشا) — أنا لا أعرف المقدم ولا المؤخر ولم يخبرنى صاحبى عن هذا الحاكم القادر الذى تصفه لى فإذا استفهمتُ عنه

(السمسار) مقاطعاً — لا لزوم للاستفهام من أحد ، فيها هو ذا حضرة المحامى قد أقبل لمقابلة « النائب العمومى » فأنا أستوقفه لحظة للنظر فى شأنك .
(ويسرع السمسار لمكالمة المحامى بعد أن يوسع له فى الطريق ويسلم عليه بسلام الأمراء حتى يصل به إلى جانب الباشا) .

(الحامى) بصوت عالٍ — أنا لا أستطيع قبول التوكيل عن أحد فى هذه الأيام
لتراكم الأعمال وتراحم القضايا ، فلم يبق عندى وقت للطعام والشراب ، فكيف تكلفنى أن
أقبل التوكيل عن صاحبك فى هذه القضية الصغيرة وقد رفضت فى صباحى هذا خمس
قضايا لها شأن عظيم .

(السمسار) — سألتك بحق الإنسانية وحرمة المروءة وبما جبلت عليه من الحنفى
والشفقة على الضعفاء أن تأذن لأحد عمال مكتبك بمباشرة هذه القضية إن لم تتنازل
لمباشرتها بنفسك فإن المقصود هو تأخير اسمك وصيتك فى المحكمة .

(الحامى) — لا أرى فى ذلك بأساً للعناية بك والشفقة على صاحبك . (وينصرف
الحامى بعد مصافحته للبasha) .

(السمسار للبasha) — هلم فادفع عشرين جنهما .

(البasha) — ليس عندى الآن شئ من الدراهم .

(السمسار) — أعطنى تحويلاً *credit* .

(البasha) — أنا لا أفهم لك كلاماً فاذهب عني فقد ضقت بك ذرعاً .

(السمسار) — كيف أذهب عنك وقد تم لك الاتفاق مع حضرة الحامى أمامى ؟

(البasha) — أنا لم أتعق مع أحد فاتركنى وانصرف .

(السمسار) — كيف ننكر اتفاقك مع الحامى بعد أن وضعت يدك فى يده .

(البasha) — عفوك اللهم ولطفك ! ومن يصبر على هذه الحال . أشرت يدي

فى حديثى مع صاحبي ، فوقعت فى حادثة المسكارى . وصاغت الحامى ، فصرت مديناً
بعشرين جنهما . ففى أى العوالم أنا ، وبين أى الخلوقات !

قال عيسى بن هشام : ولما رأيت لوائح الغضب بدت على وجه البasha خشيت أن يقع
مع السمسار فى حادثة أخرى ، فأدركته ووبخت الرجل على احتياله وتوعدته بالشر ورفع
الأمر إلى النائب العمومى إن لم ينته عنا ، فخلفنا وانصرف . ونادى الحاجبُ أربابَ القضايا

فدخلنا فوجدنا النائب لازال لاهياً في حديثه مع زائريه ، وأشار لنا بالتقدم إلى الكاتب ، فتقدمت مع صاحبي وشرعت في بسط القضية وبيان ما قاسيناه من سوء معاملة البوليس وقبح افترائه ، فالتفت النائب إلى الكاتب وقال له : لا تقبل كلاماً في البوليس ولا تسمع فيه طعنًا بل خذ بأقواله واستمسك بتحقيقه . ثم نظر في الساعة فوجد الميعاد قد حلّ فأخذ عصاه ولبس طربوشه وخرج يهرول مع صاحبيه . فقلت لصاحبي : الآن وجب أن أذهب للبحث عن أحد المحامين الصادقين من أصحابي للدفاع عنك .

(الباشا) — قل لي بالله ما هو المحامي عنكم ؟

(عيسى بن هشام) — هو وكيل الحكم والخاصة يتكلم مكانك بما تعجز عنه ، ويدافع عنك بما لم تعلمه ، ويشهد لك بما لم يخطر ببالك ، وصناعته هذه صناعة شريفة يمارسها كثير من الفضلاء اليوم بيننا ، ولكن قد دخل في الصناعة جماعة ليسوا من أهلها فاتخذوا الخداع والاحتيال بضاعة للتكسب مثل هذا المحامي وسمساره ، وهؤلاء بعينهم هم الذين يعينهم علاء الدين الكندي بقوله :

ما وكلاء الحكم إن خاصموا إلا شياطين أولو باسِ
قومٌ غدا شرُّهم فاضلاً عنهم فباعوه على الناسِ

المحكمة الأهلية

قال عيسى بن هشام : ولما حل يوم الجلسة رافقت الباشا إلى المحكمة فوجدنا في ساحتها أقواماً ذوى وجوه مكفهرّة . وألوان مُصفرّة . وأنفاس مقطوعة . وأكف مرفوعة . وشاهدنا باطلاً يُذكر . وحقاً يُنكر . وشاكياً يتوعد . وجانياً يتودد . وشاهدنا يتردد . وجندياً يتهدد . وحاجباً يستبدّ . ومحامياً يستعدّ . وأمّاً تنوح . وطفلاً يصيح . وفاتة تتلف . وشيخاً يتأفف . وسمعنا ألفاظاً متناقضة ، وأقوالاً متعارضة . ورأينا المحاميين ، عن الخصمين . يشخذ كل منهما لسانه . ويقدح جناّنه . استعداداً للنزال . في ميادين المقال . وتأهباً للدفاع . في مواقف النزاع . ليخرج كلاهما بغنيمة البراءة في الحكم . ورفع التهمة والجُرم . فانزويت بصاحبي . ومحامينا بجانبى يذكر لنا « أصولاً مرعية » . و « مسائل فرعية » وظروفاً وأحوالاً . وشروحاً وأقوالاً . وموادّ وفقرات . في الجنب والخالقات . ثم يتصفح محاضره . ويقاب دفاتره . ويقسم لنا بوكيد الإيمان . أن الباشا من همته في أمان . وأنا أجيب صاحبي عن كل سؤال . بما تقتضيه الحال . ولما سألتني عن هذه للمحكمة ، قلت له هي المحكمة .

(الباشا) — قد كان العهد بالمحكمة الشرعية وبيت القاضى على غير ما أرى ، فهل أصابها الدهر فيما أصاب بالتحغير والانتقال ؟

(عيسى بن هشام) — هذه هي المحكمة الأهلية لا المحكمة الشرعية .

(الباشا) — وهل للقضاء بين الناس غير المحكمة الشرعية ؟

(عيسى بن هشام) — للقضاء في هذه البلاد على ما تشتهى محاكم متعددة ومجالس متنوعة ، فمنها المحاكم الشرعية والمحاكم الأهلية والمحاكم المختلطة والمجالس التأديبية والمجالس الإدارية والمجالس العسكرية والمحاكم القنصلية دع المحكمة المختصة .

(الباشا) — ما هذا الخلط ، وما هذا الخبط ؟ وسبحان الله ! هل أصبح المصريون فرقاً وأحزاباً . وقبائل وأفخاذاً . وأجناساً مختلفة . وفئات غير وثافة . وطوائف متبعدة . حتى

جعلوا لكل واحدة . محاكم على حدة . ما عهدناهم كذلك في الأعصر الأول . مع دولات الدول . وهل انطمست تلك الشريعة الغراء . واندرست بيوت الحكم والقضاء . اللهم لا كفران . ولعن الله الشيطان .

(عيسى بن هشام) — ليس الأمر على ما تتوهم وتختيل ، فلم يتفرق المصريون فرقاً ، ولم يتوزعوا شعوباً ، بل هم أمة واحدة ولهم حكومة واحدة يقضى نظام الأمور فيها بهذا النسق والترتيب في القضاء والحكم ، وأنا أشرح لك جملة الحال شيئاً قليلاً .

أما المحاكم الشرعية فقد جرّدت من النظر والحكم في عامة الخصامات واقتصرت العمل فيها على الأحوال الشخصية ؛ أعني مسائل الزواج والطلاق وما يدخل في هذا الباب .

(الباشا) — تالله لقد فسد الحال وانحل النظام . وكيف يعيش الناس ويستقر لهم حال بغير شرع الله وسنة نبيه ، وهل أصبحتم في الزمن الذي يعنيه القائل بقوله :

قد نُسَخَ الشرعُ في زمانهمُ فليتهم مثل شرعهم نُسِخُوا

(عيسى بن هشام) — لم يُنسخ الشرع ولم يرتفع حكمه ، بل هو باقٍ على الدهر ما بقي في العالم إنصاف وفي الأمم عدل . ولكنه كنز أهلهم أهله ، ودرّة أغفلها تجارها ، فلم يلتفتوا إلى وجوه تشييده وتمكينه ، وتمسكوا بالفروع دون الأصول ، واستغنوا عن اللب بالقشور ، واختلفوا في الأحكام وعكفوا على الاشتغال بسفساف الأمور ، وتعلقوا من الدين بالأغراض الحقيرة والأقوال الضعيفة ، وتركوا الحقيقة إلى الخيال ، وتعدوا الممكن إلى المحال ، فكان من أكبر همّ العالم العلامة فيهم والخبر الفهامة منهم أن يُبدع في التفنن الاغماض في الحق الأبلج ، والتعقيد في الحنيفية السمجة ، ولم ينتهوا يوماً إلى ما تجرّى به أحكام الزمن في دورته ، ولم يفقهوا أن لكل زمن حكماً يوجب عليهم تطبيق أحكام الشرع على ما تستقيم به المصلحة بين الناس ، بل ظلوا واقفين عند الحد الأدنى لا يتزحزون ولا يتحاجلون ، معتقدين أن الدهر دار دورته ثم وقف ، وأن الزمن تحرك حركته ثم سكن ، فلا أمل فيه ولا عمل ، فكانوا سبباً في تهمة الشرع الشريف بخلال الحكم ووهن العقْد وقلة الغناء فيه

لإنصاف الناس في معاشهم ومرافقتهم على حسب ما تتجدد به حالات الزمن وتتخالف عليه أشكال العصور . ومن هنا تولدت الحاجة إلى إنشاء المحاكم الأهلية بجانب المحاكم الشرعية .

(الباشا) - ما أظن إلا أن يكون لأهل الشرع وأصحاب التفقه في الدين عذر واضح في النزول إلى هذه الحالة السيئة من معارضة معارض ومنازعة منازع ، أو جور سلطان قاهر وعسف حاكم قاسر . فصدّهم عن سواء السبيل ، وأراعهم هذا المرعى الوبيل .

(عيسى بن هشام) - لم يكن من ذلك شيء على الإطلاق ، فالإرادات مختارة ، والأفكار مطلقة والنفوس مطمئنة والأرواح آمنة . وليس الفساد ناشئاً عن طوارئ الزمان وطوارق الحداث ، ولكنه فساد في التربية عم أمره وانتشر ، وانحطاط في الأخلاق عظم بلاؤه واشتهر ، سكنت إليه نفوسهم وارتاحت به ضمائرهم ، وقد تمكن منهم داء التحاسد والتباغض ، ودبت بينهم عقارب التشاحن والتضاغن ، واستولى على قلوبهم الجبن والخور ، وعلى عقولهم الضعف والخبيل ، وعلى نفوسهم الفتور والكسل ، فوصلوا إلى الحال التي يرون بها السنة بدعة ، والبدعة سنة ، والفضيلة نقيصة ، والنقيصة فضيلة ، وأقاموا يتعسفون في الحكم ولا ينصفون . ويتفكّهون في الدين ولا يتفقهون . وصرّفهم حب المال ، عن صالح الأعمال . وألهام ما يدّخرونه من زخرف الحياة الدنيا ، عما يدّخر لهم في الدار الأخرى . فنحن الذين فعلنا كل هذا بأنفسنا ، منا الأثم والوزر ، وعلينا الذنب والإصر .

وأما المحاكم الأهلية فهي القضاء الذي يقضى على الرعية اليوم في جميع الخصومات طبقاً لنص القانون .

(الباشا) - « القانون الهابوني » ؟

(عيسى بن هشام) - القانون « الأمبراطوري » .

(الباشا) - ما عهدت منك أن تعجم وتبهم

(عيسى بن هشام) - لا إعجام ولا إبهام ، فهو قانون نابليون إمبراطور الفرنسيين .

(الباشا) - وهل عاد الفرنسيس فأدخلوكم تحت حكمهم وسلطانهم مرة أخرى ؟

(عيسى بن هشام) - لا . وإنما نحن الذين أدخلنا أنفسنا في حكمهم فاخترنا قانونهم ليقوم عندنا مقام شرعنا .

(الباشا) - وهل هذا القانون ينطبق حكمه على حكم الشرع الشريف والسنة المطهرة ، وإلا فإنهم يحكمون فيكم بغير ما أنزل الله ؟

(عيسى بن هشام) - المسألة فيها خلاف . فالإجماع تام عند علماء الشريعة في السر والنجوى ، على أنه مخالف للشرع ، وأن كل من يقضي به داخل تحت نص الآية الشريفة : « وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . » ولكن يظهر أنه مطابق عندهم للشرع ، في حالة الجهر والعلن ، بدليل ما أعلنه أحد كبارهم عند نشر هذا القانون ، وهو يومئذ مفتي نظارة الحقانية ، فقد أقسم الأيمان بالمظلة على فتواه التي أفتاها بأن هذا القانون الفرنسي غير مخالف للشرع الإسلامي . وإن كان لا عقاب في هذا القانون على الفسق واللاواط مع رضا المفسوق به إن تجاوز عمره الثانية عشرة بيوم واحد ، ولا عقاب فيه على من يزني بأمه إذ هي رضيت وكانت غير متزوجة ؛ وهو الذي يعد الأخ مجرمًا جانيًا إذا تعرض لحماية عرض أخته والمدافعة عنه ، وكذلك بقية أهلها ما عدا زوجها ؛ وهو الذي لا يعاقب الزوج إذا سرق من امرأته ، ولا المرأة من زوجها ، ولا الولد من أبيه ولا الأب من ابنه .

وأما المحاكم المختلطة - وقضاتها من الأجانب - فهي تختص بالنظر فيما يقع من الخصومات بين الأهالي والأجانب ، وبين الأجانب وبعضهم في الحقوق المدنية ، أعني في قضايا المال . ولما كان الأجانب هم أحق وأولى بالفتى لسعيهم وجدّهم ، وكان المصريون أخلق بالفقر وأجدر لإهمالهم وتوانهم ، كان معظم القضايا التي تحكم فيها هذه المحاكم لا بد أن تنتهي بسلخ المصري من ماله وعقاره .

وأما المجالس التأديبية ، فهي تختص بالنظر في عقاب الموظف الذي يخل بتأدية وظيفته - وهي تتألف في الغالب من نفس الرؤساء الذين يهتمونه - وحدثها في العقاب الرفت

والحرمان من المعاش ؛ وما بقي من درجات العقاب ، فالنظر راجع فيه إلى المحاكم الأهلية .
وأما المجالس الإدارية ، فهي تختص بعقاب من يخالف اللوائح والأوامر والمنشورات ،
وشرح ذلك يطول .

وأما المحاكم العسكرية ، فهي تختص بالنظر في عقاب المتهمين من الضباط والجنود ،
وتحكم أيضاً على الأهالي في مسائل القرعة وما شاكلها .

وأما المحاكم القنصلية ، فهي تختص بالنظر في الجناح التي تقع من الأجنبي على المصري ،
ومن الأجنبي على الأجنبي من جنس واحد ؛ فإذا وقعت جنائية من أجنبي على مصري
فليس لها في مصر من حكم أو عقاب ، ولا تختص أى محكمة من هذه المحاكم التي عدتها
لك بالنظر فيها ، بل يردّ الجاني بالقضية إلى وطنه ومسقط رأسه وديار قومه ، فينظر قضائه
هناك في أمره ، والغالب في مثل هذه الحال عندهم أن ينتهوا بتبرئة المجرم بحال معلومة مثل :
« عدم ثبوتهم بتحقيق البوليس المصري ، وضياح معالم القضية ، وعدم توفر الشهود . »

وأما المحكمة المختصة ، فهي تختص بمعاينة الأهالي عند تعديهم على الجنود الأجنبية .
(الباشا) — ما زلتَ تسمعي الغريب ، وتفهمني غير مفهوم ، ومن أعجب ما سمعت
أن المصري يتعدى على الجندي .

قال عيسى بن هشام : وبيننا نحن في هذا الحديث إذا ارتجّ المكان ، وتماوج الزحام ،
وأقبل القاضي ، وهو في عنفوان شبابه ، وصبا أيامه ، يتألق وجهه حسناً ، ويشاكل في
القد غصناً ، وكأنه طائر في مشيته ، من نشاطه وخفته . ولما دخل الجلسة ، ذهبتُ أسأل
عن نوبة القضية ، ثم عدت إلى صاحبي ، ومكثنا في الانتظار زمناً طويلاً إلى أن جاء
وقتنا ، ونودي الباشا ، فدخل مع الحامي في الجلسة ، وقام النائب فطلب الحكم على المتهم
بمقتضى مادتي ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات لتعديه بالضرب على أحد رجال «الضبطية القضائية»
في أثناء تأدية وظيفته ، وبالمادة ٣٤٦ مخالعات لتعديه على المكارى بالإيذاء الخفيف .

(القاضي) المتهم — هل فعلت هذه التهمة ؟

(المتهم) — لم أفعل .

قال عيسى بن هشام : وجاءوا بى شاهداً ، فسألنى القاضى عما أعلمه فى هذه الواقعة فأجبتُهُ :

(عيسى بن هشام) — إن لهذه الحادثة قصة عجيبية وحكاية غريبة وهى أنه
(القاضى) مقاطعاً — لا لزوم لتفصيل القصة والحكاية ، قل لى « معلوماتك » فيها
(عيسى بن هشام) — « معلوماتى » هى أننى كنت أزور المقابر ذات ليلة وقت الفجر
أبغى الموعظة وأنشد الاعتبار
(القاضى) مستثلاً — لا لزوم لكثرة الكلام ، أجبنى عن النقطة التى سألتك
عنها فقط .

(عيسى بن هشام) — ذلك ما أفعله من حكاية الواقع ، وهو أنى رأيت رجلاً خرج من ..
(القاضى) متمللاً — قلت لك إنى لا أقبل التطويل ولا الشرح فى الواقع ، ولكن
هل ضرب المتهم العسكرى والحمّار ؟
(عيسى بن هشام) — ما ضرب المتهم الحمّار ، وإنما دفعه عنه من شدة إلحاحه ،
وما ضرب العسكرى ، وإنما سقط عليه مما غشيّه بغير عمد ولا قصد ، وهو يجهل . . .
(القاضى) — يكفى ، يكفى ، هلم « النيابة » .

(النائب) — إن هذا الباشا متهم بتعديده بالضرب على أحد رجال البوليس فى أثناء
تأدية وظيفته بالقسم ، ومتهم بالتعدى بالإيذاء على «مرسى» الحمّار . والتهمة ثابتة من شهادة
الشهود التى فى الأوراق . واطلاع المحكمة عليها كافٍ ، وبناء عليه النيابة تطلب الحكم
على المتهم بالمادة ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات وبالفقرة الثانية من المادة ٣٤٦ مخالفات ، وتطلب
من عدالة المحكمة التشديد فى العقوبة ، لأن حالة المتهم تستدعى ذلك ، فإنه يُتخيل أن رتبته
تجعله خارجاً عن سلطة القانون ، وتحوّله الحق فى اعتباره بقيمة الناس أصغر منه شأنًا ،
فيؤدّبهم بنفسه مع عدم مراعاة حقوقهم وحرمة القانون ، ولا شك أن تشديد العقوبة عليه
واجب ، لاعتبار أمثاله به ، وللمساواة فى العدالة ، وأفوض الأمر إلى المحكمة .

(القاضى) للمحامى — الحاماة ، مع الاختصار .
(الحامى) بعد أن ينتحنح ويقلب فى أوراقه — إننا نتمعجب من أن النيابة العمومية
استحضرتنا اليوم بصفة متهمين ، ونقول إن أصل وقوع الجرائم يا حضرة القاضى فى وضع
الشرائع والقوانين فى هذا العالم منذ البداوة وعصور الهمجية كان يُقصد منه . . .
(القاضى) مشمئزاً — اختصر يا حضرة الحامى وادخل فى الموضوع .
(الحامى) -- . . . ومن المعلوم أن نظام الترتيب يا حضرة القاضى فى طبقات الهيئة
الاجتماعية يقضى . . .
(القاضى) — متضجراً — اختصر يا بك .
(الحامى) — الموضوع يقتضى ذلك .
(القاضى) متأففاً — لا لزوم له .
(الحامى) متحيراً — قالت النيابة العمومية (ويسرد شيئاً من أحوالها) ونحن نقول
إننا لو سمحنا جداً . . .
(القاضى) مغضباً — يكفى يا بك ، الموضوع .
(الحامى) متلعناً مضطرباً — إن هذا المتهم يا حضرة المحكمة الواقف الآن بين يدي
القضاء هو رجل عظيم وأمير خطير من أهل العصر القديم ، وله حديث منشور فى الجرائد —
وهذه أعداد جريدة « مصباح الشرق » تطلعون عليها — وقد اعترضه فى طريقه أحد
المسكارين ، فدفعه عن نفسه ، والناس يعلمون إلحاح الحمارة وسوء أدبهم ، ومثل هذه
الطبقات التى ليس فيها تربية . . .
(القاضى) نافداً صبره — قلنا اختصر يا بك .
(الحامى) وهو يتصبب عرقاً — . . . ولما توجه المتهم إلى القسم أغنى عليه ، فسقط
بدون تعمد على عسكري كان يكنس أرض القسم بغير ملابس الرسمية . وعدالة المحكمة
تقضى بعدم الالتفات إلى دعوى البوليس ، ولا عقاب على المتهم البتة ، لأنه كان فى عصر
غير عصرنا ، وفى نظام خلاف نظامنا ، ولم تبلغه دعوة القانون ، فهو يجهل أحكامه ،
وحضرة القاضى الفاضل أدرى بالأحوال . وإن . . .

(القاضي) منفعلًا ضاربًا بيده على المكتبة — المحكمة تنورت يا بك ، ولا لزوم للكلام مطلقًا ، فہلم طلباتك .

(الحامي) ساخطًا في نفسه — طلباتنا هي « أننا نطلب من باب أصلي : الحكم ببراءة المتهم ، وإن رأيت المحكمة غير ذلك ، فترجو استعمال الرأفة بالمادة ٥٣٢ عقوبات » . قال عيسى بن هشام : وبعد ذلك نطق القاضي بالحكم ، فحكم على الباشا بالحبس سنة ونصفًا بمقتضى المادتين المذكورتين من قانون العقوبات ، وبخمس قروش والمصاريف بالمادة المذكورة أيضًا من الخالقات . فضاقت الأرض بي ، وأظلمت الدنيا في عيني ، وكدت أشترك مع صاحبي في الذهول والإغماء ، لولا أن الحامي أكد لي كل التأكيده أنه لا بد من البراءة في محكمة الاستئناف ، لعدالة رجالها ، ولكن يجب مع ذلك أن نرفع عريضة شكوى إلى « لجنة المراقبة » لحسن التأثير في القضية عند نظرها في الاستئناف ، ثم قال لي : اعلم أن السبب في كل ما صدر عن هذا القاضي من المقاطعة والمعاكسة والاستعجال هو لأنه مدعو في وليمة بعض رفاقه عند الظهر تمامًا ، وأمامه في جدول القضايا ثلاثون قضية يريد أن يأتي عليها كلها حكمًا قبل حلول الميعاد .

وأطعنا إشارة الحامي ، فقدمنا عريضة إلى « لجنة المراقبة » ، ولما طلبنا منه أن يتوجه معنا للسؤال عما تم في أمرها ، تنحى عن استصحبنا ، وقال إنه كان يود مباشرة ذلك بنفسه ، ولكن يمنعه أن يعلم القاضي بسعيه في التظلم منه ، فيتعهد في المستقبل أذاه ، وينصرف همه إلى نكايته ، بسبب شكايته ، والحامي في حاجة دائمة إلى اجتلاب رضا القاضي واجتنباب غضبه . فقبلت عذره ، ودعوت الباشا إلى التوجه والسؤال ، فأعرض ونأى بجانبه ، وخاطبني وهو يشتد في الإباء ويلج في الامتناع بقوله :

(الباشا) — يكفي ما قد وصات إليه من الذل والهوان ، وما قاسيته من نزول القدر وحلول الضيم بحكم القضاء من رافع السماء ، وأنا أربأ بنفسى أن يجتمع عليها ذلآن في سلك واحد ، ذل المتحمل للظلم المستكن للجور ، وذل المشتكى الضارع والمنظلم الخاضع . فإليك عني لا تكن عونًا للخطوب ، ومفتاحًا للكروب ، وصدق ابن يعقوب : « رَبُّ السَّجْنِ أَحَبُّ

إِلَى مِمَّا يَدْعُوَنِي إِلَيْهِ» . ويعلم الله لولا عذاب النار ، لفرجت عن همى بالانتحار ، وبودى لو يبدل حكم الحبس بالإعدام ، لأخلص من هذه الأوصاب والآلام ، وقد عشت دهرى ما علمت أن السجن يكون في عقاب الكبراء والأمراء ، وإنما هو يجري عندنا في عقاب الغوغاء من الناس والسفلة من العامة ، وللأمراء الامتياز على كل حال ، فإن كان ثمّ لنا عقاب ، فضرّب الرقاب ، وعندنا أن لقاء المنون . أليق بنا من ظلمة السجون .

(عيسى بن هشام) — ما كنت أعهد من مثلك هذا الجزع والفرع ، ولا أتوقع منك مثل هذا الخور والهلع ، وأنت البطل الجريء والشجاع المقدم . وما الشجاعة إلا في التصبر على المسكروه والتجلد للخطوب ، تتلقاها بوجه طلق وصدر رحب ، وتترقب الفرج منها بعد الضيق :

ربما تجزع النفوس من الأمر له فرجة كحلّ العقال

وأنت عندى الحازم الأرشد ، والعاقل المسدد ، وما العقل إلا نفاذ الرأى في كشف المصلحة ، وتسديد الحيلة في إزاحة الغمة ، وأمامنا اليوم طرق مسنونة ، ووسائل مشروعة ، لا غضاضة علينا في ولوجها ، ولا مضاضة في سلوكها . واعلم أن تبدل الأزمان ، وتقلب الحدّثان ، يغيّر من مباني الأمور ، ويكيّف في اعتبار الأشياء ، فما كان يُعتبر بالأمس فضيلة يُعتبر في الغدر ذليلة ، وما كان يعدّه الناس في الزمن الماضي نقيصة يعدونه في الحاضر كمالاً . وإن كان الشرف فيما مضى يستمدّ رونقه من السطوة والمنعة ، ويقوم ركّنه على البأس والبطش ، فإن الشرف اليوم كل الشرف في الاستكانة للأحكام والخضوع للقانون . فهل نسلك سبيله ، ونأخذ طريقه ، عسانا أن ننتهي بالخلاص والنجاة . ومن القواعد المقبولة لدى العقلاء والحكماء أن يقبل الإنسان نظام الأحكام في البلد الذي اتخذه داراً واختاره مقاماً .

(الباشا) — أطعم الموت الزؤام^(١) ، أهون من هذا الكلام . ولأشرب من حميم^(٢) أن أثمر من احتمال هذا الهوان .

(١) الموت الزؤام : الكريه أو الجhez . (٢) الحميم : الماء الحار . وآن : شديد الحرارة .

قال عيسى بن هشام : فاعتلت على وجوه الآراء ، في صرف صاحبي عن الامتناع والإباء ، وكدت أياس من بلوغ الغاية ، في باب النصيحة والهداية ، لولا أن سمعنا منادياً من باعة الجرائد ينادى في طريقنا بصوت نكير ، دونه صوت الحمير :

المؤيد والمقطم !! الأهرام ومصر !!

الأربعة بقرش

(الباشا) — ماذا أسمع من الأعاجيب ! أصبحت المساجد والجبال والآثار والبلاد تباع في الأسواق بالمزاد ؟

قد اختلّ الأنامُ بغير شكٍ فجدّوا في الزمان أو العبوة

(عيسى بن هشام) — ما هي بالآثار ولا بالبلاد ، ولكنها أسماء انتحلت أعلاماً لهذه الجرائد اليومية :

(الباشا) — لعلك تعنى « جرائد الصياغة ويوميّاتهم » أو « جرائد الالتزام » ، ولكن ما وجه هذه التسمية ؟

(عيسى بن هشام) — ليس الأمر كما ذهبت إليه ، ولكن الجرائد هي أوراق تُطبع كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر تُجمع وتُمرّد فيها الأخبار والروايات العامة ، ليطلع الناس على أحوال الناس ، وهي أثر من آثار المدنية الغربية انتقل إلينا منها فيما انتقل ، والأصل في وضعها انتشارُ الحمد للفضيلة ، والذم للرديلة ، والنقد على ما قبح من الأعمال ، والحث على ما حسن من الأفعال ، والتنبيه على مواضع الخلل ، والتحريض على إصلاح الزلل ، وتعريف الأمة بأعمال الحكومة النابتة عنها حتى لا تجرى بها إلى غير المصلحة ، وتعريف الحكومة بمحاجات الأمة لتسعى في قضائها ، وبالجملة فإن أصحابها هم في مقام الأمرين بالمعروف ، والناهيين عن المنكر ، الذين أشارت الشريعة الإسلامية إليهم .

(الباشا) — قد كنا نسمع في زماننا بشيء من هذا القبيل يقال له « غازيته » ، وكانت تصدر عندنا واحدة منها بالتركية اسمها « رُوزنامة وقائع » ، وأخرى بالعربية اسمها

« الوقائع المصرية » ، تُدَوَّن فيهما المدائح والتهاني ، ويُذكر فيهما انتقال الركاب العالى . ولكن إن كانت الجرائد قد ارتفعت اليوم إلى ما تزعم ، فلا بد أن يكون قد اشتغل بها واهتمَّ بأمرها كبراء العلماء الأعلام وعظماء المشايخ الكرام ، وَلَنِعمتِ الوسيلة ، وحسنتِ الطريقة في تبليغ الناس ما يصلحهم في معاشهم ، وينفعهم في معادهم . فعلىِّ بواحدة منها . (عيسى بن هشام) — علماؤنا ومشايخنا ، يغفر الله لهم ، هم أبعد الناس عن اجتياز هذه الطريق ، وممارسة هذه الصناعة ، وهم يرون الاشتغال بها بدعة من البدع ، ويعتبرونه فضولاً تنهى عنه الشريعة ، وتداخلاً فيما لا يعنى ، فلا يأبهون بها ، وربما اختلفوا في كراهة الاطلاع عليها أو إباحته . وقد مارس هذه الصناعة قوم آخرون غيرهم ، فيهم الفاضل وغير الفاضل ، واتخذها بعضهم حرفة للعيش بها ، والتكفف على أية حالة كانت ، فلا تجد بينهم وبين أهل الحرف وباعة الأسواق فرقاً في الغش والخداع والكذب والنفاق والمسكر والاحتتيال للاستلاب والاعتتيال .

عمروا موضع التصنع فيهم ومكان الإخلاص منهم خرابُ
فذهب منها الغرض المقصود ، وسقط شأنها بين العامة ، بعد أن سفل قدرها عند الخاصة ، وأصبح ما كان يُرجى فيها من النفع دون ما تجلبه من الضرر . ومن العقلاء من لا يزال يرجو من الأيام أن تدور يوماً بهذيب هذه الحال ، ورفع هذه الصناعة إلى الدرجة الثالثة بها من الشرف وعلو القدر . والحكمُ كلمة للقارئ في الإقبال على ما ينفع ، والانصراف عما يضر ، « فأما الزبدُ فيذهبُ جفاءً وأما ما ينفعُ الناسَ فَمِمَّا سَكَتُ فِي الْأَرْضِ » . ثم ناديت البائع فاشتريت منه أربعاً ، وفتحت واحدة أقرأ على صاحبى نتقاً من أخبارها فوقع نظرى فيها على كلام طويل عن الحكم على أحمد سيف الدين ، فأسمعتُهُ ما جاء فيه من وصف ما يقاسيه هذا الأمير من خشونة العيش في سجنه ، واستدرار الدموع لما يلاقيه هذا الغلام من ضيق السجن ، وهو من سلالة الولاة والأمراء . ثم قلت له بعد أن انتهيت من أقوال الجريدة في استعطاف القلوب والتماس العفو :

(عيسى بن هشام) — أنظر أيها الباشا كيف وصلت بنا الحال في المساواة ، وقد علمت ما أصاب « البرنس » أحمد سيف الدين من حكم الحاكم عليه ، فكيف تترفع
(٣)

نفسك بعد ذلك ، وتأبى الخضوع للقانون ، والامتثال لأحكامه ، والتوسل بطرقه للخلاص مما وقعت فيه .

(الباشا) — ما « البرنس » ومن أحمد سيف الدين ؟

(عيسى بن هشام) — أما « البرنس » فهو لقب أجنبي قديم كان يتلقب به رؤساء الدولة الرومانية قبل أن يجتثروا على الأمة بانتحال لقب « إمبراطور » ، ثم صار يُطلق بعدهم في أوربا على أعضاء بيت الملك وعلى رؤساء الحكومات الصغيرة ، ويُطلقه اليوم على أنفسهم أعضاء « العائلة الخديوية » ذكوراً وإناثاً ، وإن كان لا ذِكر له بين الألقاب الرسمية في الدولة العلية . وأما أحمد سيف الدين هذا ، فهو أحمد بن إبراهيم بن إبراهيم بن محمد على جد الأسرة الخديوية وعميدها ، وقد ارتكب جنابة فسحبوه إلى المحاكم ، واستحق العقاب الذي يقضى به القانون ، فحكب عليه المحكمة الابتدائية بالسجن سبع سنين ، فاستأنف يلتمس الشفقة والرأفة من قضاة الاستئناف ، فأتقصوا المدة إلى خمس ، ثم استغاث بمحكمة النقض والإبرام ، فلم تُعته . وقد انصرفت المساعي لانفاق أعضاء الأسرة الخديوية على التماس العفو عنه ، وذهبت أمه يميناً وشمالاً ، فلم تبق وسيلة من وسائل الاسترحام إلا سلكتها ، ولكن لا وسيلة مع القانون ، فان سيفه ماضٍ في كل الرقاب ، وسلطانه نافذ في كل الرؤوس . فهل يلبق بك حينئذ أن تشكبر وترتفع عن التوسل والتظلم ، وتأنف نفسك من السعى وراء « لجنة المراقبة » و « محكمة الاستئناف » ، وقد علمت من تاريخ الأمراء وأولياء النعم ما علمت ؟

(الباشا) — نعم كيف لا تحز الجبال الشم ، إذا استنزلوا منها الأراوى العصم^(١) . وكيف لا تنشق القبور ، ويُنفخ في الصور ، وقد انحلّ المقام ، وسفل القدر ، وحقّت كلمة ربك على مصر : « فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا » ، وما دام حفيد محمد على في السجن على ما تروى ، يخضع لحكم القانون ، ويتوسل بتلك الوسائل ، وتتشفع أمه بتلك الشفاعات ، فما على من عارٍ فيما تدعوني إليه ، فاذهب بي إلى حيث تريد ، وليتهم كانوا يقبلون مني أن أكون فدائ لابن سادتي وأولياء نعمتي ، فتضاف عقوبته إلى عقوبتي .

(١) الأراوى : جمع أروية وهو الوعل . والأعصم : ما في ذراعيه بياض وسائر أسود .

لجنة المراقبة

قال عيسى بن هشام : فسرّني من الباشا مطاوعتهُ إيَّايَ ، وقبوله انصيحتي ، ورضى بالتوجه إلى نظارة الحقانية ، فسار معي ، وهو مختنق بدمعه ، متعثر بقدمه . ولما وصلنا إليها ، قصدنا مكان « لجنة المراقبة » وهمنا بالدخول في حجرة المفتشين ، فنمنا الحاجب وطاب منا « الكارت » .

(الباشا) مستفهماً — ما معنى هذا اللفظ الأعجمي ؟

(عيسى بن هشام) — « الكارت » بطاقةٌ صغيرة يطبع عليها الاسم والعمل أو الحرفة والصنعة يقدمها الزائر قبل الدخول ليكون الزور بالخيار في قبول الزيارة أو التماس منها .

(الباشا) — لقد كانت أبواب التظلم مفتوحة في أيامنا لكل من يطرقها . وكيف ينطبق هذا التضيق على ما تصفه لي من المساواة في الحقوق والإنصاف في الأحكام ؟

(عيسى بن هشام) — لا يسلم الحال من زيارة زائر بغير شغل ، أو من لاجبة صاحب حاجة ، فوضعت هذه الطريقة ليمتفرغ الحكام لأعمالهم .

(الباشا) — ألم تكن هيبة الحكام وعزتهم بكافية لصدّ من ذكرت عن الدنومهم والتجرؤ عليهم ؟

قال عيسى بن هشام : وبادرت إلى القلم فكتبتُ ورّيقة باسم الباشا وسلمتها للحاجب . فجاءنا بعد الانتظار بالإذن ، فدخلنا فوجدنا أمامنا فتى من أجمل الفتيان ، قد أرسل لحيته قبل الأوان ، يتموج تحتها ماء الشباب ، كما يتموج الضوء وراء السحاب . ولما اقتربنا منه بعض الاقتراب ، رأيت في يده جريدة حساب ، يجمع في أرقامها ويضرب في أعدادها ، ثم يضع يده على جبهته ، كمن يتذكر رقماً سقط من حسبته ، وعن يمينه كتابٌ أعجميٌّ ، وعن شماله كتابٌ عربيٌّ ، فكتاب اليمين « لفولتير » الفرنسي الملاحد ، وكتاب الشمال لابن العربي المتصوف الموحد . ولما تقدمنا نحوه سألنا عن حاجتنا ، فذكرتُ له العريضة

التي قدمناها ، وقصصت عليه القصة ، وشرحت له ما عاملنا به القاضى من سوء المقاطعة ، فى الشهادة والمرافعة ، وهنا انبرى الباشا مخاطبته بقوله :

(الباشا) — وأدهى ما فى القضية وأمرٌ ما فى الأمر أن الذى تسمونه « الزائب » اعتبر رتبتي سبباً لإهانتى ، وما كنت أتخيل فى الأحلام أن الرتبة التى نلتها باقتحام الأخطار واحتمال المشاق تكون جريمة لا تغتفر ، وبرهاناً قاطعاً لديه فى تشييد دعواه يطالب به تشديد العقوبة ، فقولوا لى بالله : متى كانت هذه الرتبة الشريفة تستوجب العقاب والانتقام ، ومن أى صنف أتم بين صنوف الأنام .

قال عيسى بن هشام : ودخل أحد الزائرين فى هذه الأثناء ، فخدمت الله على انتقطاع الكلام بسبب دخوله ، وإلا فقد كان الباشا اندفع فيه ، بما يتعذر تلافيه . وبعد أن سلم الزائر ، سأل عما حدث من الأخبار ، فى وجه النهار . فناولهُ المفتش خطبة يتفكه بقراءتها ، بعد أن بالغ له فى بلاغتها . وما كاد يلتفت إلينا ثانية حتى وافاه أحد المفتشين من الأجانب ، فأطلعهُ على رسم فى ورقة زعم أنه نقشه فى أثناء مناقشة قانونية اشتمل فيها الخصاص ، واحتدّ الجدال ، فنظر الشاب فيه نظرة وضحك له ، ثم تخلص منه للاشتغال بأمرنا ، فخطب الباشا بكلام لطيف عذب ينبئ عن كرم نسبه وحسن أدبه ، وختم كلامه بقوله :

(المفتش) للباشا — قد اطلعت على ظروف القضية كلها فى « مصباح الشرق » ، فأما القاضى فقد يكون له العذر فى مقاطعة الحامى ، لأن منهم من اعتاد أن يأتى فى مرافعاته بتاريخ نشأة الخليفة ، وتكوين الجمعية البشرية ، وما يجرى هذا الجرى مما يطول شرحه ، ويمكّل سماعه ولا يكون له أقل ارتباط بجوهر القضية ، وهم يستعملون ذلك فى أيسر القضايا وأدناها ، ليقنع صاحب القضية أن الحامى لم يدخر لديه كلاماً يقال فى الدفاع عنه ، بقطع النظر فى ربح القضية أو خسرانها . فترى أرباب القضايا يمتدّدون أن الحامى لا يستحق أجره من المال ، إلا بكثرة ما يقال ، كالسلعة يكون تقدير ثمنها ، على كمية وزنها . فقد توقف بعضهم مرة عن دفع المتأخر من الجعالة لحاميه بعد أن ربح له

القضية بدعوى أنه لم يسمع منه كلاماً مطوّلاً في المرافعة يستحق عليه الأجر ، سواء أكان مفيداً أم مضراً بها ، وليس يخفى أن وقت القاضى قصير ثمين ، فلا يسهلُ إلا المقاطعة على المحامى المكثّر فى كلامه ، وكذلك تكون المقاطعة على الشاهد لتوجيهه إلى وقائع الحادثة لئلا يفوتها بالخروج عنها ، وحاصل الأمر أن القاضى لم يخالف القانون بشيء فيما أتاه معكم .

(الباشا) - ليت شعرى إذا اعتذرت عن القاضى فى مقاطعته ، فما العذر فى وضعه لى فى « قفص المتهمين » ، وتقييده لى بالقيام عند كل سؤال ، وأنا رجل شيخ معمر ، وقد قضيت عمرى فى المناصب العالية بالحكومة المصرية ، وبذلت دمى فى خدمة الأسرة الخديوية ، فهلا كان وقّرنى لسنى ، واحترمنى لقدرى ، وأتى قانون فى الدنيا يمنعه من ذلك ، وتوقيرُ السن طبيعى ، واحترامُ المقامات أمرٌ أصلى ، والله تعالى يقول . « وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ » .

(المفتش) - ذلك ما يقضى به القانون أيضاً ، فإنه قائم على المساواة بين الناس ، ولا فرق عنده فى المقامات والأعمار ، وهذا عين ما يأمر به الشرع الشريف ، وعَيْن ما يجرى على أعضاء الأسرة الخديوية ، وخاصة الحكام إذا ارتكب أحدهم ما يؤاخذهُ القانون عليه ، ولا معرفة عليك ، ولا غضاضة فى وقوفك أمام القاضى ، فإنما تقف أمام النائب عن الحضرة الخديوية وهى أكبر الدرجات .

(الباشا) - إن كان هذا حكمكم فى القاضى ، فما الحكم فى عضو النيابة الذى عيرنى بشرف رتبتي .

(المفتش) - أنا لم أطلع بعدُ على أوراق القضية ، وتفصيل المرافعة ، ولكن ما انتشر فى « مصباح الشرق » من كلام « النائب » لا يؤخذ منه معنى التعيير بالرتبة ، بل كان غرضه أن يثبت أن الرتبة ، مهما عظم شأنها ، لا يكون من حقها هضم حقوق الضعفاء ، والامتياز بها على الناس أمام القانون ، فإنها قاصرة على صاحبها لا تجعل له سبيلاً على محروم منها . ولا بأس عليكم من كلام النائب فى هذا الباب ، فإنه جرى بيننا مجرى العادة فى هذا العصر .

(الباشا) — إذا كان للقاضي العذر وللنائب الحق ، فما فائدة تظلمي لكم وحضوري أمامكم ، أفما كان من اللائق أن تزجروا القاضي ، وتؤنبوا النائب ، وتفحصوا القضية ، وتتثبتوا من بطلان التهمة ، وتفقدوا ذلك الحكم أمامها ؟

(المفتش) — ليس ذلك من اختصاصنا . وإذا وقع من أحد رجال المحاكم ما يخالف واجب وظيفته ، فالنظر في أمره موكل إلى « مجلس التأديب » ، ولا سبيل لرئيس على مرءوس إلا بحكم من المحكمة . وأنا آسف غاية الأسف لعجزنا عن التصرف في قضيتك ، والحكم فيها راجع إلى محكمة الاستئناف وحدها .

قال عيسى بن هشام : وكنت أشاهد في أثناء هذه المحاورة شاباً آخر بجانبنا من المفتشين يسطع « طربوشه » احمراراً ، ويقلب طرفه ازوراراً ، تلوح على وجهه مخايل الإمارة ، ولا تنفك يده في رفع وخفض « للنظارة » ، وتشهد عليه سيأه بالتفتن في التدبير ، وتدل على قوة الدهاء والتفكير ، فلما وصلنا إلى حيث وقف بنا الكلام ، رأيناه ينادي الحاجب ويقول له :

(المفتش الثاني) — على « بدلولوز » و « وجارو » .

(الباشا لعيسى بن هشام) — هل هذان الاسمان يُطلقان على القاضي والنائب ، وهل ترى هذا الشاب هباً للانتصاف لى منهما ؟

(عيسى بن هشام) — هذان اسمان لكتابين في فقه القانون بدل « ابن عابدين » « الهداية » في فقه الشرع .

وحضر خازن الكتب بالكتابين ، فردّ المفتش له أحدهما وقال له : ما طلبت « بودري » بل طلبت « جارو » . ولما جاءه به أخذ يبحث في الكتابين طويلاً ، ثم نظر للخازن نظرة اليأس وقال . اتئني « بفوستن هيلي » ، فأتاه بكتاب آخر ، فخرج منه بعد النظر الطويل إلى المناقشة مع زميله باللغة الفرنسية ، وانتهى الأمر بينهما أن قالاً للباشا معاً : لعل لك عذراً في القانون يمكنك أن تدلي به إلى الاستئناف في قضيتك ، وأما ما يختص بالقاضي والنائب فسنضع له « نوته » (مذكرة) ونقدمها إلى اللجنة عند انعقادها ، فإذا تبين لها

أقل خلل في تصرفهما أصدرت منشوراً إلى جميع المحاكم بعدم اتباع ذلك في المستقبل .
ثم ودّعانا بالاحترام والتعظيم ، وخرجنا والباشا يقول :

(الباشا) — قد كتب على أن لا أخرج من همّ إلا إلى همّ ، ولا أنتهى من كدر إلا إلى كدر ، حتى كاد يصفو بالي ويخلو خاطرى لكثرة ما تراكم على من الهموم والأحزان :
فإني رأيتُ الحزنَ للحزن ماحياً كما حُطَّ في القرطاس رسمٌ على رسم

ومن البديع الغريب في أمر هذه الحكومة الحاضرة أننى ما وضعت قدمي في دائرة من دوائرها إلا رأيت أُمّى غلماناً وفتياناً يتولّون أمورها ، ويتصرفون في أعمالها ، فهل خلّق المصريون خلقاً جديداً ، أم صاروا في الجنة استوت فيها الأعمار ؟

(عيسى بن هشام) — لا تعجب من نقل الشبان لمناصب الحكومة ، فإن نظام هذا العصر يقضى بذلك ، وهم يزعمون أنه ليس في استطاعة الكهول والشيوخ أن يقوموا بأعباء المناصب خلّوهم من علومها الجديدة وجهلهم بفنونها الحديثة .

(الباشا) — كيف يدّعون أن العلم ينحصر في الشبان دون الشيب ، وما عهدناه إلا فيمن أحنّت السنون ظهورهم ، وبَيّضت التجاربُ مفارقهم ، فابتسم فيها بياض الرأي والأدب .

(عيسى بن هشام) — هم يقولون إن العلم والمعرفة لا يختصان بسن دون سن ، ولا عمر دون عمر ، وربما أن كان الشاب أنفذ سهماً في حلبة العلوم ، وأجمع لشتات الفنون لما يختص به من حدة الذهن وسرعة الإدراك ، فإذا انصرف بهمة إلى الدرس كان نصيبه منها أبلغ من نصيب الكهول والشيوخ ، وأغناه ذلك عن طول الممارسة وكثرة التجارب التي يمتاز بها ذوو الأسنان والأعمار .

ليس الحداثة عن علم بمانعة قد يُوجد العلم في الشبان والشيب
(الباشا) — ولنرجع إلى شأننا ، فقد اتبعت آراءك وامثلت نصائحك ، وعرضنا أمراً للجنة المراقبة فخرجنا منها بالخيبة كما ترى ، فليس لنا بعد هذا التعب إلا الركون إلى حالة

اليأس ، ولم يبق لك بعد اليوم وجه في أى احتجاج وجيه توجهنى به ، وتسحبني معك للسعى والتظلم أمام الحكام .

(عيسى بن هشام) — لا تيأس ولا تقنط ، فإن أمامنا محكمة الاستئناف ، ولى اعتماد عظيم على إنصافها فى الأحكام ، ولو خاب فيها الأمل على الفرض والتقدير ، فلا يزال عندنا باب العفو مفتوحاً نلتمسه بوساطة ناظر الحقانية

(الباشا) — لا تذكر لى من الآن حاكماً ولا ناظراً ، فقد سئمت من وقوفى أمام هؤلاء العلمان والشبان ، مهما بالغت لى فى الوصف ، واستشهدت فيهم بالشعر

(عيسى بن هشام) — ليس ناظر الحقانية الذى أذكره لك من صف هؤلاء الشبان وطرازهم ، بل هو رجلٌ كهلٌ ، عاكف على العبادة ، منكبٌ على الأوراد ، منصرفٌ إلى الأذكار . يُسمى ليله قائماً ، ويصبح نهاره صائماً ، فبين السبحة وأصابعه عهدٌ وميثاق ، وبين السجادة وجهته ارتباط والتصاق . وبالجملة فهو يذكركنا فى هذا العهد الجديد بهدكم القديم ، وأبوه رجل من أكابر رجالكم اسمه حسن باشا المناسترى .

(الباشا) — حسن المناسترى !! ذاك خليلى وقرينى ، وصاحبى وخدينى ، ورفيقى فى الخدمة وأخى فى الحكومة ، ولماذا لم تخبرنى عن ابن أخى هذا من أول الأمر فتكون قد حقنت ماء وجهى ، وأنقذتنى من كل هذه الإهانة وذلك التحقير ؟

(عيسى بن هشام) — ما غاب عني أن أذكرك به ، فإنه لم يكن له أقل نفع يدفع عنا ما تقلبنا فيه من المصائب ، وإنما نفعه يكون فى آخر الدرجات ، ولا عمل نرجوه منه فى مساعدتنا إلا بعد صدور حكم الاستئناف والسعى فى التماس العفو من ولى الأمر .

محكمة الاستئناف

وَأَن أَوَانُ الْجُلُوسَةِ فِي الْإِسْتِنَافِ . فَنَسَرْنَا فِي طَلَبِ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ ، وَكَمْ وَاحِدٌ مِّنَا مَشْغُولٌ بِحَاجَتِهِ ، لَا يَنْزِلُ . فَالْبَاشَا يَفْكَرُ فِي مَصِيبَتِهِ ، وَيَتَأَلَّمُ مِنْ بَلِيَّتِهِ . وَالْحَامِي يَدْبِرُ فِي أَمْرِهِ ، وَيَتَطَّلَعُ لِأَجْرِهِ ، وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا النِّجَاةَ ، مِنْ مَّكَائِدِ الْحَيَاةِ . وَلَمَّا وَصَلْنَا إِلَى حَيٍّ « الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ » ، وَرَأَى الْبَاشَا دُورَهَا وَمَبَانِيهَا ، وَشَاهَدَ قُصُورَهَا وَمَغَانِيهَا ، وَاسْتَطَابَ رِيَاضَهَا وَحَدَائِقَهَا ، وَاسْتَنَشَقَ رِيَاحِيْنَهَا وَشَقَائِقَهَا . اسْتَوْقَفْنَا سَائِلًا مَبْهُوتًا ، وَاسْتَنْطَقْنَا بَعْدَ أَنْ كُنَّا سَكُوتًا . فَقَالَ : أَلَا تَخْبِرُنِي عَنْ مَوْضِعِ هَذِهِ الْجَنَّةِ الزَّاهِرَةِ ، مِنْ مَدِينَةِ الْقَاهِرَةِ . فَقُلْتُ لَهُ هَذِهِ « الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ » ، اخْتُطَّهَا إِسْمَاعِيلٌ ، فِيمَا اخْتُطَّهُ لَزِينَةُ وَادِي النِّيلِ ، يَسْكُنُهَا الْيَوْمَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعِظَاءِ ، ذَوِي الْغِنَى وَالْإِثْرَاءِ ، وَقَدْ كَانَتْ فِي أَيَّامِكُمْ خَرَابًا قَفْرًا ، لَا تَحْمِلُ بَيْتًا وَلَا تَرْفَعُ قَصْرًا ، وَلَا تَرَى فِيهَا مِنَ النَّبَاتِ غَيْرَ الطَّلَحِ الضَّالِّ ^(١) . وَلَا مِنَ الْأَزْهَارِ غَيْرَ الشُّوكِ الْقَتَادِ أَوْ شُوكِ السِّيَالِ ^(٢) ، وَلَا مِنَ الطَّيْرِ غَيْرَ الْبُومِ وَالْغُرْبَانِ ، أَوْ الرَّخَمِ وَالْعِقْبَانِ ، وَلَا تَجِدُ فِيهَا مِنَ الْإِنْسِ إِلَّا لَصًّا سَالِبًا ، أَوْ مَغْتَلًا نَاهِبًا ، أَوْ فَاتِكًا مُتَاهِبًا ، أَوْ كَامِنًا مُتَرَقِّبًا .

(الباشا) — اللَّهُ دَرِ الْمَصْرِيِّينَ ، لَقَدْ ابْتَسَمَ لَهُمُ الدَّهْرُ ، فَأَبْدَلَهُمْ مِنَ الشُّوكِ الزَّهْرَ ، وَأَسْكَنَهُمْ هَذِهِ الْقُصُورَ الْعَالِيَةَ ، بَعْدَ تِلْكَ الْأَطْلَالِ الْبَالِيَةِ .

(الحامى) — أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، لَا تَغْبِطِ الْمَصْرِيَّ عَلَى نِعْمَتِهِ ، وَتَعَالَ فَا بَكَ مَعْنَا مِنْ نِقْمَتِهِ ، فَلَيْسَ لَهُ فِي هَذِهِ الْجَنَّةِ مِنْ دَارٍ ، يَقْرَءُ فِيهَا مِنْ قَرَارٍ ، وَكُلُّ مَا تَرَاهُ مِنْ هَذَا الْجَانِبِ ، فَهُوَ مَلَكٌ لِلْأَجَانِبِ .

(الباشا) اللَّهُ أَبُوكَ ، كَيْفَ يَخْتَصُّ الْأَجْنَبِيَّ دُونَ الْوَطْنِيِّ بِهَذِهِ الْجَنَانِ الْفَاضِرَةِ ، وَيَسْتَأْثِرُ دُونَهُ بِهَذِهِ الْمَسَاكِينِ الْفَاحِرَةِ ، وَلِمَلِكٍ تُلَافُزُ فِي قَوْلِكَ وَتُحَاجُّ فِي تَعْبِيرِكَ وَتُدَاجِي .

(١) الطَّلَحُ : شَجَرٌ عَظَامُ تَرَعَاهَا الْإِبِلُ . وَالضَّالُّ : السِّدْرُ الْبَرِّيُّ

(٢) الْقَتَادُ : شَجَرٌ صَلْبٌ لَهُ شُوكٌ كَالْأَبْرِ . وَالسِّيَالُ : جَمْعُ سَيْالَةٍ نَبَاتٌ لَهُ شُوكٌ أَيْضًا

(الحامى) — لانتحجية ولا نعمة ، بل هكذا قدّر المصرى لنفسه ، وتبدّل سعده بنحسه ، واقتنع من دهره بالدون وبالطيف ، ورّضى بالقسم الخسيس الضعيف . . . فبات محروماً تحت ظل إهماله وخوله ، وغداً بائساً فى سبّاته وذووله ، وما زال الأجنبيّ يسعى ويكدّ ، ويعمل ويجدّ ، وينال ثم يطعم ، ويسلب ثم يجمع ، والمصرى يبذر بجانبه ويسرف ، ويبدّد ويقتلف ، ويتحسر ثم يلهو ، ويعجز ثم يزهو ، ويفقر ثم يفتخر ، فتساوى السيد والسود ، وتشابه الحاسد والمحسود ، وتعادل الرفيع والمنيع ، بالحقير والضيع ، واشتركتنا كلنا على السواء ، فى منازل الشدة والبلاء ، وأصبح نصيب القوى المسكين ، مثل نصيب الضعيف المستكين ، وكذلك تكون عاقبة من يُلقى للأجنبيّ بيديه ، ومن أعان ظالماً سلط عليه :

ومن يجمل الضرغام بازاً لصيدهِ تَصِيدُهُ الضرغامُ فيما تصيِّداً
قال عيسى بن هشام : وما كاد ينتهى رفيقائى من خطابهما ، وفرغان من سؤالهما وجوابهما ، حتى مر بنا راكب درّاجة تنساب به كالصلال^(١) ، فى بطون الرمال ، ويتميل بها تمايل النشوان مالت به نشوة الخمر ، وينثنى انثناء الأغصان هزها نسيم الفجر . فامتلاّ الباشا تعجباً واندهاشاً . وسألنا الشرح والبيان ، عن أمر هذا « البهلوان » ، فقلت هذه عجلة حادثة يختارها بعض الناس ، على المركبات والأفراس ، ومما يرغبهم فيها أنها لا تأكل ولا تشرب ، ولا تهزل ولا تتعب ، وهذا الراكب من أهل القضاء ، يركبها لرياضة الأعضاء ، فأتبعه الباشا نظره ، فوجده قد سقط فجأة من فوق دراجته ، فانفرط عقد الهيئة على سطح الأرض إلى ثلاثة أقسام : الراكب والعجلة والظربوش ، ثم رأيناه تماثل للقيام فلمّ شعته ، وحاول أن يعلو الدراجة ثانية ، فلم يقدر عليها ، فسحبها بيده يجرها ويماشيها ، وأخذ الباشا يخاطبنا فيه وفيها .

(الباشا) — يا حبذا لو عدنا من حيث أتينا ، وكنا مطّاقين لانا ولا علينا ، وكيف يكون شأن القاضى أو الحاكم إذا كان هذا منظره وذلك مركبه أمام أعين العامة ، وهل

(١) الصلال : جمع صل ، وهو الحية .

حُكِّمَ النَّاسُ يَوْمًا بغيرِ أُبهةِ الحجاب وعظمة المناظر ونخامة الموابك ، وقد كان الحاكم أو القاضى لا يركب فى عصرنا إلا فى موكب تحف به الحشم والأعوان ، وتتقدمه الجنود والفرسان ، فترتجف منه القلوب رُعباً ، وتخرّ له الأعناق رهبا ، وقُلَّ من يجترئ من الناس على ارتكاب ما يقفه أمامه يوماً موقف التهمة والارتياب

(عيسى بن هشام) — ذاك عصر مضى ، وحكم انقضى ، ولقد تفنن أهل العصور الماضية فى وصف ما تذكره من منظر الأبهة والجلال ، وهيئة العزة والوقار ، حتى أدخلها الشعراء فى مخالصهم البديعة ، كقول أبى الطيب فى ممدوحه مثلاً :

جمع الزمانُ فما لذيذُ خالصٍ مما يشوبُ ولا سرورُ كاملٍ

حتى أبو الفضل بن عبد الله رؤى يته المنى وهى المقامُ الهائلُ

(الحامى) — قد آن أن نفرغ من هذا الحديث ، فقد اقتربنا من المحكمة .

(عيسى بن هشام) — ولعلنا نجد لها باذن الله فى مكانها ، فقد تعودت التنقل من مكان إلى مكان ، حتى أشبهت خيام العرب :

يوماً مجزوى ويوماً بالعميق وبالـمُعْذِيبِ يوماً ويوماً بالخليلضاء

ثم اقتربنا فوجدناها ، وأقمنا فى ساحتها ننتظر نوبتنا بين أرباب القضايا ، حتى نودى علينا ، فتقدمنا للجلاسة أمام ثلاثة من القضاة ، فأخذ الأجنبى منهم يقرأ « ملخص القضية » بلهجة أعجمية ، وحروف لم تستوف نخرجها فقال : « إن هذا الرجل متهم بالتعدى على فلان العسكرى بالضرب فى أثناء تأدية وظيفته فى يوم كذا من شهر كذا ، والمتهم أنكر ، وشهد الجنى عليه ، ودلّ الكشف الطبى على وجود علامات فيه للضرب ، والمحكمة الابتدائية حكمت عليه بالحبس سنة ونصفاً بالتطبيق على مادتي ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات ، فاستأنف المحكوم عليه . »

ولما سألت الحامى عن هذا التلخيص الغريب قال لى : هكذا تجرى العادة هنا ، فيأخذ مثل هذا القاضى الأجنبى عبارة الديباجة المذكورة فى الحكم الابتدائى ، فيجملها تلخيصاً للقضية ، ثم يكتبها بعربيتها بحروف أجنبية ، ليقرأها أمام الجلسة على نحو ما رأيت .

ثم التفت رئيس الجلسة إلى الباشا وسأله عن اسمه وسنه وصناعته ومحل إقامته ، وأشار إلى النيابة بالكلام ، فشرع النائب في شرح القضية على ما يوافق هواه ، ولم نسمع من الرئيس مقاطعة له في كلامه ، كما يكون في المحاكم الابتدائية ، (والسر في ذلك أن بعض القضاة الذين لم يكونوا اطلّعوا على أوراق القضية في الاستئناف هم في حاجة إلى العلم بها من أقوال النائب فيتركوه وشأنه في التطويل والإسهاب) ، ثم أذن الرئيس بالكلام للمحامى مع الإيجاز ، فابتدأ المحامى بسرد أقواله في أوجه الدفاع عن المتهم ، وكما وصل إلى النقطة المهمة في دفاعه ، قال له الرئيس : « الموضوع » « طلباتك » . ولما تكرّر منه وقوع ذلك ، رأيت أحد القضاة يذنبه الرئيس إلى أن كلام المحامى في عين « الموضوع » (والرئيس العذر لأنه لم يطلع على تفصيل القضية ولم ينصت لأقوال النيابة) ، ثم نطق الرئيس بعد ذلك بقوله : « سمعت القضية والحكم بعد المداولة » فانقلبت الجلسة إلى حجرة المداولة ، وخرجنا ننتظر ، وسألت المحامى عن المدة التى تنقضى في المداولة ، فأجابنى :

(المحامى) — لا تزيد مدة المداولة في الغالب عن ساعة واحدة .

(عيسى بن هشام) — وما هو متوسط عدد القضايا في الجلسة ؟

(المحامى) — متوسطها عشر قضايا .

(عيسى بن هشام) — وهل تكفى هذه المدة للاطلاع على ما تحتويه القضايا الجنائية من كثرة الأوراق ؟

(المحامى) — نعم تكفى عندهم ، وطالما اطلعنا على القضايا التى تعود من عند القاضى « الملخص » إلى قلم الكتاب لاطلاع المحامين ، فنجد عليها رمزاً بأحد هذه الأحرف : « ب » « ع » « ت » ، فالباء إشارة إلى البراءة ، والعين إشارة إلى العقوبة ، والتاء إشارة إلى تأييد الحكم الابتدائى . وإنما يضع القاضى هذه الرموز حتى لا ينسى رأيه في القضية عند عرضه على زملائه في المداولة ، فإذا عرضه عليهم لم يضع الوقت بينهم سدى في البحث والمناقشة ، ولكن لما كان اتقاضى الجنائى له الاستقلال المطلق في الحكم بما يرتاح إليه ضميره ، وتطمئن به نفسه ، كان من الواجب عليه أن يسلك غير هذا الطريق ،

ويفحص أدلة الثبوت ، وأدلة البراءة بنفسه ، فيعرضها على ضميره وهو خالٍ من كل اعتقاد خاص للبراءة ، وللتهمة ، حتى إذا استقامت لديه الأدلة ، حكم بما يغلب عليه منها ، لا أنه يجرى في طريق التسليم لرأى غيره ، ولا أن يكون الحكم مبتوتاً في القضية بأحد هذه الأحرف الثلاثة التي عنت للقاضي الملخص وهو يمر عليها في انفراده ببيته مرةً السحاب .

قال عيسى بن هشام : وبيننا نحن في هذا الكلام ، إذ عادت الجلسة إلى انعقادها ، فدخلنا لسماع الحكم ، فنطق الرئيس ببراءة الباشا ؛ لأن التهمة وإن كانت ثابتة عليه إلا أنه قد حالت دونه ودون دعوة القانون قوة قاهرة . فخرجنا مسرورين بهذه النعمة ، وخرج الباشا وهو يقول : *force majeure*

(الباشا) — لا أنكر اليوم أن العدل موجود ولكنه بطيء ، لا يتحمل أعباء بطئه البريء ، وكان الأولى في هذه المحاكمات أن تكون النهاية في البداية ، فلا يلحق من كان مثلي هذا الهوان والصغار ، ويقع به ما وقع من الحبس والعار ، بعد أن يقف موقف التهمة والإجرام ، ويحل به ما يحل من التعذيب والإيلام .

(الحامى) — إني أهنتك بهذه البراءة ، وأسأل لك دوام العافية من مصائب الاتهام ، ولا زلت تخرج من كل قضية خروج السهم من قوسه ، والسيف من غمده ، وقد مضى منى الدفاع ، وبقي عليك الدفع .

قال عيسى بن هشام : وما زال الحامى عاكفاً عايناً يطالبنا بالأجر ، والباشا يعده لآخر الشهر ، حتى يأتيه بعضُ خدمه وأتباعه ، بمال من عقاره وضياعه ، والحامى يأبى التسوية والإمهال ، وإلا الدفع في الحال .

(الحامى للباشا) — أظن أن هذه الوعود ، تقوم لدينا مقام النقود ، في بلد كثر فيه الإنفاق وزادت الضرورات ، وقل فيه الربح كما قلت المروءات ، وصار الدرهم أعز عند الأب من بنيه ، وعند الابن من أبيه ، ولقد تعبت في القضية تعبين باللسان وبالجنان ، ولا أستريح منهما إلا بنقد الأصفر الرنان ، وإنك لا تصرفنى — وإن كنت محمود

الخلق — بالوعد ، ولكنك تصرفني — وأنا أحمد — بالنقد ، وإني لا أريد أن أسكن في بيت المتنبي : أنا الغنيُّ وأموالي المواعيد
فلا تجعل الخلاص من قضية بقضية ، والفكاك من بلية ببلية ، فذلك ما لا يأتيه العقلاء ، ولا يرتضيه الأمراء .

قال عيسى بن هشام : ولما رأيت الباشا لم يقدر على التلطف ، من شدة الحنق والتغيظ ، وقفت بينهما وقفة الأريب ، وتوسطت توسط اللبيب ، فملت بلطف الالتماس والرجاء ، رضاء الحامى بالمهلة والإرجاء ، إلى أن ينتقل الباشا من العوز والعسر ، إلى الغنى واليسر ، وقلت له ما يقال له في باب المروءة والهمة ، من وجوب الحنوع على من يقع في مصيبة أو ملة ، وأن من تذكّر الدهرَ وغيره ، والزمانَ وغيره ، لانت عريكته ، وطاوعت شكيمته ، وليس بين صمود المرء ونزوله ، وإشراق سعده وأفوله ، وبين غناه وفقره ، وصفوه وكدره ، إلا مسافة انقضاء القضاء ، من رب السماء . فنظر إلى الباشا نظرة الاحتقار والازدراء ، وخطبني بالأنفة والكبرياء :

(الباشا) — لبئس الخدين أنت والقرين ، كيف تسمنى بسمه الفقراء ، وتستمعظ على قلوب الضعفاء ، وأنا الأمير السري ، والغنى المثرى ، وأين ما ادخرته في عمرى ، واكتنزته في عصرى : من مال وعقار ، وفضة ونضار ، وقصور وضياع ، وزخرف ومتاع ، ولقد كان يضرب بغناى المثل ، فإن كنت جاهلاً بى فسل ، اذهب فأتنى بخبر ما خلفت وأبقيت ، وأثر ما جمعت واقتنيت ، وكيف يخفى عليك وعلى الحامى مالى من الأموال والعقار ، وما قضيت فيه العمر من الجمع والادخار ؟ فإني يشهد الله ما تركت حملة ، ولا أغفلت وسيلة ، في الحصول على الإثراء والغنى ، حتى جمعت منه كثيراً مما تفرّق على الورى ، فجعلته عُدّة لشد أزرى ، وأماناً لى من مصائب دهرى ، وتركت ذخيرة لأبنائى وحفدى ، وميراثاً لأعقابى وذريتى ، ليكونوا من ذل الحاجة في جنة^(١) ، ومن نعيم العيش في جنة ، وتركتهم على ذلك مطمئن القلب مستريح الفؤاد ، رفيع الذكري رفيع العماد .

(١) الجنة : السترة وكل ما وقى من السلاح .

(المحامي) — إنا لنعلم ، يا معشر الأمراء والحكام ، أنكم قضيتم الأعمار في جمع الحطام ، واتخذتم الحكم والسلطان تجارة من التجارات ، وبضاعة من البضاعات ، ترجون منها الغنى والثروة ، ولم تكونوا تعلمون للحكم من مزية سوى اكتناز الأموال ، واستلاب الحقوق ، وابتزاز الدراهم من دماء الأراامل والأيتام ، وانتزاع الأقوات من أفواه الأطفال واليتامى ، وكنتم سواء عليكم أخزتم المال من حله أم من غير حله ، لم تبالوا بالضعيف المسكين ، ولم ترثوا للعاجز المستكين ، بل ظلمتم البريء ، وبرأتم الظالم ، فجعلتم لديكم من أثر ذلك مالاً يقدر من الأموال ، ورضيتم بالوزر ، وطوقتم أعناقكم بالإصر ، ثم حرمتهم بعد ذلك على أنفسهم التمتع بما جمعتموه ، وحرمتهموها من كل ما حزنتموه ، ولم تكونوا من الذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، ولم تؤدوا ما فرضه الله عليكم فيها من الحقوق ، ولم تطهروها بزكاة ، ولم تزكوها بإحسان ، وأطربكم رنين الدرهم فوق الدرهم ، وصمت الدينار مع الدينار ، وأبدعتم ما شئتم في وسائل وطرائق يأبأها الله لعباده ويمقتها ، ويستبشعها الإنسان ويستظعمها ، لسلب ما سلبتموه ، وكنز ما كنزتموه بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، واجترأتم على الله في أوامره ونواهيه ، وكلفتم العلماء بتأويلها على أهوائكم ، فأولوها لكم لانهصار الأرزاق في أيديكم ، واحتياجهم إلى ما يقتاتون به من فضلات عيشكم ، فالوزر عليكم وعليهم ولكنه عليكم أعظم وفوقكم أثقل ؛ حتى إذا انقضى العمر وحل الأجل ، تركتم ما خلقتموه لغلة من أولادكم ، وصبايا من جواريتكم ، نشأوا بينكم على الحرمان ، ولم تتفقوهم بالتعليم ، ولم تتركوهم للزمن يؤدبهم ، وللأيام والليالي تهذبهم ، فكنتم في أعينهم كالرصد الذي يكون على باب الكنز — كما يقال في الأفاصيص — يحتالون لنقله بقله ، فإذا استراحوا منكم بالموت أو القتل ، مزقوا أموالكم انتقاماً منها ومنكم ، وفرقوا شملها في أدنى من لحظة ، جهلاً منهم بوجوه التصرف وأبواب التمتع ، فما هو إلا أن يتسابق الدود والورثة في أحشائكم المدفونة ، وأحشائكم الخزونة ، فيسبق الورثة الدود ، في الصدور والورود ، فتذهب البدر وراء البدر ، والضيعة بعد الضيعة ، والدار عقب الدار ، حتى إذا لم يبق إلا بيت السكن أتوا على ما فيه من الأثاث بيعاً ، وما في أعناق الجوارى من الجواهر

والقلائد رهناً ، ولا يزالون يحلّون من البيت حجرة إثر حجرة ، والدائنون يدخلون فيه خطوة إثر خطوة ، إلى أن يندك بناؤه ، ويعفو أثره ، ويزول اسم بانيه الذى ارتكب ما ارتكب من الذنوب لتشييده ودوام بقائه ، وهو يشيع منهم باللعنتين في الحالتين : حالة الخلاص منه بالتشييع إلى القبر ، وحالة أسفهم على إهماله إياهم من تنقيف العلم بما كان ينفهم في خشونة الفقر .

هذه أيها الأمراء عاقبة ما صارت إليه أموالكم ومقتنياتكم من بعدكم ، وياليت أولادكم وأحفادكم خففوا عليكم من الإثم في جمعها من دماء المصريين بانفاقها بينهم ، وتبذيرها فيهم ، فيكون ذلك منهم كردّ بعض الحق إلى أهله ، ولكن البلاء كل البلاء أنها ذهبت جميعاً إلى أيدي الأجانب والغرباء ، وكأن الدهر سلط الممالك على المصريين ينهبون أموالهم ، ويسلبون أقاتهم ، ثم سلطكم الله عليهم لسلب ما جمعوه ، ثم سلط عليكم أعقابكم فسلّوا مجامع ذلك للأجانب يتمتعون به على أعين المصريين ، والمصريون أوّل بالقليل منه ، وما دَفَعَ بأعقابكم إلى هذا اللين والتسليم إلا ما ورثوه عنكم من الاحترام لشأن الأجنبي والاحتقار للجانب المصرى ، وأنكم لم تكتفوا بأن تكونوا أرباباً للمصريين ، حتى شاركتهم معكم الأجنبي في تلك الربوبية فغلبكم عليها ، وأشرككم مع المصريين في العبودية ، وتشابهت الموالى بالعبيد ، وقد آن أن تعلم أيها الأمير بأن جميع أقرانك وإخوانك من ذوى الثروة واليسار في أيامكم قد أصبحت بيوتهم خاوية على عروشها ، وأبصار أعقابهم شاخصة إليها ، فإن أردت أن تبحث عن أموالك وضياعك اليوم ، فابحث عنها تحت ثفال^(١) تلك الرّحى ، وقلّ معنى ما يقوله الشاعر الحكيم :

يقول الفتى ثمرتُ مالى وإنما لوارثه ما ثمرَ المالَ كاسبه
يحاسب فيه نفسه في حياته ويتركه نهياً لمن لا يحاسبه

فيا عبث المدّخر الجامع ، ويا غبن المسكنز الطامع ، ما كان أغناكم عن الجمع والادّخار ، وعن الحرمان في الدنيا والخلود في النار .

(١) الثفال : جلد يبسط تحت الرحى والحجر الأسفل من الرحى .

(الباشا) — أراك قد تجاوزت أيها المرشد الواعظ حدك في اللوم والتعنيف ، وخرجت عن طورك في العذل والتعزير ، وكان بودى أن أعطيك أجرك مضاعفاً ، ولا أشاهد منك هذه الجراءة علينا بسوء التقريع والتوبيخ ، وربما قلت حقاً في بعض ما تقول ، والرجاء في غفران الله عظيم ، وفي رحمته متسع ، ولعل ما تخلل أعمالنا في أيامنا من الحسنات يشفع لنا في ما اقترفناه من السيئات ، ولكن كيف التدبير الآن في اكتساب المعيشة ، والاحتياج للتماس الرزق ، بعد أن ضاعت الأموال وذهبت من أيدينا الأحكام على نحو ما تروى وتحكى ، وما أرى لضيق من الفرج إلا أن أورد نفسي حتفها ، وأعيد لها حمامها ، فما أروح ما كنت فيه من ظلام الرمس^(١) ، وما أقبح ضياء هذه الشمس .

(عيسى بن هشام) — ليس لمثل حالتكم غير الأسف منا ، والتوجع لكم ، فقد تمكن الاعتقاد في رؤوس الحكام أن ما يقع بالانفاق لهم أحياناً من ولاية الأحكام ، هو قياس مُطَرَّد ، وصراط مستقيم ، لا ملجأ لكم سواه في وجوه المساعي ، وممارسة مطالب الحياة . وقامت الولاية عندكم مقام بقية الآلات والصناعات التي يجتني أهلها منها ثمر الارتزاق والتكسب ، فإذا خلت أيديكم منها ، واعتزاتم الأحكام ، تقطعت بكم الأسباب ، وضاعت بكم السبل في وجوه المعاش ، كما تصاب يد الصانع بالشلل ، فيتعطل عن العمل ، ويصبح كلاً على كاهل الجميع ، يرجو الموت كما رجوت ، ويتمنى راحة العدم كما تمنيت ، وكأنكم أيها الحكام صنف فوق أصناف الخلقة لكم نصيب من العيش دون سائر الخلق ، فلا تكونون إلا فوق ذهب العرش ، أو فوق خشب النعش ، وقد قال مسكين من رؤساء صناعتكم هذه ، وهو في ضيق الحبس ، وضيق النفس :

ونحن أناس لا توسط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

ومعلوم لك ما في هذه الصناعة ، صناعة الولاية والحكم ، من قلة ما يرفعه الصدر ، وكثرة ما يضمه القبر ، وكان الأولى بكم أن تكونوا كالناس في معاشهم ، لكل إنسان آلة بيّنة من صناعة أو حرفة أو مهنة يُحسن بها العيش والارتزاق ، حتى إذا أتم زلتهم

(١) الرمس : القبر .

عن تلك العروش ، دخلتم في بقية الأحياء من أفراد الجمعية تنفعون وتنفعون .

(الباشا) — تالله إن ما قاسيته من الآلام أمام الموليس والنيابة والمحكمتين واللجنة كان أقلّهما وأدنى شجناً من مرارة هذا النصيح والودظ ، وما رأى عندكما ، وقد فات وقت التحصيل والطلب ، ولم يبقَ وقت للصناعة والعمل ، والمودظة صالحة نافعة ، ولكنها لمن يجيء ، لا لمن يمضي .

قال عيسى بن هشام : فأحزنتني حالة الرجل ، وأشفقت عليه ، فأخذت أتدبر له وأتفكر في طريقة يتعيش بها ، وكلما خطر لي في ذلك خاطر خاب رجائي فيه ، حتى كدت أياأس من الحيلة ، والباشا ينظر إليّ وأنا في تفكيري تارة ، ويطرق للتفكير في نفسه تارة أخرى . ثم رأيته قد انتفض من مكانه وأخذ بيدي يقول لي :

(الباشا) — قد وجدت والحمد لله باباً لسد العوز وكفاف العيش .

(عيسى بن هشام) — ماذا وجدت ؟

(الباشا) — كان من عادة الحكام أمثالنا في الأزمان السالفة أن يأتوا فيما يأتونه من أعمال الخير التي تقرّبهم من الله وتعتق رقابهم من النار بعملٍ صالح اتفقوا عليه كافّةً ، وهو إقامة بناء لجامع أو كتّاب أو « سبيل » ، وكانو يخصصون له أرضاً أو ضيعة وقفاً عليه للانفاق من ريعها على طول الزمان ، وقد سلكتم مسلكهم ، واتبعت سلتهم ، وخلفت لذلك وقفاً عظيماً لا تناله أيدي الأعقاب بالإتلاف والتبذير ، فهلمّ معي نبش على ما شيدته ووقفته .

الوقف

قال عيسى بن هشام : وظلمت أنا والباشا نواصل الطواف بالطواف ، لوقوف على تلك الأوقاف ، ونسائل العابر وابن السبيل ، عن المسجد و « السبيل » ، ولا سؤال المجذب عن الروض ، والظمان عن الحوض ، فلم نجد من يرشد ، إلى ما نئشد . وأخذ الباشا يتذكر الطرقي وأماكنها ، والأزقة ومسكنها ، ويقول كان هنا وكان هنا ، جلّ ما يقضي به إلهنا . وما زال يقاصر في خطواته ، ويطاول من آهاته ، ويبكي لرسوم الأطلال والديار ، بكاء صاحب عزّة^(١) أو صاحب نوار^(٢)

فاسألنّها واجمل بكاء جواباً تجدد الدمع سائلاً ومجيباً

حتى وصلنا بعد طول التجوال والتجواب ، وترداد الحجى ، والذهاب ، إلى مُعْطَف مضيق ، في منتهى الطريق . فوقف الباشا هناك قبالة دور مهدّمة ، وجدرانٍ محطّمة ، ومسجدين في ناصية منه حانوت خمار ، وفي زاوية منه دكان عطار ، وبجانبهما حوانيت متباينة الأوصاف ، مختلفة الأصناف . فطلق الباشا يصعد نظره فيها ويصوّبه ، ويخطّئ حدسه تارة ويصوّبه ، فهدهاه طول النظر والتدقيق ، وشدة الإمعان والتحقيق ، أن رأى شيخاً فانياً متربعا في دكانه ، متحيزاً بمكانه ، عليه علامات الانحلال والسقوط ، وشارات الخذلان والقنوط ، وسيا الرضاء بالمقسوم ، والتسليم للقضاء المحتوم ، له جبهة كأنها من ورق البردي العتيق ، تتلو فيها ما دوّنه الدهر من آيات الشدة والضيق . نفرج الباشا في الحال من حال المتحير المتردد ، إلى حال الواثق المتأكد ، فنادى صاحب الدكان عن بُعد نداء السيد للعبد ؛ فانتفض الرجل انتفاضاً عجيباً ، وقصده مُلبياً ومُجيباً ، فما شككت من هيبة النداء وأدب التلمية ، إلا أن ملكاً ينادى أحد الحاشية . ووقف الرجل أمامنا وقفة الممثل الخاضع ، والمطيع الخاشع . فقال له الباشا ، بعد أن حدّد فيه نظره ، واستجمع فكره :

(١) عزّة : هي التي كان يتشبب بها كثير الشاعر

(٢) نوار : هي امرأة الفرزدق التي كان يتشبب بها

(الباشا) — أَلستَ أنتَ أحمدُ أغا الرِّكبدارِ المَعدودِ من أهلِ حاشيتي ، أَلّا تعرفني من أنا؟

(صاحب الحانوت) — لولاً أن الموت حجاب كثيف ، وحجّاز منيع بين ظهر الأرض وبطنها ، فقلت إنك سيدى وأميرى ، ويشهد الله أننى كلما أَمَعَنْتُ فى وجهك ، وسمعت لصوتك ، كاد يطير عقلى ، ويندهش لى ، لاستحكام الشَّبّه بينك وبين سيدى المرحوم .
(الباشا) — إنى أنا سيدك ، وهذه هى العلامة التى تعلمها فى جسمى من أثر اللعب بالجريد على مشهد منك فى يوم من أيام السباق والرهان (وكشف الباشا عن ساقه فأراه العلامة) فوق الرجل مُنْكَبّاً على الأرض من شدة الدهشة ، يُقْبِلُ قدم الباشا ويغسلها بمنحدر الدموع ، ويقول فى بكائه وشهيته :

(صاحب الحانوت) — كيف بالحياة بعد المات ، لَحَقْ أنتَ إحدى المعجزات ، وليس ما أراهُ بغير ، فقد شاهدت فى هذا العمر الطويل ، مالا تحيط بوصفه الأقلام ، ولا تنسج له بطون الدفاتر من عجائب الانتقال ، وغرائب الانقلاب ، فلا يبعد بعد ذلك أن تُشرق الشمس من مغربها ، وتُخرج الأرضُ أمواتها من مقابرها .

قال عيسى بن هشام : فقلت للرجل : لا تكثر من الدهشة والحيرة ، ولا تغرب فى الاستغراب والتعجب

على أنها الأيام قد صرْنَ كُلُّها عجائبَ حتى ايس فيها عجائبُ
واعلم أن القدرة لا تعجز عن شىء فى الوجود ، ولا تحيط بها العقول ، ثم قصص عليه قصة الباشا منذ البداية ، فصاح الرجل يبكى ويتضرع ويقول : ليت أمى لم تلِدنى ، ولت القدرة التى بعثت الأمير من بعد موته تَشْرَتْ معه زَمَنَهُ ؛ وأعادت عصره ؟ وإلا فكيف له بالعيش فى هذا الزمن ، وما أولاهُ بالعودة إلى أدراج الكفن .

ثم التفت إلى الباشا ، وشرع يقص عليه مامرَ به من الحوادث والكوارث ، وما جرى نبئت الباشا ولأهل طبقة من النوازل والخطوب :

(صاحب الحانوت) — ولم يبقَ لك أيها المولى من أثرٍ يُذكر فى ثروتك ومقاعك ،

وأموالك وضياعك ، وقد عشتُ دهرًا وأنا متمتع برِيع ما وقفتهُ أيها الأمير على حاشيتك وأتباعك ، وعلى هذا المسجد والسبيل والكتاب ، لتخليد ذكرك ، وإحياء اسمك ، فما لبثتُ الوقف أن تهدمَ وتخرب بطول الترك والإهمال ، فوقعنا كلنا في الفاقة والاحتياج ، وانقلب الكتاب مخزنًا ، والسبيلُ خمارًا ، والمسجد مصبغةً ، كما تشاهد وترى ، وأصبحتُ أنا بيطارًا بعد أن كنتُ « ركبدارًا » وأخذتُ هذه الحانوت من الوقف لممارسة صناعتي فيها والتعيش منها ، وسبحان مقلب الأحوال ومبدل الأشكال

(الباشا) — ألم يبق من ذريتي أحد يماشر هذا الوقف بنظره ؟

(البيطار) — آخر العهد عندي كان بواحد منهم ، ذهبتُ إليه لأجل هذه الحانوت وأعلمتهُ بمكانى من أهل الحاشية ، فانتهرنى وطردنى ، وأبعدنى وزجرنى ، ولكن الحاجة دفعتنى إلى الإلحاح ، فترددت عليه مرارًا . فتخلص من ثقل إلحاحى بأحالتي على رجل فرنجى عندهُ يدبر له ما بقى لديه من ثروة نصبت عينها ، ونزحت بثرها ، فأحالنى الإفرنجى على صاحب الخمار ، لأنه أصبح صاحب الأمر فى أرض الوقف بوضع اليد عليها ، وأيسر يجسر أحد أن يعمل فيها شيئًا بغير إرادته خوفًا من الخصومة فى المحاكم ، فقصدت الخمار ، واتفقت معه على أجرة معينة وأقمت فى هذه الحانوت أصرع الدهر ويصرعنى ، وأطلب القوت ويعوزنى ، وأتعجل الأجل ويمهلنى ، وتعالى الله المتفرد بعزته ، المبدع فى حكمته .

(الباشا) — وأين هذا الولد العاق الخالف لإرادتى ، وهو يعلم أن شرط الواقف

كنص الشارع .

(البيطار) — هو مقيم الآن فى « الأوتيل » .

(الباشا) — وما الأوتيل ؟

(البيطار) — « اللوكاندة » .

(الباشا) — وما « اللوكاندة » ؟

(عيسى بن هشام) — « الأوتيل » هو بيت معروف يعدونه لنزول من لا بيت له من الغرباء على أجر معين ، وهو في المعنى كالخان الذي تعرفونه في زمانكم .

(الباشا) — هل وصل التدنى بهذا الخائن إلى سُكْنَى الخان ، وسبحان مصرّف الأحوال ومغير الأزمان . وكيف يطيب للمسكين عيش على هذه الحال ، بعد عز النعمة ووفرة المال . أفكان رجوعى إلى الحياة على ما لا أرغبه ولا أرضاه ، تعذيباً لى على ما فرطت في جنب الله ، أو لم يكن عنده سبحانه في الآخرة من عذاب النار ، ما يغنى عن التعذيب بالمار ، في هذه الدار ، ربّ إن الجحيم لأهون علىّ في العذاب والنكال ، مما ألاقيه في الرزية في المال والعيال :

فليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضِع من أمّه النفساء
(عيسى بن هشام) — ليست السكْنَى في « الأوتيل » اليوم عن ذل وفقر ، بل هي عن عز ويسر ، فإن النفقة فيه عن بضعة أيام تكفى لنفقة شهر ، على أكبر قصر ، بجواريه وخدمه ، وأتباعه وحشمه ، وقد دعا أولادكم إلى ذلك ولوعهم بإحكام التقليد للأجانب ، وإتقان الافتداء بهم ، والسعيد المنعم من أولاد الأمراء اليوم من يبيع عقاره ، ويرهن ضياعه لتتميسر له الإقامة في هذا الخان ، ومنهم من يتعذر عليه مفارقة أهله فيؤتى له بالطعام من « الأوتيل » إلى البيت ، وعنده الطباخ في أسفله ، والجوارى الطاهيات في أعلاه .
(الباشا) للبيطار — أرجوك أن تصف لصاحبى مكان « الأوتيل » الذى يسكنه ذلك الغلام ، فإنّ بى حاجة إلى لقائه .

(البيطار) — كيف تخاطبني أيها الأمير بلفظ الرجاء ، وأنا أنتظر في خدمتك أن تأمرني بما تشاء ، وهل تظن أنى أفارق ركابك ، أو أزيل معيتك ، مهما تقلبت الأحوال ، وتبدلت الأزمان ؟ فهلم ، منك الأمر والاشارة ، وعلىّ السمع والطاعة .

أبناء الكبراء

قال عيسى بن هشام : ودعاني الباشا للسير معه ، وهو يكفكف دمه ، وتبعنا البيطارُ من خلفنا بخطاه الثقيلة ، وعصاه الصقيلة ، فقد صقلها طول التوكؤ والاستعمال ، وتعرّى بها في السير والانتقال ، عن ظهور الخيل ومتون البغال ، إلى أن وقفنا عند أحد القصور الكبيرة ، من الفنادق الشهيرة ، فهال الباشا ما رآه من ضخامة البناء ، ونخامة المنظر والرّواء ، وما لقيه من أدب الخدم والأعوان ، ورشاقة الوصفاء والعلمان ، فتخيل أننا أخطأنا الأبواب والمداخل ، فدخلنا بيتاً من بيوت الوكلاء أو القناصل ، وتقدمتُ للسؤال والاستخبار ، وقد خلقنا البيطار في الانتظار ، فدأنا أحد الخدم على رقم المكان الذي يسكنه الأمير ، بعد طول التردد والتفكير ، فما وصلناه حتى دَفَعَ الباشا بيديه دَفْعِي الباب ، لم يلتفت لطلب إذن ولا لرجع جواب ، فوجدنا أمامنا جماعة من أولاد الأمراء ، وأعقاب الكبراء ، مختلفين في الجلوس ، حاسرين عن الرؤوس ، ففريق منهم عاكفون على لعب القمار ، وفريق ينظرون في صور خيل المضمار ، ومنهم جماعة قد استداروا بامرأة نَصَفَ^(١) لا عجوز شوهاء ، ولا فتاة حسناء ، تجلب الحسن بإفراط التأنق والتزين ، في وجوه التصنع والتزين ، فيكاد يضيء وجهها بسنن العقود والقلائد ، ويتلألأ جبينها بلألأ الجواهر والفرائد ، وفي وسط المكان مائدة عليها صنوف الراح ، في الأباريق والأقداح ، وبجانها مِضْذَة^(٢) ، عليها آنية مُنْضَذَة ، وفوقها الدواة والقرطاس ، ويراعة مرصعة بالماس ، وكتبٌ أعجمية موشاة بالذهب ، لا أدري إن كانت في اللهو أم في الأدب ، وعلى الأرض أوراق أحكام منشورة ، وجرائدٌ تحت الأقدام منشورة ، لم يفضض عنها « ظرف » ، ولم يقرأ منها حرف ، وسمعنهم يتراطنون جميعاً بلغات أجنبية ، دون اللغة التركية أو العربية ، إلا ما كان من أسماء الخيول العربية ، بعد أن يبدلوا الكاف بالقاف ، وينطقوا بالحاء كالهاء ، ولما رأونا

(١) النصف : المرأة الوسط بين الحديثة والمسننة .

(٢) المِضْذَة : شيء له أربع قوائم يوضع فوقه متاع البيت .

ظَهَرَ مِنْهُمْ الْعَبَوسُ وَالْقُطُوبُ ، وَبَدَأَ عَلَيْهِمْ انْقِبَاضُ الصُّدُورِ وَالْقُلُوبِ ، وَانْبَرَى مِنْ جَانِبِ الْمَرْأَةِ شَابٌ فَاسْرَعَ نَحْوَ الْبَابِ ؛ فَنَاطِبِنَا بِعِبَارَةٍ فَرَنْسِيَّةٍ ، وَلَشَّغَةٍ بَارِيسِيَّةٍ :

(الشَّابُّ) — كَيْفَ سَاغَ لَكُمَا الدُّخُولُ بِغَيْرِ إِذْنٍ ؟

(عِيسَى بْنُ هِشَامٍ) — دَعَا إِلَى ذَلِكَ شَوْقُ الْوَالِدِ إِلَى رُؤْيَا ذَرِيَّتِهِ .

(الشَّابُّ) — لَسْتُ أَفْهَمُ لَكَ كَلَامًا فَصَّرَحْتُ لِي وَبَيَّنْتُ .

(عِيسَى بْنُ هِشَامٍ) — فَلَانٌ يَسْأَلُ عَنْ فَلَانٍ .

(الشَّابُّ) — إِنِّي أَنَا فَلَانٌ ، وَلَكِنْ مَنْ فَلَانٌ الَّذِي يَسْأَلُ عَنِّي ؟

(عِيسَى بْنُ هِشَامٍ) — هُوَ جَدُّكَ الْأَكْبَرُ أَحْيَاهُ اللَّهُ بَعْدَ مَمَاتِهِ ، وَبَعَثَهُ مِنْ رَقَادِهِ ،

وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ أَنَّنِي كُنْتُ أَزُورُ الْمَقَابِرَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ . . .

(الشَّابُّ) — مَقَاطِعًا مُسْتَهْزِئًا — أَذْهَبُ عَنِّي ، فَلَسْتُ أَسْمَعُ لِهَذَا الْكُذْبِ وَالْخَرَفِ ،

وَلَيْسَ لِي الْيَوْمَ مِنْ حَيٍّ وَلَا وَالِدٍ ، وَلَا أَنَا مَنْ يَصْدُقُ بِحَدِيثِ الْبَعْثِ فِي الْآخِرَةِ ، فَكَيْفَ

بِرَجُوعِ الْمَوْتَى إِلَى الدُّنْيَا . تَعَالَوْا أَيُّهَا الْإِخْوَانُ فَاعْجَبُوا مَعِيَ ، وَاضْحَكُوا مِمَّا أَسْمَعُهُ مِنْ هَذَا

الرَّجُلِ الَّذِي يَخَاطِبُنِي ، وَانْظُرُوا إِلَى هَذَا « الْبَاشْبُوزُقِ » الْغَلِيظِ الَّذِي بِجَانِبِهِ ، فَهُوَ يَدَّعِي

أَنَّهُ مِنْ آبَائِي وَأَجْدَادِي ، بَعَثَهُ اللَّهُ لِيُطَالِبَنِي فِيمَا أَظُنُّ بِمَا وَرِثْتُهُ مِنَ الْأَمْوَالِ ، وَيَنَازَعُنِي فِي

نَظَارَةِ الْأَوْقَافِ . فَهَلْ سَمِعْتُمْ بِأَعْجَبٍ مِمَّا أَصْبَحْنَا فِيهِ الْيَوْمَ ، لَمْ يَكْتَفِ الدَّهْرُ بِتَكْدِيرِ عَيْشِنَا ،

وَتَعَكِيرِ حَيَاتِنَا بِمُطَالِبَةِ أَرْبَابِ الدِّيُونِ ، حَتَّى بَعَثَ الْأَمْوَاتَ مِنْ قُبُورِهِمْ ، لِيُطَالِبُونَا بِمَوَارِيثِهِمْ

وَأَمْوَالِهِمْ ، أَلَا تَرَوْنَ أَيُّهَا الْخِلَّانُ أَنَّهُمَا أَبْدَعُ نَسْكَتًا فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ ؟

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ : فَاسْتَفْرَقَ الْجَمِيعَ عِنْدَ ذَلِكَ فِي الضَّحْكِ ، وَاسْتَلْقَوْا مِنَ الْقَهْقَهَةِ ،

وَكَلِمَا سَأَلَنِي الْبَاشَا عَنْ مَكَانِ حَفِيدِهِ ، وَاسْتَفْهَمَ مِنِّي عَمَّا يَجْرِي مَعِيَ مِنَ الْكَلَامِ ، اسْتَهْمَلْتُهُ

لِتِمَامِ الْحَدِيثِ ، حَتَّى لَا يَقِفَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا يُقَالُ ، وَلَا يَحْسُ بِوَقْعِ تِلْكَ السَّهَامِ وَالنَّبَالِ .

وَلَمَّا انْتَهَى الشَّبَابُ مِنْ ضَحْكَهُمْ ، نَادَا بِالْخَادِمِ لِيَأْمُرَهُ بِطَرْدِنَا وَإِخْرَاجِنَا . وَحَانَتْ فِي هَذِهِ

الْأَنْثَاءِ التَّفَاتَةُ مِنَ الْحَفِيدِ بَيْنَ دَوْرَانِهِ وَحَرَكَاتِهِ ، فَلَحَّ أَحَدُ قَرْنَائِهِ وَإِخْوَانِهِ قَدْ انْزَوَى بِتِلْكَ

الْخَلِيلَةِ ، الَّتِي هِيَ عِنْدَهُمْ كَالْخَلِيلَةِ ، يَلْعَبُهَا وَتَلْعَبُهَا ، وَيَغَارُهَا وَتَدْعَاهَا ، فَانْقَضَ عَلَيْهِمَا

كالصقر الأجلد ، فاستعزَ بينهم الجدال ، واشتد الخصام ، والتفَ حولهم الجمع ، وسمعت الحفيد يعتب ، والصاحب يعتذر ، والمرأة تبتكت وتؤنّب ، وتقول لعاشقها : « ليس لك مثل هذه الجرأة في العتاب والملام ، ولا يأتي ما تأتيه من الحدة والتهور في الغيرة إلا مَنْ كان قائماً بحاجتي ، مجيباً لرغبتى ، وقد طلبت منك بالأمس أن تشتري لى ذلك العقد الذى حضرلتاجر الحلى من أوربا في البريد الأخير . فسوّفت وماطلت ، بعد أن أُجبت ووعدت ، واعتذرت بالإعسار والضيّق ، ثم بلغنى اليوم أنك اشتريت فرساً جواداً بمقدار عظيم من المال ، فكيف تقصر فى حاجتى مثل هذا التقصير ، وتبغى منى الاقتصار عليك ، والاختصاص بك دون بقية من يبذل ماله وروحه فى سبيل مرضاتى من أصحابك وإخوانك ؟ »

ثم سمعتُ الحفيد يجاوبها ، والعرق يتساقط من جبينه ، والوجد يقطع أنفاسه : « تالله ما اشتريت شيئاً ولكن بعثُ أشياء لأشترى لك العقد بضمنها ، ولا يغرنك ما يقال لك عن ثروة هذا الصاحب الدنىء الخائن ، وعن قلة أموالى ، ورهنِ أطيانى ، فأنت تعلمين بمقدار الأموال التى ستأتينى من اكتساب القضايا المعلقة لى فى المحاكم كما ينبئك به المحامى فى كل حين . »

وما سمع ذلك الصاحبُ سبّهُ بهذين النعتين ، حتى اضطرب واضطرب ، وثارت به سؤرة الغضب ، فمقدم فلمعنهُ وشتمه ، ودفعه ولطمه ، فوعده الماعون اللطوم ، بالمبارزة فى يوم معلوم . ثم علا هناك صياحٌ أيضاً فى مجلس القمار بين صديق وصديق ، أحدهما فى يسر والآخر فى ضيق ، وأخٍ يبغى الاقتراض من أخيه ، ومفلسٍ يطالب مُيسراً بدَيْنٍ لا يؤديه ، وانكشف الجدال كذلك عن الضرب والاسم ، وانتهى النزاع بالصفع والاطم .

واشتبك خصام آخر فى ركن المسكان ، بين أهل السبق والرهان ؛ هذا يقول فرسى سابق ، وفرسك لاحق ، وذاك يقول « ركبدارى » حاذق وابن حاذق ، وجوادك قصير وجوادى شاق ، وأنت الآن مقررٌ معترف ، بأن الوزن بينهما مختلف ، واشتدت المنافسة والمنابزة ، وجرى بينهم حديث المبارزة ، كل هذا والمرأة تتسحب من حلقة إلى أخرى ، تسحب الحية والأفعى ، فتطفئ نار الجدال مرة على حسب بغيتها ، وتشعلها طوراً تلحبت نيتها .

ورأيت الأجدد بنا أن نتركهم على هذه الحال ، فجذبت بضِيع الباشا وخرجنا من ذلك المكان ، وأسرعت به منحدرًا إلى الطريق ، فسألني عن تفصيل ما كان وجرى ، فترجعت له شرح الحال والمآل ، فاحتدم غيظه ، واضطرم حنقه ، فلم يطمئه إلا ما قلته له في آخر الحديث من عزم القوم على المبارزة فيما بينهم بالسلاح . فقال وهو يتابع زفرائه : لعل القدرة تكشف عنى هذا المصاب ، وتُريحنى المبارزة من الأبناء والأعقاب . فقلت فى نفسى : إن أبناءكم لم يرثوا منكم أخلاقكم ، كما ورثوا عنكم أموالكم ، وليس عندهم من الشهامة ما يدفعون به عن الأعراض والأحساب ، ولا من الشجاعة ما يؤنسهم بالطعان وبالضراب ، ولا يابهون لكشف العار ، وأخذ الثار ، والمبارزة عندهم كلمة تقال بالليل وتمحى بالنهار . وتذكّر الباشا فى طريقه شدة حاجته إلى وفاء ما عليه من الأجر للمحامى ، فالتفت إلى البيطار يسأله :

(الباشا) — هل بقى أحد ممن كانوا حولى من الخُلطاء والأقرانِ أهلِ النجدة والفتوة وأصحاب الهمة والمروة ؟

(البيطار) — لم يبق منهم إلا فلان وفلان وفلان .

(الباشا) — ابدأ بالذهاب معنا إلى بيت الأول منهم .

قال عيسى بن هشام : فسرنا إلى حيثُ أشار ، والهموم تفرسُنّا ، والغموم تحرسُنّا ، والأكدار لا تفارقنا ، والأقدار لا توافقنا .

كبراء العصر الماضي

قال عيسى بن هشام : ومضينا نقصد أحد الثلاثة من قرناء الباشا ورققائه ، وبقية أخلائه وأصدقائه ، فانتهى بنا طول المسير ، إلى بيت ذلك الأمير ، وكأنه ميدان في اتساعه ، وحصن في ارتفاعه ، ووقف بنا البيطار ، عند باب الدار ، فسلم على الخدم وحيّاهم ، ثم سألهم عن سيدهم ومولاهم ، فأجابوه بالتعجب والعبوس ، أنه في قاعة الجلوس ، فخطونا في بحبوحة الميدان ، فرأينا في وسطه شجرة كثيفة الأغصان ، حنى قوائمها تقادّم الأزمان ، كأنها التكلّى حلت شعورها في مأتم الأحزان ، وفي ظلها فرس يجنّ من النشاط والرياح ، وبجانبه كبش ضأن للنطاح ، وحوّلها ديكة نزال وضراب ، ظلنا أيها مسنونة للحراب :

فَحْمُرٌ وَسُودٌ حَالِكَاتٌ كَأَنَّهَا سَوَامُ بَنِي السَّيِّدِ اَزْدَهْتُهُ اَتَقَوَّامُ^(١)
يُزَانُ لَدَيْهَا الطَّعْنُ فِي حَوْمَةِ الْوَعَى إِذَا زُنَيْتُ لِلْعَاجِزِينَ الْمَهْزَامُ
وَفِيهَا إِذَا مَا ضَمِيعَ النِّكْسِ غَيْرَةٌ تُصَانُ بِهَا الْمُسْتَضْعَبَاتُ الْكَرَامُ^(٢)

ثم وصلنا إلى قاعة مشيدة البنيان ، فسيحة الأركان ، في أحد جوانبها سلسبيل ، يسيل ماؤه من أفواه التماثيل ، والأرض مفروشة بالبسط الفارسية ، وبجلود الضواري الوحشية ، والحيطان مستورة بأنواع السلاح ، من خناجر وسموف ورماح ، وفوقها عدة صفوف ، من الرفوف ، تحمل الطرائف الكريمة ، والأواني الصينية القديمة ، مع عيdan للتدخين ، من أغصان الياسمين ، خلّعنا نعالنا ، وتقدمنا أمامنا ، فوجدنا الأمير ومن معه جلوساً متربعين ، مُنصِتِينَ مستمعين ، يضيء في وجوههم نور الشيب والوقار ، وتزدهيم هيئة العزة والاستكبار . فانقطع الحديث عند دخولنا ، برد سلامنا ، ولكن ما لبث أن اتصل ما انقطع من الكلام ، بعد رجوع التحية ورد السلام .

(١) السوام : الإبل الراعية ، وبنو السيد : قبيلة تكثر فيها الإبل السود والجر .

(٢) النكس : الرجل الضعيف الدنى .

ولما استقر بنا المكان ، همستُ في أذن البيطار أن ينبئني بأسماء الحاضرين ، فقال لي : هذا المتصدر فيهم هو الأمير فلان رب الدار ، وهو رفيق مولانا الباشا في البيت الكريم الخديوى ، وقد اعتزل الأعمال واعتكف في آخر عمره يتعبد ويتعبد ، ويسلك طريق النسك والزهد ، ويتقرب إلى الله بدوام القيام والقعود ، وطول القنوت والسجود ، وله أموال عريضة ينفق منها فيما ينفق على قومة المشايخ وقوام أهل الطريقة وطوائف الآفاق من سكان الأماكن المقدسة ، رجاء أن يغفر الله له ما تقدم من الذنوب ، وأن يلحقه بالصالحين من أوليائه . وأما الذى عن يمينه فهو فلان باشا كان عضواً من الأعضاء الكرام ، فى « مجلس الأحكام » ، والذى عن جانبه عالم من جلة العلماء الأعلام والمشايخ العظام . أما الجالس عن شماله فهو فلان الفريق الجهادى المشهور فى الوقائع والفتوح ، والذى بعده هو فلان من كبار المديرين السابقين ، وأما الذى تراه فى آخريات المجلس فهو فلان التاجر من تجار خان الخليلي .

قال عيسى بن هشام : ولما وقفت من البيطار على معرفة ما عرفنيهِ ، نظرت إلى الباشا فأدركت أنه لا ينبغي المبادرة إلى كشف أمره قبل انتهاء الحاضرين من حديثهم ، فأنصت مع المنصتين ، فإذا الفريق الجهادى يقول فى اتصال حكايته وروايته :

(الفريق) — وكان « جنتمكان » محمد على باشا الكبير معجزة دهره ، وآية عصره فى الدَّهَاء وعلو الهمة ، وبُعدِ النظر ، وإحكام عقدة التدبير ، واجتذابِ القلوب ، وتربية النفوس على الوفاء ، والأمانة لخدمته ، فكان له من الكفاة من خدموه بالصدق ، وافقده بالأرواح ، وأذكر منهم المرحوم « محمد بك لاظ أوغلى » ، فهو الذى دبر له قطع دابر المالميك فى ساعة واحدة ، وقد حكى لى المرحوم أخى ؛ وكان حاضراً فى تلك الواقعة الهائلة ، أن المالميك لما رأوا أن المكيدة فى استئصالهم قد استحکم عقدُها ، واشتدَّ رباطها ، وأنهم أحيط بهم من كل مكان ، تقدموا للبحث عن محمد على فى كل حجرة وزاوية من زوايا القصر للفتك به ، والتخلص منه ، فلم يقفوا له على أثر ، وأعياهم البحث والتنقيب ، لأن « لاظ أوغلى » أخفاه عنهم شديد الإخفاء ، وقام له فى ذلك الوقت — إن جاز

التشبيهُ والتَّمثِيل — قِيَامَ عَلِيٍّ بنِ أَبِي طَالِبٍ مقامَ الرِّسُولِ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ لَيْلَةَ الهِجْرَةِ (عَضْوُ الْأَحْكَامِ) — نَعَمْ ، وَكَانَ المَرْحُومُ مُحَمَّدٌ عَلِيٌّ فَوْقَ مَا يُقَالُ وَمَا يُتَصَوَّرُ فِي دَقَّةِ سِيَاسَتِهِ لِتَرْبِيَةِ الرِّجَالِ فِي خِدْمَتِهِ ، فَكَانُوا كُلُّهُمْ طَرَاظًا وَاحِدًا فِي حَسَنِ الْوَلَاءِ وَجَمِيلِ الْإِخْلَاصِ ، وَرَبَّمَا كَانَ يُجْذِبُ الرِّجُلَ مِنْهُمْ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ تَطْبَعُهُ لَهُ عَلَى الصَّدْقِ فِي خِدْمَتِهِ طُولَ حَيَاتِهِ . وَمِنْ ذَلِكَ مَا حَكَاهُ لِي صَدِيقُنَا المَرْحُومُ رَاغِبٌ بَاشَا قَالَ : « كُنْتُ أَقْرَأُ بَيْنَ يَدَيِ المَغْفُورِ لَهُ أَوْرَاقًا ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ كَاتِبٌ مِنْ كُتُبَةِ مَعِيَّتِهِ ، فَدَخَلَ عَلَيْنَا سَامِيٌّ بَاشَا فِي أَثْنَاءِ الْقِرَاءَةِ ، وَوَقَفَ مَعَنَا ، فَسَأَلَهُ مُحَمَّدٌ عَلِيٌّ عَمَّا يَرِيدُهُ ، فَتَلَعَّمُ تَلَعَّمُ المُنْطَلِعَ لِخُرُوجِي حَتَّى يَنْفَرِدَ بِهِ ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ مَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ لَهُ : « قُلْ مَا عِنْدَكَ فِي الْحَالِ فَإِنِّي لَا أَخْفِي عَنْ » رَاغِبٌ « سِرًّا مِنْ أَسْرَارِي ، وَلَا فَرْقَ عِنْدِي فِي الْمَنْزِلَةِ بَيْنَ نَسْلِي وَذُرِّيَّتِي وَبَيْنَ كُتُبَةِ مَعِيَّتِي » .

فَهَلْ تَعْلَمُونَ يَا قَوْمُ أَنَّهُ يَقُومُ مَقَامَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فِي جَلْبِ النَفُوسِ ، وَجَذْبِ الْقُلُوبِ إِلَى النِّصْحِ وَالْوَلَاءِ فِي الْخِدْمَةِ ، إِنْ عَامَّ بِضِيَاعٍ ، أَوْ إِحْسَانًا بِأَمْوَالٍ ، أَوْ تَقْلِيدًا لِرَتْبَةٍ أَوْ نِشَانٍ ؟ وَانْظُرُوا إِلَى ذَلِكَ الرِّجُلِ الْعَظِيمِ كَيْفَ أَتَقَنَ صِنَاعَةَ الْأَلْفَةِ فِي تَرْبِيَةِ رِجَالِهِ ، وَمَا لِلْمُلُوكِ صِنَاعَةُ غَيْرِهَا ، فَإِذَا أَتَقَنَهَا أَحَدُهُمْ فَازَ بِالتَّسْلُطِ عَلَى النَفُوسِ ، وَاحْتَكَرَ مَوَدَاتِ الْقُلُوبِ ، فَيَصِفُوهُ الْمُلُوكُ ، وَيَطِيبُ لَهُ الْحُكْمُ .

(الشَّيْخُ الْعَالِمُ) — أَصَبَتْ وَصَدَقَتْ ، وَقَدْ أَطْلَعْتُ فِي التَّارِيخِ الْقَدِيمِ عَلَى وَاحِدَةٍ فِي هَذَا الْبَابِ لِلْمَنْصُورِ الْعَبَّاسِيِّ ، تَدُلُّ عَلَى بَرَاعَتِهِ وَدَقَّتِهِ فِي صِنَاعَةِ الْمُلْكِ ، وَهِيَ أَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ ذَاتَ يَوْمٍ ، وَبِجَانِبِهِ ابْنَاهُ مَعَ شَيْخٍ مِنْ قَوَادِ جَيْشِهِ ، ذَهَبَتْ أَسْنَانُهُ لِكَبَرِ سِنِهِ ، فَكَانَ يَسْقُطُ مِنْ فَمِهِ بَعْضُ الْفُتَاتِ وَهُوَ يَأْكُلُ ، وَالْأَمِيرَانِ يَتَغَامَزَانِ عَلَيْهِ ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمَا الْخَلِيفَةُ فَرَأَى مَا بَيْنَهُمَا ، فَدَدَّ يَدَهُ فَجَمَعَ مَا سَقَطَ مِنْ ذَلِكَ الْفُتَاتِ فَأَكَلَهُ ، فَقَامَ الْقَائِدُ يَقُولُ لَهُ : « لَمْ يَبْقَ إِلَّا دِينِي أَقْدَمُهُ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَمُرْنِي بِمَا تَرِيدُ » .

(الْمَدِيرُ السَّابِقُ) — وَأَنَا أَقْصُ عَلَيْكُمْ وَاحِدَةً أُخْرَى لِلْمَغْفُورِ لَهُ مُحَمَّدٌ عَلِيٌّ ، تَشْهَدُ بِلُطْفِ سِيَاسَتِهِ ، وَحَسَنِ عَظَمِهِ عَلَى الْأَهَالِي ، وَشَفَقَتِهِ عَلَى الرِّعْيَةِ ، وَهِيَ أَنَّ أَحَدَ الْمَدِيرِينَ أَرَادَ

أن يفوق إخوانه في الخدمة ، لينال مكانة عالية من أميره ، فجدَّ في تحصيل الأموال ، وتغالى في طريقته ، فأخذ ما عند الأهالي من المال جملة واحدة ، فضجَّ ضجيجهم ، واشتدَّ صياحهم ، حتى بلغ مسامع وليِّ النعم ، فأمر بإحضار المدير ، فلما وقف في حضرته قال له : أدن مني ، فلما دنا منه ، أخذ بعنقه في قبضة يده ، وصار يفتزع من رأسه شعرة ، ومن قفاه شعرة ، ومن عارضه شعرة ، ومن حاجبه شعرة ، حتى جمع في قبضته خُصلة من الشعر ، والمديرُ لا يجد لذلك من الألم إلا أثرًا خفيفًا ، ثم إن الأمير انتقل إلى حلية الرجل ، فانتزع منها خُصلة دفعة واحدة من جهة واحدة بتقدير تلك الخُصلة المتفرقة ، فنزع من تحتها الدم وصرخ المدير من شدة الألم ، فقال له محمد علي : « هكذا تختلف المعاملة مع الرعية في جباية الأموال ، إذا أنت أخذت من هاهنا درهماً ، ومن هاهنا درهماً ، آنأ بعد آنٍ ، خفَّ الوقع على الأهالي ، ولم يدركوا الألم ، وحصلتَ منهم على مثل المقدار الذي تأخذه جملة واحدة في وقت واحد مع شدة الألم ، كما رأيت الفرق بين انتزاع الشعرات متفرقات وبين انتزاعها مجتمعاتٍ ، والكمية واحدة ، والألمُ بينهما مختلف ، فإياك أن تعامل الناس بعد اليوم بما يلجئهم إلى الشكوى ، ويبعثهم إلى الاستغاثة » .

(الشيخ العالم) منشداً :

فلا تُكثروا ذكرَ الزمانِ الذي تَغْيى فذلكَ عصرٌ قد تَقَفَّى وذا عَصُرُ
ورحم الله الماضي ، وأعاذنا من الحاضر ، وأجارنا من المستقبل ، وإني لأراكم أيها الأمراء ، مهما أسهبتم في محاسن المغفور له وأنضله ، وأطنبتم في حميد أخلاقه وخصاله ، فلستم ببالغي حق الشكر ، ولا موفين بجميل الذكر ، ويكفيه من الحسنات التي يُغْنِي ذكرُها عن الإجمال والتفصيل ، وتحكم له بالسبق في باب التمييز والتفضيل ، أنه كان يقرب العلماء ويعظمهم ، ويدنيههم منه ويكرمهم ، ثم يَقْضِي حاجاتهم ، ويتبرك بدعواتهم ولقد رأيت له رؤيا صالحة تحكم له في أخراه ، بأن له جانباً مع الله ، وأنه نال جزاء الاحسان ، بسكنى فراديس الجنان .

قال عيسى بن هشام : وأقبل في أثناء هذا الحديث رجل من أهل مكة ، المعروفين

بالمطوفين أو المزورين ، فتقدم إلى رب الدار فقبّل يده ، وإلى الشيخ العالم ، فلم يذبله ، ثم وضع عن يده صرة فأخرج منها قطعة من الحرير الأخضر وجزءاً من التمر ومشطاً ومكحلة وسبحة وشيئاً من الحناء ، ثم قرأ الفاتحة ، وخاطب الأمير بقوله :

(المكي) — قد جئتكم أيها الأمير بالقطعة التي أمرتني باحضارها من الكسوة الشريفة ، وأتيتكم بجزء من تمر النخلة المباركة التي غرسها الزهراء البتول بيدها الكريمة . (الشيخ العالم) — بعد أن ذاق التمر واستطابه — إيه إيه صدقت أيها الرجل ، ومن كان صائماً فأفطر على تمر المدينة كتبت له الجنة .

قال عيسى بن هشام : فرأيت الباشا يتأفف بجاني ويزجر ، ويتململ ويتضجر ، ويهم بأن يتكلم ، فالتفت صاحب الدار عند ذلك إلى البيطار يسأله عن شأن هذا المتأفف المتضجر ، فتقدمت له بشرح القصة على الحاضرين ، وذكرت خروج الباشا من القبر ورجوعه إلى الدنيا . ففهم من صدق ، ومنهم من كذب ، فتنحنجح الشيخ العالم ، وأشار فيهم بإشارة الاستماع ، ثم اندفع يقول :

(الشيخ العالم) — اعلموا أنه ليس للعجزات حد ، ولا للخوارق حصر ، ولا تنكروا على الرجل حياته بعد موته ، فليس من حسن اليقين ، أن نفكر بعثَ الدفين ، والرجوع إلى الدنيا بعد الفناء ، أمر معلوم بلا امتراء ، تخص القدرة به من تشاء ، ببركة الأصفياء والأولياء ، وأقرب ما أستشهد لكم به على ذلك من كتاب « مناقب تاج الأولياء وبرهان الأصفياء للقطب الرباني والغوث الصمداني السيد عبد القادر الكيلاني » ما أرويه لكم بحرفه ونصه :

« ذكر في « رسالة حقيقة الحقائق » أن امرأة غرق ولدها في اليم ، وجاءت إلى الغوث الأعظم ، وقالت : إن ولدي غرق في البحر ، واعتقادي جازم بأنك تقدر على رد ولدي إليّ حياً ، فقال لها رضى الله عنه : ارجعى إلى بيتك ، تجدى ولدك في بيتك ، فراحت ولم تجده ، فجاءت ثانية وتضرعت ، فقال لها الغوث أيضاً : ارجعى إلى بيتك ، تجدى ولدك في بيتك ، فراحت ولم تجده ؛ فجاءت ثالثة بالبكاء والتضرع ، فراقب الغوث

وانحنى برأسه ثم رفع رأسه فقال لها : ارجعى إلى بيتك ، تجدى ولدك فى البيت . فراحت ووجدت ولدها فى البيت : فقال الغوث الأعظم بطريق المحبوبة : ياربِّ لمْ أخجلتني مرتين عند تلك المرأة . فجاءه الخطاب من الملك الوهاب : إن كلامك حين قلت لها كان صدقاً ، وفى المرة الأولى جمعت الملائكة أجزاءه المتفرقة ، وفى المرة الثانية أحيينته ، وفى الثالثة أخرجته من اليمِّ وأوصلته إلى دارها ، فقال الغوث : يارب خلقت الأكوآن بأمر « كن » ولم يسبق زمان ولا آن ، وفى وقت البعث تجمع أجزاءها المتفرقة التى لانهية لها ، وتحشرهم فى طرفة عين ، وتجمع أجزاء جسد واحد وإحيائه وبعثه إلى دارها شىء جزئى ، فما الحكمة فى هذا التأخير ؟ فجاء الخطاب من الرب القدير : أطلب ما تطاب ، فقد أعطيتك عوضاً من انكسار قلبك . فتضرع الغوث ووضع وجهه فى التراب وقال : يارب أنا مخلوق فبقدر مخلوقيتى يليق بى الطلب ، وأنت خالق ، فبقدر عظمتك وخالقيتك يليق بك العطاء . فجاءه الخطاب : كل من يراك يوم الجمعة يكون ولياً مقرباً ، إذا نظرت إلى التراب يكون ذهباً . فقال : يارب ليس لى نفع من هذين ، أعطنى شيئاً أعظم منهما ويبقى بعدى لينفع فى الدارين . فجاء الخطاب من الله العزيز القدير : جعلت أسمائك مثل أسمائى فى الثواب والتأثير ، ومن قرأ اسماً من أسمائك فهو كمن قرأ اسماً من أسمائى .

وروى فيه أيضاً عن السيد الشيخ الكبير أبى العباس أحمد الرفاعى رضى الله عنه قال : « توفى أحد خدام الغوث الأعظم ، وجاءت زوجته إلى الغوث ، فتضرعت ، والتجأت ، وطلبت حياة زوجها ، فتوجه الغوث إلى المراقبة ، فرأى فى عالم الباطن أن ملك الموت عليه السلام يصعد إلى السماء ومعه الأرواح المقبوضة فى ذلك اليوم ، فقال ياملك الموت قفْ وأعطني روح خادمى (وسماه باسمه) ، فقال ملك الموت : إنى أقبض الأرواح بأمر إلهى ، وأؤديها إلى باب عظمته ، كيف يمكننى أن أعطيك روح الذى قبضته بأمر ربى ؟ فكرر الغوث عليه إعطاء روح خادمه إليه ، فامتنع من إعطائه ، وفى يده ظرف معنوى كهيئة الزنبيل فيه الأرواح المقبوضة فى ذلك اليوم ، فبقوة المحبوبة جرّ الزنبيل وأخذه من يده ، ففترقت

الأرواح ورجعت إلى أبدانها ، ففاجئ ملك الموت عليه السلام ربه وقال : يا رب أنت أعلم بما جرى بيني وبين محبوبك ووليك عبد القادر ، فبقوة السلطنة والصولة أخذ مني ما قبضته من الأرواح في هذا اليوم . فخطبه الحق جل جلاله : يا ملك الموت إن الغوث الأعظم محبوبي ومطلوبى لم لا أعطيته روح خادمه ، وقد راحت الأرواح الكثيرة من قبضتك بسبب روح واحد ، فتندم هذا الوقت . »

قال عيسى بن هشام : وما انتهى الشيخ من روايته ، حتى رأيت الباشا قد انتفض قائماً يقول ، والغضب باد على وجهه والغيظ يتقد في صدره :

(الباشا) — أعلموا أيها الإخوان أن مغفرة الرحمن ، وسكنى الجنان ، لا تنال بكثرة الصوم ، وأكل التمر ، أو التبرك بالآثار ، والتحصن بالأوراد ، وما تكتسب الدرجة الرفيعة عند الله إلا بالعدل والإحسان ، وفعل الخير واجتناب الشر ، والرحمة بالضعفاء والمساكين من عباد الله ، وقد غرني في دنياي ما يغركم الآن ، فكنت أسمع قبل مماتي من مثل هذا الشيخ العالم ما يهون على ارتكاب الخزيات ، وفضائح الشرور في معاملة الناس ، ارتكنا على نهار أصومه ، وليل أقومه ، وحرز أحمله ، وأثر أقبله ، فنمت عن عمل الخير ، وغفلت عن بذل المعروف ، فلما توفاني القدير العليم ، وسكنت في حفرة القبر ، علمت ما لم أكن أعلم ، فلم يغنى ذلك وحده من الله شيئاً ، وما خفف على أهوال القبر ، وهون على سؤال الملك ، إلا حسنة واحدة كنت أتيها في إغاثة مظلوم استجارني فأجرتُه ، وهو في يد الجلاد بين السيف والنطع^(١) . فعليكم بالعدل والاحسان ، وتقوى الله في عباده ، وافشاء البر والمعروف في خلقه ، ولا تطيعوا النفس الأمارة بالسوء ، فتركنا إلى الاغترار بالأمل ، وتطلبوا المغفرة بلا عمل ، بل استكثروا من الخير قبل حلول الأجل ، وتذكروا قول الله الأجل : « وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » ، واعتبروا بقول على رضي الله عنه : « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظما ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر والعناء » . واسمعوا لقول حكيم الشعراء :

(١) النطع بالفتح والكسر : بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس

ما الخير صومٌ يذوبُ الصائمونَ له ولا صلاةٌ ولا صُوفٌ على الجسدِ
وإنما هو تركُ الشرِّ مطرَحاً ونَفْضُكَ الصِّدْرَ من غلٍّ ومن حَسَدِ
ولا يستقيمُ أمرُ المسلمِ إلا إذا جمعَ بين فرائضِ العباداتِ وحسنِ المعاملاتِ .

(الشيخ العالم) — إني لأخالك أيها الرجل شيطاناً في زىِّ إنسان ، وزنديقاً يتستر
بدعوى النشور من القبور ، تعساً لهذا الزمن ما أكثر أضراليه ، و بؤساً له ما أعظم أباطيله ،
ولم يبق علينا من مُدْخَرَاتِ عجائبه إلا أن يخرج الميت من قبره ، فيخبرنا بما رأى وبما سمع .
(صاحب الدار) للبasha — سألتك بالله أن تخبرني بأية لغة كان سؤال الملكين لك ،
أبا العربية ، أم التركية ، أم السريانية ، فإن هناك اختلافاً وأقوالاً بين العلماء .
(الشيخ العالم) — ناشدتم الله أن تقصروا عن هذا الرجل ولا تخاطبوه ، فإنه فتنة
من فتن إبليس اللعين ، ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

قال عيسى بن هشام : فلم يسمع البasha إلا الخروج من هذا المجلس ، وهو يهدر ويغلي ،
ويستعبد ويستعدي ، فانخرط وراءه ، وأنا أذكر قول عمر رضى الله عنه في مثل هذا
الشيخ الغليظ البدن : « إن الله يكره الخُبْرَ السمين » ، وأردّد قول أوى ترابِ كرمِ الله
وجهه : « أشكو إلى الله من معشر يعيشون جهالاً ، ويموتون ضلّالاً ، ليس فيهم سِلعةٌ
أَبْوَر من كتاب الله إذا نُتِلَ حقّ تلاوته ، ولا سلعةٌ أَنْفَقَ يبيعاً وثمناً من الكتاب إذا
حُرِّفَ عن مواضعه ، ولا عندهم أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر » .

ولحقّ بنا البيطارُ في خروجنا ومعه التاجر الذي كان مقياً في المجلس يفادياننا ، فوقفنا
لها ، فتقدم التاجر إلى البasha ومال على يده يُقبلها ويقول له :
(التاجر) — أشهد الله أيها المولى أنني مصدّق بأمرك ، وليس بعد العيان من برهان ،
وما أخطئ نظري فيك ، فأنت سيمدى البasha بعينه ، وأنت صاحب اليد التي أتذكرها
طول عمرى ، وما جى من نعمة فنك ، وما أصبحت فيه من ثروة فيئمنك وفضلك ، ولست
أنسى أن أصل شهرتى واتساع تجارتى هو أنك جلست في دكاني مرة عندما عثرت بك
رجلك وأنت تقصد زيارة الحسين ، فارتفع بتلك الجلسة قدرى ، واشتهر ذكرى ، وأقبل

على الناس من دون التجار، لتوهمهم في أن لي برحابتك صلةً، وبجانبك نسبةً، فأصبحتُ
ولله الحمد في غنى ومالٍ كثير، وقد بلغني من أحد أغا هذا ما أنت فيه من الحاجة إلى
الدرهم لأجرة المحامى التي جاءت بك إلى هذا المجلس، ولكنك أنفقت من ذكرها عندما
غضبتَ الله، وأنا أنصرع بخالق الخلق أن تتنازل فتقبل منى ما تسدّ به حاجتك، وتمخلص
به من مطالبة المحامين.

(وأخرج التاجر كيساً مملوءاً فقدمه إلى الباشا وهو يرتعد من خيفة الرد، فأخذه
الباشا وقال له) :

(الباشا) — إنى أشكرك جميل الشكر لحسن صنيعك، وأسأل الله لك حسن الجزاء،
فهلّم أكتب لك صكاً بالمال لأردّه إليك عند استرداد أوقافى.

(التاجر) — حاشا لله أن أكون من أهل هذا الزمن الذين أصبحوا لا يثق بعضهم
ببعض، فلا يأمن الأخ أخاه، ولا الوالد ولده، ولا الصاحب صاحبه، ولا الجار جاره على
درهم واحد إلاّ بعهود وصكوك، بل أنا لا أزل من أهل ذلك الزمن الذى لم يكن يتعامل
التجار فيه بينهم بغير الثقة والائتمان، دون احتياج إلى تحرير الأوراق، وتسطير الصكوك،
وما يكون الاستيثاق إلا عند توهم الخيانة والعياذ بالله.

قال عيسى بن هشام : فكرر الباشا شكره للتاجر مضاعفاً وقال لى : انصرف بنا إلى
المحامى، نستنقذ رقابنا من أسره، ثم نذهب إلى المحكمة الشرعية للمطالبة بالوقف فقلت له:
لا بد لنا من محام شرعى يطالب لنا بحقنا، فما نخرج من قبضة محام، إلا إلى قبضة محام،
ونسأل الله السلامة فى الختام.

المحامى الشرعى

قال عيسى بن هشام : وأخذتُ طريق ، مع رفيق ، أنشدُ صاحباً أسترشده ، فى محام شرعى أقصده . ويدنا نحن نسير ، ونسأل الله التيسير ، إذا بصاحبٍ لى عرفته ، فاستوقفته ، قال : ما خطبك ؟ قلت : قضية ، فى الحكمة الشرعية ، فما طرقَ الخبيرُ سمعه ، حتى أجرى دمه ، وهوّل الأمرَ وهّولت ، وحوّقل وحوّقلت . ثم قال : لقد وقعتُ قبلك فى هذا البلاء ، ولما تيمّنتُ لى النقاهاة من الداء ، وأنا أنصح لك إن كنتَ مدّعياً أن تترك دعواك ، وتصبرَ على بلواك . أما إن كانت الدعوى عليك ، فليس الخيار إليك ، ولا مردّ لحكم القضاء ، بتدبير الآراء . فقلت : للضرورة أحكام ، فأرشدنى لانتخاب محام ، يكون مشهوداً بعدالته ، مشهوراً بطهارته ، بعيداً عن خُلف الوعد ، بريئاً من خُلق الوغد^(١) ، لا يتفق مع الخصم ، ولا يسرق من « الرسم » ، قال : اطلب من أنواع الحال ، أن يحمل الذرّ الجبال ، ولا تطالب فى محام اجتماع هذه الشروط ، فينتهى بك الأمر إلى اليأس والقنوط ، ولحاولة الارتقاء ، فوق متن العنقاء^(٢) ، أيسرُ من ذلك مطلباً ، وأوسع مذهباً ، وأقسم لك بخالص الود ، أنى لا أثق منهم بأحد ، وكيف تكلفنى أن أنتقى لك ذنباً من الذناب ، وأحمل على كاهلى عبء اللوم والعتاب ، فأعفى من هذا الاختيار والانتقاء ، عافاك الله من جميع الأسواء ، ثم مالبت أن خلفنى ومضى ، وتركنى على مثل جمر الغضى . فسرت كئيهاً حزيناً ، أبغى سواه مرشداً ومُعِيناً . ولما لم أجد من أصحابى مَنْ يتكفل على عهديته ، باختيار محام يؤثّق بذمته ، قصدت أحد المعلومين عندى بكثرة الخصومات ، وطول المحاكمات ، فكاشفته بطليمتنا ، ليكشف من مصيبتنا . فقال : اعلم أن المحامين الشرعيين أجناس وصفوف ، فمنهم البصر ، ومنهم المكفوف ، وفيهم - كتب الله لك السلامة - صاحب « الطربوش » ، وصاحب العمامة ، وأنا أدلك على أهونهم شراً ، وأقلهم ضرراً ، وأخفهم رزيةً وبليةً ، وأكثرهم علماً بالحيل

(١) الوغد : الرذل الدنى . (٢) العنقاء : طائر مجهول الجسم لم يوجد .

الشرعية ، فعمليكَ بفلان ، وبيتهُ معلوم ، في منتهى « حارة الروم » ، فقصدنا البيت
نشق طُرُقاً مُعْجِبةً ، ونحترق نَمِيَّاتِ مزدوجة ، إلى أن انتهينا إلى باب دار ، كأنها مطلية
بالقار^(١) ، تسورت بأكوام من الأفذار ، وتلفعت بقتالٍ من الأوضار ، ورأينا عند مدخل
الباب ، صَبِيَّةً يلعبون بالتراب ، ومن بينهم طفلة تجمَع على وجهها من الذباب ، مثل
البرقع تنقبت به قبل أوان النقاب ، ولما تخطيناهم غَشِيَتْنا رائحة المرحاض ، فاستندنا
هناك على هضبة أنقاض ، بجانبها مذود أتان ، يزاحمها عليه إوزتان وبطنان ، ثم
اهتدينا إلى حجرة في جهة اليمين ، فرأينا أمامها فرناً ينادى : « العجين » « والأجرة » ،
فسألناه عن رب الدار ، فأشار إلى الحجرة ، فدخلنا فوجدنا فيها حصيراً تغطي بالغبار
والحصباء ، ومتكئاً تعرى من الفراش والغطاء ، وفي زاوية من زوايا المكان ، سراجٌ
لا ينفذ نوره من تكأف الدخان ، وفي أعلى رفوف الرواق ، أحمالُ كتبٍ وأوراق ، قام
لها نسيج العناكب مقام الوقاية والتجليد ، وألصقتها الرطوبة فحفظتها من التوزيع والتبديد ،
وفوق الأرض زجاجات مطروحة من المداد ، وفي بياض الحائط تسويد وتخطيط من لعب
الأولاد ، وبَصُرنا برجل :

تَغَيَّرُ حِنَاؤُهُ شَيْبَةً فهل غَيَّرَ الظَّهْرَ لما أَحْيَى

ووجدناه جالساً على سجادة الصلاة ، وعن يساره امرأة كأنها السَّعْلَة^(٢) . فسمعناه
يقول لها في تسبيحه : « أَسْتَكْثِرِينَ - أَدْرَ اللهَ عليك خيرَه ، وأبدَلَكِ زوجاً غيرَه -
ما أخذته منك لاستنباط الحيلة في التفريق ، واستخراج الحُكْمِ بالنظيق ، فأبعدت
عنك زوجاً تكرهينه ، لتبدلى منه زوجاً تحبينه ؟ » ثم إنه أحس بدخولنا من ورائه ،
فارتدَّ إلى اتصال تسبيحه ودعائه ، وانفضت المرأة فتنقبت بخمارها ، وتلفحت بإزارها ،
وخرجت وتركتنا مع رجلٍ يخدع الأنام بطول صلواته ، ويتلو سورة الأنعام في ركعاته :
إذا رام كيداً بالصلاة مقيمها فتاركها عمداً إلى الله أقربُ

وجلسنا مدة ننتظر خلاصه من هذا الرياء ، وخلاص الملكين من صحيفته السوداء ،

وخلصنا من هذا الكرب العناء ، وكما نشاهد منه في خلال ذلك نظراتٍ مختلصاتٍ نحو الباب ، كأنه هو أيضاً في انتظار وارتقاب ، إلى أن دخل علينا غلامٌ يصيح به : إلى متى هذه العبادة ، فقد بليت السجادة ، وحاجاتُ الناس موكولة إليك ، وقضاء مصالحهم موقوف عليك ، وهذا دولة « البرنس » ينتظرك في القصر ، منذ العصر ، دَعُ مدير الأوقاف ، و« نقيب الأشراف » ، فلم يعبأ المصلّي بهذا الكلام ، بل جهر بالآية من سورة الأنعام : « قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » ، فجلس غلام الشيخ وهو يمسح العرق ، واشتد بنا الضجر والقلق ، فقلنا من يضمن لهذه الصلاة انتهاء ، ولهذا التسبيح انقضاء . وهممنا بالقيام ، فالتفت الشيخ للغلام ، وأشبعه من التأنيب والملام ، ثم حيانا بألفظ سلام ، وقال : بارك الله فيكم وعليكم ، وأنا في الخدمة بين يديكم ، فقلنا : علمنا أنك رجل عدلٌ عَفٌ ، فجنناك لقضية في وقف ، فقال الغلام : أطلبون ريعه ، أم تريدون بَيْعَهُ ؟ فقلت : سبحان الله ، وهل تُباع الأوقاف ؟ قال : نعم ، ويباع جبل قاف . ثم تنحنح الشيخ وسعل ، وبَصَقَ وتفل ، وتسعَّط ، ثم تمخَّط ، واقترب منا ودنا ، ثم قال لنا :

(المحامى) — دعونا من هذا الغلام ، ونؤلا إلى ماحقكم في الوقف ، وما شرط الواقف ، وكم يُقدَّر ثمن العين لتقدَّر « قيمة الأتعاب » بحسبه ؟

(عيسى بن هشام) — إن لصاحبي هذا وقفاً عاقته عنه العوائق ، فوضع سواء عليه يده ، وزيد رفع الدعوى لرفع تلك اليد .

(المحامى) — سألتك ما قيمة العين .

(عيسى بن هشام) — لست أدرى على التحقيق ، ولسكنها تبلغ الألوف .

(المحامى) — لا يمكن أن يقلَّ مقدَّم الأتعاب حينئذ عن المئات .

(عيسى بن هشام) — لا تُسَطِّطُ أيها الشيخ في قيمة الأتعاب ، وارفُق بنا ، فإننا

الآن في حالة عسر وضيق .

(الغلام) — وهل ينفع في رفع دعاوى اعتذار بإعسار ، ألم تعلم أن هذا شغل له

« اشتراكات » وللكتمة والمحضرين « تطلعات » ، وأنى لكما بمثل مولانا الشيخ
يضمن ربح الدعوى ، وكسب القضية ، بما يهون معه دفع كل ما يطلبه في قيمة أتعابه ،
وهل يوجد مثله أبداً في سعة العلم بالحيل الشرعية ، ولطف الحيلة في استمالة محامى الخصم ،
واستجلاب عناية القضاة ؟

(عيسى بن هشام) — دونك هذه الدراهم التى معنا فخذها الآن ، ونكتب لك صكاً
بما يبقى لحين كسب القضية ، وليس يفوتك شيء من ذلك ، مادام ربجها مضموناً لديك
على كل حال .

(المحامى) — بعد أن استلم الدراهم يعدها — أنا أقبل منك هذا العدد القليل الآن
ابتغاء ما آخره الله لعباده من الأجر والثواب في خدمة المسلمين ، وعليك بشاهدين
للتوكيل .

(عيسى بن هشام) — وبأية طريقة يكون التوكيل .

(المحامى) — يجب عليك أن تستحضر شاهدين يشهدان أمام المحكمة بأن فلان
بن فلان بن فلان وكل فلان بن فلان بن فلان « في المرافعات والمدافعات والمخاصمات
والمصالحات والقبض والاستلام والتسليم وفي المطالبة والدفع والإقرار وكل ما يصح فيه
التوكيل شرعاً وفي أن يوكل عنه في الدعوى غيره وأن يعزله وأن يفعل ذلك راراً
وتكراراً كلما بدله فعله المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة » وأنا أنتظر حضوركما غداً
مع الشاهدين ومستند الوقف .

(عيسى بن هشام) — ليس لدينا الآن إلا شاهد واحد يعرف أصل الباشا ونسبه .

(غلام المحامى) — هذه أول خطوة في تكاليف القضية ومشاقها ، ولعلك تعرف
قيمتها ، ونحن نجد لك بتيسير الله من يعرف أصل الباشا ونسبه ويشهد به بين يدي الحق .
(عيسى بن هشام) — وليس في يدنا أيضاً مستند للوقف .

(المحامى) — أما جهة المستند فينبغى استخراج صورة من السجل « المصان » (كذا)

وهذه خطوة ثانية في متاعب القضية .

قال عيسى بن هشام : وعند ذلك قطع الشيخ الحامى كلامه معنا ، واستقبل القبلة بوجهه يتنفل ويتقبل ، فقمنا للانصراف ، وسرت مع صاحبي ، وأنا غريق في الأفكار ، أتدبر وأعتبر ، وأعجب مما رأيت من سكون الباشا وسكوته ، وحسن احتماله وصبره ، بعد أن كان شديد الحدة سريع الغضب ، يرى القتل واجباً لأدنى هفوة وأقل سبب ، فأصبح بفضل وقوعه في هذه الخطوب المتتالية ، والرزايا المتتابة ، آتین العريكة ، واسع الصدر ، موطأ الكنف ، كثير الاحتمال ، حتى أنه لم يأنف ولم يتأفف من كل ما رأيناه في يومنا هذا ، بل كانت حالته حالة الفيلسوف الحكيم الذي يجعل دأبه البحث والتأمل في أخلاق الناس أثناء التعامل معهم ، وازدادت يقيناً بأنه لا شيء أسرع في تهذيب النفوس وتربيتها على التخلق بالأخلاق الفاضلة مثل ممارسة الخطوب ، ومصارعة النوائب ، وأن أسوأ الناس أخلاقاً ، وأنكدهم عيشاً ، هم هؤلاء الأغمار^(١) ، المنعمون المترفون ، الذين لم يأخذوا العيش عن تجارب الحداث ، ولم تهذبهم صروف الأزمان ، ولم يزدني الباشا في كلامه أثناء الطريق على أن قال :

(الباشا) — قلت لي إن الحامين الشرعيين فيهم صاحب « الطربوش » وصاحب العمامة ، فهل تراهم جميعاً على هذا النمط الذي شاهدناه ، أم بين الفريقين فرق ؟
(عيسى بن هشام) — اعلم أن الخيرة في الواقع ، والحمد لله على كل حال ، فإن فيهم تحت « الطربوش » من هو أشد فتكاً من ضواري الوحوش ، وأعرف طربوشاً منهم أقسم أمامي بالطلاق ثلاثاً من زوجته ومن كل زوجة يتزوج بها في حياته على إنكار كلام نطق به في مجلس كنت حاضره ، إرضاء لأحد أرباب القضايا ، وإغضاباً لخالق البرايا ، واستهانةً بحكم الشارع ، واعتماداً على قول الشاعر :

وإن أحلفوني بالطلاق أتيتها على خير ما كنا ولم نفترق
وإن أحلفوني بالعتاق فقد درى عبيدٌ غلامي أنه غير مُعتق

(١) الأغمار : جمع غمر وهو الجاهل الأبله .

قال عيسى بن هشام : ومضت علينا الأيام ، ونحن نقصد الشيخ الحامى فى كل يوم ، فلا نتمكن من لقائه ، فان ذهبنا إليه فى البيت قيل لنا إنه فى المحكمة ، وإن ذهبنا إلى المحكمة قيل لنا إنه فى القصر الفلانى أو القصر الفلانى من قصور الأمراء والكبراء ، حتى خفيت الأقدام ، ومللنا الاضطراب . فاخترنا أن نربط له أمام بيته عند الثلث الأخير من الليل ، فنصطاده عند خروجه ، وقعدنا بعيداً عن الباب حتى خرج علينا راكباً أتاناً ، فتقدمت إليه ، فقال لى : أرجو المسامحة فى هذا التأخير ، فالذنب فيه لكثرة مشاكل الأمراء ودعاويهم ، فتقبلنا عذره ، وتوجهنا معه إلى المحكمة ، فذهب بنا إلى « كاتب الإشارات » ، فوجدناه جالساً يلمع فى ثيابه ، من حمرة الخداء فى رجله ، وزرقة الجبهة على كتفه ، وصفرة الحزام فى خصره ، وبياض العمامة فوق رأسه :

تعددت ألوانه كأنه قوس قزح

وكان الشيخ الحامى قد تركنا مع الغلام والشاهد الذى اختاره لنا ، فنظر الكاتب إلى الشاهد نظرة المتوقف ، وقال إنه شاب صغير السن ، وإنه وإنه ... فال عليه غلام الحامى ، وألقى فى أذنه بعض القول ، فقام معنا من فوره إلى قاضى الجلسة لسماع الإشارات بعد أن قال لنا الغلام : وهذه الخطوة الثالثة فى تكاليف القضية . ثم انتهى الإشارات بحمد الله وحسن العناية بنا فى أثناء يوم واحد . وقال لنا الغلام عند الانصراف : يجب بعد هذا أن نقدم عريضة لحضرة القاضى بطلب الكشف من الدفترخانة عن الوقفية فى السجل ، وأن نوضح فيها نمرة الوقفية وتاريخها ومن « عملية » من هـى (يعنى اسم الكاتب الذى كتبها فى زمانها) ، فخرجنا نبحث عن أحمد أغا البيطار ، لعله يعرف طريقة توصلنا إلى مطلوبنا ، فعثرنا عليه وأعلمناه بغرضنا ، فقال : إن عندى ورقة فيها نمرة الوقفية ، كنت تحصلت عليها بطرق مختلفة بعد الجهد الشديد والزمن المديد لإثبات حقى فى ريع الوقف . ثم ذهب إلى بيته وعاد إلينا بالورقة ، فوجدناها قاصرة على ذكر النمرة والتاريخ ، ولم يذكر فيها اسم الكاتب الذى عمل « العملية » ، فقصدنا غلام الحامى ، وتوجهنا معه إلى المحكمة ، فكتبنا العريضة ، وقدمناها لحضرة القاضى ، فوضع عليها إشارة لحضرة الباشكاتب ، ليتحرى عن

مسألة « الشأن » ، وطلبوا منا شهوداً يُشترط فيهم أن يكونوا من أهل جيل الباشا ليثبتوا شخصيته ويشهدوا بأنه صاحب الوقف ، وأن سواه وضع يده عليه ، فأدر كتماناً الحيرة في الأمر ، فتكفل لنا الغلام باستحضار أولئك الشهود أيضاً بعد أن قال لنا : وهذه الخطوة الرابعة في تكاليف القضية . ولما نظر الباشكاتب في العريضة ، ووجد أننا لم نبين فيها اسم الكاتب صاحب « العملية » ، قال لنا . إنه لا يمكن الاهتداء في الدفترخانة بدون ذلك ، وإنه لا بدّ لنا من انتظار السفين والأعوام ، حتى يمكن العثور على صورة الوقفية في السجل بالثمرة والتاريخ وحدهما . فعاودتنا الحيرة ، فقال لنا الغلام : لا تحزننا فأنا أساعد على سرعة الإنجاز ، وأتوجه معكم إلى الدفترخانة إن شاء الله ، وهذه هي الخطوة الخامسة في تكاليف القضية . وما زال الخبيث يعدّ لنا الخطوات ، ونعدّ له في كل خطوة دريهمات ، ونحن نسأل الله أن ينقذنا مما أصابنا من حُكم الدهر ، وأن يعجّل بانقضاء القضية قبل انقضاء العمر .

الدفترخانة الشرعية

قال عيسى بن هشام : وعكفنا زمنًا نشد في الطالب ، والحامى يشتد منا في الحرب . فلما طال علينا الأمد في ارتياده ، ويئسنا من لحافه واصطياده ، انتقلنا للبحث عن غلامه ، حتى قبضنا على زمامه ، فرأينا الخبيث يصعب في الأمور والأحوال ، لنسترضيه بالعطاء والنوال ، وقال لنا : أقول لكما الحق ، والحق أقول ، إنه ليس من المتصور المعقول ، أن نهتدى في هذه القضية ، إلى صورة الوقفية ، بمجرد تاريخها أو اسم صاحبها ، دون الوقوف على اسم محررها وكتبتها ، ولا يجول في الخواطر والأوهام ، أن يعثر عليها كاتب السجل بين تلك الآكام ، من غير وحى أو إلهام ، إلا بعد كثر السنين ومرّ الأعوام ، وإن اعتراكا بعض الشك أو الريب ، ولم تصدقا بظهر الغيب ، فهلمّا معى أطلعكما على ما يزول معه اللبس ، وتقتنع به النفس ، فقيّدناه بقيود الترهيب والتأميل ، وأعطينا ما يحضرنا من كثير وقليل ، فانطلق أماننا يثب ويحجل ، حتى دخلنا بيت السجل ، فلما جاوزنا الباب ، حيث يجلس الكتّاب ، ألقينا خشبًا مُسَدّدة ، على خشب مُوطّدة ، وهياكل تفترش الفرا ، فوق الأقدار والأقذاء ، لا تميّز منهم وجه إنسان من إنسان ، لعشوة البصر من ظلمة المكان ، فتذكّر الباشا عند ذلك ظلام الرمس ، وكّر راجعًا ينتظرنا في ضوء الشمس ، ثم مال الغلام إلى أذن أحدهم يكلمه ، بما لا أعيه ولا أفهمه ، فبادر الرجل بالهوض والقيام ، وسار بالغلام ، وأنا في عقب الغلام ، فما خطونا بضع خطوات ، حتى حيل بيننا وبين ضوء النهار ، وتجللنا من حندس^(١) الليل بجُجبٍ وأستار . فوقت لا أبصر ولا أهتدى ، فأخذ الغلام بيدي ، وقد عميت على وجوه المسالك ، في هذه الخواف والمهالك . وسرت فوق أرض تهشّ تحت القدم وتكين ، كأنها مفروشة بالهشيم تلبّد في الطين ، وما زلنا نمشي في أنحاء تلك المظورة^(٢) ، على هذه الصورة ، حتى تخيلت أننى في قبور قدماء المصريين ، أو في هياكل الأسرار بمعابد الرومانيين أو في طريق الامتحان

(١) الحندس : الليل الشديد الظلمة .

(٢) المظورة : الحفرة تحت الأرض .

عند أحرار البنائين ، فوجِبَ القلب^(١) ، من شدة الرعب ، خشيةً أحوالةً نُصِبَتْ ، أو مكيدةً رُتِبَتْ ، ووجِهَتْ ، ثم أُحْجِمَتْ ، وقلت للغلام : ليس بيننا ما يوجب الاحتيال ، أو يدعو للاغتيال ، وماذا تريد مني في هذا الغيب^(٢) ، وليس معي من فضة ولا ذهب ، ولا من شيء يستلب أو يُنتهب ، ففقهه الفاجرُ ثم أقسم بالله وثني بالطلاق ، أنا نسير في أمان بين غرائر^(٣) الدفاتر ولغائف الأوراق ، وقال : كن آمناً مطمئناً على نفسك ، وسترى الحقيقة بعيني رأسك . وما كاد الشقيّ يتم لي هذه العبارة ، حتى عثرتُ قدمي في لفافة فوقعت على غرارة ، وإذا بصائحٍ يصيح من تحتها متبرّماً متأففاً ، ويقول لي متغطرساً متعجرفاً : ما هذه العشاة يا عديم الإبصار ، ونحن لا نزال في أديم النهار ؟ فقممت متثاقلاً متسانداً ، وقلت في نفسي منشداً :

دجى تتشابه الأشياء فيه فيجهلُ جنسها حتى يصيحاً

ثم تأملت ، فإذا أنا بخيال ينفض الغبار عن رأسه ولحيته ، بذيلٍ مئزره أو جُبته ، فتولّاني الخوف والوجل ، وقلت : من الرجل ؟ فقال الغلام : كاتب من كتبة «السجلات» ، ينبس عن أوراق في «سجل الأيلولات» ، فقلت : وكيف يهتدى لذلك ، وسط الظلام الحالك ؟ فقال : أولئك قوم اعتادوا العمل مع احتجاب الضياء ، فصاروا كالخفافش يبصرون في سواد الظلماء :

ولو سار كلُّ الورى هكذا لما حسدَ العمى من يبصرون

ثم انعطفتُ من ذات اليمين إلى شبه قاعة ، يلوح فيها من الضوء مثل جناح يراعة^(٤) ، وإذا هو لعاب الشمس^(٥) يسيل من ثقب ، في سقف أجب ، وهو يتموج بأنواع الجراثيم ، تموج الماء بالهشيم^(٦) ، فخلت أن عجوز الفلك الدوّار — أريد بها شمس النهار — خُشِيتُ أن تضلّ في ظلمة هذه المفازة ، فاتخذتُ لها من لعابها عكازةً ، تتوكأ عليها للاهتداء ،

(١) وجب القلب وجبياً : رجف وخفق (٢) الغيب : الظلمة

(٣) الغرائر : جمع غرارة ، وهي الجوالق (٤) اليراعة : الذبابة

(٥) لعاب الشمس : شيء كأنه يتحدر من السماء إذا قام قائم الظهيرة تراه مثل نسج العنكبوت

(٦) الهشيم : نبت يابس متكسر

وتدبَّ بها في هذا الماء ، فسحتُ على بصرى ، وأحدثتُ بنظري ، فأبصرتُ وماذا أبصرت ، ونظرتُ وماذا نظرت :

ما إن سمعتُ ولا أُراني سامعاً أبداً بصحراءٍ عليها بابُ
نعم رأيتُ فضاءً متسعاً ، ترأَّكم فيه من الأوراق الرثيثة ، والدفاتر البالية ، مثلُ الرُّبى
الشاهقة ، والأكماتِ العالية ، غير أن هذه تُثمر وتجنُّ ، وتلك تعثُّ وتبلى ، هذه
تكون مخضرةً مخصبةً ، إن جادها الحياءُ أُنعتْ بالغضِّ من النبات ، وتلك سوداء مجذبة ،
إن بلَّتها الرطوبةُ اهتزت باليابس من الحشرات :

فالأرضُ تبسطُ في خدِّ الثرى ورقاً كما تنشرُ في حافاتِها البسطُ
والريحُ تبعثُ أنفاساً مُعطرةً مثلَ العبيرِ بماءِ الوردِ مُختلطُ
وهذه بسطتْ فوق الثرى ورقاً لكنه للبلَى والعُثِّ منبسطُ
وريجها تورثُ الأسقامَ ناشقها كأنه من ترابِ القبرِ يستعطُ^(١)

وما لبث أن استبان لى شخص الكاتب المرافق لنا فى لحظة ذلك السنأ ، فإذا هو قصير
القامة . كبير العمامة ، ذو وجهٍ مقنعٍ بالاصفرار ، وعينٍ مكتحلةٍ بالاحمرار ، وقد طوى من
خلفه الجبة ، ورفعها على ظهره كالجمبة ، وفى حزامه دواة من نحاس أصفر ، وبين طيات
العمامة أوراق بالتواريخ « والنمر » ، فاستعدتُ بالله من الشيطان الرجيم ، وقلت لذلك
الغلام اللثيم :

(عيسى بن هشام) — هلم بنا أيها المراويغ إلى الباب ، لنعود إلى ضياء الحياة ، فقد
يئست من أمرنا ، وأنى لهذا الكاتب أن يهتدى للبحث فى هذا اللج القامس^(٢) ،
والليل الدامس^(٣)

(غلام المحامى) — لا تنكرنَّ على مثله الاهتمام فى دياحى الظلماء ، ولا يهولنك
تشتت الدفاتر وتراكم الأوراق ، فهى مرتبة فى حافظته ترتيباً انطبع فيها من طريق

(٢) القامس : البعيد الغور

(١) استعط الدواء : أدخله فى أنفه

(٣) الدامس : الشديد الظلمة

الوراثه عن أبيه وعن جدّه . فلا تخفى عليه مواقعها ، كما يتوارث رؤساء « البوغاز » في الاسكندرية هداية السفن عند دخولها ، بما علموه عن آبائهم من مواقع الأرض في قاع البحر ، ولو كان معنا اسم الكتاب لسُهل البحث ، ولو صلنا إلى الغرض .

(الشيخ الكاتب) — نعم لا تفكرْ علينا — بارك الله فيك — اهتداءنا للبحث في هذه الأوراق ، والله يعلم أن هذه الدفترخانة مرسومة في ذهني منذ الصغر على أحسن ترتيب وتبويب ، فهي مقسمة إلى عدة سجلات ، منها « سجل الباب العالى » ، تسجل فيه الأعيان المبيعة غير الموروثة . ومنها « سجل القسمة العسكرية » ، تسجل فيه الأعيان المبيعة الموروثة . ومنها « سجل الأيولات » ، تسجل فيه الأعيان المحصورة من تركة تخصّص أو تباع بالمزاد . ومنها « سجل الاعلامات » ، تسجل فيه المواد التي تصدر فيها أحكام من المحاكم الشرعية من أى نوع كان ، ومنها « سجل التقارير » تسجل فيه تقارير النظر وقفاً وغيره ، ومنها « سجل الوقفيات » ، وتسجل فيه نفس الوقفيات ، ويدخل فيه التوكيلات والوصايا والتصادق .

(عيسى بن هشام) — سبحان الفاتح الوهاب ، ومن يهدينى إلى طريق الباب ! ! (الشيخ الكاتب) — ومنها « سجل الديوان العالى » ، تسجل فيه الفرمانات المتعلقة بقولية القناصل وعزلهم ، والاعلامات الصادرة من مجلس استئناف مصر في الهيئة التي يحضرها القاضي الشرعى أو النائب عنه مع جملة من كبار العلماء من المذاهب . ومنها « سجل القسمة العربية » ، تسجل فيه الأعيان الموروثة المختصة بالذميين .

(عيسى بن هشام) — اللهم ارفع عنا الأذى والمقت ، وهلم فقد ضاق بنا الوقت . (الشيخ الكاتب) مسترسلاً — . . . ومنها « سجل إسقاط القرى » ، يسجل فيه ما يأخذه الأمراء ويعطونه من الأطيان والقرى . وليس يخفى أنه كان في مدينة مصر محاكم شرعية سياسية ، وكانت السيطرة عليها للقاضي من قبل السلطان ، وكان لكل واحدة سجل تسجل فيه جميع الأنواع (وقد حفظت تلك السجلات كلها بهذه الدفترخانة) ، وكانت مراكزها في جهات : « باب الشرعية » و « قناطر السباع » و « جامع طولون » و « جامع قيسون » . . .

(عيسى بن هشام) — يكفي أيها الشيخ ، فقد وجب الرحيل ، ولا حاجة بنا إلى هذا التطويل والتفصيل .

(الشيخ الكاتب) معدّداً — وفي جهات « درب سعادة » و « باب الخلق » و « الصالحية » و « النجمية » و « أحمد الزاهد » و « البرشمية » و « مصر القديمة » و « بولاق » و « جامع الصالح » و « جامع الحاكم » . . .

(عيسى بن هشام) — تبارك مَنْ له الأسماء الحسنى ، و مَنْ يعيدني إلى الحياة الدنيا . (الشيخ الكاتب) — ... ثم « محكمة الباب العالي » ، وهي المحكمة الكبرى وقاضيا هو المسيطر على الجميع المولّى من القسطنطينية و « محكمة القسمة العسكرية » ، وقاضيا يعين كل سنة من دار السعادة كقاضى المحكمة الكبرى ، « ويسمى القسّام » وشغله الموارد بأنواعها فقط ، و . . .

(عيسى بن هشام) للغلام — لقد ملّ سمعى ، وضاق ذرعى ، فاخرج بنا وأنقذنى من شر هذه الدار ، ومن ثرثرة هذا الشيخ المهدار .

(الغلام) — لا تضجر ولا تقنط ، وأنظرنى قليلاً ، حتى أستشير برأى الشيخ ، لعلنا نجد عنده حلاً للعقدة . وفرجاً للكربة ، (ثم مال على الشيخ منفرداً به ، فسمعته يقول له) : (الغلام) — مثلك لا يعجز عن استخراج الوقفية بدون الوقوف على اسم كاتبها ، وأنت لا تأبى الربح والكسب لنا جميعاً ، وأصحاب القضية من كبراء الناس أهل السماحة والكرم .

(الشيخ الكاتب) — مهلاً فقد كدت أتذكر اسم كاتب الوقفية على ذكر السماحة والبذل ، فإن لكتابتها حكاية مشهورة في الجود والعطاء منذ ذلك العصر ، ولا يزال للخلع التى خلعت على كاتبها بقايا إلى اليوم عند أهله وذريته ، وهو المرحوم الشيخ فلان ، فدونك وأصحاب القضية فاتفق معهم لوضع هذا الاسم في ورقة النمرة والتاريخ ، وجئنى بها نافعة تشفع لنا أجمعين ، والله ينفعنا بنفع المسلمين .

(الغلام) لعيسى بن هشام — قد تيسرت الحال بإذن الله ، ووصلنا إلى معرفة اسم الكاتب الذى تستخرج به الصورة ، والرأى لك في هذه الخطوة السادسة .

قال عيسى بن هشام : ثم انطلق الغلام أمامي يستجني وراءه ، حتى خرجنا بحسن صنع الله من الظلمات إلى النور ، فَجَهَرْتُ^(١) عيني وَسَدَرْتُ^(٢) فلم أبصر في الشمس عند الباب إلا بعد التردد مراراً بينها وبين الظلام . ولما التقيت بالبasha في الموضع الذي كان ينتظرني به ، سألتني عن طول هذا الغياب ، فلم أُرِدْ أن أضيف إلى مصائبه مصيبة أخرى بوصف ما كنت فيه ، بل كتمته إياه ، وأخبرته بتيسير الحاجة . ثم اتفقنا مع الغلام على أن يباشر وَضَعَ اسم الكاتب في الورقة ، ويعود في اليوم الثاني إلى الشيخ الكاتب ليأتينا بصورة الوقفية ، بعد أن نقدناه مانقدناه .

ثم دارت بعد ذلك علينا الأيام ومضت الشهور ، ونحن نتردد على الدفترخانة ، تارةً في صحبة الغلام ، وتارةً بدونه ، إلى أن حل الأجل ، وآن الأوان ، فجاءنا الغلام ذات يوم يبشرنا بالوقوف على الوقفية ، ففرحنا فرح العواص بِدِرَّةِ التاج ، تحت تلاطم الأمواج ، ونهضنا معه إلى الدفترخانة ، فرأينا الشيخ الكاتب عند الباب يتيه إعجاباً بمهارته في الاهتداء عليها مع قَصَرِ الوقت ، ويحمد الله على حسن الطالع وسعود الجَدِّ ، فحمدناه على همته العالية وصنعهِ الجميل ، فأخرج من تحت إبطهِ أوراقاً بالية متخرقة متأكلة ، لا تستوي منها ورقة مع أختها ، فيها سطور متقطعة ، وخطوط متوزعة ، لا يستطيع أن يحلها إلا مَنْ كان عريقاً في كشف الرموز وفكِّ الطلاسم ، فقلت له : إن الاهتداء إلى نقل صورة مفهومة من هذه الأوراق لأعظم مشقة وأدعى بليَّة من الاهتداء على موضعها من تلك الصحراء المظلمة ، فقال لي : إن كثرة التعود تيسر العسير ، وتهوِّن الصعب ، وقد ورثتُ عن المرحوم والذي أيضاً قراءة هذه الخطوط ، وتلفيق مارث من أواخر السطور ، والعبارة واحدة لا تتغير تقريباً في كل باب من أبواب السجلات ، ورأيتُه يستعد ليسترسل في أبواب الشرح والوصف ، وخفتُ أن تشدد به نوبة الهذر والإكثار ، فودعناه وانصرفنا ، وكلفنا غلامَ المحامى أن يأتي لنا بالصورة من عنده بعد انتهائهما ، فطلب منا أن ندفع « رسمها » ، وأن نأتي بشاهدين يشهدان علينا باستلامها ، ووعدنا بأنه ينوب عنا في اجتلابهما ، بعد أن طالبنا بالمكافأة الواسعة ، على هذه الخطوة السابعة .

المحكمة الشرعية

قال عيسى بن هشام : ولما صارت في يدنا الصورة ، بعد تلك المواقف المذكورة ، خطأ غلامنا الثامنة من خطواته ، في بعض رَوحاته إلى المحكمة وغدواته ، فذهب إلى كاتب « الطلبات » ، لتحديد إحدى الجلسات ، ثم عاد فبشرنا بأن الكاتب اتفق مع الرئيس ، على أن تكون الجلسة في يوم الخميس ، وأنه حرر « طلباً » لحضور الخصوم ، في الوقت المعلوم ، فأقننا أياماً نعمل النفس بالأمل ، حتى حلّ هذا الأجل ، وسمح لنا الطالع بطلعة الشيخ الحامى ولقائه ، بعد طول احتجابه عنا واختفائه ، ورَضِيَ أن يتوجه معنا إلى المحكمة ، ليكشف عنا بِيَمْنِهِ كل مظلمة ، فسرنا جميعاً نقصد بيت القضاء الشرعى ، والحكم المرضى ، والعدل المقضى ، بوحى الإله وسنة النبىؐ ، حيث تقام منابر الهدى ، وتشاد منائر التقى ، وينبلج نور الحقيقة والعدالة ، وتنكشف ظلمة البدعة والضلالة ، ويُؤخذُ من الظالم المظلوم ، وينتصف من الحاكم للمحكوم ، ويُسارُ على الصراط السوى ، في الحكم بين الضعيف والقوى ، حيث تتحد المواقف والأقدام ، وتستقيم الأوامر والأحكام ، وتغدو فيه الثكلَى ربة الأيتام ، أعزّ من الفارس ربّ الرمح والحسام ، ويصبح الأعزل الشاكى ، أقوى من المدجج الشاكى ^(١) ، ويتساوى لديه ربّ الشوْية ^(٢) والبعير ، رب التاج والسريّر - نعم حيث يكون المقعد الموروث ، عن النبىؐ المبعوث ، وحيث يُعمل بالسنة وآى الكتاب ، فينتصر للذليل على العزيز ، ويقتدى فيه تارة بسيرة عمر بن الخطاب ، وأخرى بسيرة عمر بن عبد العزيز ، وحيث يكون مقرّ المهابة والجلال ، ومصدر الوقار والكمال ، وموضع الطهارة والأمانة ، ومنبع العفة والصيانة ، وقبلة القنوت والخشوع ، ومقام الطاعة والخضوع .

ولما وصلنا إلى هذه المحكمة ، وجدنا ساحتها مزدهجة بالمركبات ، تجرها الجياد الصاهلات ، وبجانها الراقصات من البغال والحير ، عليها سُرجُ الفضة والحريّر ، فحسبناها مراكب للعظماء

(١) المدجج : اللابس لسلحه وكأنه تغطي به . والشاكى : التام السلاح .

(٢) الشوية : تصغير الشاة وهى الواحدة من الغنم .

والأمراء ، في بعض مواكب الزينة والبهاء ، وسألنا لمن هذى الركاب ، فقيل لنا إنها لجماعة
السكراب ، فقلنا سبحانه الملك الوهاب ، ومن يرزق بغير حساب ، ونحونا نحو الباب ، في
تلك الرحاب ، فوجدنا عليه شيخاً حنّ ظهره السنون ، فتخطّته رُسُلُ العمّون ، قد
اجتمع عليه العمّشُ والصّم ، ولج به الخرفُ والسقم ، وعلّمنا أنه حارسُ بيت القضاء ،
من نوازل القضاء ، ثم صعدنا في السّلم ، فوجدناه مزدحمًا بأناس ، مختلفي الأشكال والأجناس ،
يتساقبون ويتشائمون ، ويتلاكمون ويتلاطمون ، ويبرقون ويُرعدون ، ويتهدون
ويتوعدون ، وأكثرهم أخذ بعضهم بتلايب بعض ، يتصادمون بالحيطان ويتساقطون
على الأرض ، ومازلنا نزاحم على الصعود في الدّرج ، والعمائم تتساقط فوقنا وتتدحرج ،
حتى منّ الله علينا بالفرج ، ويسّر لنا الخروج ، في وسط هذا الجمع المتلاصق ، والملازق
المتضايق ، ووصلنا إلى القاعة السفلى ، فوجدنا عندها امرأة حُبلى ، تتقلب على الأرض
كالثعبان ، وتستشهد بالأهل والجيران ، أنّ بعلها ، أنكر حملها ، وحاولنا أن نخطو خطوة
إلى الأمام ، فلم نستطع من شدة الزحام ، وكيف بالتقدم في عباب موج ملتطم ، ومنحدر
سيل مرتطم ، من نساء صائحاتٍ مَوْلولات ، ونائحاتٍ مَعُولات ، ونادباتٍ باكيات ،
وصارخاتٍ شاكيات ، كأنهن قائمات في مآتم على مدافن الأموات ، تفرحت فيه العيونُ
وبحت الأصوات ، وفيهن المسفرة والمقنعة ، والمضطجعة والمتربعة ، والحاسرة عن الذراع
والرأس ، وأختها تُفليها في وهج الشمس ، ومنهن الكاشفة عن ثدييها ، تُرضع طفلًا على
يديها ، وغيرها ترضع طفلين في حذاء ، وزوجها يضرب رأسها بالحذاء ، وأخرى آخذة
بضفيرة ضرتها ، ورضيعها يتلف على ضرتها ، ومن يدين من يتقدمها طليقها ، ويتبعها
عشيّقها ، تشيع الأول باللّعن والسباب ، وتغمر الثاني بكفّ مزدانة بالخضاب ، ورأينا
العقيلة المخدّرة مع « الأغا » ، لا يستطيع أن يحميها في حومة هذا الوغى ؛ وشاهدنا في
الجمع جماعةً من فجّار الخلاء ، وتُبّاع النساء ، يغازلون كل غانية هيفاء ، ويغامزون كل
غادة غيداء^(١) ، ويعرضون لفضّ النزاع ، بين ذوات القناع ، وفصل العناد والشقاق ،
بين الطاعنات بالأحداق ، فتختلط غمزات الطرف ، بهمزات الكف ، فيزول ما هنالك

من الجدال والخصام ، ويصيرون جميعاً إلى الحسنى والرفيق من الكلام ؛ ورأينا فيما رأينا من غرائب البشاعة ، ومجائب الشناعة ، رجلاً وامراً يتسابقان في ألفاظ الفحش والهجر^(١) ويتبازان في أقوال البذاء والنكر ، وهما يتجاذبان في أيديهما غلاماً ، كأنما يحاولان له اقتساماً ، ليأخذ كل منهما من أعضائه بنصيب ، والغلام يبكي من شدة الألم والتعذيب ، فاستعذنا بالله السميع العليم ، من موقف هذا الجحيم ، وسمعنا من أفظع ما سمعناه امرأة تنقح وتقول ، ونقابها بماء العين مطلول : « لو كان للنساء قضاة من النساء ، لما وصلنا إلى هذه الحالة التعمساء ، فإن الرجال يميلون لجنس الرجال ، ويتناصرون لبعضهم على ذوات الحبال » ، فاستعنا برب المثاني^(٢) ، وصعدنا في السلم الثاني ، فإذا هو كالأول يتموج بالناس كبيوت النمل ، أو خلایا النحل ، وانهينا منه إلى قاعة ، ممتلئة بصنوف الباعة ، هذا يصيح : « الخبز والخبز » ، وذاك ينادى : « الدخان والبن » ، وآخر يقول : « الزبدة والعسل » ، وبعضهم يردد : « الفول والبصل » وبائع الضأن يفتت بسكينه حجام الروءس ، والثلاج يصفق بأكواز « العرقسوس » ، وهناك « قهوة » يدب فيها الشهود بالعشرات ، كدبيب الحشرات ، فيعرضون أنفسهم على الخصوم ، للشهادة أو التزكية بأجر معلوم ، وغلمان الحامين يروحون بين المجموع ويغدون ، فيمكرون بهم ويكيدون ، ويتقلبون بين الخصوم ويحتالون ، فيخدعون ويغتالون ؛ ودخلنا حجرة صغيرة من حُجرات الكتّاب ، فزار في وجهنا ما على أطباق الباعة من جيش الذباب ، فرجعنا على الأعقاب ، ونجونا من الأوصاب ، ثم انحدرنا مع غلام الحامى إلى حجرة كبيرة الساحة ، فقال اجلسوا هنا للاستراحة ، فأجلسنا في صدر المسكان ، بين الكتبة والغلمان ، ولا بد لكل كاتب هناك من غلام ، يقوم مقامه في تدوين الأحكام ، فسمعت الكاتب الجالس عن اليمين ، يُقسم على أقواله بكل يمين ، بأنه لولا اعتراض مركبات الكهرباء وضيق الميدان ، لما تأخر حماره عن حمار فلان ، وسمعت صاحبه بجانبه ، يحلف بجده وأعز أقاربه ، أنه لولا حبسه للعنان ، لسبق كل الحمار في يوم الرهان ، ويقول له ، وهو يتلفف في العباء : « قد بلغنا عن الأجداد والآباء ، أنه إذا حثت الشعرة الخضراء ، لم يتعلق بذيل الحمار

الهواء » ، ثم التفت ذات الشمال ، فوجدت كاتباً منهم غض الشباب ، عظيم التأنق في لبس الثياب ، فهو يتلألاً ويتأنق ، في سندس وإستبرق ، كأنما خاطوا له قباء من أزهار بستان ، مختلفة الأشكال والألوان ، يُفعم الأنوف بعطره ، ويُعبق الجو بنشره ، وأمامه رجل في يده صرة ثياب ينشرها ويطويها ، فيأخذها « السيد » منه ويرميها ، ويقول له في حديثه وشدة سؤرته :

(السيد) — هذه ثياب لا أرضاها ولا أقبليها ، وبئس المفصلُ مفصلها .

(الخياط) — كيف ترى ذلك أيها السيد ، وأنا أقسم لك بالقرآن المجيد ، إنها أوسع من ثياب السيدين عبد العزيز وعبد الحميد .

(السيد) — كذبتَ وربُّ الكعبة ، فإن استدارة الكم ضيقة ، والرقبة لا تنطبق على الزى الحاضر .

(الخياط) — وماذا أصنع ، وذلك كل ما في عرض الحرير ، ولو كنا على الزى القديم لدخلَ مع السيد في طيّ ثيابه : إثنان أو ثلاثة من أصحابه .

(أحد أصحاب القضايا) — صبح الله السيد بالخير والإينعام .

(أحد الكتبة الظرفاء) منكثاً — لا ، بل بالخليل والأنعام .

(صاحب القضية) — أرجو سيدى أن يعطيني « الإعلام » .

(السيد) — اذهب حتى يأتي الغلام .

(الكاتب الظريف) مورياً — عليك به في شارع أمّ الغلام ، تجده جالساً نصّاً تحت الأعلام .

قال عيسى بن هشام : وعافت نفسى هذه النكت الباردة ، والمعاني الساقطة ، فأعرضتُ عن الإصغاء ، وسرحت طرفي في بقية الأنحاء ، فرأيت الكتبة كلهم يتفاهكون ويتسامرون هذا يلت في يده أفيونه ، وذاك يكوّر بين أصابعه معجونه ، والغلمان يشتغلون تارة بأوراقهم ، وطوراً يتباحثون في أذواقهم ، وأرباب الحاجات بين أيديهم يقيسون سوء الرد ، ومطل الوعد ، وسمعت أحد الكتبة يخاطب صاحب قضية ، بألفاظ بذية ، ويقول له : « كيف تعطى الغلام هذا المبلغ الزهيد ؟ أظننه كان لك من العميد ؟ أتريد أن يكتب لك ويتعب

(وهو لا أجره له في المحسنة ولا مرتب) بغير ربح ولا مكسب؟ إن هذا لمن أعجب العجب!»، وجاء رسول القاضى يطلب أحد الكتبة الرؤساء، فوجده راقداً كالنفساء، فبعضهم أشار بتنبئيه من غفلته، وقال بعضهم: لا بل اتركوه في رقدته، أنسيتم حكم عادته، بأنه لا يُفريق من غفوته، قبل أن يسيل الأفيون مع الدم في دورته، ثم اتفق معهم الرسول على أن يرجع فيقول: «إننى لم أجد الشيخ مكانه، وعلمت أنه نزل إلى الدفترخانة»؛ ثم استيقظ الراقد بعد مدة، فتشأب وتمطى، ثم تدثر وتغطى، ثم عاد إلى ما كان فيه من السبات، وهو ينشد للمعترى من أبيات:

وفضيلة النوم الخروجُ بأهله عن عالم هو بالأذى مجبولُ

ثم جاءه بائع كتب وأوراق، فصاح به حتى أفاق، وقام بعون الله وحوله، يخاطب البائع بقوله:

(الكاتب) — هل أحضرت ما طلبته من الكتب؟

(البائع) — نعم جئت بك كتب قديمة، لا تقدر لها قيمة، منها كتاب «حل الرموز. لفتح الكنوز»، ومنها «أصول المراسم، في فك الطلاسم»، ومنها «حسن إرشاد الناس في استخراج الذهب من النحاس» ومنها «القول للمأثور، في تأثير البخور»، ومنها.. (الكاتب) — ألم تعثر لى على كتاب في (الاستحضار)؟

(البائع) — نعم معى كتابان: أحدهما «قلائد اللؤلؤ والمرجان، في استحضار الجان» والآخر «خير المواقيت، لرؤية العفاريث».

(الكاتب) — بارك الله فيك وجزاك خيراً، فإن عندى نسخة محرفة من هذا الكتاب الأخير، فاصحبني إلى البيت لنقلبها ونصححها.

قال عيسى بن هشام: وقام هذا الكاتب مع البائع، وأقت أسخط على هذا الجهل الشائع، والعمل الضائع؛ وبيننا أنا كذلك إذ أشار علينا غلام الحامى بالقيام، فقد آن نظر قضيتنا، فخرجنا فوقعا عند باب الحجرة التى تنعقد فيها الجلسة، فرأينا الزحام خارجها وداخلاً على أشد حالاته، وسمعنا الحاجب ينادى تارة بصوت عال، وتارة بصوت منخفض، فسألت

الغلام عن ذلك ، فقال إنه يخفض الصوت حتى لا يسمع أربابُ الدعاوى النداء ، فتسقط القضية ، وهو من باب الشفقة والحنو بالمدعى عليه ، وفوق ذلك فإن للحجَّاب أن يُدخلوا الجلسة من أرادوا ، ويحجبوا عنها من أرادوا ؛ ثم نودى علينا ، فدخلنا مع شهود المعرفة الذين استحضروهم الغلام لنا ، فوجدنا الجلسة مؤلفة من ثلاثة أعضاء برئسهم ، وهم جلوس كل واحد منهم بمعزل عن الآخر ، وقد تعسر على أن أفهم كلام الباشا ، وهو بجانبى يخاطبني ، لشدة الضوضاء وعلو الأصوات ؛ ثم دخل كاتب الجلسة يرقص في مشيته ، وكأنه الطاووس في هيئته ، فجلس ووقفت عنده بحيث أبصر ما يسطره ، فوجدته قد تناول القلم بأطراف بنائه ، يضعه في الدواة تارة ، ويضعه في أذنه أخرى ، ثم يلهو بتفقد ثيابه ، ويشغل بلمس الإبر التي تتشبك بها العمامة ، ثم ابتدأوا في سماع القضية ، وتقدَّم الباشا مع الشهود ، فلم أسمع شيئاً مما قالوه أوقيل لهم ، لكثرة الجلبة والصياح ، وإنما رأيت الكاتب يكتب في دفتر الضبط - وكأنما يكتب من عنده - ما أنقله بحرفه وهو :

«استحضرَ أمام الجلسة المدعى والحامى والشهود، فتقدم المدعى وعرف أنه فلان بن فلان بن فلان ، وسَمَّى شاهدى معرفته ، وهما فلان بن فلان بن فلان ، وفلان بن فلان ابن فلان ، الساكنان بالجهة الفلانية شياخة فلان بن فلان بن فلان ، وشهد كل منهما على انفراده بأنه يعرف المدعى المذكور ، وأشار إليه بيده ، وهو فلان بن فلان بن فلان المذكور ، ثم قال المدعى المذكور إن لى قبيل فلان بن فلان بن فلان دعوى نظر على وقف ومعى مسند دعواى والمدعى عليه لم يحضر مع استلامه علم الطلب المحدد له فيه الحضور فى هذه الجلسة . »

ثم أمرت المحكمة بانصرافنا للمداولة والنظر فى المستند ، فوقفنا ناحية من الحجرة ننظر مع من ينتظر ، ثم نودى علينا بعد مدة ، فقالوا لنا إن المحكمة تعلمنا بمضمون المادة ٧٢ من اللائحة ، وهى تقضى - على ما أخبرنا به الحامى - بالإعذار إلى المدعى عليه ، وقال لا بد أن نطلب ذلك من المحكمة ، لأنه لا يسوغ لها أن تُعذر إلا بناء على طلب الحامى ، فتقرر إصدار الإعذار ، والله يكفيك شرَّ ما فى هذه الدار ، من الأفضية والأقذار ، وكثرة الهموم والأكدار .

قصر حفيد الباشا

قال عيسى بن هشام : ودخلنا — لا أدخل الله عليك طوارق النعم ، ولا أخرجك من طرائق النعم — في دَوْر الإنداز يتبعه الإنداز ، والاعذار يتلوه الإعذار ، ومنذوبُ الحكمة يعود إلينا بالخيمية ، في كل أوبة ، زاعماً أن خدم الخصم لا يقابلونه إلا بالازدراء ، كغيرهم من خَوَلِ أبناء الأمراء ، حتى وصلنا إلى حد الإعذار الأخير ، وَرَمِينَا المندوبَ بالإهمال والتقصير ، فرأينا أن نخبر خبره ، ونقتفي أثره ، ونتحقق بأنفسنا كيف يتسع الذرع ، للاستخفاف برسول الشرع ، فسرنا وراء المندوب ومعه الشاهدان ، يشهدان بأنه أعذر فلان بن فلان بن فلان ، وقد أمسك الواحد منهم بكف الآخِر ، على هيئة تستفز كل هازئ وساخر ، وكلٌ منهم يخذ الأرض بحذائه ، ثم يُعقِّي الأثر بفضل ردائه ، وهم ينتقلون في المشى من التَّمِيل إلى الرِّسِيم إلى الوخيد^(١) ، كأنهم مسرعون إلى جفنة ثريد ، ونحن من خلفهم نخب ونهرول ، ونحسب لنحوقل ، إلي أن كادوا يغيبون عن البصر ، وكدنا نفقد منهم الأثر ، لولا أن عثر أحدهم بقضبان مركبات الكهرباء ، فطاحت العمامة وانفالت الحذاء ، فانقتل يلتمسها ويلتمسه ، فلم يرْعه إلا السائق وجرسه ، فما تحرك ولا انتقل ، حتى أدركته العجل ، وكادidas ويُفَضَّى عليه ، لولا أن جذبه رفيقه إليه ، فحبل بين الرجل ، وبين عمامته ونعله ، ووقف مخبولا لا برأسه ولا برجله ، وهو يستنجد لهما ويستغيث فلا يغاث ، حتى مرت عليهما المركبات الثلاث ، فأدركناه وهو ممتقع اللون من اليأس والوجل ، فبشرناه بسلامتهما ، فاعتمَّ بهما وانتعل ، وحمد الله على هذا اللطف في القضاء ، وحمدناه على ما أتيح من التعويق والإبطاء ، إذ تمكنا من اللحاق بهم ، وقد رنا على استئناف السير في عقبهم .

وقد انتهى السير بنا إلى قصر في سُمرّة بستان ، يُزري في الحسن بقصور بغداد وغمدان ،

(١) التميل والرسيم والوخيد : ضروب من السير .

وقد ترصع البستان بأنواع الأزهار ، كأنه محلى بصنوف اليواقيت والجواهر ، والقصر في وسطها كأنه الدرة البيضاء ، أو البدر بين نجوم السماء :

كَأَنَّهُ جِيـــــــــــــــــدٌ وَبَسْتَانُهُ مِنْ حَوْلِهِ عِقْدٌ بَدِيعِ النِّظَامِ

وما عساي أقول في وصف روض ، قد نسجته يد الأرض ، لتزدان به يوم عيدها ويوم زينتها ، ونمنمته رداء لها تحتال به في حسن رونقها وبهجتها :

مُؤَزَّرَةٌ مِنْ صَنَعَةِ الْوَبْلِ وَالنَّدَى يَوْشَى وَلَا وَشَى وَعَصَبٌ وَلَا عَصَبٌ ^(١)

قد أغنى الغواني نسيمه العليل ، عن المسك الأذفر ، وكفاها ريحه البليل ، تعطرها بالطيب والعنبر :

بَغَرَسٍ كَأَبْكَارِ الْجَوَارِي وَتُرْبَةٍ كَأَنْ تَرَاهَا مَاءً وَرَدٍ عَلَى مَسَكٍ

ومنى العرائس أن لو اتخذت من نوار الأزهار فصوصاً للخواتم ، ومن أكام الأشجار معاقداً للتمائم ، وودها أن لو تازرت من سندس أرضه بأبهى إزارٍ ومرط ^(٢) ، وتحلت من جوهر نباته بأزهى شنفٍ وقرط :

إِذَا مَا النَّدَى وَافَاهُ صَبِيحًا تَمَايَلَتْ أَعَالِيهِ مِنْ دَرٍّ نَشِيرٍ وَجَوْهَرٍ

إِذَا قَابَلَتْهُ الشَّمْسُ رَدَّ ضِيَاءَهَا عَلَيْهَا صِقَالُ الْأَقْحَوَانِ الْمُنُورِ

وقامت فيه مثمرات الأغصان قيام الكواعب الأتراب ، ساقيات الأباريق والأكواب ، ساكبات سوّر الطل من تلك الأفداح ، مأساتٍ من رحيق الندى ومداعبة الرياح : شقائق يحملن الندى فكأنه دموعُ التصابي في حدود الخرائد

فما تخيلنا في هذا الروض مذ رأيناه إلا أننا في حفلة عرس ، جمعت أسباب اللهو وأطراف الأنس ، قد نصب الغنيم عليها سرادقه ، ومد ملتف النبات فيها تمازقه ^(٣) ، وأشرقت في الأغصان الأنوار ، إشراف المصابيح بالأنوار ، وقامت الأطيار على الأعواد ،

(١) العصب : ضرب من البرود (٢) المرط : كساء من خز يؤتر به .

(٣) التمزق : الوسادة

تتسابق في الترنم والإنشاد ، فهي تغرد بألحان يقطع السامع لها حبل النفس ، ويأنس إليها مستنفر الوحش المفترس :

رَأَتْ زَهْرًا غَضًّا فَهَاجَتْ بِمِزْهَرٍ^(١) مَثَانِيهِ أَحْشَاءُ لُطْفِنَ وَأَوْصَالِ

وللنسيم بين الشجر نغامت بالهفيف والحفيف ، من ثقل في الضرب أو خفيف ، تصفق لها أكف الأوراق ، وتقوم الأفنان للرقص على ساق ، مترنحة الأعطاف من خمر الندى ، مهتزة القدود بغمز الصبا ، تبسم عن أفاح نضيد ، يزرى بثنايا الغيد ، ثم تميل برشيق القوام ، فتلتقط ما ينقطها به الغمام ، والجدول يجري تحت أذيالها ويتعثر ، وينساب الماء في ظلالها ويتكسر ، كأن حصباء اللؤلؤ والمرجان ، في نحر الحسان ، أو قلائد العقيان ، في أجياد القيان :

تَرُوعُ حَصَاةُ الْعَذَارَى فَتَلْمَسُ جَانِبَ الْعَقْدِ النَّظِيمِ

ولما ملئنا من هذه الجنة طرباً ، وقضينا عجباً ، قلنا ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ما أعجز الخلق عن شكر نعماءه ، وإذا بقوم عند باب القصر ، كأنهم أفراس في مخاب صقر ، تلعو وجوههم قفزة ، ترهقها غبرة ، وهم بين بالك ومتعجب ، وصارخ ومصطخب ، فتفرست في هيئاتهم ، وهم يذكرون حاجاتهم ، فإذا هم جميعاً في يأس وقنوط ، وخيبة وحبوط ، وإذا الصيرفي يقول ، بصوت المقهور المخدول :

(الصيرفي) — تعسا لي لقد ضاع مالي ، وذهبت آمالي .

(التاجر) — وبؤسالي لو كنت أعلم بهذا المال ، لم أقع في تلك الحبال .

(البائع) — يا ويح نفسي اغتررت بالمقام العالي ، فחסرت رزق عيالي .

(الجوهري) — ويل لمن خدعته الظواهر ، فضاعت عليه الجواهر .

(الصيدلاني) — أقسمت لا يضيع عنده ثمن الدواء ، ولو تعلق بأطراف السماء .

(الحنّار) — تبّأله من محتال مال على دني ، ثم اختفى عن عيني .

(القصَّاب) — أنا لا يضيع عنده حق ، ولو وضعوا السكين على حلقى .

(الخياط) — وأنا لا أترك هذا الباب ، حتى أمزق ما عليه من الثياب .

(الإسكاف) — ورأس أبيه وجده ، لآخذن ثمن الأحذية من جلده .

(الخلاق) — أنا ابن جَلَّ وطَّلَاع الثنايا ، وكَم لصنعتى من منافع ومزايا ، وليتنى

كنت شوّهت خلقته ، ومسخت سحنته ، فنتفتُ شاربه ، وحلقت حاجبه ، تالله لآخذن

بناصيتى هذا الثقل البارد ، ولأسدّن عليه المصادر والموارد ، ولأزمنّه صباحَ مساء ،

ولو حلقت فى الهواء .

كل هذا والخدم يكتمون وجودَ صاحب الدار ويُقسمون أنه لم يبق لديه درهمٌ

ولاديفار ، وإذا همَّ أحدُ الغُرماء بالدخول منَعُوهُ ، أو دافعَهُم أحدهم دفعوه ؛ وبيننا نحن

نتأمل ونتعجب ، ونتقلّى على الجمر ونتقلب ، ونقابل بين سعد المكان ، ونحس السكان ،

إذا برجل أفرنجى قد خرج من بيت الحرم ، وهو يلتف غيظاً ويضطرم ، ويقول للبواب

برطانتة ، وسوء عبارته : لقد طالبتُهُ فأبأن الافلاس والعجز ، فلم يبق إلا توقيع الحجز ، وإليك

قائمة البيان ، وحذار من التلف والنقصان ؛ وما كاد « مُحضِر المختلطة » ينتهى ويذهب ،

حتى حضر « مُحضِر الأهلية » يلهث من التعب ، فسلم البواب ورقة إنذار ، فأخذها

وهو يدعو بالبور والدّمار ؛ وبعقب ذلك انصرف الحضر ، وتبعه جميعُ مَنْ حضر ،

لاشتداد حرّ الظهيرة وأوارها^(١) ، ولَفَحَ الشمس للوجوه بنارها ، فانتهزنا هذه الفرصة ،

فتمحرك مندوبُنا وتقدم ، وخاطب البواب وهو يتلعثم : فقال له : أنا مندوب المحكمة

الشرعية . فقال له : لم يكن ينقصنا إلا هذه البلية . ثم دفعه فى صدره ، فردّه إلينا بظهره ،

بعد أن أخرجنا من الجنان ، وأغلق باب البستان ؛ فأخذ المندوب بيد الشاهدين ، وهو

يتظلم ويتضرر ، ووقف بينهما ينادى فى الهواء بالنداء المقرر :

« يا فلان بن فلان بن فلان إن مولانا قاضى مصر يأمرُك بأن تحضر إلى المحكمة فى

يوم الخميس الآتى للنظر فى دعوى اغتصاب الوقف الموجهة عليك من قبل فلان بن فلان

(١) الأوار . حر الشمس والنار واللهب .

ابن فلان ، وإن لم تحضر في اليوم المذكور يُنصبُ عنك وكيلًا ويسمع الدعوى في وجهه ويحكم عليك غيابيًا . »

ثم ودّعنا المندوبَ والشاهدين ، وانصرفوا إلى سبيلهم ، وبقيت أنا والباشا في دهشة وذهول ، وحزن وأسف ، مما رأينا وسمعنا ، ثم استند الباشا إلى سور البستان ، وشرع يقول لي ، وهو في تأمله وتفكره :

(الباشا) — ما زالت بواطن الأمور ، وحقائق الأشياء ، تتجلى لي على وجهها ، منذ غمرني الدهر في هذه المشكلات والخطوب ، حتى تحققتُ اليوم بأن أمور هذه الدنيا إنما تجري كلها على التضليل والبهتان ، وتدور على التمويه والبطلان ، وتنطوي على الغش والتدليس ، فبالله عليك مَنْ ذا الذي يرى هذا القصر بزينة وبهجة وخدمه وحشمه ، ولا يتولاه الحسدُ لساكنيه ، والتطلعُ إلى حسن حظهم ، وسعادة عيشهم ، ثم يرجع إلى نفسه فيسخط على حظه من الدنيا ، ويندب نصيبه من الحياة ، وسوء قسمته في العالم !!

(عيسى بن هشام) — لا زالت ترى الحق ، وتقول الصدق بما يتسع لك من سبيل الهداية والحكمة ، نعم إن جُلَّ من نراهم من النعمين المترفين ، والأغنياء الموسرين ، لو كشفت عن باطن أمرهم ، وحقيقة أحوالهم ، وخبايا معيشتهم من وراء الجدران ، لوقفت على ما يوجب الأسى والأسف ، ويدعو إلى الرحمة والشفقة ، لا ما يدفع إلى الحسد والغبطة ، ولأيقنت أن الرجل الأجير ، الذي يستخرج قوت يومه منغمساً بعرق جبينه ، هو أسعد منهم حالا وأنعم بالآ . والغالب أنه كلما كان مظهر العيش زاهياً زاهراً ، كان باطنه مُقْتَمًا مظلمًا ، وأشدُّ ما يكون من البلاء على أهل هذه الطبقة أنهم يقضون أوقات حياتهم في الظهور بين الناس على أغرب حالات التصنع ، فيكون الواحد منهم غريبًا في بحور المموم والأكدار ، وتراه يقسر نفسه بين الملأ على التظاهر بالسرور والانشراح ، وأكثر ما يكون في الضيق والإفلاس ، تراه يتعرض للتبذير والإنفاق ، فهو على الدوام

يتقلب بين الضيقين : ضيق العيش ، وضيق النفس ، وإن كان عظيم الثروة ، كثير الغنى ، فإنه لا غنى مع ازدياد الحاجات ، ولا مال يكفي مع تجدد الرغبات .
(الباشا) — قد كانت الحال في أيامنا على العكس ، إن كان لا يسرك الرجل ظاهر حاله ، فإنه يرضيك باطن أمره ، وربما كان يجتهد في التظاهر بلباس الفقر إذا بلغ حد الغنى ، ويُبدي الشكوى إذا أسر الرضى .

قال عيسى بن هشام : وقضينا مدة في مثل هذا الحديث ، وأنا متهلل مستبشر بما أراه ينمو ويشمر في نفس الباشا من التعلق بالمباحث العقلية ، والتعمق في معرفة الأخلاق النفسانية ، حتى صار من ديدنه أن يستنبط من كل حادثة يشاهدها ما يرتقى به إلى عالم الفضيلة والحكمة ، وازددتُ يقيناً بأن الرجل المرتفع القدر لا يزال غراً بالأمر ، غافلاً عن حقائق الأشياء ، فإذا وقع في أشراك الخطوب استندرت بصيرته ، واستضاءت قريحته ، وعلم بطلان ما كان فيه بحقيقة ما وصل إليه .

ثم حانت منا التفاتة إلى ما وراء السور ، فرأينا خدام البيت وحشمه قد اجتمعوا حلقة وهم يتحاورون ويتجادلون ، فسمعنا البواب يبتدىء فيقول :

(البواب) — ليت أمى لم تلدنى ، وليت أبى لم يعلمنى رسم الخط ، فقد كلتُ يدى وحفى قلمى من طول التوقيع بالاستلام على الإنذارات والمحاضر ، فقلما يمضى يوم إلا ولى فيه من التوقيعات مائيس لرئيس قلم فى ديوان ، فبئست المعيشة معيشتى ، وبئس الحظ حظى ، وليتنى كنت قادراً على الانضمام إلى صف هؤلاء المطالبين والغرماء ، فأخلص بجزء من أجرة الشهور المتراكمة ، ومن لى بالتباعد عن هذا البيت الذى انتشر فيه جراد الحبز ، وأزعجت من فيه أصوات الغرماء ، وأزعجنى تردد الحضرين على صندوق ثيابى .
(الكتاب) — لست أدرى والله ما يصنع صاحب البيت ، وماذا يحتال لحالته ، وكيف لنا بالمعيشة معه ، ولم يبق عنده كثير ولا قليل ، وإن صدق ظنى كانت عاقبته من أقبح ما تتصورونه فى سوء العواقب ، فقد أحسست من كثرة حركته واضطرابه فى هذه الأيام أنه يدبر لنفسه أسوأ تدبير للخلاص من ضيقه ، ليختم أمره بأقبح الخواتم ،

ويعلم الله أنه لولا ما التقطه في أشغاله من هنا ومن هناك ، لمّا تيسر لى القيام بقوت عيالى بعد أن انقطعت عنا أجور الشهور ، وقد دعانى هذا الأمير أمس وأعطانى خاتماً من الياقوت لأبيعه ، فذهبت به إلى الجوهريّ الذى كنا اشتريناه منه بأكثر من مائة جنيهه ، فلم يدفع لى فيه إلا خمسة وعشرين ، فبعته إياه وعُدت للأمير بالdrahm ، فكأنما فككتُ الأسير من القيد ، وأنقذت الغريق من اللجّ .

(الوصيف) — الآن انحلّ ما كان مشكلاً ، وانكشف لى ما كان غامضاً ، فإني رأيت معه أمس ذهباً كثيراً ، لم أهدّ إلى مورده ، أعطانى منه عشرة جنيهات ، وأمرنى أن أبتاع من أخيه هذا الكلب الذى ترونه مؤلماً بملاعبته منذ الصباح .

(الفراش) — وأنا اشتريت له من صهره تلك الببغاء بخمسة جنيهات ، وأخذتُ له غرفة في « تياترو الأوبرا » بثلاثة ، وزجاجة عطر باثنين .

(الكاتب) — فعلى هذا لم يبق معه إلا خمسة جنيهات ، ولا بد أن أبادر في الحال لمطالبتة بإنجاز الوعد الذى وعدته لصاحب الجريدة المعلومة ، حتى يسكت عنه ، ويكفّ عن التعرض له .

(السائق) — وأنا أذهب إليه أيضاً لأخذ منه ثمن الريش والإسفنج الذى وعدنى به ، ما دام معه من الدراهم بقية .

(الخصى) — إنكم لفي نعمة وغبطة بما تنالونه من وراء هذا البيع وهذا الشراء من الربح ، لكن غيركم من الخدم في الحرم قد اقتنعوا من العيش بيسير الأكل والشرب من غير أجر ، وصبرنا على هذه الحال وفاء بالعهد لأهل البيت ، وباليات هذه النعمة تدوم ، فقد سمعتم اليوم وعيد حضرة البك الجزار ، كما سمعتم أمس بانذار البك الخباز .

(السقاء) — ما أظن أن لنا حيلة نلجأ إليها في آخر الأمر إلا أن نطلب منه إحالة أرزاقنا على ريع الوقف الذى سلّم وحده من الحجز .

(البواب) — لقد خاب ظنك وضاع أملك ، فإن هذا الوقف الذى كنا نرتكن عليه

قد دخل في دور القضايا والدعاوى ، وجاء اليوم مندوب المحكمة الشرعية بالإعذار الأخير ، ومن يعلم ماذا يكون من أمره .

وسمعنا الجرس يذق من جانب الحرم ، فنشئت الجمع نحو المطبخ لخلول وقت الغداء ، فانصرفنا من موقفنا واكتفينما بما شهدنا .

قال عيسى بن هشام : وحلّ اليوم الموعود لجلستنا في المحكمة الشرعية ، فتوجهنا إليها ، ولم يحضر المدعى عليه كهاده . ولما فُتحت الجلسة تقدمنا إليها ، وشهد أمامها شهود المعرفة ، ثم أطلع الأعضاء على الإعذارات الثلاثة ، فوجدوها جامعة للشروط المقررة ، فأمروا بأن يُنصَّب المدعى عليه وكيل ، يكون موثقاً بأمانته ، معروفاً بالمحافظة على حقوق الغائبين ، فاختاروا من اختاروه ، وكلفوه شرح دعواه مكان المدعى عليه ، ثم أخذ محامينا ينظر في صورة الوقفية التي استخرجناها من الدفترخانة ليعدّد الأعيان ، فلم يجد فيها جميع ما عددناه له ، بل وجد منها جزءاً قليلاً لا يقوم بالتعب في إقامة القضية ، وخشِيَ أن المحكمة لا تحكم لنا بغير المبيّن في « الصورة » من العقار ، فتضيع علينا بقية الحقوق ، فطلب من الجلسة تأجيل سماع الدعوى زمناً يتمكن فيه من البحث عن بقية تلك الأعيان الموقوفة ، فوافقه الوكيل المنصوب للغائب ، فتأجلت القضية إلى بعد الفسحة القضائية من العام .

وخرجنا من الجلسة مع الحامي ، وقد فُتح له ولغلامه باب احتيال جديد ، ولما سألناه عن المظان التي تُنبئنا عن بقية أعيان الوقف ، تذكاً في الجواب ، ثم أحالنا على الغلام ، وتركنا معه وانصرف . فقال لنا الغلام : لا مظنة عندنا غير ديوان الأوقاف ، لأنه يوجد بهذا الديوان سجلات تسجل فيها مثل هذه الأعيان ، وطلب منا أن نتفق معه على أجر معلوم للسعى وراء هذا الغرض ، فوافقنا على هذا المطلب الجديد ، والله يفعل بنا ما يريد .

الطب والأطباء

قال عيسى بن هشام : ولما حال أمرنا من المحكة إلى الأوقاف، وعلم الباشا بما هنالك من قلة الإنصاف ، وأنه لا بد لنا من أن نطيل الالتماس والرجاء ، ونكرر الدعاء والنداء ، ونكثر من الغدو والرواح ، في كل مساء وصباح ، فنُبِلي في هذا الديوان جدّة الزمن، ونقف عليه وقوف العاشق على الدّمن ، لما هو مستفيض من اختلال أعماله ، واعتلال عماله ، وفساد إدارته ، وسوء نظارته ، نزل به من الهم والغم ما أورثه الضّيق والسّقم، وحلّ به من الحزن والكمد ، ما أخلّ بنظام الجسد ، فغدا هز يلا نحيلاً ، ووقع مريضاً عليلاً ، فأشرتُ عليه بالطبيب ، قال : يخطيء ولا يصيب ، وماذا يجدى العلاج وما يفيد ، وللآجال توقيت وتحديد ، فأقنعتُه بأن الاعتقاد بتحديد الأجل ، لا يمنع من مداواة العلل ، وسبحان من أرشدنا إلى الدواء ، عند حلول الداء ، للالتماس الشفاء ، فقبل إشارتي بعد طول الإباء ، فجئت له بأحد الأطباء ، من ذوى الشهرة بالبراعة ، في ممارسة الصناعة ، فجلس بجانبه يحسّ نبضه ، ويقرع صدره ، ثم استلم قلعه وولاه ظهره ، وأخذ يرقم أصناف العلاج ، بيدٍ دائمة الاختلاج ، ثم قال : دونكم هذا الدواء ، جرعة في الصباح وأخرى في المساء ، ولا تأخذوه إلا من صيدلية فلان فإنه صادق مؤتمن ، لا يغش في التركيب ولا يُغلي في الثمن ، ثم وقف عند المرأة يسوّى مفرك شعره ، ويصقل ما استطال من ظفره ، ويرسل اللحظات تباعاً نحو الباب بنظر مستتراب ، كأنه يريد أن يستشف ما وراء الحجاب ، من آنسة في الخدر أو كهاب ، ولما أعوزهُ ما تفقده ، طلب أن يغسل يده ، وقال إني أرى حالة المريض شديدة ، تقضى بعيادته أياماً عديدة ، حتى ينتهى المرض من شدته ، ويتلطف من حدته ومضت مدة والطبيب يذهب ويعود ، ودرجة الحرارة لا تفتأ في صعود ، والمريض يهذى في شدة حمّاه ، وأنا أتضرع وأرثمه ، حتى كدت أياس من الشفاء ، وأسلم لحكم القضاء ، ولكن زارني أحد الأصدقاء ، ممن يولعون بالطب والأطباء ، فقال لي وهو يبصر حالته : من الطبيب الذى يعالج علتك ؟ فقلت : هو الشهير فلان ، قال لي : علمتُ السبب الآن ، وأنا أنصحك لا تعتمد في الطب ، إلا على أطباء الغرب ، أولئك قوم قد برعوا

في معرفة الأمراض ، وتشخيص الأعراض ، وأحاطوا بكل جليل وحقير ، من البسائط والعقاقير ، فالأدواء لا تستعصى في أيديهم ، وليس بين الوطنيين من يماثلهم أو يداينهم ، وأنا آتيك بمن هو فيهم أوسع معرفة وعلماً ، وأشهر صيتاً واسماً ، وقام فعاد بأجنبي يهدئ الأرض بخطواته ، ويكثر من إشاراته ولفقاته ، فتقدم نحو المريض فجلس ولمس ، ثم قطب وعبس ، ووضع طرف منديله على أنفه ، وقال لنا في صلفه وعنفه . إن هواء الغرفة فاسد قتال ، وداء المريض داء عضال ، ولا رجاء إلا باتباع إشارته ، في تواتر زيارته ، ثم هزأ بما رآه من دواء الطبيب الأول ، بعد أن كتب علاجه بوصفٍ مطوّل ، وقال لا يحسن تركيب هذه الأجزاء ، إلا صاحب « صيدلية الشفاء » . وما زال هذا الطبيب أيضاً يذهب ويحضر ، والعلاج يتجدد ويتكرر ، والمريض يتألم ويتضجر ، والمرض باقٍ لا يتقدم ولا يتأخر ، حتى جاء في خاطري أن أجمع منهم جماعة للاستشارة والمداولة ، فنخلص من هذه المراوغة والمطاولة ، فلما اجتمعوا وقعوا في الحجاج واللجاج ، ولم يتوافقوا على تشخيص الداء أو تقرير العلاج ، وأقام كل واحد منهم منفرداً برأيه ، لا يهتدي إلا بهديه ، وسمعت بينهم من يقول لرفيقه : لا ينبغي أن نوافق فلاناً في تحقيقه ، كما أنه لم يوافقوا على رأينا في الاستشارة الماضية ، وأنكر علمنا جميع أدويتنا الشافية .

ثم خلفوني ونزلوا على الخلاف ، وإن كانوا اتفقوا في تناول الأجرة عند الانصراف ، وكنت شاهدت بينهم طبيباً يظهر نفوره من طريقتهم ، ويجري معهم على غير حالتهم ، فأرسلت في أثره من دعاه ، وكاشفته بأنني اخترته على سواء ، فقال لي : إن علة المريض بسيطة فيما أراه ، لا يجب فيها هذا الاختلاف والاشتباه ، وأعلمنا ناشئة عن انفعالات نفسانية ، من هموم فجائية ، فقلت له نعم : أصبت في النظر ، ثم أخبرته بجملة الخبر ، فقال . الآن تبين أن معالجة الأطباء كانت بغير اهتمام ، ولا يلزم علاجه إلا الامتناع عن هذه المركبات ، والاكتفاء ببعض البسائط من النبات مع جودة الغذاء ، وتبديل الهواء ، فأيقننا حينئذ بمهارته ، وسلمنا لإشارته ، فلم يمض إلا بضعة أيام حتى انتقلنا من دور السقم والاعتلال ، إلى دور النقاهة والإبلال ، وجلس الباشا ذات يوم إلى الطبيب يشكره على حذقه وبراعته ، ويحاورنا في الحديث على حسب عادته :

(الباشا) — كيف اهتديت أيها الطبيب إلى ما لم يهتد إليه سواك من الأطباء ، فأدركت سبب علتي ، وأحسنْتَ تشخيص مرضي ، وأصبت في اختيار العلاج ، فكان الشفاء ؟ لا شك عندي أنك نادرة عصرك وناطقة زمنك .

(الطبيب) — لا فضل لي يستحق كل هذا المدح والثناء ، والسبب في خطأ الأطباء ، أن العدد الأعظم منهم يسيرون في ممارسة صناعتهم على طريقة معينة ودائرة محدودة قررتها العادة فيهم ، فهم لا يتخطونها ولا يتعدونها ، فترى كل واحد منهم يحصر في ذهنه عدة أمراض معلومة ، وعلل معروفة ، فيطبّق عليها كل ما يراه من الأعراض التي تظهر له في عامة المرضى — والأعراض تختلف وتشتبه — فيحكم بمعرفة الداء ، ويأمر بالدواء المعين لذلك المرض المعين ، بقطع النظر عن الفحص ، والتأمل في حال المريض ، أو البحث والتدقيق في معرفة الأسباب المادية والأدبية التي يرجع منشأ المرض إليها ، ولا يكلف ذهنه التبصر أو التصرف على حال من الأحوال ، فيعيش في أسر العادة ، وقيد الطريقة ، لا يعبأ بالبحث في اختلاف الأمزجة ، وتباين الغرائز ، وتفاوت المعاش ، وتغاير القوَى في البنى ، لذلك يكثر منهم الخطأ ، ويقل الصواب .

(عيسى بن هشام) — كأنك تريد أنهم يكونون على مثل حال أهل الصناعات الآلية الذين يحل فيهم مجرى العادة محلّ إعمال الفكر ، فتنتقل أيديهم على وجه واحد ، وتنصرف أفكارهم عن التصرف أو التفنن في وجوه شتى .

(الطبيب) — نعم لقد أصبت في التشبيه ، وغير ذلك فإن بين هؤلاء الأطباء مَنْ لا يرى في صناعته إلا آلة لاجتلاب الرزق ، واصطياد الربح ، واستدراار الدرهم والدينار ، حتى يصلوا إلى اكتناز الأموال ، ويصبّحوا في مصافّ أهل الغنى والثراء ، لا يبالي أحدٌهم أيّ باب طرّق ، ولا أيّ سبيل قصد ، للتوصل إلى هذا الغرض المطلوب ، فكل الوسائط لديه مقبولة ، وكل الطرق عنده مسلوكة ، فهو يدخل على المريض طامعاً في ماله ، لا طامعاً في شفاؤه ، فيحتمل له أنواع الخيل لتطول مدته في المرض ، فيتسع نصيبه في الأجرة ، فيعطيه من أصناف الأدوية ما لا ينفع ولا يضرّ ، استغفر الله بل ما يضر ولا ينفع ، ليمبى المريض في حاجة دائمة إلى تجدد العيادة والزيارة ، وفي كل مرة يصف له نوعاً حديثاً وصنعاً جديداً

من المركبات التي يعظم ثمنها بمقدار ما يقلّ نفعها ، وينفسح له بذلك طريق للكسب والربح فوق أجر العيادات ، يرصده له الصيدليّ في دفتر شركتهما ليقاسمه أرباح تلك الأثمان الفادحة لتلك الأدوية المتكررة ، فيضرب الطبيبُ في صناعته بقدر حَيْن ، ويصيب في الكسب بسهمين ، بعد أن يملأ جوف العليل من كل دواء ضار ، ويُخلى كيسه من كل فضة ونضار. ومن أولئك الأطباء مَنْ يجعل همه منصرفاً إلى الإبداع والتفنن ، في وجوه التزيين والتزيّن ، ويسلك سبيل التصنع والتكلف ، في أبواب التطرف والتلطف ، ثم يتفنن ما استطاع في حسن المحاضرة ، ويتعمد رقّة الحديث والمسامرة ، ويتقلب في أساليب المؤانسة والمجاملة ، وأفانين المغامرة والمغازلة ، ليقمّ له بين النساء بضاعة رابحة ، وسوقاً رابحة ، فيحل من أهل الحرم محلّ المجلس المحبوب ، والأنيس المطلوب ، وينزل من ربّات الخدور بمنزلة المُحبّ المسكّر ، ويكون بين مقصورات القصور ، أكرم زائر في أرحب منزل ، والنساء لا يعدنّ العلات ، على العلات ، ولا تُعوزهنّ العلل ، في اختراع العلل ، لاسيما إن كانت دعوى المرض ، تُدنى من نيل الغرض ، فيكون للطبيب بينهن زيارات وعيادات ، وروحات وغدوات ، والطبيب ، كما يعلم الناس ، مؤتمن الجانب ، يؤتمن فوق الأهل والأقارب ، تُفتح أمامه الأبواب ، ويُكشف من دونه الحجاب ، فترى له زيارات بين كل صباح ومساء ، تكتب له بوافر الأجر وسوء الجزاء : بوفر الأجر في دفتر حسابه ، وبسوء الجزاء يوم عرضه وحسابه ، ومنهم من يتطلع إلى فوق ذلك ، فيطمع في ثروة البيت بأكملها ، وفي حيازة الأموال بأجمعها ، فيديم التردد ، ويؤالي العشرة ، ويحكم الصلة ، ويلجأ الخلطة ، حتى إذا تارّبت عقدة الحبل ، تم الاتفاق بينه وبين ربة البيت وصاحبة المتاع على التأهل بها ، لا التفات هناك إلى تفاوت الأقدار ، ولا عناية بوجود الكفاءة . فتصبح له حليمة ، بعد أن كانت خليمة ، وينتهي ما كان من أمر الداء والعلاج بما تم من أمر العقد والزواج .

(عيسى بن هشام) — الآن تبيّن لي ما كان على غامضاً ، واتضح ما كان مهماً من أمر الطبيبين اللذين كانا يعالجان الباشا في كثرة الزيارة ، وقلة نفع الدواء ، وشدة

التدقيق في تعيين الصيدلية ، وطول استراق النظر لما وراء الحجاب .

(الطيب) — أجل ، هذا هو حال بعض الأطباء ، مع الأعلاء وأشباه الأعلاء ، فأما حالهم مع الأشحاء وذوى السلامة من بعض الخلق ، فهو أعجب وأغرب ، وما يعزُب عنك أن كثيراً من المولعين بسوء التقليد للغريبيين ، والمتهاككين على حب التظاهر بمظهر الرفه والترف ، يتغالون في الاحتياط لأبدانهم ، ويبالغون في التوقي لأجسامهم ، فيمنعوا فيهم وسواس المرض والسقم ، فتراهم يتوجسون من كل أكلة شرأ ، ويتوقعون من كل شربة ضرأ ، ويتخيلون أن في كل لقمة نخمة ، وفي كل جرعة غصة ، فلا يتناولون قدحاً من الماء ، أو يستنشقون نفساً من الهواء ، إلا وفي اعتقادهم أنه لا يخلو من كل هامة سامة ، أوجرثومة ضارة ، ولا يزالون على هذه الحال ، حتى يمتنعوا عما فيه صلاح أبدانهم من المأكول والمشرب ، ويُبعدوا ما استطاعوا في طرق الحمية من غير علة ولا داء ، فيبدلوا بالماء الزلال الماء المعدنى ، ويهجرُوا الأغذية المناسبة لتركيب الجسم وقوام البدن إلى الأطعمة الغريبة عن أذواقهم المنافرة لنسيج أبدانهم ، فيضطرب نظام التركيب ، وتضعف البنية ، ويصبح كل واحد منهم جازماً بأن به داءً دفيناً ، وما به من داء ، وعلة كامنّة ، وما به من علة ، فيشكو أمره إلى الطبيب ، فيكون الطبيب حينئذٍ أسرع من وهمه وخياله في اختلاق علة له ، واختراع مرض ، دون أن يفحص أمره ، أو يبلى خبره ، فينزل به ما ينزل من بوائق الخوف والفرع ، ويؤالى عليه الطبيب ما يؤالى من صنوف الخلاصات المعدنية ، والجواهر السامة ، والمركبات الحادة ، فيترصف على مائدته من ألوان العلاج والدواء أضعاف ما يترصص عليها من ألوان الطعام والغذاء ، ويتقيد المسكين بمعيشة لا تناسب غريزة البنية ، ولا فطرة المولد ، ولا طبيعة الإقليم ، ولا توافق إلا مَنْ جمدتْ عروقُ آبائه تحت جليد لوندرة ، لا مَنْ ذابت مفاصل أجداده تحت هجير القاهرة ، فلا يلبث أن يأتى على ما بقى في الجسم من قوة ، وما في البدن من صحة ، ويعيش ، إن عاش ، في يد الطبيب حياً كميت ، ويكون بين الأموات والأحياء ، لا مِنْ هؤلاء ولا من هؤلاء ، إلى أن يلحد في لحده ، شهيد طبيبه وقتيل يده ، وهناك يخلق بأهله أن يكتبوا بنجيع الدمع لا بسواد المداد ،

ما كُتِبَ على قبر عظيم من قدماء القواد: «لم تُمتنى قوة الأعداء، وإنما أهلكتنى قوة الأطباء» ولقد سرى هذا البلاء فينا مَسْرَى العادة، فأصبحنا لا نرى في جمهور مَنْ نراهم من المترفين المقلّدين إلا شاكياً من ألم، أو متألماً من مرض، فراجت سوق الطب، وعظم عدد الأطباء، وغدت حوانيت الصيدالة في الأسواق أكثر عدداً من حوانيت الخبازين والقصابين، وصار من متاع البيت وجهاز العروس صناديق الدواء وآنية العلاج، وقُلَّ أن تجد اليوم بيتاً خالياً من مريض، ولا مجلساً ليس فيه من سقيم.

(عيسى بن هشام) — كأنك تحاول أيها الطبيب الآسى أن تقنعنا بقوة البرهان، وجلىّ البيان، أن لا فائدة من الطب ولا منفعة في الأطباء.

(الطبيب) — حاشا لمثلك أن يشتبه عليه القصد، أو أن يذهب بقولى خلاف مذهبه، وما قصدت بكلامى هذا كله إلا أن أظهر عيب بعض الأطباء في ممارسة صناعتهم، دون التعرض لصناعة الطب في ذاتها، على أنه يمكننى أن أضيف إلى ما قلته ما قد قيل من قبل؛ وهو أن العلم علمان: علم تستنير به البصائر، وتتهدى به العقول، فهو جميل الأثر، محمود الورد والصدّر؛ وعلم تصدأ منه الأنفهام، وتضلُّ به الأحلام، فهو وبقى المرعى، سيئ العاقبة؛ وكذلك الطب طبّان: طبٌ يصحح الأجسام، ويشفى الأسقام، فهو عظيم النفع، جليل القدر؛ وطب يورث الأمراض، ويولد الأدواء، فهو شديد الوطء، عظيم الضرر؛ ومدارُ الأمر كله على حسن الاهتداء للتمييز بين النافع والضار، والتفريق بين الطبيب والخبيث؛ ولا تتوهمن أيضاً أننى أتناول بكلامى جماعة الأطباء قاطبة، فإن فيهم الصالح، كما أن فيهم الطالح، ولسكنى أغنى من بينهم أولئك الذين يطلبون مجرد الربح من مباشرة الصناعة مع الجهل بها، أو يتعمدون الحيل، وينصبون الأشرار، حتى يعقل جسم الصحيح، ويؤرّض مريض المريض، ليكون لهم من وراء ذلك ما يسدُّ بعض شرهم في الغنى واليسار. وما أولى سائر الناس بأن يُثبتوا بينهم عادة أهل الصين في معاملة مثل هؤلاء الأطباء، وذلك أنهم يجرون على أطبائهم العطاء ما داموا أصحاء، فاذا نزل بأحدهم المرض انقطع العطاء عن الطبيب، حتى يعود المريض إلى

سلامته ، فيكون من مصلحة الأطباء على الدوام أن تطول مدة السلامة ، وتقصّر مدة العلة ، على خلاف الحال بيننا .

وما ينبغي أن ينصرف شيء مما قلته إلى بقية أهل الصناعة من ذوى الخلق والأمانة الذين يوفون الصناعة حقها ، ويؤدون الواجب عليهم فيها حق أدائه ، والذين يراعون في ممارستها ما يكون من تفاوت الأحوال في العلل والأمراض ، وما تقضى به أحكام البلاد والعادات ، واختلاف الأمراض والطبائع ، والذين يجهلون لأنفسهم من حسن تبصرتهم ، وكثرة تجربتهم ، عُدّة حاضرة لمقاومة الأمراض ، وصحة تشخيص الأدوية ، ولطف تناسب العلاج ، وحسن الإرشاد ، لرفع الوسواس ، ودفع الخيال ، وما يجرى هذا الجرى من استعمال ما يليق بأهل الإقليم الحار ، مما لا يليق إلا بأهل الإقليم البارد ، واجتناب ما لا يوافق أمزجة أهل البلاد الشرقية من المركبات المجهّزة لطبائع أهل البلاد الغربية ، ولقد طالما سمعت عن أشياء في الصناعة أنه يجب على الطبيب في مصر أن يختار ما يكون من الأدوية وغيرها ألين قوّة ، حتى لا يكون على طبيعة المصريين فيها كلفةٌ ، ولا يلحق أبدانهم منها مضرةٌ ، وأن لا يُقدّم على كل الأدوية المسطرة في كتب أهل الغرب ، فإن أكثرها عملت لأبدان قوية البنية ، عظيمة الأخلط ، على خلاف العهود في أهل مصر . فمتعين على الطبيب حينئذ أن يتوقف في إعطاء هذه الأدوية للمرضى ، ويختار ألينها ، وينقص من مقدار تركيبها ، ويبدل بكثير منها ما يقوم مقامه ويكون ألين منه ، وألا يهمل الاعتماد على الأدوية الطبيعية ، وهى البسائط واللين والحمية والفصد والاستحمام والرياضة والهواء ، وأن يكون على الجملة مولعاً بلذة الصناعة في ذاتها ، لا يعادها لديه سواها من سائر اللذات ، ممتلئ النفس بجلال قدرها وشرف منزلتها من بين الصناعات والفنون ، فتعظم عنده نفسه ، ويشرف في عيونه قدره ، فيترفع عن سفالة الطمع ، وحِطّة الشرّ ، ويزهد في نيل الغنى من طريق التحايل على اقتنائه من وراء هذه الصناعة الجليلة ، وكيف تزدهيه لذات العالم أجمع من مالٍ وجاهٍ أو زخرفٍ ومتاعٍ في جانب لذة الإتقان في الصنعة والإحسان في العمل؟ وأية رتبة من مراتب الخلق تماثل رتبة الطبيب

العامل ، وهو القيم على قوام الأبدان ، والكفيل بصحة الأجسام ، والريب على اعتدال
 الأمزجة ، والمشرّف على سلامة الجوارح ؟ لا بل أية صناعة في الوجود تفضل صناعته ،
 وهي أمسّ الصناعات بخلقه الصانع الفاطر ، وتكوين المبدع القادر ؟ وإذا كان قد بلغ
 عجب الصناعة بأحد الفحاتين المصورّين في الزمن السابق لما ازدهار جمال الإتيان
 والإحكام في صورة إنسان تحتها من الممر أن استخفّه الطرب ، واستغفرت له الصنعة ،
 فعُمي عليه ، فألحى على التمثال بمنحاته يثيره على نطق اللسان ، بعد أن أحكمت فيه خلقة
 الإنسان ، ويكلف الجاد ، وقد أتقنت فيه الصنعة ، أن يخرج من الجلود إلى الحركة ،
 حتى أطار عنه بعض أجزاءه ، وبقي التمثال قائماً إلى اليوم ، يفسح بما فيه من التلف عن
 نهاية الكمال في جمال الإتيان ، ومقدار لذة الإحسان في عمل الإنسان . فما بالك بلذة
 الطبيب ومقدار طربه في صناعته إذا هو شاهد أجسام الأحياء أمامه ، وقد استخلصها
 من شوائب الأمراض ، واستنقذها من آفات العاهات ، وردّها إلى سواء التكوين ، وأعاد
 نظام الخلقة إلى أصله ، وانتساق التركيب إلى شكله ؟ فهل يجوز في العقل ، لمن يدرك كنه
 هذه الصناعة من الأطباء ، أن يرغب عن تلك الدرجة الرفيعة إلى الدرجة الوضيعة ، فينزل
 بصناعته إلى مصافّ أهل التجارة والبيع ، لا يفقه فيها من معنى سوى اصطياذ الدرهم ،
 ولا يعلم لها من مزية سوى الاحتيال على اكتساب الأموال ؟ لا جرم أن الطبيب المدرك
 يفضّل لذة صناعته في ذاتها على كل لذة ، ويسلو عندها أعظم مزية في العالم وأعلى رتبة .
 وفصل الخطاب ، في هذا الباب ، أن يكون مبلّغ همته ، ومجمّع لذته ، أن يرى
 المريض بعد شفائه ، بوجه لامع كالدينار ، لا أن يراه في طول شقائه ، بنظر طامع
 في درهم أو دينار .

قال عيسى بن هشام : فأعجبني من هذا الطبيب صدقه في مقالته ، وحسن نظره في
 صناعته ، وسألت الله لجماعة الأطباء ، أن يهتدوا مثل هذا الاهتداء .
 ثم إنى ودعته بعد أن عيّن لنا البقعة المناسبة لتبديل الهواء ، وقرّر ما يناسب حال
 المريض من العلاج والغذاء ، إلى أن يتدرج من النقاة إلى تمام الشفاء .

الطاعون

قال عيسى بن هشام : فَطَاوَعْنَا الْقَدْرَ ، وَعَزَمْنَا السَّفَرَ ، التَّمَسَّا لِبَرِّ الدَّاءِ ، بِتَبْدِيلِ
الهَوَاءِ ، وَنَزَلْنَا مِنْ ضَوَاحِي الإسْكَندَرِيَّةِ قَصْرًا ذَا رَوْضَةٍ غَنَاءٍ ، فِي بَقْعَةٍ فَيَحَاءُ ، لَا تَسْمَعُ
فِيهَا إِلَّا هَدِيلَ الْوَرَقَاءِ ، إِبْقَاعًا عَلَى هَدِيرِ الْمَاءِ ، فَإِذَا بَلَّلَ الْمَوْجُ جَنَاحَ النَّسِيمِ ، فَرَفَرَفَ
عَلَى ذَلِكَ الرُّوضِ الْبَسِيمِ ، نَثَرَ الْمَاءُ دَرَا عَلَى تَيْجَانِ الزَّهْرِ ، وَرَفَّرَفَهُ دُمُوعًا فِي أَحْدَاقِ
الْعَبْهَرِ ^(١) ، هُنَاكَ يَتَمَنَّى الْعَاشِقُ لَوْ اسْتَعَارَ هَذِي الدُّمُوعَ لِحَاجِرِهِ ، فَيَسْتَلِينَ بِهَا قَلْبَ
شَاجِيهِ وَهَاجِرِهِ ، وَتَوَدُّ الْغَانِيَةُ لَوْ نَظَمَتْ مِنْ ذَلِكَ الدَّرَّ عَقْدًا لِنَحْرِهَا ، أَوْ نَاطِقًا لْخَصْرِهَا :

إِنَّ هَذَا الْمَسْكَانَ شَيْءٌ عَجِيبٌ تَضْحَكُ الْأَرْضُ مِنْ بَكَاءِ السَّمَاءِ
ذَهَبٌ حَيْثُ مَا ذَهَبْنَا ، وَدُرٌّ حَيْثُ دُرْنَا ، وَفَضَّةٌ فِي الْفَضَاءِ

أَوْقُلْ إِنَّهُ الْمَجَرَّةُ قَامَتْ فِيهِ زَوَاهِرُ الزَّهْرِ ، مَقَامُ الْكَوَاكِبِ الزَّهْرِ ، وَعَنَاقِيدُ الْكَرُومِ ،
مَقَامُ ثَرِيَا النُّجُومِ ، وَأَنْوَارُ الْأَثْمَارِ ، مَقَامُ الشُّمُوسِ وَالْأَقْمَارِ ، فَأَقْنَا فِي ذَلِكَ الظِّلِّ الْوَرِيفِ ،
مُدَّةً مِنْ أَيَّامِ الْخَرِيفِ ، وَمَكْثَنَا نَقْطَفَ الْقَطُوفِ الدَّانِيَةِ ، بَيْنَ تِلْكَ الْأَعْيُنِ الْجَارِيَةِ ، فِي
عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ، لَا تُسْمَعُ فِيهَا لِأَغْيَةٍ ، آخِذِينَ بِمُسْتَنِّ النَّحِيزَةِ ^(٢) ، وَجُبْنَتِ الْغَرِيزَةِ ، فِيمَا
يُوَافِقُ صِحَّةَ الْبَدَنِ مِنْ طَعَامِ شَهْيٍ ، وَغِذَاءِ مَرِيٍّ ، وَرِيَاضَةِ الْأَعْضَاءِ ، دُونَ تَعَبٍ أَوْ شَقَاءٍ ،
وَتَطْهِيرٍ لِلنَّفْسِ مِنْ أَدْرَانِ السُّكْدَرِ ، بِلُطْفِ الْبَحْثِ وَحُسْنِ النَّظَرِ ، وَتَجَرِيدٍ لِلصَّدْرِ مِنْ
عَوَامِلِ الْهَوَاجِسِ ، وَغَوَائِلِ الْوَسَاوِسِ ، بِالتَّبَصُّرِ فِي حَقَائِقِ الْوُجُودِ ، وَالتَّمَعُّنِ فِي صُنْعَةِ
الْخَالِقِ الْمَعْبُودِ ، وَأَفْضَتْ بِصَاحِبِي طَيْبُ هَذِهِ الْإِقَامَةِ ، إِلَى الْمَقْصُودِ مِنْ تَمَامِ الْعَافِيَةِ وَالسَّلَامَةِ ،
لَوْلَا أَنْ رَاعَنَا شَيْطَانُ مِنَ الْإِنْسِ بِخَبْرِ الطَّاعُونِ ، فَقُلْنَا : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، وَسُبْحَانَ
اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، مَا زِلْنَا نَعْمَلُ النَّفْسَ ، بِزَوَالِ النُّحْسِ وَالنَّكْسِ ، وَمَا زِلْنَا تَنَاقُوبُنَا النَّوَائِبُ
وَالْأَحْزَانُ ، وَتَرَاوَحْنَا النَّوَازِلَ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ وَمَكَانٍ .

وَانْبَرَى الْبَاشَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الطَّاعُونِ وَأَخْبَارِهِ ، وَمَا يَتَوَقَّعُهُ مِنْ هَوْلِ أَفْعَالِهِ وَآثَارِهِ ،

فأجبتة بأنه لا يلبث أن يصبح أثرأ بعد عين ، وما أصاب إلى اليوم إلا عدد أصابع اليدين ،
وقريباً يفرُّ من أمامنا هذا العدو المناجر ، وُردِّد في أثره قول الراجز :

قد رَفَعَ اللهُ رَمَاحَ الجُنِّ وأَذْهَبَ التعذِيبَ والتجَنِّيَّ

(الباشا) — كيف تدعى ذلك وتزعمه ، وما عهدت منك إخفاءً للحقائق ، ولا تمويهاً
للوقائع ، وللطاعون في مصر أفاعيلُ تذوب لها المآقي والأحداق ، وتنفطر منها القلوب
والأكباد ، وهو عندنا من أمراض مصر الموضعية التي تحدث عند اختلاف الفصول
والمصريون يتوقعونه لكل ربيع ، حتى أطلقوا عليه كلمة «الفصل» ، فيقولون جاء «الفصل»
عند ظهور الطاعون ، فترتاع النفوس ، وتنخلع القلوب ، وتَخُورُ القُوى ، وتذهل العقول ،
ثم يصول صولته ، ويفتك فتكته ، فلا يقف سبيلُهُ عند حاجز ، ولا يمنع اندفاعُهُ مانع ، ولا
تغيبُ قرارَتُهُ حتى يخرب القصور ، ويعمر القبور ، فتصبح الأطفال يتامى ، والنساء أياى ،
ويعسمى الخلق بين ثاكل ومشكول ، وحاملٍ ومحمول ، هذا يَبْكِي أباه ، وذاك يندب
أخاه ، وهذه تُوكِّلُ على أهلها ، وتلك تنوح على بعلمها ، وقد سمعتُ عنه في زمانى عن
أحد المعمّرين يقول في وصفه عند وقوعه في سنة ١٢٠٥ :

« ابتدأ الطاعون في شهر رجب سنة ١٢٠٥ ، ودَاخَلَ الناسَ منه وهمٌ عظيمٌ ،
واشتد بطشه ، وقوى بأسه في رجب وشعبان ، ومات به من لا يحصى من الأطفال
والشبان ، والجوارى والعبيد ، والممالك والأجناد ، والكُشَاف والأمرء ، ومات من
الصناجق أمراء الألوف اثنا عشر صنّجقاً ، منهم اسماعيل بك الكبير ، وقد أفنى
عسكر القليوونجية والأرنؤوط المقيمين بمصر القديمة وبولاق والجيزة ، وكانوا ، لكثرة
الموتى ، يحفرون حُفراً بالجيزة بالقرب من مسجد أبى هريرة و يلقونهم فيها ، وكان يخرج من
بيت الأمير في الجنازة الواحدة الخمسة والستة والعشرة ، وازدحم الناس على الحوانيت
يلتمسون ما يجوزون به موتاهم ، و يطلبون من يحملون النعوش فلا يجدونهم ، ويقف الناس
يتشاحنون ويتضاربون على ذلك ؛ ولم يبق للناس شغل إلا الموت وأسبابه ، فلا تجد إلا
مريضاً ، أو ميتاً أو عائداً ، أو معزياً أو مشيعاً ، أو راجعاً من صلاة جنازة أو دفن ؛

أو مشغولاً بتجهيز ميت ، أو باكياً على نفسه موهوماً ، ولا تنقطع صلاة الجنازة من المساجد والمصليات ؛ ولا تقام الصلاة إلا على أربعة أو خمسة ، ونَدَرَ من يصاب ولا يموت ، وقل ظهور الطعن على الجسم ، فيكون الإنسان جالساً فيرتعش من البرد فيمتدثر ، فلا يُفِيق إلا مخلطاً أو يموت في غده إن لم يمت في نهاره ؛ واستمر فتكه إلى أوائل رمضان ، فمات الأغا والوالى في أثناء ذلك ، فولّوا خلافهما فماتا بعد ثلاثة أيام ، فولوا خلافهما أيضاً ؛ واتفق أن الميراث انتقل ثلاث مرات في سبعة أيام ؛ وأغلق بالمفتاح بيت أمير كان فيه مائة وعشرون نفساً فماتوا جميعاً . »

(عيسى بن هشام) — إنى لأظنك تصف لى موقعاً شاهدته من مواقف الآخرة وأحوال القيامة .

(الباشا) — وما كان الأمر ليقصر في الطاعون بعد ذلك على فتكه ، بل كان يزيد عليه من البلاء ما دسّه الإفراج للوالة من وجوب إزعاج الناس بأمور تشقّ على نفوسهم ، يزعمون أنها تدفع الطاعون ، فيفصلون بين الناس بعضهم عن بعض ، ويفرقون بين الأب وابنه ، والأخ وأخيه ، والمرء وزوجه ، ثم يهدمون الدّور ، ويحرقون الثياب ، وينشرون البخور ، كأنهم لجهلهم يظنون أن هذه الأعمال التي تؤذي النفوس ، وتعطل مصالح العباد ، تشتت شمل الجن ، وتكسر أسنّة رماحيهم ، فيزداد الناس ويلاتاً على ويل ، وحزنًا على حزن ، وخراباً فوق خراب ، وقد شاهدت بعيني ما تشيب له النواصي في سنة ١٢٦٠ ، وقصّ علىّ أخى ما رآه منه في سنة ١٢٢٨ ، وهو في خدمة المرحوم محمد على باشا الكبير ، قال :

« أمر جنتمكان محمد على بعمل «كُورَنْتيله» بالجيزة في اليوم العاشر من ربيع الثاني ، وعزم على الإقامة بها إذ اشتد عليه الوهم من الطاعون لوقوع القليل من الإصابات بمصر ، ومات به الطبيب الفرنسي وبعض من نصارى الأروام ، وهم يعتقدون صحة « الكورنتيله » وأنها تمنع الطاعون ، وقاضى الشريعة ، الذي هو قاضى العسكر ، يحقق قولهم ، ويسير على مذهبهم . واتفق أن مات بالطاعون شخص بالحكمة من أتباع القاضى ، فأمر بحرق

ثيابه ، وغَسَلَ المكان الذى فيه ، وتبخيره بالأبخرة المتنوعة ، وكذلك الأوانى التى كان يمسها ، وأمرُوا أصحاب الشرطة أنهم يأمرُونَ الناس وأنحَابَ الأسواق بالسكنس والرش والتنظيف ونشرِ الثياب فى كل وقت ، وإذا وردت عليهم مكاتبات خرقوها بالسكاكين ودخنوها بالبخور قبل تسليمها إليهم . ولما عزم الباشا على « كورنتيلة » الجيزة أمر فى ذلك اليوم أن ينادوا بها على سكانها بأن من كان يملك قوته وقوت عياله ستين يوماً واختار الإقامة فليمكث بالبلدة وإلا فليخرج منها ويذهب فيسكن حيث أراد ، وأعطوا مهلة أربع ساعات ، فانزعج سكان الجيزة ، وخرج مَنْ خرج ، وأقام منهم من أقام ، وكان ذلك فى وقت الحصاد ، وللناس مزارعٌ ومرافق مع مجاوريهم من أهل القرى ، ولا يخفى احتياج الإنسان لبيته وأهله وعياله وأسباب رزقه ، فيحرمونه من ذلك كله ، حتى لقد سدّوا خروق السور والأبواب ، ومنعوا مراكب المعادى من السير ، وأقام الباشا فى بيت الأزبكية لا يجتمع بأحد من الناس إلا يوم الجمعة ، ثم قصد الجيزة وقت الفجر من ذلك اليوم وصعد إلى قصره ، ووقف مركبين الأولى ببر الجيزة والأخرى فى مقابلتها ببر مصر القديمة ، فإذا أرسل السكتخدا أو المعلم غالى مراسلة ناولها المرسلُ المقيّد بذلك فى طرف مزارق بعد تبخير الورقة بالشيخ واللبان والكبريت ، فيتناولها منه الآخر بمزارق آخر على بعد منهما ، ويعود راجعاً ، فإذا قرب من البر تناولها المنتظرُ له أيضاً بمزارق وغمسها فى الخل ونجّرها بالبخور المذكور ، ثم يوصلها إلى حضرة المشار إليه بكيفية أخرى ، وأقام الباشا على ذلك أياماً ، وسافر إلى الفيوم ، ثم عاد وأرسل مماليكه ومَنْ يخاف عليه الموت إلى أسيوط .

(عيسى بن هشام) — اعلم أن ما كان يعترض عليه عامة الناس فى الأزمان الغابرة — ولا يزال بيننا إلى اليوم بقية منهم — من الأخذ بأسباب التوقى ، والاحتياط لدفع غائلة الطاعون ، لجهاهم بحقيقته وأسباب انتشاره ، هو الذى يحمينا اليوم من فتكاته وسطواته التى قصصت على طرفاً منها ، وقد كان جمهور الناس فى أزمانكم ينكرون هذه الوقاية ويسخرون منها .

(الباشا) — قل لى بالله أية علاقة بين إحراق الثياب وتلك الوخزة التى تأتى

بالأجل ، وأى ارتباط بين هذا البخور وحمى الطاعون ، اللهم إلا أن يراد به تلطيف أعزجة الجن .

(عيسى بن هشام) — لا يفوتك أن كثيراً من الحقائق كانت مكنونة في خفاء الجهل عند عامة الناس ، لاختصاص بعض الأفراد بالعلم ، ولبعد تناوله على بقية الطبقات ، فلما انتشر العلم وأضاء برهانه ، كشف للناس ما كان مكنوناً عنهم ، وأظهر من العلل والأسباب ما كانت تقف دونه الأفكار حيرى ، فإن كان الناس في زمانكم يعتقدون أن الطاعون من وخزات الجن برماحا ، وأن لا شيء يقوى على رد تلك الرياح الخفية عن العيون ، فإن البحث أوصلهم اليوم إلى اليقين بأن للطاعون جنوداً لا تدركها العيون المجردة ، وأن لها وخزاً خفياً دونه وخز الأسنة وعوالى المران^(١) ، ولكنهم استعانوا بالعلم ، فصنعوا آلة تجسم الأشياء الدقيقة وتعظمها ، وتبرزها مرئية للعين ، فوقفوا بها على حقيقة تلك الجنود ، واستنبطوا طرق الوقاية منها ، فتدبروا بها لدفع أذاها ورفع غائلتها .

(الباشا) — وماذا تُجدى الوقاية والحذر من القضاء والقدر ؟

(عيسى بن هشام) — حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء ، إن الوقاية من السنة الشريفة وأحكام الدين المبين ، فقد ظاهرَ عليه الصلاة والسلام في الحرب بين درعين ، وقال الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . ولطرق الوقاية اليوم أنواع مختلفة لدفع هذا العدو الخفى الذى يسمونه « الميكروب » ، وهو ذؤيبية دقيقة من عالم الذر ينطبق عليها أحد أوصاف الجن في سرعة التولد وكثرة التعدد في أيسر مدة من الزمن ، وهم يتخذون البخور في الوقاية لينحل تركيبه ، ويحرقون الثياب والأمتعة حتى لا تنتقل بها عدواؤه .

(الباشا) — لقد كشفت لى معنى دقيقاً في رماح الجن المسمومة ما كنت إخال أن أحداً يدركه في عصرنا الماضى ، وهل لك فى أن تطلعنى على تلك الآلة العجيبة الجسمة للأشياء الدقيقة ، لأزداد تبصرة وهدى بالنظر في عجائب الخلوقات ؟

قال عيسى بن هشام : فذهبت إلى معمل كيميائى وأريته نقطة من الماء تحت

(١) المران : شجر يتخذ منه الرماح .

« المسكركوب » ، فلما رآها كأنها غديرٌ ، ورأى ألوف الألوف من الهوام سابحة فيها ، سجد ساجدة التقديس لقدرة الخالق ، والتجيد لعظمة الصانع ، وتلا قوله عز من قائل : « وما يعلم جنود ربك إلا هو » ، فحمدت الله إذ آمن بالبرهان الساطع ، ولم يفعل ما فعله ذلك الهندي مع العالم الألماني ، حيث أراه مثل هذه النقطة وما فيها من الحيوانات ، ليقتعه بأن ماء الشرب مشحون بما يحرم أهل الهند قتله وأكله من الحيوانات ، فسخر الهندي منه ، وكسر الآلة إصراراً على الباطل وعناداً للحق ؛ ولما أيقن الباشا بصدق ما قلمته وما رآه ، وأن العلم هزَم جنود الطاعون ، وحطَّم رماحه ، ولولاه لمسات به اليوم مئات الألوف مكان العشرات ، سألني يقول :

(الباشا) — ومن الخترع لهذه الآلة التي تدل بغير واسطة على عظمة الخالق وقدرة الصانع من مشايخ الموحدين وعلماء الدين ، وفي أية بقعة من بقاع المسلمين كان مولده لتردد الثناء عليه ونذكر اسمه بالحمد ؟

(عيسى بن هشام) — أقسم لك بالله وملائكته وكتبه أن أكثر مشايخنا لا علم لهم بها ، وأنهم لا يزالون كالعهد بهم في معزل عن هذه العلوم النافعة والختراعات المفيدة ، وما نشط لرؤيتها أحدٌ منهم ، وهم إلى اليوم ينفرون من الأخذ بوجوه الوقاية ، ويفضلون التعرض لنيران البنادق في معارضتهم لأوامر الحكومة دون الإذعان لوجوب الاحتياط من هذه الحيوانات الدقيقة ، ولا يعرفون منها إلا ما نخرَ كتبهم من الأرضة .

(الباشا) — ومع هذا كله فلا مقام لنا اليوم في هذه البلدة التي أصيبت بالداء ، وقد وجب علينا الفرار من قدر الله إلى قدر الله ، فعُدُّ بنا إلى مصر إن شاء الله آمين .

قال عيسى بن هشام : فأجبتُه إلى سُؤله ، وقفلنا إلى القاهرة ، بعد أن ودَّعنا تلك المناظر الباهرة .

الوباء

قال عيسى بن هشام : وأقمنا في مصر مدة ، وقد أبلَّ الباشا من علته وسقمه ، وتمت له العافية والسلامة في جسمه ، فأخذتُ أهنئه ذات يوم بالشفاء والإبلال ، من المرض والاعتلال ، وأذكر له أن صحة الأبدان ، هي ملاك السعادة للإنسان ، وإنك لو جمعت نعيم العالم كلها للمريض ، من مال واسع وجاهٍ عريض ، لانصرفت نفسه عنها انصراف الضب عن الماء ، والأرمد عن الضياء ، والمعمود^(١) عن شهىَّ الغذاء ، وأنَّ خاتم الياقوت في الإصبع التي أصيبت بدُمْل ، لا يساوى عند صاحبه حبة من خردل ، وأن ما اجتمع في سرير الملك من العزة والبأس ، كيهون عند مفقور الظهر أو مصدوع الرأس :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمِ مَرِّ مَرِيضٍ يَجِدُ مَرًّا بِهِ الْمَاءُ الزَّلَالَا

وكنت كلما زدته من هذه الموعظة والحكمة ، أراه قد زاد في الإعراض عن شكر تلك النعمة ، فتحققت أن المرء إنما يذكر النعيم في البؤس ، ولا يذكر البؤس في النعيم ، وينسى المرض في الصحة ، ولا يذكر الصحة إلا وهو سقيم ، وقل من يحمد النعماء في لبسها ، ويدرك سعادة الحياة إلا في نحسها ، فهذا معنى من معاني الآية الشريفة : « وإذا مسَّ الإنسان الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضرِّ مسّه » . فسألته عما دهاه ، وأذهله عن شكر الله ، فأجابني يقول ، في حال الخبل والذهول :

(الباشا) — فيمِ الهناء بكشف البلاء والضرر ، وما انتقلت من خطرٍ إلا إلى خطر :

فَأَنْ أَسْلَمَ فَمَا أَبْقَى وَلَكِنْ سَلِمْتُ مِنَ الْخِطَامِ إِلَى الْخِطَامِ

ألم تسمع معنى نخب انتشار الوباء في مصر ، بعد أن خلَّفنا الطاعون في الاسكندرية ، فما هذه الرزايا المتساقطة ، وما هذه البلايا المتلاحقة ، أو كلما انتهينا من بلاء دخلنا في بلاء ، وانصرفنا من شقاء إلى شقاء ؟

(١) المعمود : الذي عمدته وجع من مرض .

(عيسى بن هشام) — أراك لا تزال كأمثالك من سائر الناس ، يغلب عليك الفزع والوسواس ، وإن كنت جربت في هذه الحياة شدة الألم ، وذقت في القبر راحة العدم ، وإن ما كنت تتمناه على دهرك ، من الرجوع إلى قبرك ، عند اشتداد الكرب ، من وقع الخطوب ، لم يكن لشجاعة في النفس ، تستهين بسكنى الرمس ، بل كان لضعفك عن احتمال الآلام ، من نوازل الأيام ، وأراك لا تزال ، مع صحة الدين ، وقوة اليقين ، تهرب الموت وتخشاه ، وتعتورك الأهوال من ذكره ، وهذا داء في الناس قديم ، عز شفاؤه على كل مرشد وحكيم :

وخوف الردى آوى إلى الكهف أهله

وعلم نوحاً وابنه عمل السفن

وما استعذبت روح موسى وآدم

وقد وعدا من بعده جنى عدن

ولكننى لا أزيدك في الموعظة ، ولا أخفف عنك من ويلات الهواجس والوسواس ، بأحسن من أن أقرأ عليك مقالة نافعة ، اطلعت عليها اليوم في بيان أحول الناس ، وتقسيم طبقاتهم في أهوال هذا الوباء ، فإن أردت تلوثها عليك ، ثم ضع نفسك بعدها حيث شئت . (الباشا) — هات اسمعى لا زلت للحق راويا ، وللهدى داعياً .

(عيسى بن هشام) قارئاً — « إنما النوازل العظيمة ، والخطوب الجسيمة ، محك الطباع ، ومسبار الأخلاق ، فهي لشدتها وهولها تكشف عن الناس ما يخفونه عن الناس ، وتهتك سجوف التمويه والتزويق عن حقائق الصفات ، فلا تمالك النفوس أن تبقى على التظاهر بما ليس فيها ، ولا التطاول بما هو مفقود لديها ، بل تتجلى للناس بما اشتملت عليه ضمائرهما ، واحتوته سرائرها ، من قوة أو ضعف ، ومن فضيلة أو نقيسة ، ومن علم أو جهل ، وهنا يتمكن الباحث في الأخلاق من النظر فيها نظرة الثبوت والتحقيق ، وهي مجردة أمامه من كل غشاء ، عارية من كل غطاء .

« وليس في باب النوازل والخطوب ما يهول النفوس ويروع القلوب ، أعظم ولا أكبر

من مصيبة الموت وبلاء هذا الوباء ، فلذلك لا ترى بأساً من الكلام بشيء عما يجده المستقرى لأحوال الناس من طبقات المصريين ، وهم بين أيدي هذه النازلة العظمى والحنة الكبرى .

« طبقة العامة أناس جُبِلُوا في مثل هذه النوازل العامة على التسليم لأحكام القضاء ، وتقويض الأمر لأقدار السماء ، وهم لا يعلمون من الوباء ، ما جرائيم الداء ، ولا علة المرض والشفاء ، ولا سبب الهلاك والنجاء ، وليس في قدرة قادر من البشر أن يزحزحهم عن اعتقادهم ، أو يحوّلهم عن يقينهم ، ولا في استطاعة أحد من أبلغ الوعاظ وأفصح الخطباء أن يضع في رءوسهم أن الوقاية تمنع من المقدور ، وأن الحذر يُنجي من المكتوب ، وأن طب الأطباء يُؤجّل في الأجل المحدود ، وأن صنوف الدواء تنفع في رد القضاء المحتوم ، وهم يرون كل ما يؤمرون به من وسائل الوقاية وأسباب الحيطه أموراً تضر ولا تنفع ، فلا تزيد في عمرهم ساعة ، ولا تكف عنهم غرب المنون ، ولا تقبض دونهم يد قابض الأرواح ، فهم بمعزل عن الخوف والهلع ، وفي أمان من الذعر والفرع ، وفي ضمان من الوسواس والهواجس وإن كانوا مقيمين في غفلة عما يجب عليهم لأنفسهم من المحافظة على صحة الأبدان ، وتعهّد الأجسام ، بما يدرأ عنها الاستعداد لقبول الداء ، والوقوع في مخالب الوباء ، لبعدهم عن فهم قوله عليه الصلاة والسلام : « اعقلها وتوكل » ، لكنهم لا يزالون على كل حال في صحة من الأرواح ، وإن أعوزتهم صحة الأبدان .

« وطبقة الخاصة ، ونعني بهم أهل الدين واليقين ، وهم الذين يعتمدون أيضاً على التسليم لأحكام القضاء ، وحسن الاعتقاد بتحديد الآجال ، والإيمان بأنه لن ينالهم إلا ما قدره الله لهم ، ولا تفتأ تجري ألسنتهم في مثل هذه الأحوال بتلاوة الآيات البينات من كتاب الله : « ولكلُّ أجلٌ كتاب » ، « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ، « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » ، « قل إن الموت الذي تفرّون منه فإنه مُلاقيكم » ، تعالى الله أحكم القائلين . وهم الذين يعلمون علم اليقين أن الموت أمر واقع لا مردّ منه ، وأن الإنسان عرضة له في كل وقت ولحظة ، وأن طعمه واحد ،

سواء أكان بمرض الوباء ، أو صواعق السماء ، أو زلازل الأرض ، أو كان بغصة شراب ، أو عثرة قدّم ، أو أسعة حشرة ، وأن نفس المرء خطاه إلى أجله ، فعليه أن ينتظر ساعته في كل حركة وسكون ، وعند كل قيام وقعود :

وما نفسٌ إلا يُبعدُ مؤلداً ويُدنى المنايا للنفوس فتقربُ
وهم يعتقدون حق الاعتقاد أن الحى حى للفناء ، وأنه مقيم من دنياه أبداً في أرض وباء ،
وإن لم يكن ثمَّ وباء .

ما خصَّ مصرًا وباءً وحدها بل كائن في كلِّ مصرٍ وبأ
وأنَّ مَنْ فرَّ من المقدور ، فعلى المقدور نزل ، ومن هرب من القضاء ، فالى
القضاء رحل .

مهلّا أمّن وبأ فررت وهل ترى في الدهر إلا منزلاً مؤبّوا ؟
وأنَّ مَنْ حانت منيته ، لم تنفعه تقيته ، ومن حل أجله ، لم يحمه وجله :
ومن هاب أسباب المنايا ينكته ولو رام أسباب السماء بسلم
إلا أنهم مع ذلك كله لا يرون من مانع يمنعهم عن الأخذ بأسباب التقيّة والحذر ، ولا
في العمل بمقتضى القوانين المندوب إليها في حفظ صحة الأبدان ، وما يقرره أهل صناعة الطب
من سبل التوقى والتحرس اتقاء لما نُهبوا عنه من الالتقاء بالأيدى إلى التهلكة ، واحتذاء لما
ترسمه ظروف الأحوال ، وتقضى به أحكام الزمان ، ولا يجدون الطاعة لشارة الأطباء في
مثل هذه النوازل مما يخالف لهم سنة أو يناقض لديهم شرعاً ، وإن لم يكن من ورائها
فائدة ، فليس في عقباها مضرّة . فتراهم لذلك في أجل مقام من شجاعة القلب ، وقوة النفس ،
وثبات الجنان ، بفضل الدين واليقين ، وعلى أحسن حال من سلامة الجسم ، وطهارة البدن
بفضل العلم ، وحسن القيام بما يرشد إليه من وسائل الوقاية ، لا سلطة للوساوس والهواجس
عليهم ، ولا محل للرعب والرهب فيهم ، آمنين مطمئنين ، يتمتع كل واحد منهم بالروح
السليمة في الجسم السليم .

« وهناك طبقة ثالثة ، حديثة النشأة ، حديثة التربية ، لا من هؤلاء ولا من هؤلاء ،

لم يرسخ الإيمان في قلوبهم ، ولم تتمكن التربية الدينية من نفوسهم ، ولم يتأدبوا بأدب الدين ، ولم يرتاحوا لحسن اليقين ، بل اقتصرت بضاعتهم على ما تلقوه في المدارس من العلوم الآلية ، والفنون الصناعية ، دون علوم التربية النفسانية ، والفضائل الروحانية ، وخلت صدورهم من آيات الله والحكمة ، قد أخذوا عن بعض الغربيين عادة التهاون بالشرائع والازدراء بالإيمان ، ولم يحيطوا بشيء من العلوم الموضوعية ، لتقويم النفوس وتطهير الطباع ، ومعرفة الحقائق ، ورياضة القلوب على التجلد والثبات ، عند وقوع المكروه ونزول الملمات ، فتجدهم قد ظهروا للناس في هذه النازلة الوبائية ، وانكشفوا لأهل البحث والنظر أصغر خلق الله نفوساً وأجبنهم قلوباً ، وأكثرهم هوساً ووسواساً ، وأشدهم قلقاً واضطراباً ، وأعظمهم خوفاً ورعباً ، وأكبرهم بلاءً وكرهاً ، يتمثل لهم الموت في أعينهم على أفطح الصور وأبشع المناظر ، فيحاولون الفرار منه ، وهو ممسك بنواصيهم ، ويهابون دُئوّه ، وهو آخذ بتلابيدهم ، حل الخوف مفاصلهم ، واستلّ الرعب نخاعهم ، فهم يرون في كل عود نفضاً لهم ، ويحسبون كل صيحة عليهم ، أولئك لا إيمان لهم يُثبت أقدامهم ، ولا علم لديهم يرجع أحلامهم ، بل هم على مثل حال المغشي عليه من الموت ، أو المسوس من الشيطان ، يتوهمون طعم الموت ، ومذاق الوباء ، في تنفس الهواء ، وتناول الغذاء ، وشرب الماء ، وملامسة الأيدي ، ومخاطبة الناس ، فإذا رأى المسكين منهم تلك الآلة الخدباء ، تحمّل أحد المصابين بالوباء ، حَمْدَ دُمّه ، وسال عِرْقَه ، وخذت أنفاسه ، والتوت أعصابه ، وأمسك من بجانيه ، يستنجد به ويستغيث ، ليحميه من شر العدوى ، ويدفع عنه نزول البلوى ، وما أشبههم في حالهم هذه من الخور والهلع والفرع والجزع إلا بمثل أناسٍ قضى عليهم بالإعدام لوقوتهم ، فهم وقوفٌ بين يدي الجلاد والسيّاف ، إذا قدّم أحدهم للسيّف والنطع مات الذي يليه من الخوف قبل القتل ، ومنهم من اعتكف على الخنير يشربها ليكّه ونهاره عساها تجهّه كيف أطمأنت به الحال ، ومنهم من يبالغ ويغالي في تناول العقاقير السامة والجواهر القتالة ، مما وضعه الأطباء لقتل الجرائم ، فهو يشربها ويستعطها ، ويدهن بها جسده ، ويغمس فيها ثيابه ، ويبذل بها فراشه ، ويغسل بها آنية طعامه وشرابه ، وكلما سمع بزيادة العدد في

المصابين زاد في مقدار ما يستعمله منها يوماً بعد يوم ، حتى أصبحت أجسامهم مسمومة ، وأبدانهم مهزولة وشفاههم متقلصة ، وعيونهم غائرة ، ووجوههم مغبرة ، وأناملهم مصفرة ينطبق عليهم قوله جلّ وعلا : «وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ .» إذا رأيتهم حسبته في حال المصابين بالفعل ، لولا أن هؤلاء يَفْضُلُونَهُم بالخلاص من ألم الداء ، براحة العدم والفناء ، ولما كان الخوف والوسواس من أكبر وجوه العذاب في الحياة ، ومن أعظم الأسباب في رأى الأطباء لجلب الداء ، كانوا هم أعداء أنفسهم بأنفسهم ، وهم أصحاب الأرواح السقيمة ، في الأجسام السقيمة ، لهم النكد في هذه الدنيا ، ولهم الخزي في الآخرة .
فأين تضع نفسك الشريفة أيها الباشا من هذه الطبقات ؟

(الباشا) — ما أرى لى موضعاً بعد إذ عاشرتنى وأرشدتنى إلا في طبقة أهل الخاصة الذين يسلمون للقضاء والقدر ، ويعملون بالحيلة والحذر ، لكننى مع ذلك أفضل الابتعاد عن ضوضاء الناس في هذا الوباء ، وأرغب في التخلص من النظر إليهم ، وهم في مثل أهوال القيامة من الفزع والهلع ، وليس من الصواب أن نجتمع بين أكدارنا وهمومنا ، وبين التأثر لأكدار الناس وهمومهم .

قال عيسى بن هشام : وخشيتُ على الباشا إن أنا تركتهُ في هذا الحال غريقَ أفكاره وأسير همومه وأكداره ، أن ينتويه الانتكاس ، ويعتريه الارتكاس^(١) ، والنعكسة بعد البلة ، شرُّ أطوار العلة ، فبادرتُ إلى طاعته ، وامتنال إشارته ، فاخترت له من ضواحي المدينة مكاناً قصياً ، ومسكناً مرضياً .

(١) الارتكاس : كالاتكاس .

العزلة في العلم والأدب

قال عيسى بن هشام : واعتزلتُ بالبasha مدة من الدهر ، نستملح العزلة ونستعذب عليها الصبر ، ونعيش فيها عيش الحكماء ، من حسن الرضاء ، بحسن الاكتفاء ، ونستروح راحة البعد عن هذا العالم وأذاه ، وإغماض الجفون على قذاه ، مؤتسجين كل الانتناس ، بالوحشة من الناس ، بعد الذي شهدنا من أعمالهم ورأينا ، وسمعنا من أقوالهم ووعينا ، وقاسينا من عشرتهم ما قاسينا :

عَوَى الذئبُ فاستأنستُ للذئبِ إذ عَوَى وصوتَ إنسانٌ فكدتُ أطيُرُ
إن سالتهم حاربوك ، وإن وادعتهم ناصبوك ، وإن صادقتهم خانوك ، وإن واثقتهم
كادوك ، وإن خالطتهم لا تأمن الاعتداء ، وإذا مزجتهم لا تعدم الافتراء ، وإذا طالبتهم
بحق فإنك لا تسمع الصمَّ الدعاء :

فلو خَبَرْتَهُمُ الجوزاء خُبْرِي لَمَا طَلَعْتُ خَافَةً أَنْ تُكَادَا

ولو أنك لم تخالطهم إلا في مجالس أنسهم وصفوهم ، ومعاهد لعبهم ولهوهم ، لم تجن منها
إلا كلَّ ما يُبعد وينفّر ، وينغص ويكدّر ، تدخلها إذا دخلتها مُستروحاً مستبشراً ،
وتخرج عنها مستقبحاً مستنكراً ، فعيشتهم في كلتا الحالتين قرارةٌ معايب ، ومجتمعُ نقائص
ومثالب ، ومنابت أكدار ، وينابيع أضرار ، ولا راحة في الدنيا إلا لمن تنسك وتزهد ،
ولا سلامة من الخلق إلا لمن اعتزل وتوحد ، وأبعدُ الناس عن معاشرَة البرايا ، أقربهم
إلى كرم السجايا :

بعدي عن الناس برّاً من سقامهم وقربهم للحجى والدين أدواء
كالبيت أفرّد لا إبطاء يدركه ولا سناد ولا في اللفظ إقواء^(١)

وعكفتُ مع البasha في عزلتنا ، أذهب به كل مذهب ، وانتقل به من مطلب إلى مطلب ،
في مطالعة الأسفار والكتب ، من تاريخ وأدب ، ومن حكم متينة قويمه ، وشتى علومٍ

(١) الإبطاء والإسناد والإقواء : من عيوب الغافية .

حديثهٍ وقديمة ، أهديه من كل طرف بطرفة ، وأنحفه من كل باب بتحفه ، وأجتنب معه ما يدعو إلى الضجر والملل ، ويُدْني من الكد والكلال ؛ فتارة أخوض معه غُباب البحار ، وطوراً أجتاز به سراب القفار ، فترى مَنْ يحرق في البحر مراكبه ، ليحمل على اقتحام المنايا كَتائبه ، ونسمع الشاعر في القفر يحدو بِنافته ، ويشبّب بمعشوقته ، ثم لا يقعد به ذلُّ الغرام ، عن التفاخر بعزِّ الكرام ، ولا ينسيه ذكرُ الهوى ، مواقف الحُفّ والردى ، فيخلط بالغزل الفخر ، ويخاطب صاحبتَه من جوف القفر :

إِنَّا مَحْيُوكَ يَا سَلَمَى فَحِينَا وَإِنْ سَقَيْتَ كِرَامَ النَّاسِ فَاسْقِينَا
وإن دعوت إلى جُلَى ومكرمةٍ يوماً سَرَاةَ كِرَامِ النَّاسِ فَادْعِينَا
إِنْ تَبَتَدَّرْ غَايَةً يَوْمًا لِمَكْرُمَةٍ تَلَقَّ السَّوَابِقَ مِنَّا وَالْمَصْلِيَّاتِ^(١)
وليس يَهْلِك مِنَّا سَيِّدٌ أَبَدًا إِلَّا أَفْقَلِينَا^(٢) غَلَامًا سَيِّدًا فِينَا
إِنَّا لَنُرْخِصُ يَوْمَ الرُّوعِ أَنْفُسَنَا وَلَوْ نُسَامِ بِهَا فِي الْأَمْنِ أَغْلِينَا
بِبيضِ مَفَارِقُنَا تَغْلِي مَرَاجِلُنَا نَأْسُو بِأَمْوَالِنَا آثَارَ أَيْدِينَا
إِنِّي لِمَنْ مَعَشَرَ أَفْنَى أَوَائِلَهُمْ قِيلَ الْكُمَاةِ^(٣) إِلَّا أَيْنَ الْحَامُونَا
إِذَا الْكُمَاةُ تَنَحَّوْا أَنْ يُصِيبَهُمْ حَدُّ الطُّبَاتِ^(٤) وَصَلْمَانَا بِأَيْدِينَا

ونرى الناقَةَ تطرب تحته إلى مواطنها ، وتشتاق إلى معاطنها ، فتحنُّ حنيفةً ، وتئنُّ أنينه ؛ وكلما رآها تشكو مثل شكواه ، وتُصغى بأذنها إلى نجواه ، وتردّد بُرغائها^(٥) صداه ، وتُسعده بترجييعها في هواه ، تَأَوّه وتنهّد ، وترنّم فأنشد :

لَقَدْ زَارَنِي طَيْفُ الْخِيَالِ فَهَاجِنِي فَهَلْ زَارَهُذَى الْإِبِلِ طَيْفُ خِيَالِ
لَعَلَّ كَرَاهَا قَدْ أَرَاهَا جَدَاهَا ذَوَائِبَ طَلَحٍ بِالْعَقِيقِ وَضَالِ^(٦)

(١) المصلى : السابق (٢) افتلى : استخرج (٣) الكُمَاة : جمع كُمى ، وهو الشجاع ولا يلبس السلاح (٤) الطُّبَات جمع طُبة ، وهى حد السيف أو السنان (٥) الرغاء : صوت الناقَة (٦) الطلح والضال : شجر شائك .

ومسرّحهما في ظلّ أحوى^(١) كأنها إذا أظهرت فيه ذوات حجال
تكون زبوراً في الحنين مُنزلاً عليهنّ فيه الصبر غير حلال
وأشدنّ من شعر المطايا قصيدة وأودعنها في الشوق كلّ مقال

ثمّ ننقل إلى مشاهدة المعامع المشهورة ، والوقائع المذكورة ، فنرى الدماء تجري أنهاراً في الوديان ، والمهّج تسيل انحداراً من مساليل الأبدان ، والموت واقفاً يحصد الرؤوس ، ويجنى نفائس النفوس ، والفراس يمشى في الصفوف مشية الخيّلاء ، ويطعن برمح كل طعنة نجلاء ، ثمّ ينشد في وصف أثرها ، وبعد غورها :

طعنت ابن عبد القيس طعنة نائر لها نفذ لولا الشعاع أضاءها
ملكته بها كفى فأنهت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها
يهـون على أن ترُد جراحها عيون الأواشي إذ حمت بلاءها

وتذكو شعلة الحرب ، فلا تنطفئ نارها ، ولا يخمّد أوارها ، إلا وقد غادرت النساء أيامى ، والأطفال يتامى ، والأموال نهباً منهوباً ، والأعلاق سلباً مسلوباً . والمدائن خالية خاوية ، والقصور بائدة بالية ، والحرب ينخزل فيها القوى لأوهى سبب ، وينتصر الضعيف من حيث لا يحتسب ، فكم دالت بها الدول ، ودارت الدوائر ، وانثلت العروش ، وسقطت الممالك بعد لواء العز المعقود ، وبساط الجدم المدود ، وبعد ذلك التناهى في العظمت ، والتمادى في الجبروت ، وبعد أن لم يكن يدور في الوهم سقوطها ، ويخطر في الخيال هبوطها ، كل ذلك يكون أسرع من لمح البصر ، إذا نزل القضاء وحُمّ القدر ، وكلّ ذلك مهما امتد ظله زائل ، وعند التناهى يقصر المتطاوّل .

ثمّ أدخلُ به في مطالعنا إلى حلقة حكيم واعظٍ ، يسلب الألباب بقوة بيانهِ ، ويخلب العقول بضوء برهانه ، ويسترقّ النفوس بطلاقة لسانه ، ويقول في حقارة الغنى وهوانه :

(١) الأحوى : ما تضرب خضرته إلى السواد .

« أيها الناس، والله لدُنْيَاكم هذه أهْوَنُ عنْدِي من عِرَاقٍ ^(١) كَلْبٍ في يدِ مجذوم. »
« والخبيرَ بين أن يستغنى عن الدنيا وبين أن يستغنى بالدنيا، كالخبيرَ بين أن يكون
مالسكا أو مملوكا .

مَنْ سرَّه أن لا يرى ما يسوؤه فلا يتخذُ شيئاً يخاف له فَقَدْ
« والحياة الطيبة هي حياة الغنى، والغنى هو القنوع، لأنه إذا كان الغنى، عدم
الحاجة إلى الناس، فأغنى الناس أقلهم حاجة إلى الناس، ولذلك كان الله تعالى
أغنى الأغنياء :

غنى النفس ما يكفيك مِنْ سَدِّ خَلَّةٍ فإن زاد شيئاً عاد ذلك الغنى فقراً »
ويقول في محاسن الأخلاق : « الجود حارث الأعراض، والحلم فِدَام ^(٢) السفينة، والعفو
زكاة الظفر؛ والاستشارة عين الهداية، وأشرف الغنى ترك المني، وكَم من عقلٍ أسير عند
هوى أمير، ومن التوفيق حفظ التجربة، ومن لان عوده كُثِفَت أغصانه، ومن لانت
كلمته وجبت محبته . »

ويقول في مساوئ الصفات: « الكاذبُ في نهاية البعد من الفضل، والمرأى أسوأ حالاً
من الكاذب، لأنه يكذب فعلاً، وذلك يكذب قولاً، والفعل آكد من القول، فأما
المعجب بنفسه فأسوأ حالاً منهما، لأنهما يريان نقص أنفسهما ويريدان إخفاءهُ، والمعجب
بنفسه قد عَمِيَ عن عيوب نفسه فيراها محاسن ويُبديها، وإني لأعجب للبخيل يستعجل
الفقر الذي منه هرب، ويفوته الذي إياه طلب، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب
في الآخرة حساب الأغنياء، وأعجب للمتكبر الذي كان بالأمس نطفة وفي الغد جيفة،
وأعجب لمن يُغفل صبره ويشكو إلى الناس دهره، فإن كان عدواً سرَّه، وإن كان صديقاً
أساءه، وليس مسرة العدو ولا مساءة الصديق بمحمودة :

ولا تَسْكُ إلى خَلْقٍ فقسَمْتَهُ شَكَوَى الجريحِ إلى العِقبانِ والرحمِ

(١) العراق : العظم أكل لحمه .

(٢) الفدام : الحرقعة على فم الابريق .

« والعجز عجزان : أحدهما عجز التقصير وقد أمكن الأمر ، والثاني الجدُّ في طلبه وقد فات »
ويقول في ذكر الحياة والموت : « إنما المرء في الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا ، ونهبٌ
تبادره المصائب ، ومع كلِّ جرعة شَرَق ، وفي كلِّ أكلة غَصَص ، ولا ينال العبدُ نعمة
إلا بفراق أخرى ، ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجله ، فنحن أعوان
المفون ، وأنفسنا نُصَب الحُتوف ، فَمِنْ أين نرجو البقاء ، وهذا الليل والنهار لم يَرَقعا من
شئ شرفاً إلا أسرعا الكرة في هدم ما بَنَيْنا ، وتفريق ما جَمعنا ، وعجبت لمن نسي الموت ،
وهو يرى مَنْ يموت . »

ويقول في وصف العلماء : « الخير من العلماء من يرى الجاهل بمنزلة الطفل الذي هو
بالرحمة أحق منه بالغلظة ، ويعذره بنقصه فيما فرط منه ، ولا يعذر نفسه في التأخر
عن هدايته . »

ثم يحتتم وعظه بقوله :

الدِّينُ إِنْصَافُكَ الْأَنْوَامَ كُلَّهُمْ وَأَيُّ دِينٍ لَأَبَى الْحَقِّ إِنْ وَجِبَا
وَالْمَرْءُ يُعْيِيهِ قُوْدُ النَّفْسِ مُصْحَبَةً لِلْخَيْرِ وَهُوَ يَقُوْدُ الْعَسْكَرَ الْأَجِبَا^(١)

اللهم اكفني بوائق الثقات ومكايد الأصدقاء .

ثم أنتهي بصاحبي إلى مجلس محاضرات بين الأدباء ، ومفا كهات بين الندماء ، فنقرأ
من لطيف بَوَادِرهم ، ورقيق نوادرهم ، ما ينير ظلمة الفهوم ، ويجلو صدأ الهموم :
لَفْظُ كَانََّ مَعَانِي السَّكْرِ تَسْكَنُهُ فَمَنْ تَحَفَّظَ شَيْئًا مِنْهُ لَمْ يُفَقِ
جَزَلٌ يَشْجَعُ مَنْ وَاقَى لَهُ أَذْنَا فَهُوَ الدَّوَاءُ لِدَاءِ الْجَبَنِ وَالتَّقَلُّقِ
إِذَا تَرَنَّمْ شَادٍ لِلْجَبَانِ بِهِ لَاقَى الْمَنَايَا بِلا خَوْفٍ وَلَا فَرَقِ
وَإِنْ تَمَثَّلَ صَادٍ لِلشُّخُورِ بِهِ جَادَتْ عَلَيْهِ بَعْدُ غَيْرِ ذِي رَاقِ

وهكذا قضيتُ مع الباشا زمناً ليس بقصير ، أستخرج له نفائس الأعلام ، من بطون

(١) اللجب : الجيش ذو الجلبة

الأوراق ، وأقتطف معه زهر الأدب العاطر ، من حقائق الكتب والدفاتر ، إلى أن قال لي ذات يوم ، بين ندم ولوم :

(الباشا) — إنَّ أعظم ما آسفُ عليه اليومَ تلكَ الأيامَ التي أضعتها من سالفِ عمرى فيما لا يجدى ولا يفيد من مشاغلِ الدهر وملاهى العيش ، وباليتمنى كنت قصرت هـى منذ صباى على مثل هذه المعيشة ، مع هذا التفرغ لاجتناء فوائد العلوم ، واقتناء فرائد الآداب ، مقتبطاً سعيداً ، لا حاسداً ولا محسوداً ، أتنقل من مطالعة الكتب إلى مذاكرة العلماء ، ومن مذاكرة العلماء إلى مسامرة الفضلاء ، ومن مسامرة الفضلاء إلى مطارحة الأدباء : والله يعلم أن أسفى ليزيد شدة ، وأنَّ ندمى ليعظم حدّة ، كلما تذكرت ما كانوا يحدثوننى به فى أيام دولتى عن مجالس العلم والأدب ، فما كنت آبه ولا أنتبه إليها ، وكنت أظن أهلها قوماً من أهل الكسل والفراغ يجلسون للدفاتر والكتب كما تجلس النساء للغزل والرّدن^(١) ، والحمد لله الذى أرشدنى إلى الهدى آخرِ الدهر ، فعلمت مقدار هذه النعمة التى حبّبت إلىّ الحياة ثانية ، وهونت علىّ احتمال متاعها ، وما إخالك تبخل علىّ بعد الآن ، وقد علمت نفع ذلك لى ، بمداومة السير معى فى هذا الطريق الحميد ، وما أرى من بأس فى أن تترك هذه العزلة حيناً بعد حين للاجتماع بالناس فى مجالس الأدب ، وبجامع الفضل ، وأندية العلم ، لتذاكر معهم ما نطالعه ، ونأخذ عنهم ما يحفظونه ، وقد زالت الخواف واطمأنت الخواطر بزوال الأوبئة والطواعين ، والحمد لله رب العالمين .

(عيسى بن هشام) — لاتطمعنّ أيها الأميرُ — دَفَعَ اللهُ عَنْكَ المكاره — فى مثل هذه المجالس ، فقد طوتها الأيام ، ورمستها الليالى ، ولم يبق اليوم من يأنس إليها وينافس فيها .

(الباشا) — كيف يكون ذلك ؟ وأنا لا أزال أسمع ما تزعمونه من كثرة المدارس الآن ، وانتشار العلوم والفنون ، وتعدد الطالبين ، وسهولة الحصول على الكتب ، ووفرة المطابع ، وإطلاق الأفكار من القيود ، وأين هذا مما كنا عليه فى الزمن الأول من تعسر الوصول

إلى الكتب ، وتعذر استنساخها اضن أربابها كأنها لديهم خفايا الكنوز ، حتى لقد كان الجهلاء الذين لا ينتفعون بها ، ولا يفقهون منها شيئاً ، هم أول من يفاخر باقتنائها ، ويعتبرونها ضرباً من ضروب الزينة والزخرف ، كأنها اليواقيت والجواهر ، يعجز عنها من يروم الانتفاع بها ، إن لم يكن ذا ثروة واسعة تمكنه من استنساخها أو ابتياعها ، فلا بدع اليوم أن يكون في يد كل مصرى كتاب يطالعه ، وأن يكون كل واحد منهم قد أصبح في العلوم والفنون أليف محاضرة ، وحليف مذاكرة ، تُزدهى به مجالس الفضل وتزهو أندية الأدب ؛ وكيف لا يكون ذلك ، وقد ذقتُ من حلاوة المطالعة والمذاكرة ما أنساني حلاوة كل لذة في العالم ؟

(عيسى بن هشام) — نعم شاعت العلوم في هذا العصر ، وترقّت الفنون ، وكثرت المطابع ، وسهل على الناس اقتناء الكتب ومطالعتها ، ولكن قل بيننا عدد الراغبين فيها والمطالعين لها ، فكسدت سوقها ، وبارت تجارتها ، وأغفلها من ينتفع بها الاشتغال بسواها من الأمور الباطلة ، والأشياء التافهة ، ورغب عنها من كان يفتنيتها للزينة ، لكثرة الانتشار والتبذل ، والناس اليوم في حركة لا شرقية ولا غربية ، قد اشتغل بعضهم ببعض ، واكتفوا من دهرهم بمجواث يومهم ، فتعطلت بينهم مجالس العلم ، واندرست مجامع الأدب ، واقتصروا على مطالعة أخبارهم في الجرائد والصحف دون الدفاتر والكتب ، وأنى يكون لهم الاستقرار في المجالس ، وهم لا يستقرون في مكان ، ولا يهدأون من حركة ، ولا ينفكون عن غدو ورواح ، ولا ينتهون عن نقلة وسفر ، وأكثر ما يكون جلوسهم في المركبات : مركبات الخيول أو البخار أو الكهرباء ، وأهل اليسار منهم يقضون جزءاً من شهور العام مترحلين في بلاد الأجانب ، متنقلين في ديار الغربة للنزهة والتفكه ، وقصارى العلم عندهم أن يتلقى الطالب أشتاتاً منه في المدرسة وأطرافاً ، وهو بالسن التي لم يصل فيها بعد إلى تمام التعقل وكمال الإدراك ، فيحفظها ويؤديها كاللبغاء فإن أسمعده الحظ في آخر الدراسة ونجح عند الامتحان ، تأبط صك الشهادة ونفض يده من تلك العلوم ،

وطرحها عنه طرح الثوب الخلق، ونبذها نبذ القادم على أهله ما أسن من ماء^(١) وما جف من زاد، انتقاماً لنفسه مما عاناه من مشقة، وقاساه من تعب في درسها وحفظها، من غير أن يفقه لها مزية في ذاتها، أو يذوق لها حلاوة في طعمها، فإذا هو بلغ إربته، ودخل في خدمة الحكومة، أصبح كالعامل من العمال لا العالم من العلماء، وقل فيهم بعد ذلك من يصبوا إلى العلم وأهله، أو يحن إلى الأدب وكتبه، ولئن مال بعضهم لمطالعة فإنها لا تتجاوز حد الكتب المتعلقة بأصول وظيفته، ولذلك أصبحت كتب العلم والأدب مملولة منبوذة، وثقل على الناس مطالعتها لما هم فيه من كثرة الحركة والتنقل وطول الانهماك في الأشغال المتجددة، فلا يقوى أحدهم على مطالعة صحيفة من كتاب إلا وقد بلله العرق، ودَهَمَه الكلال والملال، ونزل به الضجر والسأم، وإنك لترى مثل هذا بيننا في حديثهم، فهم لا ينصتون إلى قصة متصلة، ولا يتبعون في الكلام قضية مرتبة، ولا يعجبهم منه إلا ما كان متقطعاً مبتوراً أو مقتضباً مجزوماً.

(الباشا) — ما أكاد أخليك أيها الصديق من غلو في وصف هذه الحال، وهل خلا أو يخلو زمان، في البداوة كان أو في الحضارة، من مجالس العلم، وجمامع الفضل، وأسواق الأدب. وما كان زماننا الذي كنت فيه ليخلو من آثارها، حتى لقد رأينا فيه كثيراً من الكبراء والأمراء ممن لا نصيب لهم من العلم والأدب لا يغفلون مجالسهم من وجود شاعر مجيد، أو فاضل أريب، أو نديم أديب، أو محدث ظريف، تتفكه به النفوس، وتستريح له القلوب، هذا والكتب بين الناس قليلة التداول، والعلم بعيد التداول، فما بالك اليوم على هذه الحال التي تصف، والصحف منشورة، والكتب مطبوعة، وأسماء العلوم مذكورة؟

(عيسى بن هشام) — قد استغنى كبرؤنا وأمرؤنا اليوم عن تزيين مجالسهم بالعلم والأدب، وقصروا همهم فيها على التفاخر بالمقتنيات المزخرفة، والأدوات المصنعة من عمل

(١) أسن الماء: تغير فلم يشرب

الغريبين ، فترى الكبير أو العظيم يقلّب في يده العصا المضيئة بالكهرباء مثلاً ، أو الساعة
التي ترنُّ بعدد الثواني ، وهو يعتقد أنها أجلُّ قيمةً في العين ، وأجلُّ أثراً في النفس من
جميع العلوم التي تستضيء العقول بممارستها ، ومن جميع الكتب التي تصفو ساعات الحياة
بمطالعتها ، ولا تتوهمنَّ أنني أجزم لك بخلوّ هذا الزمن عن مجالسَ للعلم ومحافلَ للأدب ،
وما كان كلامي إلا على الوجه الأعم ، وقد آن أن أجيئك إلى ما طلبتَ ، فأزورك
بعض المجالس والمحافل ، لينقطع ريبك ، وليطمئن قلبك .

الأعيان والتجار

قال عيسى بن هشام : واستنهضتُ الباشا أُرُور بن مجلساً من تلك المجالس المعدودة ، والأندية المعقودة ، مجلسَ الوجهاء والتجار ، أهل الصيت المرتفع في الأمصار ، فشهدتُ منه أُرُوراً وانقباضاً ، ووجدت فيه انحرافاً وإعراضاً . ثم التفت إلى يعاتبني عتاباً شديداً ، ويوسعني عدلاً وتقنيداً ، ويقول لى : ما عهدت منك منذ صاحبتك إلا الخير لى تريده ، والنفع تَبْدُوهُ وتعيده ، ومازلت أشكر لك تلك اليدَ البيضاء ، فى العزلة عن الناس والتخلص من مواقف القضاء ، دفعاً لما كنت تحذر وتخشى ، من شر الخاتمة وسوء العقبى ، بتزاحم الأحزان ، وتراكم الأشجان ، وما تعقبه من السقم والاعتلال ، وسوء الفكسة بعد النقة والإبلال^(١) فما بالك تستهضىنى إلى مثل هذه المجالس والحجامع ، وربما كان فيها ما يؤذى العيون وينفر المسامع ، وقد شاهدتني يكاد يصيدنى التلف ، من شدة الحزن والأسف فقلت : أشهد الله ما أبغى لك إلا الخير والتوفيق ، فى كل مذهب وطريق ، وقد رأيت التجارب أوسعتك كرمًا وحلمًا ، وصروف الدهر أكَسبتك معرفةً وعلمًا ، بعد قلة الاختبار ، وكثرة الاغترار ، وسوء الابتدار ، فى الإيراد والإصدار ، وما كان فيك من خشونة الملمس ، وشموخ الأنف ، وضيق العطن ، وصلف الرأى ، وما أحب لك بعد ذلك أن ترى فى أمور الناس إلا مشهداً يُسلى عن الكرب ، وملعباً يفرِّج عن القلب ، فلا يكن نظرك إلى أعمالهم فى غدوهم ورواحهم وفى أفراحهم وأتراحهم ، ونعيمهم وبؤسهم ، ورجائهم وبأسهم ، مثل نظر الحكيم « هيراقليط » بل مثل نظر الحكيم « ديموقريط » ، كان الأول يشاهد أمور الناس فيبكي ويتحسر ، وكان الثانى يراها فيضحك ويسخر ، فإذا أنشد أحدهما فى نصرة مذهبه :

الناسُ مِنْ دُنْيَاهُمْ فى مَاتِهِمْ فَالْشَّحْبُ تَبْكِي وَالرَّوَاعِدُ تَنْدُبُ
أَنْشَدُ الثَّانِى فى تَأْيِيدِ مَشْرَبِهِ :

هَذِى الْحَيَاةُ رَوَايَةُ لِمَشْخَصٍ فَالْإِلْبَالُ سِتْرٌ وَالنَّهَارُ الْمَلْعَبُ

ومن صواب الرأي أن لا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ولا تذرف عينك من أجلهم العبرات ، وهلمّ معي أمتعك بزيارة مجلس يؤنس من وحشتك ، ويكشف من غمتك ، فألسن مطاوعاً في القياد ، وواقفي على ماتبين له من الرشد والسداد ، فيمّمتُ به داراً عالية الجدران ، واسعة الأركان ، شاهقة البنيان ، لأحد التجار والأعيان ، فزاحمنا عند الباب سائسٌ يسحب فرساً مصحّباً مطيعاً ، ويحمل على كتفه طفلاً رضيعاً ، يقول وقد أظهر الغيظ بواطنه الكامنة : « لست أدري والله أسائسُ أنا أم حاضنة ؟ » ، ومن ورائه آخرٌ يحمل صفحةً متدفقة بالخلل ، يقول وقد تلوثَ بمانها وتبلل : « علام أنعب في هذه الدار وأشقى ؟ وإلام يدوم هذا الشقاء ويبقى ؟ ولست أدري والله أسائقُ أنا أم سقّا ؟ » . ولما ولجنا الباب إذا بالبواب ، يقول وفي يده صرة ثياب : « لا مردّ للمقدور والمقضى ، ولا رجاء في العيش الرخي ، والله ما أدري أبواب أنا أم خصي ؟ » ولما جاوزنا دهليز المكان ، إلى باب الإيوان ، وجدنا عنده غلاماً فتى السن ، يتهد ويثنّ ، وبين يديه دخان وورق ، وبجانبه كتاب مطبق ، وهو يقول : « عجباً والله للوالد يشغل ابنه بسجارات يحشوها ، فيلهيه بها عن دروس له يتلوها ، لا غرو إن فاضت العيون بسواكها ، واحترقت القلوب بلواهبها ، فما أدري والله أفرّاشُ الدار أنا أم ابنُ صاحبها ؟ » فما أحسّ بنا حتى انتفض قائماً ، وتقدم مُسليماً ، ثم ذهب أمامنا ، ليذكر قدومنا ، وإذا بالوالد مقبلاً علينا يتكفأ في مشيته ، ويتمثر في جُبته ، فسَهّل بنا ورحّب ، وبالغ في التحية وأسهب ، ودخل بنا على أهل مجلس مختلفي الأزياء والهيمئات ، متبايني الأشكال والسمات ، فمن صاحب عمامة يتعهد بيده رصفها ، وآخر يجدد لفها ، ويحبك بالإبر طرفها ، ومن صاحب طربوش قد أماله على جبينه ، فإذا تحرك أسنده بيمينه ، فترى يده أبداً لا تسكن ولا تستقر ، كأنما هو في تأدية سلامٍ مستمر ، ووجدناهم جميعاً قد كثر بينهم اللغو والاغط ، وسمعناهم يتحاورون على هذا النمط :

(أحدهم) — نعم لا بدّ من ذلك إذا يسّر الله وتم الاتفاق مع الخواجه فلان ، فإن إقامة عمارة أخرى بجانب تلك العمارة مما يأتي بأرباح لا يمكن أن تأتي بها الأشغال التجارية ،

وأنا أنصحك يا أبا هاشم أن تترك التجارة جانباً ، فقد أصبحت الآن لا نفع يُرجى منها ، وتوكل على الله في الاشتغال معنا بالأبنية فهي أنجح وأربح .

(الثاني) — ومن أين لي ، زادك الله من النعمة والبركة ، ما يساعدني على هذا التوسع ، والحال على ما تعلم ضعيفة ، والحمد لله على نعمة الستر فهي الغنى الكامل ؟

(الأول) — لا تتقل هذا أيها السيد ، « وأما بفرمة ربك فحدث » ، ودعواك ضعف الحال إن هي إلا تواضع منك ، والله يزيدك فضلاً على فضل .

(الثاني) — استغفر الله يا سعادة البك ، هذا حسن ظن منك ، وإلا فالحقيقة غير ما ظننت ، وقد قلت لك إن الستر هو الغنى الكامل ، وعلى كل حال فالبركة في التجارة ، فمنها كان رزق الآباء والأجداد . وربحٌ مستور ، أبرك من ربح مشهور .

(ثالث) — تا الله إنكم لفي ضلالكم القديم ، وهل بقي في التجارة ، التي زاحمكم عليها الأجانب ، ربح يُذكر ، أو رزق يُطلب ، فتركوا هذا الخمول ، وعليكم بأشغال الأقطان في البورصة ، فهي الربح المضاعف ، والرزق الحاضر ، يأتيك رغداً بلاكد ولا تعب ، وكم رأينا من فقير ولجّ البورصة ، فخرج بفضل المضاربات غنياً كبيراً ، وهذا صاحبنا الخواجة فلان اليهودي ، وفيكم من أدرك والدته تبيع الخبز بالحارة ، قد مارس تلك الأشغال ، فأصبح أكثر الناس مالاً وأرفعهم حالاً ، ونحن لا نزال على ما تركه لنا الآباء والأعمام رحمة الله عليهم .

(رابع) — ولكن فاتك أيها السيد أن صاحبنا هذا الذي تعنيه لم يصل إلى ذلك إلا بأشغال السمسرة ، وفيها من الحطة ما لا يخفى عليكم ، وهل تريدون أن ينزل أحدٌ منا بنفسه إلى هذه الأشغال بعد أن عشنا مثل هذا العمر ؟

(الثالث) — حاشا الله أيها السيد ، ليس هذا من قصدي ، وإنما أردت أن أبين لكم أن هذا اليهودي دخل البورصة سمساراً لا يمتلك مالاً ، فأصبح من كبار الأغنياء ، فما بالك بمن يدخلها وهو صاحب ثروة ، لا شك أنه يخرج منها بعد مدة قصيرة قارون زمانه ، (خامس) — ما وراء الربح الكثير إلا الخسران الكبير ، وقد شاهدنا بأعيننا ما أنتجته أشغال البورصة من تخريب البيوت العامرة ، وتبديد الغنى الواسع ، وانحطاط

العماد الرفيع ، وأرى أن الإقدام على هذه المهالك من الجنون المحض « فאלله خير حافطاً . »
(سادس) — أما أنا ، ولا يُبلغ المؤمن من جُئُر مرتين ، فقد كفاني تأديباً ما تكبدته
من الخسائر في تلك المضاربات على الأقطان ، ولولا فضل الله وبركة دعاء الوالدين
لما نجوت من الخراب .

(الثالث) — لا حول ولا قوة إلا بالله « إنك لا تهدي من أحببت » ، كيف تخشون
الخسارة في أشغال الأقطان ، وتتوقعونها والربح فيها مضمون ، مع بعض الانتباه لجرى
الأخبار ، وحسن التخمين في الإحصاء ، وتقدير الحصول والمطلوب للتسليم ، ومع القليل
من الممارسة والجرأة في العمل .

(سابع) — كيف تدعى ذلك ، حفظك الله ، وهذا فلان المشهور قد انقطع لهذا العمل
واجتمعت فيه معدّاته ، فما زال يهوى في بحر البورصة ، حتى وصل في الخسارة إلى القرار
وإن كان لا يزال ظاهراً في أعيننا بمظهر الغنى الواسع والمال الجمّ .

(ثامن) — سبحان الله ! ألا تعجبون معي من اتساع الشهرة يديننا بالغنى والثروة ، ثم
لا نلبث أن تنكشف الحال عن القلة والضعف ، فكم سمعنا بأن فلاناً صاحب ثروة تقدّر بألوف
الألوف ، ثم يظهر الخفى ، ويتضح الباطن ، فلا تبلغ الحقيقة معشار تلك الشهرة الكاذبة
(الخامس) — نعم صدقت ، ألم تروا إلى المرحوم فلان كيف كان يفاخرني في كل
مجلس عندما أخذت الرتبة بأنه أكثر منى مالاً وأعظم ثروة ، وأن مقامه بذلك رفيع ،
ومرتبته سامية ، فلما توفاه الله انكشف الحال ، ولم يرث عنه أولاده ما يكفي لبقاء بيته
مفتوحاً ، وبقاء اسمه مذكوراً ، وقس على ذلك أمثاله من هذا القبيل ، فسبحان
الغنى الدائم .

(الرابع) — دَعُونَا بالله من ذكر الأولاد والمواريث ، فإننى كلما تذكرت أخلاق
آبائنا في هذا الزمن ، ورأيت ما وصلت إليه ثروة فلان ، وما انتهى إليه حال أولاده من
الفقر والضعف ، بعد أن بددوا تلك الأموال الطائلة ، وأصبح ذكر أبيهم بينهم نسياً منسياً ،
فلا يزورون له قبراً ولا يطلبون له رحمة ، هان على أن أنفق ما في حوزتي في حياتي ، وأن
أتمتع بأموالي في مدة عمرى .

(الخامس) — معاذ الله أن نفعل ذلك بأبنائنا ، وما فائدتنا في هذه الدنيا إذا لم نجمع الأموال وندخر الثروة لأعقابنا ، ونترك لهم ما يغنيهم عن سؤال اللئيم بعدنا ، ولا تجعل الذنب كله على الأولاد في تبديد الموارث ، بل الذنب كل الذنب على الآباء الذين يتركون أموالهم هملاً بعد موتهم ، ويفعلون عن تقييدها بالوقف فينتفع الأولاد بالريع ، وتبقى العين قائمة والبيت مفتوحاً ، والاسم مذكوراً ، ولا يحتاج أحد من الذرية وذرية الذرية مع وجودها إلى ...

(السادس) — لا مؤاخذة يا سعادة البك في مقاطعة الحديث ، ألم تسمع بما حصل في وقف فلان وفلان وغيرها ، وكيف أغتال النظار حقوق المستحقين ، وذهب الوقف ضياعاً بين القضايا والدعاوى والديون ، حتى آل النظر والاستحقاق فيها لليهود ، واندثرت البيوت وعفت الآثار ، وذهبت أسماء أصحابها ، كما ذهب أمس قبل اليوم .

(السابع) — نعم ينفع الوقف ويبقى الميراث على شرط أن يكون بمثل الشروط التي وقف بها المرحوم فلان ، فإنه خصص جانباً من الريع لذريته ، واشترط أن يُحفظ الباقي ويدخر ، وكلما تكوّن منه نقد عظيم يشتري به عقار ، ثم يوقف ويضاف إلى الوقف الأصلي ، ليكون في نمو متواصل على توالي الأيام وصروف الحداث ، وبذلك يصير البيت في درجة عالية من الغنى بعد وفاة صاحبه فوق ما كان عليه في أيام حياته ، فأنعم بها من طريقة وأحسن بها من وسيلة .

(الثالث) — ليس ذلك من الحزم في شيء ، واسكنه الغلو في البخل والشح ومحبة الادخار بعد مفارقة الحياة ، ولقد حرّم المرحوم نفسه من التمتع بماله في حياته ، وحرّم أولاده منه بعد موته بابتداع هذه الطريقة الغريبة في شروط الوقف .

(الأول) — أطلب منك العفو والسماح وعدم المؤاخذة ، فمن يقول إن المرحوم كان شحيحاً مقترأً ؟ قد والله عاشرته الزمن الطويل فما رأيته يحرم نفسه أو يقتري عليها ، وما كانت مائدته لتخلو من الضأن أو الحمام أو الدجاج ، وحق جدك ، وإنما كان الرجل حازماً لا ينفق ماله إلا في الوجوه النافعة .

(الثاني) — لا اعتماد عندي في هذا الباب على الوقف أو الملك ، وخير ما يندخر الوالد لأبنائه وأفضل ميراث لهم أن يحسن تعليمهم وتهذيبهم في المدارس ، وأن لا يعوِّدَهم في حياته الإنفاق والتبذير ، بل يروضهم على التوفير والتدبير ، ومعرفة قدر الدرهم والدينار .

(الأول) — وهل جاءتنا المصائب في أولادنا إلا من هذه المدارس وتعليمها ، وهل ذلك التهذيب إلا ما شئت من الفظاظة والوقاحة والكبرياء والمكابرة ؟ ولقد أدهشني فلان بالأمس ، وأضحكني في شكواه من الشكوى من حال ابنه المتهذب المتعلم في المدارس والمجالس ، إذ قال لي في حديثه : « مازال هذا الولد يزيد في تعذيبي وتكديري منذ خروجه من المدرسة ، فأصبح لا يكلم أهله إلا بالرطانة ، ولا يُعرب عن غرضه إلا بالتعنيف والتأنيب ، ولا يرضى عن شيء في البيت ، فإذا جاءوا له بالماء قال فيه الميكروب ، وإذا أتوه بالخبز والخبز قال علي بالميكروسكوب ، ثم ترى الشقيّ يقسّم الأطعمة أقساماً ، فيقول البيض واللبن غذاء كامل ، والخضّر غذاء ناقص لا ينفع ولا يعمّر ، وإن الأرز وما شابهه من « المواد النسائية » لا فائدة منها سوى أنها تحترق كالوقيد في الجسم ، وما زاد منه عن الحاجة فهو شحم يغلظ به الجسد وتقرم به الأعضاء ، وإن الفواكه لا بد أن تؤكل من ساعتها إذا تشقت خصوصاً البطيخ لأنه أسرعها قبولا لتولد الحيوانات السامة ، وهلم جرّاً ، حتى حير الخبيث أهل البيت في طعامه وشرابه ، فوق ما حيرني في اختلاف ملابسه وتعدّد أزيائه . وكلما عارضته في شيء ، شتمه بأنفه استكباراً ، ولوى عنقه استحقاراً ، وسخر بي لجهلي ، وفخر عليّ بعلمه . هذا هو منتهى التأدب الذي يكتسبه أبناءنا من علوم المدارس ، يتعالمون على آبائهم ويعيرونهم ، بعد أن كان الولد كالبنّت البكر في الزمن الماضي ، لا يرفع طرفه في وجه والده حياءً ووجلاً ، وكان لا يجروء على مكالمته إلا محيياً عن سؤال من صغره إلى كبره

(الثاني) — ولكن فأتلك أن تعليم أبنائنا في المدارس يفيدنا فائدة عظيمة يُغفر لها كل ذنب ، وهي دخولهم في سلك الموظفين في الحكومة ، وارتقاؤهم المراتب والمناصب ، وياليت آباءنا كانوا التفتوا في أيامهم إلى تعليمنا في المدارس ، فكفنا استغنياً عن ممارسة التجارة ، وذل البيع والشراء ، وكساد السوق ، وترويج السلعة بالأقسام والأيمان ، فما

العيش إلا عيش الموظفين الذين يأخذون مرتبهم في آخر كل شهر نقداً عيناً، وذهباً خالصاً، دفعةً واحدة سالمة لأيديهم بلا مطل ولا تسويق ، في مقابل جلوسهم بالديوان ثلاث ساعات من كل يوم ، يقضون الجزء الأعظم منها في المسامرات والمفاكهات ، ثم ناهيك بما لهم بين الناس من التوقير والتعظيم ، وما في قدرتهم من مساعدة الأصحاب ونسكاية الأعداء ، ورأس المال في ذلك كله الإحاطة ببضعة كتب في المدرسة ، فأخبرني حينئذٍ أيّ ربح في التجارة ، وأي شأن لها يوازى هذا الربح ، وهذا الشأن في خدمة الحكومة ، وسبحان مَنْ قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة .

(الرابع) — كل هذا معلوم ومسلّم به ، ولكن من أين لك أن يقال ابنك الشهادة ، وأنت تعلم حال القابضين على زمام التعليم ، فقد خرج أكثر أبنائنا من المدارس بلا شهادة وخسرنا عليهم الأموال في نفقاتها ، ومن صادفتهُ العناية منهم ونال الشهادة ، مثل ابني ، فإنه لم يزل يتردد على أبواب الحكومة في تطلب الخدمة ، والوظائف مشحونة ، ونظار الحكومة لا يجددون سواها .

(السادس) — عسى الله أن يبدّل الأحوال ، ويسقط هذه النظارة ، ويمنّ علينا برجوع أولئك النظار الذين يهتمون بمصالح أهل البلد وأبناء الوطن ، فتري حينئذٍ كيف يكون تقدّم أبنائنا في المناصب .

(الخامس) — حقاً إذا ذهب هؤلاء النظار ، وعاد صاحبك إلى النظارة ، فقد أقبل علينا السعد ، وانجلت الكروب ، وصفت الأوقات ، وأنا أرجو أن لا تنسى ابني عند السعي لأنجالك ، فقد كان معهم في مدرسة واحدة ، وهو دائماً يطالع الجرائد ، ويتقرب الحوادث التي يكون من ورائها سقوط هذه النظارة .

(الثامن) — أراكم تخبطون في أمر أولادكم على غير هدًى ، والأصوبُ عندي أن نعلمهم العلوم ليكونوا أسوة أهل زمانهم معرفة وإطلاعاً ، لا لأجل التوظيف في الحكومة والخروج عن طبقاتهم ، وأما من جهة حفظ المواريث في أيديهم بعد مماتنا ، فأحسن الطرق أن لا نقتر عليهم في النفقة أثناء حياتنا ، وأن لا نتركهم بمعزل عن أشغالنا ، بل نخصص

لهم قسماً من المال يشتغلون به على حدّتهم تحت أعياننا ، ليمتروا على العمل ، ويدركوا لذة المكسب بأنفسهم ، فتتربى لهم ملكة الحرص على المنافع ، وينتفعوا بعلومهم في اتساع تجارتهم ، والتفنن في أبواب المراجعة ، وقد جربت ذلك في أولادى ، وأنا أرجو فيهم الخلف الصالح إن شاء الله .

(السادس) — هل جاءت جريدة اليوم ؟

(صاحب البيت) منادياً لابنه — إئتنا بالجريدة واقراها علينا .

(يحضر الغلام وفى يده الجريدة ناشرأ لها)

(الأول) — اقرأ لنا من الأول .

(الغلام) قارئاً — الحرب .

(السادس) — هل وقعت الحرب ؟

(الغلام) — ليس يتبين ذلك من أول المقالة

(السادس) — اقرأها من آخرها

(الخامس) — اتركها من أولها إلى آخرها ، واقراء فى « الحليات » فلا فائدة لنا فى

وقوع الحرب أو اجتنابها .

(الغلام) قارئاً — تأليف الشركات .

(الرابع) للسادس — لا يذهب عن فكرك مشروع الشركة الوطنية التى كنّا تكلمنا

فى تأليفها من المشتري الأطيان المعلومة من الحكومة .

(الخامس) — إن شاء الله يكون لنا نصيب معكم فى هذه الشركة .

(الثالث) — مَنْ أعضاؤها ، ومن الرئيس ؟

(السادس) — أعضاؤها فلان وفلان وفلان ورئيسها فلان

(الثالث) — معاذ الله أن أقبل الدخول مع فلان فى شركة ، وهل نسينا ما وقع منه .

(الثانى) — وأنا لا أقبل الدخول فى شركة بعد تلك الشركة المشهورة بخيبة المسعى

ما لم أكن أنا الواسطة فى مقابلة الحكام والمداولة معهم .

(السابع) — وأنا لا أقبل الدخول فيها إلا إذا كانت « أسهمى » فى التأسيس أكثر من فلان .

(الأول) — وأنا لا أقبل أن يكون فلان رئيساً علىّ فى شركة أبداً .
قال عيسى بن هشام : واشتد بينهم الجدل والخصام ، فحملت العيون ، وعبست الوجوه ، وتحركت الضغائن ، وثارت الأحقاد ، ورأينا كل واحد منهم يضم لأخيه من الشر والأذى ، ما لا يضمه القرن لقرنه فى ساحة الوغى ، فانصرفنا عنهم ، وتركناهم يموج بعضهم فى بعض ، كأنهم فى موقف الحشر ويوم العرض .

أرباب الوظائف

قال عيسى بن هشام : وسرنا إلى زيارة مجلس من أرباب الحكم والولاية ، وذوى السياسة والدراية ، ممن بيدهم حلُّ الأمور وعقدُها ، وبمَلِكهم شقاء الأمة وسعدُها ، الناشئين في مهد المعارف والعلوم ، والناخبين في أشقات المنطوق والمفهوم ، والموصوفين بدقة النظر وبُعدِ العلم ، والواقفين على أخلاق الخلق وعادات الأمم ، الذين تنكشف لضوء آرائهم غياهبُ الخطوب الداجية ، وتنقاد للطف سياستهم أزمة القلوب الآبية ، فوصلنا إلى دار يزهر بياضُها ، ويهر إيمانُها ، قد ضربتُ عليها الحاسن أطنابُها ، وخلعتُ عليها الزخارف جُلجُلَها ، فسار بنا الخدم إلى حجرة في جانب الساحة ، أعدتُ للانتظار والاستراحة ، وإذا برجل جالس فيها يتمايل بين يقظان ووسنان ، فرأسه كُرَّةٌ والكُرَى صولجان ، فلما أحسَّ بقدومنا ودخلنا عليه ، انتبه يزيح النعاس بأصبعه عن عينيه ، فسمنا فسلم ، وهو يتشاءب ويتلعم ، فتخيلنا من ظاهر جملته ، وبذاذة هيئته ، أنه صانع من الصناعات ، أو تبعٌ من الأتباع ، ولكن ما لبث أن ظهر لنا من مخاطبته للغلام ، أنه ذو رحم في البيت وذو مقام ، ثم التفت إلينا يخاطبنا ويقول ، بعد أن ذهب الخادم مستأذناً في الدخول : « قَبِّحَ اللهُ الخدم ، فهم نقمة من النقم ، شرَّهم حاضر ، وخيرهم نادر ، والعناء بهم ليس له آخر ، فكم أغضبوا حليماً ، وآذوا كريماً ، وكم كسروا الصحيح ، وخلطوا الصريح ، وكم ارتكبوا جرماً وإثمًا ، وجاءوا إفسكا وظلماً ، وكم فتحو الأغلاق ، واختلسوا الأعلاق ، وكم أحدثوا الشقاق ، وأذهبوا الوفاق ، وكم فرقوا بين المرء وأهله ، وحالوا بين الفرع وأصله ، ولعنة الله عليهم في الدارين ، فقد ذقتُ منهم الأمرين ، وكادت تصل بنا أفعالهم الشنيعة ، إلى ما لا يُحمد من الجفاء والقطيعة ، وابنى حرسه الله ينظر ويُقضى ، ويتحمل منهم ما لا يُرضى ، وهم يتجنَّبون علينا ويتصرون ، وإذا أمرتهم بأمر لا يأترون ، ويشهد الله أنني كلما رأيت مال ابني في أيديهم يتبعثر ويتبدد ، وثقتُ بهم تتضاعف وتتجدد ، ذاب الفؤاد فسال من العيون ، مَشوباً بماء الشُّؤن^(١) وأما وكيل البيت ، وما أدراك

ما الوكيل ، فحسبنا الله ونعم الوكيل ، فتي لا تخطي في النفاق مخيلته ، ولا تطيش في البيت حيلته ، دأبه المكر والخداع ، وديدنه الشقاق والنزاع ، يُرضي طفلا ، ليسخط كهلا ، ويتملق للجارية في الحرم ، وللوصيف من بين الخدم . . . »

هذا وما زال الرجل يشكو ويتضجر ، ويتأفف ويتحسر ، فلم يُقذنا من هذه الشكوى التي تُصم الآذان ، إلا رجوع الغلام بجواب الاستئذان ، فأنهينا من شقشة لسانه ، وحمدنا الله على كرمه وإحسانه ، ثم اقتفينا أثر الغلام إلى حجرة بادية الرّواء ، مضيفة بالكهرباء ، مفروشة بأثمن فراش ، وأبدع رياش ، على اختلاف في الأجناس والأنواع ، وتباين في الأشكال والأوضاع ، فالتحفة الشرقية ، تقابلها الطرفة الغربية ، وآنية الذهب ، يضارعها آنية الخشب ، فوجدنا المجلس حافلا بأهل الولاية والقضاء ، من الرؤساء والوكلاء ، فأخذنا مجلسنا نستمع ما يدور من السمر ، ونجنى من أدهم ما يحلو من الثمر ، ودونك بعض ما اقتطفنا وجنيّنا ، وسمعنا ووعينا :

➤ (أحدهم) — نعم حبذا نصره حزب الجيش على بقية الأحزاب في فرنسا ، فإن في ذلك لو تعلمون تحرير رقبتنا وانقضاء محنتنا .

(ثانيهم) — ما أبعد ما ترمي ، وما أسرع ما تحكم ، فهلا نبأتنا ، لله أبوك ، كيف ترتيبك لهذه القضية ، واستقراؤك لهذه النتيجة ، وما نحن وخذلان الأحزاب الفرنسية ، ونصرة حزب الجيش عليها !

(الأول) — أراك لست بعويص الرأي في السياسة ، ولا ببعيد الغور في استخراج النتائج ، ألا تعلم ، لا زلت مسدّداً ، أن في انتصار حزب الجيش قلباً لهيئة الجمهورية ، ورجوعاً بفرنسا إلى الملكية والإمبراطورية ، أو القنصلية ، فتأيننا بمثل أولئك الملوك والقوّاد الذين دوّخوا الشرق والغرب ، وقهروا الممالك ، وأخضعوا الدول ، وأصبحت لهم الكلمة العليا على أهل البسيطة ، فلا يمانعهم في أغراضهم ممانع ، ولا يعارضهم في مطالبهم معارض ، وإنّي لأعلم علم اليقين ، ممن عاشرت من كبار الفرنسيين وصاحبت ، أنه لولا هذه الجمهورية لَمّا وصلنا نحن إلى هذه الحال .

(ثالثهم) — دعنا بالله من هذه الخيالات ، واطركنّا من هذا اللغو ، ومثلك لا يحق له الشكوى من هذه الحال ، فإنك متين العلاقة بالمستشار ، وما بينك وبين الوصول إلى المنصب الذى تمطّل إليه إلا قيد شهر ، وأنت مع ذلك فى غنى عن خدمة الحكومة بما لك من الغنى واليسر . ولكن ماذا تقول فى مَنْ هو فى حاجة دائمة إلى البقاء فى أسر الحكومة وذل الخدمة ، ولولا الاحتياج إلى المرتب والاضطرار إلى الرزق لَمَّا أَقَتُ فى الخدمة يوماً واحداً .

(رابعهم) — وأنا والله لا أنتظر إلا أن يتم لى نصف معاش ، فأهجر خدمة الحكومة ، وأنجو بنفسى من أسر الرق وذل العبودية ، ثم أعتد بعد ذلك على الاشتغال بالتجارة ، فهى أهناً عيشاً ، وأعظم ربحاً ، وأبعد بصاحبها عن مواقف الذل والهوان .

(خامسهم) — ما أسخف الرأى وأضعف الفكر ! وَمَنْ ينكر أن خدمة الحكومة على كل حال هى أعلى قدراً وأرفع شأنًا من بقية الحرف والصناعات؟ وكل أسباب المعاش لا تخلو فى هذه الدنيا من المتاعب والأكدار ، ولكن خدمة الحكومة أهونها حالا وأقلها عناء ، ولا يفضّل عليها الاشتغال بالتجارة إلا من كان قليل التبصر فى الأمور ، ويكفيك برهاناً على ما أقول أنك تستخدم التاجر وتسخره مادام درهمك فى يدك ، ولكن التاجر فى حاجة أبداً إلى أصغر موظف فى الحكومة ، وإن كان من أغنى الأغنياء ، ولوتراهم إذ يفتخرون بينهم بزيارة الكاتب ومجالسة معاون وتحمية القاضى ومخاطبة المدير لعلّت أن خدمة الحكومة بلغت فى أعينهم وأعين بقية الطبقات مبلغاً عظيماً من الشرف والرفعة ، بحيث لو خيّر أحدهم بين الخروج عن ماله وعقاره وتجارته وأطيانه ، وبين الدخول فى صف الموظفين بالحكومة ، لخرج من كل ذلك خروج السهم من قوسه ، والأرقم من جلده ، ولحكم بأن السعادة كل السعادة فيما تعدّه أنت شقاءً وبلاءً ، وتعتبره ذلاً وهواناً .

(سادسهم) — على رسلك أيها القاضى ، لا تمكس القضية ، ولا تقلب الحقيقة ، ولا تحمل ما تراه فى أخلاق أهل التجارة والصناعة والزراعة من الاستهانة بحرفتهم ، والاستعظام لأهل الحكومة ، على أن حرقهم خسيصة فى ذاتها ، بل ذلك حادث فيهم

من جهلهم وضعف إدراكهم ، وإلا فلو تخلى أحدهم عن طبقته ، ودخل في طبقتنا يوماً ، لأدرك في الحال ما كان فيه من نعمة الاستقلال في العمل ، والحرية في الرأي ، ولَعَلِمَ أن الموظف قد باع للحكومة حريته ، ووهب لها نفسه ، تنصرف فيها تصرف المالك في ملكه ، مقابل مقدار من المال يُعَدُّ لأجله ساعاتِ اليوم وأيام الشهر ، ويربحه الواحد من أولئك الجاهلين بأحوالنا في يوم واحد ، وهو أمير نفسه ، وسيد أهله ، وياليت آباءنا كانوا انتبهوا إلى تعليمنا الصنعة وتمريننا على التجارة ، ولكن بُئس ما صنعوا وبئس ما خلفونا له ، ولو أنهم كانوا أدركوا ما انتهت إليه حال الخدمة في الحكومة اليوم ، ولم يغتروا بما كان للحكام في الأزمان السالفة من الصوّل والطول ، والقوة والحول ، واكتساب المال من الجاه — ولو علموا أنه سيأتي زمان على هذه الحكومة التي كانوا في أيديها كالأيتام في يد الوصيّ يكون أرباب المناصب فيه كالأطفال في حجر المرضع — لعضوا الأنامل ندماً ، ولأرسلوا بدل الدمع دماً ، على ما فرطوا في أمرنا ، وأهملوا في شأننا .

(الخامس) — إنك لتتكلم بكلام العجائز اللاتي يقنعن من دهرهن بالخسيس من الملبس والمطعم . وأين أنت ، هداك الله ، من طلب المعالي ، وابتغاء المفاز ، وتشديد المجد ، وخدمة الوطن وارتقاء المناصب للقدرة على النفع والضرر ، وأين أنت من قول الشاعر الحكيم :
ولو أنَّ ما أسعى لأدنى معيشةٍ كفاًني ، ولم أطلب ، قليلٌ من المالِ
ولكنَّما أسعى لمجدٍ مؤثِّلٍ وقد يُدرك المجدَ المؤثِّلَ أمشالِي
وإلى الله المشتكى من زمن صغرت فيه النفوس ، وضعفت الهمم ، وماتت العزائم ، ورضى الناس فيه بالجمول والسكون ، وبالعيش الدون .

(السادس) — إني لأعجب منك أيها الفاضل كيف يغيب عنك الصواب إلى هذا الحد ، فترى أن في خدمة الحكومة سُوداً وعلاءً ومجداً وسناءً ، وما هي إلا الذل والشقاء والبلاء في أثر البلاء ، وأنا أفصل لك الحال تفصيلاً ، لتعلم أن بقاء أمثالك في خدمة الحكومة ، مع القدرة على التنجى عنها ، عجزٌ وضعفٌ ، وجهلٌ براحه الحياة وأى جهل فأقول : تنقسم الرغبة في خدمة الحكومة إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : الرغبة فيها للمال ، أعنى لسد العوز وكفاف العيش . وصاحبُ هذا القسم يكون في حال المضطر الذي حكمَ عليه الدهر باحتمال الهوان لضرورة الرزق ، فهو مثلى يغبط حال كل صانع وتاجر وزارع ، ويتمنى على الدوام أن يخرج من خدمة الحكومة إلى صف أهل الصناعات الحرة .

والقسم الثاني : الرغبة فيها للجاه ، أعنى عزة المنصب ، ونفوذ الكلمة ، ومضاء الحكم . وهو ميدان بعيد الشأو واسع الأطراف ، ليس اشوطه نهاية ، ولا حدوده غاية ، ولا بد فيه للجواد من كِبوة ، وللسيف من نبوة ، وطالما كان اعتلاء المناصب ، وارتقاء المراتب ، داعية للرزايا والمصائب ، ومجلبة للبلايا والنوائب .

والشرُّ يجلبُهُ العلاءُ وكَم شكا نَبأً على ما شَكَاهُ قَنَبَرُ^(١)

ولو سلمنا أن صاحب المنصب سَلِمَ من المعاطب ، ونجا من الخطوب ، فهو لا يزال طول حياته في همٍّ ونصب ، كلما ارتقى في المنصب درجة ، وجد فوقها درجة أخرى يحسد من يليها ويحقد على من يعقلها ، ولا يفتأ مستعظماً لما فوقه ، طامعاً فيه ، مستصغراً لما في يده ، راغباً عنه ، فهو في ذهول دائم عن التمتع بلذة الحياة التي يجري وراءها ، غير راضٍ عن نفسه ، ولا الناس عنه راضون ، وهذا هو منتهى الشقاء والبلاء ، وملتهق الكد والكدر ذلك الخائبُ الشقيُّ وإن كا نَ يُرى أَنَّهُ من السُّعَدَاءِ يُحسبُ الخطُّ كُلُّهُ في يديه وهو منه على مَدَى الجوزاء

وأخْلِقْ بمن كان همُّهُ أبداً التطلع إلى غير ما في يده أن يكون أنحس البرية حالا ، وأمضهم عيشاً ، ولذلك زهدا الراسخون في العلم من الفلاسفة والحكماء في اعتلاء المناصب ، ورغبوا عن اغتراب غاربها ، وحذروا العقلاء من السعي وراءها ، وشغل النفس بها ؛ هذا كله إذا كان المنصب عظيم الجاه ، نافذ الأمر ، وكان الوصول إليه من طريق الفضيلة والشرف ، والحصول عليه من باب الجدارة والاستحقاق ، فأما والطريق إلى المناصب كما نراه اليوم ، قاصرٌ على التوسل والتوسط ، وإهراق ماء الحياء ، والمنصب على ما تعلم لا أمر

(١) قنبر : هو مولى على بن أبي طالب رضى الله عنه .

فيه ولا نهى، ولا حل ولا عقد، فالفرارُ منه أجدرُ بطالب الجاه وأحرى، والتباعدُ عنه أشرفُ بذى الفضل وأسنى. والنزولُ عنه نعم المنصب العالى، لطلابِ المعالى؟
والقسم الثالث: الرغبةُ فى المنصب لشغل النفس دون سواه، دفعاً للسأم والملل، وتضييعاً لأوقات الحياة وساعات العمر فى الاشتغال بمحاجات الناس، والتلهى بها عن تهذيب النفس ولا يدخل فى هذا القسم إلا مَنْ كان فارغ الفؤاد خاوى الصدر، خالياً من كل أدب وفضل، مشغولَ الضمير بالسواس والهواجس، فأكرهُ شئاً لديه نفسه، وأثقلُ حمل عليه حياته، ولا بدُّ له من مشاغل متجددة، ومسائل متعددة، تشغله عن الخلوة بنفسه التى صارت عنده، إذا هو خلاً بها لحظةً، كأنها خلية من خلايا الزناير، أو وكر من وكور الأفاعى، وهيهات أن يبلغ المسكين غرضه يوماً، لأن مَنْ ضاقتْ عليه نفسه كان العالم عليه أضيق، ومن ثقلت عليه أخلاقه فالخليفة عليه أثقل.

والقسم الرابع: الرغبةُ فى خدمة الحكومة، لخدمة الوطن ونفع الأمة، وهذا مطلب عقيم النتيجة أيضاً، لأنه لا يتفق لنا الجمع بين المحافظة على البقاء فى المنصب وبين الاستقلال فى الرأى الذى تقتضيه مصلحة الوطن، ومن أراد أن يخدم وطنه، فليتنازل من قيود الحكومة، ويخدمه وهو مطلق اليدين واسع التصرف.

ولا تنسَ فوق هذا كله ما يعقب حلاوة الولاية من مرارة العزل، خصوصاً فى بلد ينسبون فيه إلى صاحب المنصب كل فضيلة، وينزعونها عنه إذا سقط منه، فالرجال عندنا بالمناصب لا المناصب بالرجال على عكس ما قد قيل:

إِنَّ الْأَمِيرَ هُوَ الَّذِي يُضْحَى أَمِيرًا يَوْمَ عَزَلِهِ

إِنْ زَالَ سُلْطَانُ الْوَلَايَةِ لَمْ يَزَلْ سُلْطَانُ فَضْلِهِ

فمن ذا الذى يقبل الدخول فى خدمة الحكومة وهو يجد عنها محيصاً إلا مَنْ أضلَّهُ الله على علم، ولذلك فإنى عاهدت نفسى أن أتخير لأولادى فى تعليمهم صناعة يتعيشون بها أحراراً، وتكون معهم أينما حلوا وساروا، لا يسلبها منهم ثقل السياسة، وتغير الحوادث، ولا يؤثر فيهم غضبُ زيدٍ أو رضى عمرو.

(سابعهم) — الله أنت ما أحلى بيا نك ، وأجلى برهانك ! وأنا معك في هذا الحكم ، وعلى هذا العزم .

(الثانى) — اتركوا هذه الخطب المكدرّة والأفكار الحزنة ، وخذوا بنا في حديث غير هذا يفرّج عنا ويروّح ، ولا تجمعوا علينا بين ذل النهار وهمّ الليل ، وهل لك يا فلان أن تقوم معى للمسابقة والرياضة بالسكليت ؟

(الأول) — الأحسن من هذا أن تأتونا بالفونوغراف نستمع إليه .

(ثامنهم) — أوقوموا بنا إلى عرس فلان ، فقد بلغنى أن فيه «بوفيهّا» لم يُسمع بمثله حسناً ووضعاً .

(الأول) — أنا معك .

(الثامن) — لكن على شرط أن تقيم معى هناك نستمع الغناء .

(الأول) — لست معك في هذا ، بل نخرج من البوفيه إلى الأزبكية لسماع الموسيقى الانجليزية أو الأوبرا التليانية .

(الرابع) — أنا لا أتوجه معكم لأننى ذاهب إلى « الكلوب » .

(السابع) — انتظروا قليلاً حتى نقرأ جرائد المساء .

(الخامس) — علىّ بالجرائد الفرنسية منها ، فهى أصحّ من العربية أخباراً وأغزر مادة .

(الثالث) — اقرءوا الجرائد العربية أولاً واحدة بعد أخرى أو بعضها مع بعض .

(الثانى) قارئاً — « آسيا في أوروبا وأمريكا في أفريقيا . »

(الرابع) — ماذا جرى لصوابك يا عزيزى ؟ إقلب الصحيفة الأولى ، فما لنا ولهذه

المقالات الافتتاحية ، وما لنا ولهذه الأفكار الصببانية ؟

(الثانى) قارئاً في الصحيفة الثانية — « الاسكندرية لمكاتبتنا » : « الأمة برجهاها ،

والمناصب بأربابها ، والمعارف هى التى تخرج لنا رجال المستقبل ، ومن أين لنا بالرجال إذا

كانت تبخل بالمال ، فالمستقبل حينئذ مظلّم ، والوطن آسف ، ولا نهضة للأمة إن لم تنهض

العواطف لإنشاء مدرسة كلية أو معارف أهلية ، وبخلاف ذلك كان ...

(الرابع) — حسبك أيها القارىء حسبك . أمّا قلنا لك لا تقرأ هذه المقالات المعلومه ؟
(السابع) — اترك « الاسكندرية » إلى غيرها .
(القارىء) — « الزقازيق لمكاتبنا » : يثنى العموم بلسان واحد على حضرة مأمور البندر
لاهتمامه بالكنس والرش . . .

(الثامن) — أنعم به وأكرم وأكثر الله من أمثاله في خدمة الوطن ، عليك
يا صاحبي بالحوادث الداخلية .

(القارىء) — « يسافر سعادة العضو الوطنى في السكة الحديدية إلى الإسكندرية في
هذا المساء . ويحضر سعادة مدير البوستة إلى العاصمة على اكسبريس الصباح

(الثامن) — اترك قراءة هذا « المانيفستو » أيضاً
(القارىء) — « سبقنا فذكرنا أن مجلس النظار بحث في الجبانات والآن نذكر
نص القرار . . .

(الثامن) — جعل الله اللجنة قراره ومثواه . فدعهُ وقرأ لنا سواء .
(القارىء) — « وصل سعادة المردار إلى أم درمان وقد بلغنا عن ثقة أن أهم
ما يشغل به الآن هو السؤال عن أحوال السودان » .
(الثامن) — سبحان الله ! كنت أظن أنه سيشتغل هناك بالسؤال عن أخبار اليابان
وحوادث اليونان .

(القارىء) — « يسم البوليس الكلاب الضارة
(الثامن) — نسأل الله السلامة والهداية للجميع .
(القارىء) — « كتب إلينا أحد أفاضل الأطباء بأنه اكتشف علاجاً يشفى من كل
داء مزمن ومرض عضال ، ويقول ، حفظه الله ، في آخر رسالته إنه من غرامه بصدق لهجة
جريدتنا صار لا يفارقها حتى ولا في منامه على فراشه . . .

(الثامن) — لا نزاع في هذه الكفاءة وسبحان الموفق .
(القارىء) — « رزى عظيم : قد فجع الإسلام وانهدم ركن الدين وأظلم الكون إذ

قصفت المنون غصن نقيب الأشراف بالدير الطويل عن ست وتسعين سنة قضاهما في عمل البر والإحسان ، فكان لنبا موتة أسف وحزن في قلوب أهل بلده خصوصاً والقطر المصرى عموماً .

٨٤ (الثامن) — لا حول ولا قوة إلا بالله . لا بد أن تكون أسعار البورصة هبطت لهذا النبا هبوطاً فاحشاً في القطر المصرى خصوصاً وفي الولايات المتحدة عموماً .

(القارىء) — « نفيد حضرات القراء أنه لا يزال التحقيق جارياً في قضية التزييف ولم يتم فيها شيء للآن ومتى تم نبادر إلى نشره إفادة لحضراتهم كما هي عادتنا في نشر الأخبار بأوقاتها » .

(الثامن) — أفادكم الله ونفعنا بهذه الأخبار .

(القارىء) — « فاتنا أن نذكر أن حضرة وكيل دائرة الهياتم كان في مقدمة المشيعين لجنازة المأسوف عليها «وردة جعلان» في الأسبوع الماضى . وكذلك فاتنا أن ننهي حضرة مكاتبنا الفاضل « بنزلة واكد » حيث رزقه الله بولادة مولود . جعله الله من أولاد السعادة » .

(الثامن) — جل من لا يغفل ولا ينسى . ولكن فاته أن يذكر أ كان ذكر أم أنى ..

(القارىء) — « لدغت عقرب ابنة في قسم الوايل » .

٨٥ (الثامن) — نعوذ بالله . هذا كله ناشئ من إهمال الحكومة في « الاحتياطات الصحية » ومن غفلة البوليس عن ضبط الوقائع الجفائية .

(القارىء) — للثامن — يكفيك يا حضرة القاضى من السخرية والاستهزاء ، واسمع لهذا النبا العظيم .

(الثامن) — سمعاً وطاعة .

(القارىء) — « بلغنا اليوم أن الحكومة تبحث الآن في مشروع فتح شارع المرور ، ونحن بلسان العموم وبالنيابة عن الأمة المصرية الأسيفة نحذرها من عواقب هذا المشروع

الوخيمة الذي يكون من ورائه رسوخ قدم الأجنبي في البلاد ، وسنشرح لحضرات القراء مضار هذا المشروع في مقالة افتتاحية . »

(الأول) — إن هذا الخبر لا يعلم به أحد سوى ، فكيف وصل إلى الجرائد ؟
(الثامن) — إنى لأخشى إن دام إفشاء الأسرار على هذه الحال أن يعمد أرباب الحل والعقد إلى استخدام الخرس في مجالس الحكومة رجوعاً إلى العادة القديمة في مجالس الوكلاء بالدولة العثمانية .

(الرابع) للثاني — اقرأ بقية الأخبار المحلية .
(الثاني) — لم يبق في الجرائد الثلاث إلا التلغرافات والإعلانات .
(الرابع) — أراك لم تقرأ إلا جريدة واحدة فما قولك « الجرائد الثلاث » ؟
(الثاني) — هي كما تعلم نسخة واحدة في الأخبار وإن كانت مختلفة في الأسماء .
(الرابع) — اقرأ لنا التلغرافات .

(الثاني) قارئاً — « ديروط الساعة ٨ والدقيقة ٣٧ — كان الاحتفال بتوديع حضرة الشسيط معاون بوليس المركز هائلاً وتليت الخطب وأنشدت القصائد والتفصيل بالبوستة . »

(الرابع) — ما هذه الصغائر ؟
(الثاني) — هي التلغرافات الخصوصية .
(الرابع) — علينا بالعمومية .

قال عيسى بن هشام : وما قرأ القارئ التلغرافات السياسية حتى استدار أهل المجلس حلقة يكثرون الغط في شرحها ، ويرجمون الظنون في تأويلها ، وما فيهم إلا من هو على خلاف لرأى صاحبه ، وإذا هم قد عادوا إلى مثل ما كانوا فيه وقت دخولنا عليهم . ولما وجدنا الجدال يحتمل بينهم اشتعالاً ، خرجنا من بينهم انسلالاً ، وتركناهم في سياستهم يتيهون ، وفي ضلالهم يعمهون .

العرس

قال عيسى بن هشام : ولما فرغنا من زيارة تلك الحافل المشهودة ، والجلال المعدودة ، قلت للبasha : قد آن أن نعود إلى ما كنا فيه من الانفراد والاعتزال ، ونبتعد عن مثل هذا الاختلاط والابتدال . فأجابني وهو يظهر التوقف ، ويبدى التأفف : « ما بالك تقطع على الطريق ، في البحث والتحقيق ؟ ومالك تحرمي السعى والاجتماع ، للاطلاع على العادات والطباع ؟ ولم تختار أن تقتصر على ما في الكتب والأوراق ، لمعرفة الآداب والأخلاق ؟ فنترك النظر للخبر ، واللمس للبس ، والممارسة للمقايضة ، وأئى الطبيب أدق صنعا ، وأكثر نفعا : الطبيب الذى يقتصر على الكتب في درس الأعضاء والأحشاء ، أم الطبيب الذى يدرسها في تشريح الجثث وهى تسيل بالدماء ؟ على أنه قد زال عني في هذه المدة ، ما كان يعترضني من الغضب والحدة ، وانقلب العسر من أمرى يسرا ، وغدا التقطيب بحمد الله بشرا ، وصرت لا أقابل عيوب الخلق ، بغير الحلم والرفق ، وتعلت أن أتخلم ، ولا أتألم وأتبصر ، ولا أتחסر . وأتدبر ، ولا أتضجر ، فأنا اليوم أنفكهم بمخالطتهم ، وأتروح بمباسطتهم ، فلم يبق لك من عذر وجيه ، ترتضيه بعد ذلك وترتجيه . » وما زال البasha يجرى على هذا النمط في الشرح والبيان ، ويأخذني بالبرهان في أثر البرهان ، حتى ملكني بسلطان حجته ، وأنزلني على حكم رغبته ، وكنت دعيت فيمن دعى من الناس ، إلى وليمة عرس من أكبر الأعراس ، فقلت له عندى اليوم حد الكفاية ، في بلوغ الغاية ، فهلم إلى الحفل الذى تحتشد فيه الحافل ، والمنهل الذى تتفرع عنه المناهل ، وسرت به منذ أرخى الظلام من سجوفه وأستاره ، وبدأ في الطور الأول من أطواره ، فما قرُبنا من قصدا حتى وجدنا الليل هناك نهرا يتألق ، وخمة الدجى جمة تتحرق ، فدخلنا ساحة كأنها مدينة ، تبرجت في يوم الزينة ، فوقفنا هنيئة في وسط المزدحم ، لانجد

موضعاً للقدم ، حتى أخذ بيدنا أحدُ المستقبِلين بالباب ، من ذوى العلامات فى الثياب ، فَدَسْنَا بين جماعة لم نعرف منهم أحداً ، ولم يحسنوا لتحيتنا رداً ، فجزيناهم على ذلك بغض الطرف ، وأقمنا بينهم لا نطق بحرف ، ثم أخذنا نتلمس بأعيننا صاحب الدار ، فلا نهتدى له على قرار ، كأنما صُنعت الوليمة فى غيبته ، وأقيم الاحتفال انتظاراً لأوبته ، أو أننا أخطأنا العرس إلى سواه ، واشتبه علينا مقره ومثواه ، فهممنا بالقيام والمسير ، لولا أن أشار لنا بالسلام مشير ، فتبيناه صديقاً لنا من الخُلصاء ، فى جمع من الفضلاء والأدباء ، فقصدناهم ، فأفسحوا لنا بينهم مكاناً رحباً ، وجلسنا معهم نجتنى ثمر الحديث يانعا ورطباً ، وعلمنا منهم أن رب الدار فى ذهل لا يدرك ما يذرُهُ وما يأتِيه ، وأن صاحب البيت لا يدري الليلة بالذى فيه ، وأنه لا تريب عليه ولا لوم ، فهو مشغول بتحية كبار القوم ممن لم يخالطهم قبل اليوم .

(الباشا) — وهل يدعو الناسُ إلى أعراسهم من لم يعرفوه أو يخالطوه من قبل ؟

(أحد الأصدقاء) — نعم يدعو الناسُ إلى أعراسهم كلَّ مَنْ عَلَا لَهُ صيتٌ واشتهر له اسم من الأمراء والكبراء والعلماء ، فمنهم من يجيب الدعوة ، ومنهم من لا يجيبها لعدم معرفته لصاحب العرس ، وبين الكبراء جماعة اشتهروا بأنهم لا ينجبون للداعى رجاء ، ولا يتخلفون مرة عن إجابة الدعوة ، حتى صاروا من عمدة الزينة وأساطين الأعراس .

(الباشا) — وما الغرض لصاحب العرس من هذا كله ؟

(الصديق) — الغرض منه أن يذاع بين الناس تشريف هؤلاء الكبراء والعلماء لبيته ، وأكثر الذين نراهم يقيمون ولأثم الأعراس ينفقون عليها جانباً عظيماً من ثروتهم لا غرض لهم منها سوى ذلك وحده ، وفيهم مَنْ وصل به حب الشهرة والفخفة أن أنفق فى إقامة العرس جميع ماله ثم بقى عليه من الدين ما أخلَّ بنظام معاشه ، وأعرف تاجراً من التجار أنفق الجانب الأعظم من رأس ماله فى إقامة عرس كبير ، ثم قسم دفاتر تجارته إلى شطرين : شطرٌ يحتوى على بيان ما بقى لديه من أصناف التجارة وأجناسها ، وشرط يتضمن أسماء من

حضر العرس من الأمراء والكبراء ، وقل ان تشتري منه صنفاً إلا ويذكرك لك منهم اسما
يقسم بحياته ورأسه أن الصنف جيد والتمن في جنبه هين .

(الباشا) — ما كنت أعهد أن الأعراس تكون على هذه الحال من استخدامها للشهرة
والصيت ، بل كنت أعهدا أنها تقام لانتناس صاحب العرس بأصحابه وأصدقائه ،
ومشاركتهم له في صفوه وهنائه ، ولإطعام المساكين ومساعدة الفقراء .

(الصديق) — ليس للفقراء اليوم ولا للمساكين نصيب في طعام الأعراس ، بل هو
من نصيب مثل هذا الوفد الخارج أملك وأضرابهم .

(الباشا) — إني أعرف من هؤلاء الخارجين ثلاثة أشخاص اجتمع بهم في مجلس للعلماء .

(الصديق) — نعم هذا الوفد كله من كبار العلماء وحلة الشريعة وأئمة الدين .

(الباشا) — ومالي أراهم يسرعون ويهرولون في خروجهم ، وما الذي وقع لهم حتى
يتركوا العرس منذ أول الليل ، وليت شعري ما الذي أزعجهم وأخرجهم ، أنزل بالدين
مكروه ؟ أحل بالإسلام خطب ؟ أحدث بين الناس حادثٌ بدعة يستدعى قيامهم للأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر ؟

(الصديق) — لم يحدث من كل ذلك شيء ، ولم يعرض لهم عارض ، وإنما هي عادة
لهم ألفوها في الولائم والمآدب ، إذا انتهوا من غسل أيديهم بعد تناول الطعام بادروا إلى
الخروج من العرس ، فتراهم عند قول أحد الظرفاء : « يدٌ في الكباب ، ورجلٌ في الركاب »
والذين يعتذرون لهم يقولون إنهم علماء عاملون بقوله تعالى : « فإذا طعمتم فانتشروا » ،
وإنهم يرون سماع الغناء مكروهاً في الدين ، فلا يجلسون في العرس بعد الطعام خشية أن
يبتدئ الغناء فيحل بهم المكروه .

(الباشا) — ومن هذا الشيخ المتخلف عنهم القادم علينا ؟

(الصديق) — هذا الشيخ المتخلف عالم من أفاضل العلماء ونهبائهم ، وهو قادم علينا
لجلوس معنا ، فإن فينا من يأتنس به ويصبو إلى مجالسته .

(الباشا) للشيخ بعد جلوسه — أرجوك أن تسأخني في فضول القول ، فلا صبر لي عن

الاستعلام والاستفهام ، خصوصاً إن كان في الأمر ما يخص الدين ، فقد قيل لى إن السبب في مغادرة وفد العلماء للعرس في عقب الطعام هو كراحتهم لحضور مجلس الغناء ، فهل لك أن ترشدنى إلى القول الأصح في هذا الباب ، وما الذى يجب أن يؤخذ به ، وكيف انفردت أنت عنهم بالبقاء والجلوس ، ورضيت سماع الغناء إن كان مكروهاً ؟

(الشيخ المتخلف) — الكلام في هذا الباب طويل ، وما أظن السبب الأعظم في المبادرة بالخروج إلّا طلب الجسم للراحة بعد الامتلاء .

(الباشا) — إنى أريد أن أهتدى بهديك في باب سماع الغناء وتقرير كراحتهم أو إباحته ، فلا تبخل علينا بفضلك وعلمك ، والوقت وقت مسامرة ، فإن أردت أن نقضى جانباً منه فيما ينفع ويفيد ، فقد أدّيت واجباً عليك في الدين ، وجعلتنا لك من الشاكرين .

(الشيخ المتخلف) — اعلم أن طرب الغناء أمر غريزى راسخ في طبيعة الحيوان ، ومن الحيوانات العجم وضواري الوحوش ما تسمع الغناء فتحنّ إليه وتسكن به ، فيُضعف من قسوتها ، ويكسر من حدتها ، وربما ذّلت به رقابها ، وأمكن قيادها ، وهذه الفيلة وهى من أكبر الحيوان أجساماً ، وأشدّها بطشاً ، إذا سمعت صوتاً مرناً أو كلاماً منعماً ، لم يلبث هذا الجسم العظيم أن يتمايل ترنحاً ويهتز طرباً — ولو كان في مواقف النيران — اهتزاز الحاماة المطوقة على فنن من الأفنان . وهذه الإبل المعروفة بأنها أغاظ الحيوان أكبداً تراها إذا برّاها السرى ، وأضناها التعب ، وأهلكها الظمأ ، فتغنى لها الحادى ، ذهلت في الحال عما أصابها ، وتعلت بالغناء ، عن مناهل الماء ، وهى على الخنس في ظمئها أو العشر^(١) ، ونشطت به تستعيد القوى لاستئناف السرى ، وطالما شاهد المشاهدون هوامّ الأرض ودوابّها تخرج من كهوف الجبال وبطون الرمال ، فتجتمع جيوشاً تتبع جيوش الحرب في مسيرها ، وقد ظهر لأحد الباحثين من علماء الطبيعة عن علة ذلك الاتباع أن صوت الموسيقى أمام الجيوش هو الجاذب لها والدافع بها للخروج من أوكارها وأحجارها للمسير خلف الجيش ؛ ومن الروايات العتيقة أن أحد الموسيقيين من الفلاسفة كان عند شاطئ

(١) الخنس والعشر : من أظاء الإبل .

بحر يبغي الشاطئ الآخر ولا يجد ما يحمله إليه ، فجلس يلهى نفسه بالغناء ؛ وإذ بدّلن (١)
قد شقّ أمواج البحر يتدنى من صاحب الصوت ، فلم يزل في تدنيه ، والفيلسوف في
تغنيّه ، حتى حاذى الشاطئ وسكن يستمع ، فأيقن الفيلسوف أنه استهواه بتأثير الغناء ،
وذللّه بقوة الطرب ، فامتطاهُ يسخره كيف شاء ، فوق عباب الماء ، كأنه مطية وجنّاء (٢)
تسير في عرض البیداء ، على توقيع الحذاء ؛ وحكاية إبراهيم بن المهدي في اقتياده الوحوش
الضارية بسحر غنائها مشهورة مذكورة .

هذا بعض ما يقال في تأثير الغناء في الحيوانات العجباء ، مع ضعف إدراكها ، وكثافة
إحساسها ونقص خلقها ، فما بالك بتأثيره في الإنسان ، وهو أسمى الحيوان رتبة ، وأكمله
خلقةً ، وأعظمه إدراكاً ، وأصفاه جوهرًا ، وألطفه روحًا ؟

والغناء ، في تعريف قوم من الفلاسفة ، فنٌ يُقصد به تحريك النفس بتنسيق الصوت
وتأليفه على طريقةٍ ترتاح لها الأذن ، فتهتزله نفوس أرباب المدارك العالية ، والأمزجة
الصفافية ، وهو القوة المساعدة لقوة النطق في التأثير في السامع ؛ وكان القدماء يعتبرونه لغةً
عامة لسائر الناس يفهمونها على اختلاف لغاتهم وألسنتهم ، وكان لابد لطالب الفلسفة عندهم
من الإحاطة بفن الموسيقى مع الرياضيات ، وقد عبّر عنه الحكميان الكبيران « فيثاغورس »
و « هرمز » أنه علم التنسيق لكل شيء ، ولذلك أطلقوا عليه لفظة « أرْمُونِيَا » ، ومعناها
النظم والتنسيق ومنه الترتيل ، وكلهم مجمعون على أن لا شيء في العالم يعادل تأثير الغناء في
تهيئة النفوس وتوطئة القلوب لقبول الفضائل والكمالات ، وعندهم أن الذي لا يتأثر منه لابد
أن يكون به نقص في الخلقة ؛ والغناء مغروس في طينة الإنسان منذ نشأ في حجر الطبيعة ،
ومنذ استهل في المسهد باكياً ، فلا يسكن إلّا به ، ولا يُبرّح عنه إلّا بتطريبه ، وفضلُ تأثير
الغناء في النفوس على تأثير الكلام ، كفضل الشعر البليغ في اخته على ترجمته كلاماً غير
موزون إلى لغة أخرى .

والوقائع كثيرة جمة في التاريخ ، تشهد بقوة تأثير الغناء ؛ منها أن أهل مدينة اسبرطة
كانوا في فتنة اشتدّ لهيها ، وعظم شرها ، فعمد جماعة من الموسيقيين إلى مكان الزعماء

(٢) الوجناء : الناقة الشديدة .

(١) الدلفين : دابة بحرية وهي المعروفة بالدرفيل .

القائمين بأمرها ، فما زالوا يغنونهم حتى طربوا ، فصفت أرواحهم ، ورقّت نفوسهم ، ولانت عريكتهم ، فانتهاوا من أنفسهم عن إشعال نار الثورة فخدمت ، وقام صياح الطرب ، مقام صياح الشعب ؛ ومنها أن أهل سويسرا كانوا ينزلون عن رؤوس الجبال للاحتشاد في الجند ، فاذا انعقد جمعهم أغرمى العدو بهم من يغنى فيهم بلحن لهم معروف يتغنى به الرعاة في قلال الجبال ، فيشتعل في نفوسهم لهبُ الوجد ، وتهيج فيهم نائرة الحنين ، وينزع بهم الشوق إلى منازلهم ، فيلقى أسلحتهم عن أيديهم ، ويذهب بهم على وجوههم ، وقد تكرّر وقوع ذلك فيهم ، حتى قرر رؤسائهم الحكم بالإعدام على كل من تغنى بينهم بذلك الغناء ؛ ومنها حكاية الحكيم أبي نصر الفارابي مع سيف الدولة بن حمدان ، إذ أضحك أهل مجلسه وأبكاكم ، ثم أنامهم وتركهم ؛ وقد كان خطباء الدولة الرومانية يتسابقون إلى تنسيق أصواتهم في الخطابة ، وتتبع النغم لتأثير القول في النفوس ، وربما استصحب بعضهم معه أحد الموسيقيين بآلة من آلات الطرب ، فيجعله بجانب المنبر ، حتى إذا وجدته خرج عن النغم أو شدّ نهبه بصوت الآلة ، فيرجع إلى الأصل ؛ ولسنا نجد بين الأمم أمة في بداوتها وحضارتها وماضيا وحاضرها إلا وعندها الغناء في الجيش آلة من آلات الحرب تعين على ممارسة الأحوال وتثير إلى منازلة الختوف . وكان القدماء منذ عهد داود عليه السلام يعتقدون أن الغناء يشفي من الأمراض والأسقام ، وكان « إيسمين » في مدينة « تيب » يزعم أنه يشفي من النساء^(١) بصوت الناي . وكان « هوميروس » و « جالينوس » و « بلوتارك » من بعدهما يؤكّدون أن الغناء يشفي من الطاعون ومن داء المفاصل ومن نهش الأفاعى . وقام اليوم جماعة من كبراء الأطباء في أوربا يقررون بعد كثرة التجارب أن الغناء دواء نافع لكثير من الأمراض ، وأطلقوا عليه لفظة « ملو ترابيا » ، يعنى العلاج بالطرب ، كما قرروا من قبل « الهيدرو ترابيا » ، وهى المعالجة بالماء ، « والاليكترو ترابيا » ، وهى المعالجة بالكهرباء . وقد جرب أطباء فرنسا تأثير الغناء في وظائف الأعضاء بآلة حاسبة ، فوجدوا أنه يزيد في دورة الدم ، وفي حركة التنفس ، سرعة مقبولة . وذهب بعضهم أن للأخشاب

(١) النساء : عرق من الورك إلى السكب .

التي تتخذ منها آلات الطرب تأثيراً آخر على المريض ، مثل اتخاذ الناي من خشب الكينا ، فان سماعه يشفي من الحمى . وبلغت العناية بهذا الفن في ألمانيا أنهم جعلوه درساً من الدروس الأساسية يبتدىء به التلامذة ابتداءهم بحروف الهجاء ، ويتقنون منه انتهاءهم من دروس الفلسفة .

وجامع القول في هذا الباب ، من جهة البحث والنظر ، أن الخالق جلت عظمته قد جعل من فضله ونعمته على الإنسان اسكلاً حاسة لذة ؛ فلذة النظر في تناسق المرئيات وترتيب أجزائها ، وذلك هو الجمال ؛ ولذة الذوق في ائتلاف الطعوم ، وذلك هو العذوبة ؛ ولذة الشم في لطف الرائحة ، وذلك هو الطيب ، ولذة اللمس في تناسب أجزاء الملموس ، وذلك هو النعومة ؛ ولذة السمع في اتساق الصوت وحركة توقيعه ، وذلك هو الغناء .

وأما القول فيه من جهة الدين ، فقلّ أن تجد ديناً من الأديان في أنحاء العالم إلاّ ويستعان فيه على العبادات بالترتيل والترنيم والتغنيم ، لما ينشأ عن ذلك من صفاء النفوس ، وانتعاش الأرواح ، للتجرد والاتصال بالعالم الرُّوحاني ، وما كان الدين الإسلاميّ ، وهو دين الأذان ، لينكر سماع الغناء ، ويحكم بكرهته ، وشأنه في فطرة الإنسان على ما بينته لك ، وناهيك بما ورد في الخبر الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع نسوة يتغنّين في وليمة عرسٍ ، فلم ينكر ذلك عليهنّ ، وقد استقبله عليه السلام نسوة من الأنصار ، عند مقدّمه من إحدى الغزوات ، بالدفوف والمزاهر ، وهنّ يتغنّين على الإيقاع بقولهن :

طلع البدرُ علينا من ثنيات الوداع
وجبّ الشكرُ علينا ما دعا لله داع

فلم ينكر ذلك عليهنّ أيضاً ، وهذا عمر بن الخطاب ، على المعروف من غلظته وشدته في الدين ، قد سمع الغناء فلم ينكره ولم يكرهه ، بل استعاد ومزح . روى عن أسلم مولاه قال : مرّ بي عمر رضى الله عنه وأنا وعاصم نغني فوقف وقال : أعيدا عليّ ، فأعدنا عليه وقلنا : أينما أحسنُ صنعةً يا أمير المؤمنين ؟ فقال : مثلكما كحماريّ العباديّ قيل له : أي حماريك شرّ ؟ قال : هذا ثم هذا ، فقلت له : أنا الأول من الحمارين ؟ قال : أنت الثاني منهما . وكان

عبد الله بن جعفر على قرابته من رسول الله وصُحبته له كثير الجلوس لسماع الغناء عظيم الاحتفال به .

وروى أن معاوية قال لعمر بن العاص : امض بنا إلى هذا الذي قد تشاغل بالهوى ، وسعى في هدم مَروءته ، حتى نعيم عليه فعلة ، يريد عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فدخل إليه وعنده من المغنين « سائب خاثر » ، وهو يلقي الغناء على جوار لعبد الله ، فأمر عبد الله بتنحية الجوارى لدخول معاوية ، وثبت سائب مكانه ، وتنحى عبد الله عن سريره لمعاوية ؛ فرفع معاوية عمراً فأجلسه إلى جانبه ، ثم قال لعبد الله : أعد ما كنت فيه ، فأمر بالكراسى فألقيت ، وأخرج الجوارى فتغنى سائب بقول قيس بن الخطيم :

ديارُ التي كادت ونحن على منى تحلّ بنا لولا نجاه الركائب
ومثلك قد أصببتُ ليست بكنة ولا جارة ولا حليلة صاحب

وردده الجوارى عليه ، فحرك معاوية يديه ، وتحرك في مجلسه ، ثم مدّ رجله فجعل يضرب بهما وجه السرير ، فقال له عمرو : اتّئد يا أمير المؤمنين ، فإن الذي جئت لتلجأه أحسن منك حالاً وأقلُّ حركة . فقال معاوية : اسكت لا أباك لك ، فإن كل كريم طروب . ودخل المغنون منزل سَكينة بنت الحسين سبط رسول الله ، فأذنت للناس إذناً عاماً ، فغصت الدار بهم ، وصعدوا فوق السطح ، وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا منها ، ثم إنهم سألوا « حنيناً » أن يغنيهم صوته الذي أوله : هلا بكيت على الشباب الناهب . فقال لهم : ابدءوا أنتم ، فقالوا : ما كنا لنتقدمك ولا نغنى قبلك حتى نسمع هذا الصوت . فغناهم إيّاه ، وكان من أحسن الناس صوتاً ، فازدحم الناس على السطح وكثروا ليسمعوه ، فسقط الرواق على مَنْ تحته ، فسلموا جميعاً وأخرجوا أصحاء ، ومات حنين تحت الهدم ، فقالت سَكينة عليها السلام : لقد كدّر علينا حنين سرورنا .

وذُكر الدلال المغنى عند عبد الله بن أبي عتيق بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم فقال إنه كان يحسن :

لَمَنْ رَبْعٌ بذات الجَيْشِ أُمسَى دَارِسًا خَلَقًا

ثم استقبل ابنُ أبي عتيق القبلةَ يصلي ، فلما كبرَ سلم ، ثم التفتَ إلى أصحابه فقال :
اللهم إنه كان يحسن خفيفه فأما ثقيله فلا — اللهُ أَكبر .

ولقيَ « ابنُ أُبَجر » عطاء بن أبي رباح ، وهو يطوف بالبیت الحرام ، فقال : اسمعُ
صوتًا للغريض ، فقال له « عطاء » : يا خبيث أفي هذا الموضع ؟ فقال ابنُ أُبَجر : وربَّ
هذه البنية لتسمعه خفيةً أو لأشيدَنَّ به ، فوقف له فتغنى :

عُوجِي عَلَيْنَا رَبَّةَ الْهَوْدَجِ إِنَّكَ إِنْ لَا تَفْعَلِي تَخْرُجِي
أَتَى أَتَيْتُ لِي يَمَانِيَّةً إِحْدَى بَنَى الْحَارِثِ مِنْ مَذْحِجِ
نَلَبْتُ حَوْلًا كَامِلًا كُلَّهُ لَا نَلْتَقِي إِلَّا عَلَى مَنَهِجِ
فِي الْحِجِ إِنْ حَبَّتْ ؛ وَمَاذَا مِنِّي وَأَهْلُهُ إِنْ هِيَ لَمْ تَحْجُجْ ؟
فقال له « عطاء » : الكثيرُ الطيبُ يا خبيثُ .

وَوَلِيَ قِضَاءَ مَكَّةِ الْأَوْقَصُ الْخَزْزَمِيُّ ، فَمَا رَأَى النَّاسُ مِثْلَهُ فِي عَفَافِهِ وَنُبُلِهِ ، فَإِنَّهُ لَنَائِمٌ
لَيْلَةً فِي جَنَاحٍ لَهُ إِذْ مَرَّ بِهِ سَكْرَانٌ يَتَغَنَّى بِصَوْتٍ لِلْغَرِيضِ ، فَأَشْرَفَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : يَا هَذَا
شَرِبْتَ حَرَامًا ، وَأَبْقَظْتَ نِيَامًا ، وَغَنَيْتَ خَطَأً ، خَذَهُ عَنِّي ، فَأُصْلَحْهُ لَهُ وَانصَرَفَ .
وَكَانَ لِأَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ جَارٌ بِالْكُوفَةِ يَغْنَى ، فَكَانَ إِذَا انصَرَفَ وَقَدْ سَكِرَ يَغْنَى فِي
غُرْفَتِهِ ، فَيَسْمَعُ أَبُو حَنِيفَةَ غَنَاءَهُ فَيَعْجَبُهُ ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَغْنَى :

أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَنَتَى أَضَاعُوا لِيَوْمَ كَرِيهَةٍ وَسِدَادِ ثَغْرِ
فَلَقِيَهُ الْعَسَسُ لَيْلَةً فَأَخَذُوهُ وَحُبِسَ ، فَفَقَدَ أَبُو حَنِيفَةَ صَوْتَهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، فَسَأَلَ عَنْهُ مِنْ
غَدٍ فَأَخْبَرَ ، فَدَعَا بِسَوَادِهِ وَطَوَّلَ يَلْتَهُ فَلَبَسَهُمَا ، وَرَكِبَ إِلَى عَيْسَى بْنِ مُوسَى ، فَقَالَ لَهُ : إِنْ
لِي جَارًا أَخَذَهُ عَسَسُكَ الْبَارِحَةَ فَحُبِسَ ، وَمَا عَلِمْتُ مِنْهُ إِلَّا خَيْرًا ؛ فَقَالَ عَيْسَى : سَلِمُوا إِلَى
أَبِي حَنِيفَةَ كُلِّ مَنْ أَخَذَهُ الْعَسَسُ الْبَارِحَةَ ، فَأُطْلِقُوا جَمِيعًا .

فَلَمَّا خَرَجَ الْفَتَى دَعَا بِهِ أَبُو حَنِيفَةَ وَقَالَ لَهُ سِرًّا : أَلَسْتَ كُنْتَ تَغْنَى كُلَّ لَيْلَةٍ :
أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَنَتَى أَضَاعُوا ؟ فَهَلْ أَضَعْنَاكَ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ وَلَكِنْ أَحْسَنْتَ وَتَكْرَمْتَ

أحسن الله جزاءك ، قال : فعُدْ إلى ما كنت تغنيّه ، فاني آنسُ به ، ولم أرَ به بأساً ،
قال : أفعلُ إن شاء الله .

هذا جملة ما يُذكر في طرب الغناء طوّلتُ فيه وأسهبته ، ليتبين لك منه القول الراجح ،
والوجه الصالح .

(الباشا) —

تعالى الله ما شاء وزاد الله إيماني

ما هذا الذي أراه من بحر العلم المتدقق والفكر المتعمق ؟ وما هذا الإبداع والتفنن في
أطراف المعقول والمنقول ؟ وما هذا التضلع في علوم الأولين والآخرين ؟ وما عهدت قبل
اليوم في العلماء من اجتمع له مثل ما اجتمع للشيخ من دقة النظر ، وصحة القياس ، وسعة
الاطلاع في تواريخ الأمم على اختلاف ألسنتها وأجناسها ، يتنقل في تقرير البرهان وشواهد
البيان تنقل النحل على جنى الأزهار ، فيخرج بنا من التاريخ اليوناني إلى الروماني
إلى الأوربي إلى الإسلامي فعجباله ! أعجبي ؟ وعربي ؟ وشرقي ؟ وغربي ؟ وكيف
انفردت أيها الشيخ عن بقية إخوانك المشايخ ، ولم تأخذ بنهجهم في طريقهم ، فتقف
عند حد العلوم الشرعية والأقوال الفقهية ، ثم خالفتهم إلى التوسع في العلوم الدنيوية
والمباحث العقلية ؟

(الشيخ المتخلف) — لم أخالفهم إلا لأن العلم حق شائع في بني الانسان ، ونور ساطع
يستضيء به جميع الأنام ، فلا يختص به أهل إقليم دون إقليم ، ولا أهل ملة دون ملة ،
ولا يقف الانسان منه عند حد ، ومن طلب العلم وارتاحت له نفسه ، لم يمنعه تخالف
اللغات ، وتفرق الأجناس عن اجتناء ثمره من أي لسان كان ، وفي أية أمة كانت ، وفي
أي عصر من العصور ، وما في الأديان دين يبعث أهله ، ويحض بنيه على طلب العلم والتقاطير
الحكمة بأي وجه من الوجوه ، مثل الدين الاسلامي ، ولكن قد فشا في علمائه داء
الكسل ، فاقصروا في طلبهم للعلم على نيل رتبة العلماء دون العلم في ذاته ، واعتقدوا أنهم
على الهدى ومن سواهم في ضلال .

(الباشا) — قل ما شئت في كسل علماء الدين الاسلامي، وسوء تراخيهم، واشتغالهم عن العلم لا بالعلم، ولقد بلوت مجلساً من مجالسهم ضاق منه صدرى، وعيل صبرى، ولا أزال كلما تذكرته جأش بي الهم والغم، وتملكنى الأسف والحزن، وأراك أيها الشيخ الفاضل أحسنت كل الإحسان بتوسعك في الاطلاع، وتبحرك في طلب العلم، وتملكتك بأسباب العلوم الأوروبية، ولكنى مع ذلك لا أنغى لجميع علماء الدين مثل ما أنت فيه، خشية أن تلهيهم هذه العلوم عن علوم الشرع، وتستدرجهم إلى الخلط والخطأ، وقل في الناس من يحكم نفسه للتوسط في الأمور، والاعتدال في المطالب، والوقوف عند الحد. ولست أدري إلى اليوم، يعلم الله، أى العالمين أضل سبيلاً وأسوأ مصيراً: العالم الذى يتخبط في ظلمات الخرافات، ويضرب في تيه الترهات، ويغوص في لجج الأباطيل بلباس الدين؛ أم العالم الذى يؤغل في علوم الأوربيين، ويأتهم بسنة الخالفين للدين، ويغتر بتمويه المومنين، فيضله الله على علم.

(الصديق) — ليس هذا وقت الجدل في تلك المباحث الدقيقة، والتفتوا بنا إلى سماع الغناء قليلاً، فقد احتشد له المغنون.

(الباشا) ملتفتاً — نعم أصبت، وهل لك أن توفق لى بين حالة المغنين التى أراهم عليها الآن فى احتشادهم على منصة الغناء، وبين ما سمعته أنفاً عن هذا الفن من الجلال والكمال، فانظر إليهم تجد أحدهم يمزج ويقهقه، والآخر يتشاءب ويتمطى، وهذا يبصق يميناً ويمخط شمالاً، وذاك يصيح بأعلى صوته: القهوة القهوة، وتأمل فى هذا الواف منهنم فوق المنصة على رجلٍ واحدة ويده الرجل الأخرى يخلع منها نعله فى وجوه الحاضرين، وأين ما ينبغى أن يكون عليه المغنى من سكون النفس، واجتماع الخاطر، وانشراح الصدر، وصفاء الروح، لحسن تأدية الغناء، واستهواء النفوس إليه؟

(الصديق) — لا تؤاخذهم بما هم فيه، فإنهم نشأوا فى أمة يرى السواد الأعظم فيها أن صناعة الغناء من سافل الصناعات، وأن فى ممارستها حطة وتقصاً، فصغرت لذلك نفوس المغنين، وهانت عليهم صناعتهم، ولم يروا فيها سوى أداة للكسب والارتزاق على مثال

بقية الصناعات ، فهم والحدّادون أو هم والبناءون سواء بسواء ، وذهلوا كل الذهول عن جمال الصنعة وجلالها ، وغفلوا كل الغفلة عن لذة الفن وأدبه ، وصاروا يؤدونه كما يتفق لا كما ينبغي ، وكما يجب . لا كما يرضى ، ولا يغيب عن فطنتك أنه لا بدّ المغنى من أن يثق في نفسه بتأثير غنائه في نفوس السامعين ، حتى تثور فيه نشوة الطرب ، ويتبادل معهم لطف الانفعال ، فتتصل القلوب ، وتتجاذب الأرواح ، وتصعد به نفسه في مراقى الفن ، وتسمو به في صناعته إلى مدارج السكال ، وإلا كان المغنى إذا غنى في غفلة السامع واشتغاله عنه كمن يقرأ للنائم كتاباً أو يسرج للأعمى سراجاً ، فيحلّ به من التواني والفتور ، ويعتريه من الانقباض والضيق ما يذهب برونق الصنعة ، ويمحو بهجة الفن ، وإنك لتتحقق صدق ما أقول إذا نظرت معى نظرة إلى هيئة السامعين في هذا المكان ، فعن يمينك جماعة من الأعيان والتجار تراهم مشغولين بمراقبة كل داخل وخارج عساهم يحظون بإشارة تحية أو إيماء تعطف ، فهم لا ينفكون طول ليلهم في قيام وسلام ، للترانف إلى الكبراء والحكام ، وحديثهم لا ينقطع عن التفاخر بمعرفتهم والتباهى بأقدارهم ، وعن شمالك خليط من القضاة والحامين لا ينتهون أبداً من المناقشة في صنوف الدعاوى والقضايا ، ولا يستريحون لحظة من تفسير المواد وشرح البنود واستنتاج الأحكام ، ولا يترك المحامون القضاة إلا بعد أن يحتالوا على استنفاد ما عندهم من الأفكار والآراء في الوقائع المختلفة والمسائل المشتبهة ، لينتفعوا بها ويستندوا عليها في مرافعتهم أمامهم ويتأكدوا بها ربح ما لديهم من المشا كل والدعاوى ، ومن قدّامك طائفة من الأمراء والحكام لا همّ لهم إلا أن يجتلبوا توقيع الحاضرين واحترامهم بالتأنق في الجلوس والتكلف في الشمائل والانتفاخ في الثياب والقتل في الشوارب ، أجسامهم حاضرة ، وقلوبهم غائبة ، وأبصارهم شاخصة ، وألبابهم ذاهلة على هيئة التماثيل والأصنام ، فأسألوهم إن كانوا ينطقون ، ولئن نطقوا بكلام فإنما يدور على أن اليوم كان شديد الحر ، وأن أوان الرحيل عن مصر قد حل ؛ ومن خلفك ثلة من الأحداث ، لم تهذبهم الأحداث ، وشبان لم يربّهم الزمان ، مرمى الغاية عندهم أن تكون ملابسهم على الزي الجديد ، وأن تفرغ أجسادهم منها في قالب من حديد ،

فهم لا يتحركون حركة إلا بألف حساب ، خشية أن ينفط نظام الثياب ، فإن قعدوا فكل القاعدين للمصوّر في حفظ الأشكال والأوضاع ، وإن هم وقفوا فكل المصلوبين على الأجذاع ، ولئن تجاوز حديثهم حديث الملابس والأزياء ، اشتغلت ألسنتهم بذكر النساء ، ورووا عن زوج فلان أو بنت فلان ، ما تنقبض منه النفوس وتتشعر الأبدان ، ولم يبق غير هؤلاء من طبقات الحاضرين من يلتفت إلى سماع الغناء ويتفرغ له إلا طبقة الغوغاء من الخدم وغيرهم ، فكيف يتيسر للمغنيين في هذا المقام أن يتقنوا في عملهم ، أو يتقنوا في صناعتهم ، أو يحافظوا على أدب المجلس ، ويراعوا حرمة الفن ؟

قال عيسى بن هشام : وانقطع الحديث بمرور صاحب العرس أمامنا مرّ السحاب ، فانقضّ على الواقفين عند الباب ، كأنه بارقة شهاب ، أو نازلة عذاب ، يدفع بيديه عن الشمال وعن اليمين ، في صدور القاعدين والقائمين ، لا يشك من رآه أنه أسيرٌ حلّ عنه الوثاق ، أو عبد من العبيد يطالب الإباق .

فالتفت الباشا يسأل الصديق : أجدار هوى في البيت أم حريق !
(الصديق) — لا هذا ولا ذاك ، وإنما جاء الخبر لصاحب البيت بقدم جماعة من رجال الإفرنج ونسائهم .

(الباشا) — أتراهم يريدون إقامة ألعاب إفرنجية مع الأغاني العربية ؟
(الصديق) — ولا هذا أيضاً ، بل هم قوم من السائحين الأوربيين في البلاد الشرقية يتشوفون في مطالعتهم الآثار المصرية إلى رؤية المحافل والأسواق ، فإذا سمعوا بحفلة عرس هرعوا إليها بنسائهم وأولادهم لتسلية الخاطر بدرس العادات والأخلاق .
(الباشا) — قد تبين لي آنفاً أن صاحب العرس من أهل الصعيد ، فأية صلة بينه وبين سباح الإفرنج تدعوه إلى دعوتهم في عرسه ؟ أم من عاداتهم أن يهجموا على بيوت الناس بغير دعوة ولا استئذان كالطفيليين .

(الصديق) — هم من المدعويين لا من المتطفلين ، ولا يلزم لدعوتهم أن يكون لصاحب العرس أدنى صلة بهم ، أو أن يعرف أشخاصهم ، ويفقه أسانهم ، ولكن حضورهم في حفلة

العرس أمر مرغوب فيه عند صاحبه ، ينشرح به صدره ، ويزهو به عنده قدره ، و يراه فخرًا له يعلو به ذكره ، ومجدًا للبيت يرتفع به عماده . وهو في دعوتهم بالخيار إما أن يرسل إلى بعض تراجة الفنادق فيعطيههم عددًا من تذكار الدعوة بغير أسماء معينة ليوزعها على من يكونون في خدمتهم من السياح ، فيبيعها التراجة إليهم بقيمة معلومة من الدراهم كأنها تذكار للملاهي العامة ، ويعتقد الأجانب أن تلك عادة من عادات الشرقيين أن يدخل الناس إلى أعراسهم بأثمان معينة ، وإما أن يترقى صاحب العرس ، فيخاطب أصحاب الفنادق الكبيرة بأن لديه حفلة عرس في الليلة الفلانية ، ويرغب أن يحضرها كذا عددًا من السياح ، فيتخفف صاحب الفندق نزلاءه فيما يتحفهم به بالدعوة إلى العرس ، فإذا شرفوا صاحب العرس بحضورهم ، هرع إلى حسن استقبالهم ، وبالغ في التلطف والترحيب بهم ، وأنزلهم فوق منازل الأمراء والكبراء ، ونسى كل من في العرس سواهم ، وتفرغ طول ليلته لخدمتهم ، كما تراه من صاحب هذا العرس . وانظر إليه كيف يتبعه عجبًا ، ويشمخ كبرًا ، وهو يتقدم نساءهم ليدخل بهن إلى بيت الحرم لمشاهدة زفاف العروسين بعد أن أجلس رجالهن على رؤوس العطاء والأمراء في صدر المكان .

(الباشا) — وما هذا الذي أراه في أيدي النساء يحملنه معهن كأنه الأسفاط^(١) فيها الحلي لهدية العروس ، فهل بلغ بهن الكرم إلى تكليف أنفسهن تقديم الهدايا لعروس لا يعرفنها ولا يعرفن أهلها من قبل ؟

(الصدیق) — هذه آلات الرسم والتصوير يحملنها ليأخذن بها مناظر الحرم وصور النساء في زينتهن وتبرجهن وما تكون عليه هيئة الزفاف ، ليتهادين بها إذا رجعن إلى ديارهن ، وربما نسخت منها ألوف النسخ ، لتباع في الأسواق الأوربية ، وتنتشر هناك للاستهزاء والسخرية .

قال عيسى بن هشام : ومنذ عاد صاحب العرس من تشيع السائحات إلى الحرم ، كالصاعدات إلى الهرم ، تقدم إلى صدر المكان ، ونظر في الوجوه بامعان ، ثم دنا من

(١) الأسفاط : جمع سفت ، وهو الوعاء .

طائفة الكبراء والأمرء ، وقصد الأمير المقدّم فيهم بلا مرء ، فوقف أمامه وقفة الإجلال والإعظام ، ودعاه لافتتاح قاعة الشرب والطعام ، فقام الأمير يمشى أمام الصفوف في خيلائه ، مشية القائد يوم بلائه ، وفتح له الباب ففتح المائدة ، ولا فتح سعدٍ للقادسية ، والمعتمصم لعمورية ، ومحمد للقسطنطينية ، نعم ولا فتح جدّه الأعلى للأقطار الحجازية ، ودخلت في أثره صفوف الجوع ، وهم في سكون وخشوع ، دخول الثقة للصلاة ، والعفة للصلات ، ثم ما لبثوا أن هجموا على المائدة هجوم الفوارس البواسل ، على الحصون والمعقل ؛ لابل هجوم الأسود الضارية ، على الأشلاء الدامية ، والذئاب الخاوية ، على الشياه الراعية ، والنسور ، على القبور ، والذباب ، على الشرب ، واشتدّ الزحام ، وزلت الأقدام ، وضلت المذاهب ، واصطكت المناكب ، وشخصت الأحداق ، وامتدت الأعناق ، وتهذلت الشفاه ، وتحلبت الأفواه ، وتحركت الأشداق ، وتقارعت الأطباق ، وتصاولت الأيدي بالمُدَى ، كالطَّبْي في الوغى ، والتفت الساق بالساق ، واشتدّ الهول وضاق الخناق ، ثم انجلت المعمة عن شهداء التخم ، وأسراء البشم ، وقتلى الطعام ، وصرعى اللدام :

بأجسامٍ يحرق^(١) القتل فيها وما أقرّأها إلا الطعام

ولعبت الكؤوس بالرؤوس ، والشمول^(٢) بالعقول ، والراح بالأرواح ، وذهبت العقار^(٣) بالوقار ، والبطنة بالفطنة ، فاختلط الحابل بالنابل ، والعالى بالسافل ، والرفيع بالوضع ، والأمير بالحقير ، هذا يمزح ويقهقه ، وذاك يتمم ويتهته ، والآخر يبقى طعاماً ، وسواه يبقى كلاماً ، ولم نسمع بينهم من قول يفهم ويعقل ، أو حديث يؤثر وينقل إلا ما سمعناه يدور بين شاب متكلف متصنع ، وكل مجرب متضلع :

(الكهل) — أليس من أسوأ الأسواء ، وشر البلاء ، ما نراه من حال هذا الصعيدي صاحب العرس ، كيف اعتزل سنة آبائه وأجداده ، وانسأخ عن مألوف العادة في قومه ودياره ، وطفر طفرة واحدة إلى العمل بعادات الغربيين ، والتقليد لبِدَع الافرنج ، فجَرى

في الاحتفال بالعرس على نمطهم وأسلوبهم مع جهله بها ، وعدم ملاءمتها لطبيعته ، وكيف لا يُرْتَى لحال هذا المسكين ، وقد أنفق جانباً عظيماً من أمواله لإقامة المهرجان على هذا الطراز الغريب عن ذوقه ، فهو في حيرة وذ هول ، لا يدري ما يصنع ، ولا يعلم ما يفعل ، في وسط هذه السوق القائمة والزحام الهائل ، وانظرْ إلى مقدار السخط النازل فوقه والاعتراض المصوب عليه من أكثر الذين دعاهم ليرضيهم بعمله ويكرمهم بحسن صنعه بعد أن تكلف لهم ما يفوق الطاقة ، وارْتَكَبَ ما يخالف العادة ، ثم اشهد معي بأنه أساء إلى نفسه وَجَنَى على أهله .

(الشاب) — ما أراه إلا أنه أحسنَ صنْعاً ، وأجاد عملاً ، وأخذَ بالسنن الأرشد في التحلى بشعار المدنية ، والتعلق بالحضارة ، وقد آن أن يستوى أهل الأرياف بأهل المدن في السير على النهج الغربي ، لهواً كان ذلك أو جدّاً ، وأن يخلعوا عن رقابهم أغلال العادات العتيقة ، وربة الأفكار القديمة ، فترتفع الأمة ، وتنتفع البلاد .

(الكهل) أى نفع يُرتجى لأهل البلاد بخراب البيوت ودمار الدُّور ، واثن امتد الزمن قليلاً على عمد الأرياف وأعيانها ، وهم يرسلون بأبنائهم إلى البلاد الأوربية ، ثم يهجرون مساكنهم ومساكن آبائهم ، ويتركون مزارعهم ومرافقهم ومساكنهم ليسكنوا معهم عاصمة البلاد بعد عودتهم ، ويتخلقوا بأخلاق الغربيين ، ويتبرأوا من كل ما كانوا فيه من قديم وعتيق ، لم تلبث الأموال أن تذهب ضياعاً والدور أن تسمى خراباً ، وأن تصبح المزارع بأيدي الأجانب الذين يقلدونهم في امتلاك الأطميان وزراعة الأراضي ، كما يقلدونهم في باطل المدنية وزخرف معيشتها .

(الشاب) — أظنك كنت تريد أن يقام الاحتفال بزواج هذا الشاب المتمدين بين الأحواض والمستنقعات في قرية أبيه ، وبين الأوباش والهمج من فلاحيه ومزارعيه ، فيبدل الخيام بالمقاصير ، والمشاعل بالكهرباء ، والسماط « باليوفيه » ، والقصاع بالصحاف ، والجرار بالأباريق ، والدفين « بالدينند » ، والعصيد « بالماليونيز » والفول بالهليون ، والحلبة بعش الغراب ، والمش « بالموستاردا » ، والرطب بالمرجى ، والدُّوم « بالمانجو » ، والجميز

« بالكريز » والمزهر « بالشمبانيا » ، والحليب « بالكاب » ، وعرق البلح « بالكنياك »
والمزمار بالموسيقا ، والأذكار بالأوتار ، والأرغول « بالبيانو » والرباب « بالأوركستر »
والسحجة « بالبلو » ، ويدت أم شنب « بمس أوستن » ولعب الهوارة بموكب الزفاف ،
ثم يدعو مشايخ العربان بدل القناصل العظام ، ونظار الزراعة بدل نظار الحكومة ، وكتبة
المراكز والصياف ، بدل أمراء البورصة والمصارف ، ويضع على رؤوسهم سعف النخيل
والعراجين ، بدل أكاليل الأزهار والرياحين . . .

(الكهل) — يكفيك فقد أسهبت في الشرح والوصف . وأنا أقول لك : نعم يعجبني
أن يكون الأمر على مثل ما تسخر منه ، ما دام من عاقبته عمران البيوت ، وحفظ الأموال
وبقاء الأحساب ، وإطعام المساكين ، وبر الأقارب ، وإسداء الخير للأصحاب والجيران ،
وإدخال السرور على النفوس بما يرضيها ويلبث أذواقها ، بهذا ينتفع أهل البلاد ، ويرضى
الناس بعضهم عن بعض ، ولا أرضى أبداً أن ينقلب الحال كما أراه ، ما دام من ورائه
عواقب الخراب ، وسخط الناس ، وعقوق الأهل ، ولصوق العار ، ووقوع الفضيحة ،
وسوء المصير ، ومن الذي يعارض فيما أقول من أهل العقول الصائبة ، وهو يرى هذا الرجل
العريق النسب في أهل الصعيد ، أهل الشهامة والحمية وذوى الغيرة والأنفة ، ومن حوله
الخصيان على ما شاهدته الآن يطالبونه أن يأمر الخدم بحمل صناديق الخمر لشرب النساء في الحرم
وهو يعرف حكاية الأعرابي الذي سقوه الخمر في أحد الأعراس ، ولم يكن ذاقها من قبل ،
فلما ثارت سورتها قال لمن حوله من أهل البيت : « إن كان نساؤكم يشربنها فقد زنين
ورب الكعبة » ، ولست أدري على كل حال ما الغرض الدافع لصاحب هذا العرس إلى
احتمال كل هذه الفضائح والمعايب ، فإن كان غرضه إرضاء أهل العاصمة بإنفاق تلك الأموال
الطائلة في إقامة الاحتفال ، فقد أغضبهم وأسخطهم جميعاً على ما سمعته ونراه ، وليس فيهم
إلا كل منتقد لعمله ، معترض على فعله ، ويرميه بعضهم بالتبذير ، ويرميه بعضهم بالتقصير ؛
وإن كان الغرض من هذا التوسع في الانفاق إذاعة الشهرة بعظم الثروة والغنى بين الناس
وانتشار ذكره بالكرم والجود ، فلهذه الشهرة وجوه أخرى تفيده وتفيد الناس ، ولا بتناء

الحامد سبل شتى ترضى النفوس ونسر القلوب ، ولو كان اقتصر في إقامة الولية على نصف ما أنفقه فيها ، وبذل النصف الآخر في باب من أبواب البر والإحسان ، مثل مساعدة الفقراء وإنشاء الملاجىء وإقامة المستشفيات ، وإعانة ذوى الصناعات ، لخلد ذكره بين قومه بالعمل الصالح ، ولأقاموا لمجده صروحاً من طيب الأحذوثه وجميل الثناء .

قال عيسى بن هشام : وما نشعر إلا وقد انقطع علينا سماع بقية الحديث بصياح جماعة من خدم المائدة يدعون المدعويين للخروج من القاعة حيث لم يبق على المائدة من طعام ولا شراب ، ويعودونهم بالعودة إليها بعد غسل الآنية وتجديد الألوان . فلم يسمع لهم أحد ، ولم يلتفت إلى صياحهم ، فأخذوا في التصفيق بالأكف ، تنفيراً لهم كتصفير الدجاج ، فلم ينتقلوا ولم يتحركوا ، فعمد الخدم إلى آخر حيلة يضطرونهم بها للخروج ، فأطفأوا الأضواء ، وتركهم يتخبطون في الظلمات ، ويتساندون على الحدران يطلبون الأبواب ، فسبقناهم إلى الخروج ، والتقينا في خروجنا عند الباب بصاحبين يتنازعان في هذه الحال ، ويتخصمان في شدة السكر ، فلطم أحدهما صاحبه فسقط على الأرض يتخبط في قيئه . وينشد هذه الأبيات في هذره وهزئه :

شربتُ الخمر حتى قال صحبي : ألسنٌ عن السماءِ بمُسْتَفِيقٍ ؟
وحتى ما أوسد في مبيتٍ أنامُ به سوى التربِ السَّحِيقِ
وحتى أغلق « البوفيه » دوني وآنسْتُ الهوانَ من الصديقِ
وسمعنا الآخر ينشد وهو ينتفخ تيهاً وعجباً ، ويصرّ خذّه صلفاً وكبراً :

شربتُ الخمر حتى خلتُ أُنَى أبو قابوس أو عبدُ المَدانِ

وسمعنا في الخارج عزف الموسيقىات تقدم العروس لزفافه عند دخوله الحرم ، فسكت الغنّون ، وضج المكان ، واضطرب الحاضرون ، ووقف الجالسون ، وصعد بعضهم فوق الكراسى يتناولون لمشاهدة العروس وهو في زمرة من إخوانه وأترابه يخطر بينهم ويرفل ، حتى إذا توسطوا ساحة الدار وقفوا به وقفةً ، فقام أحد الحاضرين فصعد على منصة الغنّين صعود الخطيب على المنبر ، فشخصت نحوه الأبصار ، ومالت إليه الأسماع ، وإذا هو يخطب

بخطبة هذه نسختها : « أيها الحاضرون والغائبون ، هذه ليلة قامت فيها أعواد السرور ، على منابر الحبور ، وأشرقت فيها أهلة المسرة والبدور ، من سماء القلوب وأرض الصدور ، وطلعت فيها كواكب السعود من أفق العيون ، فانبجست عن بصائرنا غمام الأحزان ووبل الشجون ، ولو أنى لست من فرسان هذا الميدان ، الراكبين لحيازة قصب الرهان ، ولا من المجردين لسيوف الخطب وخطب السيوف ، بحروف الرماح ورماح الحروف ، ولا من الممتطين في شروح البلاغة متون الضوامر ، ولا من السابحين في بحور النظم والنثر على كل كامل ووافر ، ولا من الساحبين في حلة سحبان ، ولا من المتدربين في حصون المعاني والبيان ، وقد حيل بين العير والنزوان ، إلا أن ما أعرفه في هذا العروس من العلم والإقدام ، وما له في مستعمرات التربة من وطأة الاحتلال ورسوخ الأقدام ، وما أعتقد فيه من محبة الأوطان ومصادقة الإخوان ، كما أن ما أعلمه وأتحققه في العروس ، التي تزف إليه هذه الليلة ، من علمها بتدبير المنزل وفروض العيلة ، وما هو مشهور عنها لدى كل قاص ودان ، مما يوجب حسن القبول والامتنان ، وما شهد لها به معلمو المسكاتب ومدرسو المدارس ، بأنها أنس المحافل وبهجة المجالس ، وما أراه على وجوه الحاضرين من الكرم والسماح ، وأنوسمه في جباههم من الفرح والانشراح ، كل ذلك هو الذي جرأني على الوقوف في هذا الموقف الحرج ، وسط بحر هذا العرس المتموج ، وإني أتوجه إليكم بوجهي لتضربوا عن تقصيري صفحاً ، وأتقدم لكم بنفسى لتطووا عن هفواتها كشحاً ، وأطلب منكم أن تشرّبوا معي نخب الكؤوس ، في نخب العروس ، وتقولوا معي فليحي هذا الشاب في هناء وسرور ، ورخاء وحبور ، ممتعاً بنشأة الرفاء والبنين ، وناشئة الأولاد الناجحين ، ما ناه التمرى في رياض البساتين ، وصاح الأخدرى^(١) بين الأعشاب ، آمين آمين . »

ثم نزل الخطيب ، فقلبته الأكَف بالتصفيق ، والأفواه بالتهايل ، والصدور بالتبجيل وصدحت له الموسيقى ثلاثاً بالسلام . ثم أعقبه على المنبر شاعر من المشهورين بين الخاص والعام ، فأنشد هذه القصيدة النادرة والمدحة الباهرة :

(١) الأخدرى : حمار الوحش .

بأوقات الهناء الصافيات تجلَّى الأنس من كل الجهات
 لقد قام البشير بها ينادى على أهل العروسين الهداة
 وفي تلك الصدور الفرح يجري كما تجري خيول الصافنات
 فبشرى أيها الشهم المفدى بخير الغانيات الآنسات
 ظفرت بدرّة في عقد ماسٍ من المتأربات الراقيات
 وقد زفوا بهذا الأفق بدرّاً إلى شمس الهدى والمكرمات
 تغذت بالمعارف والمعالي فحازت زينة المتعلّعات
 يرجى أن يكون كذا بنوها لدى أيامنا المستقبيلات
 بهم تزهو الشبيبة في المرامي وتغدو للحمى أقوى الحماة
 بهم ترقى المواطن مرتقاها وتصبح قدوة المتريبات
 كجيش في البلاد عرمرمى وجند في الحروب مبرّزات
 وتمشى التيه في أوج المراق وترفل منه في حلل الثبات
 فتصبح أنت خير أب كريم وتصبح تلك خير الأمهات
 ودمتم بعد ذاك بألف خير ونعمى بالبنين وبالبنات
 ولولا الاختصار وضيق وقت لجئت بألف بيت شاهقات

ثم اتهمنا بمحمد الله من الشاعر بعد الخطيب ، وعاد المغنون إلى اللحن والتطريب ،
 فأخذت أجيل النظر وأقلب الطرف ، من ركن إلى ركن ، ومن صف إلى صف ، فلم أجد
 في الحاضرين بلا استثناء ، من هو ملتفت إلى سماع الغناء ، رأيّتهم يوجهون النظر إلى السماء ،
 ويكثرون من الإشارة والإيماء ، كمن يتضرع بالدعاء ، لكشف الحنة والبلاء ، فرفعت
 مثلهم نحو السماء بصري ، فدهيت من حيث أدري ولا أدري ، إذ رأيّت نوافذ الدار ،
 مهتوكة الأستار ، وفي كل نافذة هيفاء مسفرة النقاب ، كالدمية في الحراب ، أو كالصورة
 تتألق في إطارها كالشهاب ، أو كالبلدر بدا مسفراً من خلل السحاب ، تنفذ منها مثل خيوط

الغزالة^(١) للغزالة ، وتجرد من اللحظات مثل سيوف الحكمة للمنازلة ، فتصيد طيور القلوب الحوائم ، وتفتك بمهيج النفوس الروائم ، ثم تراها تومئ بكأس الصهباء ، إلى شفتها الحمراء ، وتلمس واسطة العقد ، بزهرة من الورد ، فيشتبه على الرائي وجه الأمر ، باختلاف اليواقيت كالجر ، ياقوتة الخمر ، يياقوتة النحر ، وياقوتة الزهر ، يياقوتة النحر ، ثم لا تفتأ ترسل الإشارة تلو الإشارة ، تارة بالمروحة وأخرى « بالسجارة » ، مع ابتسامات توضح عن مكنون الصدور ، وتفصح إفصاح المعاني في السطور ، والرجال من تحتهم يجاوبونهم على أعين النظار ، طوراً بإشارات الأيدي ، وطوراً بلغة الأزهار ، وكل مغازل فيهم يعتقد أنه امتاز على سواء ، وتغلب على أهل النوافذ بهواه ، وأضرم فيهن نار العشق وجواه ، وخلع قلوبهن بدعواه ، وما بالنوافذ سوى أزواجهن وبناتهن ، أو أخواتهن وبنات أخواتهن ، والمغنى يستقبل وجوههن في هذه الأثناء ، بوجه ليس فيه أدنى حياء ، فيغنيهن من الأصوات والألحان ، ما يثير من الغرام وپهيج من الأشجان ، والخصيان يصعدون إلى الحرم بأوراق ، وينزلون منه بأوراق ، يتخيرون فيها الأدوار السائرة على ألسنة العشاق ، في وصف حرارة الأشواق ، ومرارة البعد والفراق ، وما زالت الحال تتزايد قحة ووقاحة ، وتتضاعف هتكاً وضاحية ، حتى قام في وسط المكان جماعة من الأصحاب ، يتقاذفون بالفاظ القذف والسياب ، ثم إنهم انتقلوا من التلاعن والتشائم ، إلى التضارب والتلاكم ، فقام الحاضرون على الأقدام ، لمشاهدة ميدان النزال والخصام ، ثم توسط رجال الشرطة بينهم لفض الخصمة ، وسوقهم إلى المحاكم ، بعد أن تمرقت الثياب تمرق الأوراق ، وتخضبت الوجوه بالدم المهرق ، فصارت الأفراح أتراحاً ، وانقلب الغناء نواحاً ، وقلت لصاحبي : هلم بنا إلى الفرار ، من مواقف التهمة والعار ، وخرجت به أسوقه أمامى ، وأقول له في بعض كلامى : لقد حق لك بعد الذى رأينا ونظرنا ، وبلونا وخبرنا ، أن تلتهب بالغضب والحنق التهاباً ، أو يذهلك الدهش والمعجب فلا تمى جواباً ، وهلبقى بعد ذلك فرق بين سرور الدنيا وحزنها ، أو فضل لظهور الأرض على بطنها ؟ فأجابنى بلسان الحكيم المدرب ، والحليم المهذب ، وهو يبتسم استهزاء ، ويهز كتفيه ازدراء : لم يبق فى فضل الحكمة فضل للسخط والغضب ، وعجبي اليوم مما أرى يكون من العجب .

العمدة في الحديقة

قال عيسى بن هشام : وتمكن من الباشا حب الاستكشاف والاستطلاع ، لدرس الأخلاق وسبب الطباع ، وتبدلت الوحشة عنده بالائتناس ، في مخالطة الناس ، فصار يلح على ويلج في الطلب ، أن أذهب به في هذا السبيل كل مذهب ، وأنا أداوره وأحاوله ، وأماطله وأطاوله ، وهو لا ينفك يستنجزني ويستعصمني ، وإذا استعصمته لا يعفني . فقلت له : لم يبق أمامنا من المجالس والمنعديات ، إلا ما اشتملت عليه الأزكية من المنعجات المنعديات ^(١) ، وما تضمنته من صنوف الرجس والنكر ، وفنون الفسق والسكر ، وأنا أجلك أن أسلك بك مسالك الظنة والتهمة ، وأن أحلك محال الريبة والشبهة ، وأربأ بسفك وقدرك أن تحتلط بتلك الزمر ، وتدخل معهم في تلك الغمر ، وتقصر نفسك الشريفة على ما لم تألعه من مثل ما يعملون ، وشروى ما يفعلون ^(٢) ، فلا تأمن حينئذ نقد الناقدين ، وطعن الطاعنين ، وقاسمته إني لك لمن الناصحين . فقال : ألى تقول ذلك ، وقد آتيتني من دروس الحكمة العالية ، وضروب الفلسفة السامية ، ما أزدري معه عدل العاذلين ، وأحتقر به لوم الجاهلين ، ولن يضر النفس الشريفة الطاهرة ، أن تجاور النفس الخبيثة الفاجرة ، وقل أن يعدى المريض الطبيب ، وتذهب رائحة الدفر ^(٣) برائحة الطيب ، والامعان في رؤية الفقيصة والرذيلة ، يزيد النفس الفاضلة تمسكا بالفضيلة ، ولا يعرف قدر الرشد والهداية ، إلا من نظر في أعقاب الضلالة والغواية ، وبالظلمة يعرف فضل الضياء ، وبضدها تبين الأشياء ، ذلك من فضل ما علمتني مما علمت رشداً ، ولقد كان من أدب الحكماء في أيام دولتنا ، وزمن صولتنا ، أن يغيروا من هيئاتهم ، ويستروا من سماتهم ، ويبدلوا من أزيائهم المعروفة بأزياء غير مألوفة ، ليتمكنوا من مخالطة الناس على اختلاف أشكالهم ، ويقفوا على جليلة أمرهم وحقيقة أحوالهم ، فلم يكن ذلك مما يضر بسمعتهم ، أو يحط من رتبهم عند

(١) المنعديات : المنعجات (٢) شروى : مثل (٣) الدفر : التن

ظهور أمرهم، ووضوح سرهم، فلا عليك إذا أن تسلك بي ما شئت من المسالك، ولا تحش على شيئاً من تلك المعاطب والمهالك .

قال عيسى بن هشام : ولما لم يبق لى بُدّ من امتثال حكمه ، وتنفيذ عزمه ؛ قصدتُ به من الأزبكية روضتها الغناء ، وحديقتها الفيجاء ؛ فلما وصلنا إلى بابها ، ووقفنا عند «دولابها» ، وضعتُ فيه أجرة العبور ، كما توضع النذور في صندوق النذور ، ودرتُ فيه دورتي ، ودار الباشا دورته ؛ فقال لى وهو يدافع الغضب وسورته : هل كُتِبَ على الداخلين فى هذه الجنة الزاهية ، أن يدور الإنسان دَوْرَةَ الثور فى الساقية ؟ فقلت له : نعم شاع التخوين بين الناس فى جميع الأشياء ، فاخترعوا لهم مثل هذه الآلة الصماء ، لتكون رقيقاً عتيداً ، لا يستطيعون معها اختلاساً ولا تبديداً ، فهى ترقم من الداخل عند كل دورة ، ما ينقده الداخل فيها من الأجرة ، فلا يضيع منه مثقال ذرّة ؛ ولما جاوزنا الباب أعجب الباشا حسن المنظر وازدهاه ، وراقه بهاء المسكان واستهواه ، وتملكه الابتهاج وتولاه ؛ فقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ! لِمَنْ هذه الجنة من كبراء البلد ؟ قلتُ : هى ملك كل واحد وليست بملك أحد ، أنشأتها الحكومة من « المنافع العامة » لنزهة الخاصة والعامة : ثم سرنا نطوف فى أنحاء الحديقة ، بين أشجارها الوريقة ، وأغصانها الرشيقة ، وأزهارها الأنيقة ، والباشا يهتز طرباً ، ويميل عجباً ، لحسن هذا المنظر العجيب ، والمنبت الخصب ؛ ثم وقف بنا وقفة بين بَرْد الظلال وخرير الماء ، ورفع ببصره بقدّس باسط الأرض ورافع السماء ؛ ثم رأيته ينحنى للركوع انحناء القوس ، بعد أن أنشد قول حبيب بن أوس :

أَرْضٌ إِذَا جَرَّدَتْ فى حسنِها فكركَ دَلَّتْكَ على الصانع

وسمعتة يتلو فى الركوع والسجود ، قولَ صانع الوجود : « وَللهِ يَسْجُدُ مَنْ فى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بالغُدُوِّ والآصال . » وقوله أيضاً عزّ مِنْ قائل : « تُسَبِّحُ له السَّمَوَاتُ السَّبْعُ والأَرْضُ وَمَنْ فىهنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

ثم اثنيتُ به في طلب الراحة ، فجلسنا على أريكة من أرائك تلك الساحة ، ودارت
بيننا هذه المحاطبة ، بما اقتضته المناسبة :

(الباشا) — كيف لا يكون هذا المكان بالناس غاصاً ، وبالمرتاضين مزدحماً ، يشاهدون
جماله ، ويتفياؤن ظلاله ، ما دامت الحكومة قد أباحت له لكل رائح وغادٍ كما تزعمه ؟ ومالى
لا أرى فيه غير هؤلاء الأجانب في أزيائهم ، بأبنائهم ونسائهم ، فهل وقفته الحكومة
على الغربيين ، وحرمته على المصريين ، فإننى لم أجد فيه أحداً منهم منذ دخولنا إلى
هذه الساعة ؟

✱ (عيسى بن هشام) — لم تؤثر به الحكومة قوماً دون قوم ، ولكن المصريين كأنهم
ألفوا التهاون بالذات الروحانية وتغافلوا عنها ، وأخصها معرفة ما حسن في الأشياء ، وتميز
الجمال والكمال ومواضع الاحسان والانتقان في صنعة الوجود ، ورياضة الفكر والنظر في
مطالعة كتاب الكائنات ونظام الخلوقات التي تسبح بحمد خالقها ، أى تدل عليه بصنعة
فيها ، وكأن الواحد منهم قد حبس نفسه وقيد فكره في الوجود على الماديات ، فلا يكاد
ينظر في دهره نظرة المشاهدة والإمعان في خلق السموات وما يتألق فيها من الشمس
والأقمار والنجوم والكواكب ، ولا في خلق الأرض وما ينبت فيها من النبات ويدب
من الحيوان ويجرى من البحار ويرسو من الجبال ، وهى بجمال صنعتها وكمال وضعها .
تصيح بمن يثر : ألا ترانى فتفهم حكمة الخلق العجيب ؟

(الباشا) — جل الخالق الصانع ، ولكن لأى سبب أرف المصريين غفلتهم عن التمتع
بهذه النعمة ، نعمة المشاهدة ولذة المطالعة ، وصار الأجانب يتعلقون بها دونهم ويمتازون
بها عنهم ؟

(عيسى بن هشام) — لا سبب فيما أعلم إلا التماذى في التهاون ، والتراخى عن إيقاظ
هذا الشعور الفريزى الكامن في النفس ، وتنميته بالرياضة والتفكير ، ومعاودة الإمعان
والتدقيق ، وقد اعتنى الأجانب به عناية خاصة ، فاجتهدوا في تنميته وترقيته ، حتى صار
لديهم ملكة من الملكات ، وفناً جميلاً من أرق الفنون ، فدرّبوا عليه ، ومرنوا فيه ،

وسرى في دماهم يتوارثه الأبناء عن الآباء ، فترى الطفل فيهم إذا شب ودرج ، وأراد أن يتحف أهله يوماً بادر إلى الروض فاقتطف منه أول زهرة من الربيع وتسابق بها إليهم كأنما عثر لهم على كنز لحسن الوقع عندهم ، ولقد برعوا في الصناعة بفضل هذا الشعور ودوام نموه ، ولم يقتصر الحال فيه عندهم على المراثيات الطبيعية ، بل تجاوزوا إلى المراثيات الصناعية ، ففيهم من يبذل الألوف من الدنانير والملايين من الدراهم لاقتناء صورة من الصور ، ورسم من الرسوم يحسن تمثيل زهرة من الزهور ، أو دائرة من الشفق ، أو راع من الرعاة ، أو حيوان من الحيوانات بما لا مناسبة بين قيمته في الأصل الطبيعي ، وبين قيمته في الشكل الصناعي ، وقل أن تدخل دار ميسور منهم إلا وتجد أنحاء الجدران مزدانة بألواح التصوير والتهاويل مما يحاكي المناظر الطبيعية ، فلا يفوت صاحب الدار أن يتمتع بحسن المنظر في داخلها إن حجبته عن مشاهدة جمال الطبيعة في خارجها ، ولقد جرهم ذلك إلى شدة الولوع بمشاهدة الآثار القديمة ، والتنافس في اقتنائها ، والغلو في التحفظ عليها ، والضن بها ، فكم رأينا من قطعة من الحجر أو غيره تزدرىها العين بيننا ، ولا يعباؤها المصري ، فيطرحها في كناسة منزله ، فلا تزال كذلك ، حتى يلتقطها الأجنبي في بحثه وتنقيبه ، فتصير عنده في قيمة فريدة التاج أو يقيمة العقد ، وكم رأينا من السياح من يتكبدون مشاق الأسفار ، ويتحملون أهوال البحار وأخطار القفار مع إنفاق الألوف المؤلفة من الذهب والفضة لمشاهدة آثار الدمن وما عفا من الرسوم في هذه الديار ، وربما رأينا المصري ساكن القاهرة يشب ويشيب ويكتهل ويشيخ ويعمر ويهرم ولم ير من الأهرام القائمة في جواره غير صورتها المرسومة على ورق البريد ، وربما يلتفت إلى رؤية ذلك أيضاً حتى يدركه الموت .

(الباشا) — تالله إن ذا لمن العجب ، ولو كان الأمر يجري على القياس ، لكان المصريون في مقدمة الأمم التي ينمو فيها الشعور بلذة التأمل في بدائع الكائنات ومحاسن الموجودات ، لركة طباعهم ، ولطافة شيمهم ، وسرعة التأثر والانفعال في نفوسهم ، ولما ميزهم الله به من حسن الاقليم ، واعتدال الجو ، وفيض الماء ، وخصب التربة ، ولا انحصار

موارد أرزاقهم ومعاشهم في استنبات الأرض ، وطول ممارستهم للفلاح والحراث والزرع والحصد ، وكل من رأى الاقليم المصرى كالزبرجدة الخضراء ، في وسط رمال الصحراء ، لا بد أن يحسد أهله على التحلى بهذه الفريدة من عقد الطبيعة ، ويعظمهم على دوام تمتعهم باجتلاء هذا المنظر الذى يجلو البصر ، ويثلج الفؤاد ، وينعش القلب ، ويلطف من هواجس النفس وبلابل الصدر ، فتصفو الروح ، فتخف من قيود العالم السفلى إلى الاتصال بمعارج العالم العلوى ، فترتاح هناك هنيئة مما تقاسيه في مصارعة العيش من ضروب الأكدار والآلام ، وتفر من وجهها إلى وجه ربك ذى الجلال والإكرام . واعلم — وهذه لفظة طالما أفادنى تكرارها على لسانك فاسمح لى بها مرة من لسانى وما أعلمك إلا عن خبرة وتجريب — أن الفرق بين الانسان والحيوان لا ينحصر فى الخلقة ، ففى الخلقة ما يشبهه ، ولا فى النطق ، ففى الحيوان ما ينطق ، ولا فى الذكاء ، ففى هوام الأرض ما يفوقه ذكاء وإنما المزية التى تميزه عن سائر الحيوانات ، والخصلة التى يفضلها بها ، هى إدراك حقيقة الوجود بالامعان والمشاهدة ، وطول الفكر والنظر فى خلق السموات والأرض للاهتمام إلى معرفة خالقها ، وعبادة صانعها ، قال جل وعز فى محكم بيانه : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكروا إنما أنت مذكر » . هذه هى اللذة الروحانية التى أسعد الله بها الانسان دون سائر المخلوقات ، وهى أشرف اللذات وأصفاهها ، وأفضلها وأبقاها ، وما ينقرب العبد إلى الله زُلْفَى فى عبادته بأجل من النظر والتفكير فى حسن صنعه وكمال خلقه ؛ قال وهو أحكم القائلين : إنَّ فى خَلْقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ آياتٍ لأولى الألبابِ الذينَ يذكرونَ اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلقِ السمواتِ والأرضِ ربَّنَا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانه فَمِنَ عَذَابِ النارِ » ، ولا يقف على مقدار هذه اللذة الروحانية تمام الوقوف إلا مَنْ تجرّد مثلى يوماً من عالم الأجسام والفناء ، إلى عالم الأرواح والبقاء ، ولا ينبئك مثل خبير .

ولو كانت الأمور تجري على القياس أيضاً ، لاشتغل المصريون بلذة هذه المشاهدة ،

وسعوا في نموّها فيهم ، إن لم يكن من جهة لطف الإحساس والشعور ، فن جهة انصرافهم إلى تقليد الغربيين ، والعمل على نمطهم في مختلف أحوالهم ، كما شاهدته منهم عياناً في جميع حركاتهم وسكناتهم ، ولكن لعل هناك من خفيّ الأسباب ما حرّمهم اطراد التقليد في هذا الباب .

(عيسى بن هشام) — لم يكن هناك من سبب يمنعهم غير ميلهم إلى الفتور والانقباض سواء أكان في الماديات أم الأدبيات ، وهم على شدة ولعهم بتقليد الأجانب ، لا يقلدونهم إلا فيما خفّ وهان من الزخرف المموّه ، والبهرج الكاذب ، والملاذ الشهوانية ، مما لا ينتج عنه إلا سقم الأجسام ، ونفاذ الأموال ؛ وما عدا ذلك من أمور المدنية النافعة ، فجهولٌ عندهم ، بل مردولٌ لديهم ، وإجمال القول في هذا الباب أن مثل المصريّ في أخذه بالمدنية الغربية ، كمثّل المُنخَل يحفظ الغثّ التافه ويفرط في الثمين النافع .

(الباشا) — يا أسفاً عليهم كأنهم تخلّوا عن فضائل مدينتهم القديمة ، ولم يتحلّوا بفضائل المدنية الحديثة ، فأصبحوا كالتي تقضت غزّ لها من بعد قوة أنكاثا .

قال عيسى بن هشام : وما زال الحديث يجري بنا على هذا النحو ، حتى وصلنا إلى المغارة المصنوعة في بعض أنحاء الحديقة ، فرأينا صنماً جميلاً وشكلاً بديعاً ، وأعجبنا تدفق الماء من ثنايا الأحجار ، فجلسنا على سررٍ هناك أعدت للزائرين ، وإذا بجانبنا ثلاثة أشخاص من المصريين ، شغلهم اتصال الحديث بينهم عن الالتفات إلينا ، فأقننا نسترّقُ السمع وملتقط اللفظ ، فتبيّن لنا من سياق كلامهم أن أحدهم عمدة من عمد الأرياف ، وثانيهم تاجر من تجار الثغور ، وثالثهم فتى من أهل البطالة والخلاعة . ومما التقطناه من قول العمدة للخليع في مجرى حديثه :

(العمدة) — وأين الآن ما دخلنا الحديقة من أجله ، فقد طال بنا الجلوس ولم نر شيئاً ؟ وهل كان جُلّ القصد ومنتهى الجهد أن نجلس هنا في وخامة الأشجار ، ورطوبة الهواء ، وعفونة الماء ؟ وتالله ما أجد فرقاً بين هذا المنظر وبين منظر ذلك المستنقع الذي خلّفته خلف بلدتنا ، ولعمري إن الأورّ الذي يسبح فيه هناك أكثر عدداً وأعظم سمّاً من الأورّ

الذى يسبح أمامنا ، وما الفائدة في طول جلوسنا أمام هذه الأشجار العقيمة التى لا تثمر ولا تغنى من جوع ؟ وأين نحن من ذلك الثمر الشهى والصيد الطرى الذى وعدتنا به وأطمعنا فيه !!

(الخليع) — مهلاً فلن يفوتك من هذا شيء ، وإن كنا أخطأنا الغرض هنا ، لأننى كنت أظن الحديقة على عهدى القديم بها ، وما كنت أتخيل أن الأمر وصل بها إلى مثل هذا الخراب من الظباء والغزلان إلا منذ أخبرنى أحد الأصحاب بعد دخولنا بأن الحكومة اشتغلت بأمر هذه الحديقة لخلو يدها من الأشغال ، فباشرت الإصلاح فيها بمنع ذوات البراقع والمآزر من دخولها ، والتجوال فى أنحائها ، ولا أقول فى هذه النازلة إلا قول الجرائد فى التأفف من أعمال الحكومة : « حسبنا الله ونعم الوكيل . »

(التاجر) — وعلى هذا فقد ذهبت تلك الليالى والأيام التى كانت فيها الحديقة مرتعاً للحسان ، وملعباً للقيان ، ولطالما دخلتُ هنا وحيداً فريداً ، فما أ كاد أنصب الحباله ، وأضع الحب ، حتى أقتنص من آرامها مثنى وثلاث ورباع .

(العمدة) — يعلم الله أن العاصمة أصبحت على حال لا تصح معها الإقامة إلا مدة قضاء الحاجة ، والرجوع إلى البلد فوراً ، وإلا فقد عرّض الواحد منا دارهم للضياع ، وصدره للانقباض ، وإلى الآن ترانى فى غاية الأسف والحزن على ما جرى لى أفس فى سهرتى مع فلان الموظف ، إذ جرّنى للنزهة معه ، فطاوعته على هواه ، أملاً فى إنجاز حاجتى عنده ، فسحبني من مكان إلى مكان ، ومن حان إلى حان ، يشرب هو وأصحابه على حسابي ، وكأنا أجوافهم دنان متخرقة ، فلا تمتلىء أبداً من الخمر ، وكأنا كيسي كنز لا يفنى بالانفاق ، وما كدنا ننتهى من حانات الخمر ، حتى اندفعوا بي إلى بيوت القمار ، فأصبحتُ مصدع الرأس من الخمر ، فارغ الكيس من القمّر .

(التاجر) — ولم تطاوعه على أغراضه ، وتنقاد إليه مع أصحابه ، وتنفق مثل هذا الانفاق من غير حظ ولا لذة ؟ وإن كانت لك حاجة ترجو قضاءها منه كما تزعم ، فيكنى فى ذلك أن تضع « المبلغ المناسب » فى يده ، وتتخلص منه ومن أصحابه ، فلا تسايروهم ، ولا تعرّض نفسك للتورط معهم كما فعلت .

(العمدة) — يحق لك أن تعترض وتلوم ، فقد أراحكم الله معاشر التجار في المدن من متاعبنا ومصائبنا مع الحكام ، فإن أشغالكم لا تتعلق بهم كما تتعلق أشغال الفلاحة في الأرياف ، فنحن في اضطراب دائم إلى استرضائهم ، « والمبلغ المناسب » الذي تقول عنه لا يكفي وحده في قضاء الحاجة ، بل يلزم الاتفاق عليهم في كل زمان ومكان ، علاوة على تلك المبالغ ، وإن لم يكن لك عندهم حاجة في الحال . وكم من كلمة واحدة من موظف صغير كانت سبباً في تعطيل عمل كبير ، وما يدريك أن الذي تغضى عنه الليلة ، ولا تلتفت بنظرك إليه في حانات الأزيكية ، يصبح غداً قاضياً في المحكمة ، أو حاكماً في المديرية ؟

(الخليع) مقاطعاً — إذا كانت الليلة الماضية قد انقضت على غير هواك ، فلنا عنها عوض من ليلتنا هذه إن شاء الله .

(العمدة) — أنصدّقك في وجود العوض ، وقد أخلفت وعدك معنا في هذه الحديقة ، وأذن الليل بالدخول ، وليس في اليد شيء من الصيد ؟

(الخليع) — صدّقني بالله ، فاني ما كنت أعلم بما أصاب الحديقة من أمر الحكومة ، لأنني كنت مقياً بحلوان مدة طويلة ، وجئت وأنا أحسبها على حالها الأول ، ولكنني قد رتبت لك الآن سهرة في فكرى تفوق في حسنها كل سهرة مضت ، فاني أعرف صاحباً لى أخبرني عن بيضة خدر من بيت فلان باشا ، فقوموا بنا ، وانا أذهب للحصول عليها هذه الليلة بما يمكن من الحيل ، وسأكتم عنها أمركم إلى أن تصير معي في الموضع الذي أختاره ، ثم أرسل إليكما من هناك بمن يأتيني بكما ، فيكون دخولكما على حين غفلة ، فلا تستطيع الاختفاء ، ثم تضطر إلى البقاء في مكانها ، وحينئذ يدور بنا المجلس معها دورة الأنس والسرور ، ولكن لا أخفي عنكما أن مقدار ما معي من الدراهم الآن لا يكفي لإعداد معدات هذا المجلس ، وأخشى إن أنا ذهبت إلى البيت لأخذ دراهم أخرى أن يمنعني أهلي من الخروج ثانية ، كما هي العادة عند النساء في التضيق على الرجال .

(العمدة) — لا عليك ، فعندي من الدراهم ما يكفي وزيادة .

قال عيسى بن هشام : وقاموا في الحال للسعى وراء اللهو واللجون ، وقام الباشا يسحبني وراءهم للعلم بما سيكون .

العمدة في الجمع

قال عيسى بن هشام : وخرجنا في أثر الخليلج والعمدة والتاجر ، وقد ألفت ذكاه يمينها في كافر^(١) ، ثم أضيفت بعد ذلك شموع السكرباء ، فعادت الشمس متوزعة في مصابيح الضياء ، كالنجوم تتلألأ في أفق السماء ، وتفتح دياجى الظلماء . ولما توسطنا ساحة « الأوبرا » و « الأوبرا بار » ، وقف الباشا وقفة الاعظام والاكابر ، يكفكف غروب الدمع والاستعبار ، ويقول سلاماً على إبراهيم ، إبراهيم في النار ! كيف لا يضطرم القلب استعاراً ، ويجرى الدمع مدراراً ، فما أستطيع أوارى^(٢) ولا أستطيع أوارى ، وقد تمثل أمامى في هذه البقعة ، وهى موسومة بسوء السمعة ، بطل مصر ، ورافع بنود النصر ، وقائد جيوش الحرب وهاديتها ، فى مفاوز الأرض وبواديها ، وموقد نيران الوقائع وصاليها ، وخائض غمرات المعامع وجاليها :

فى كل منبت شجرة من جسمه أسد يمد إلى الفريسة مخلباً وكيف جاز لهم أن يضعوا عنوان البأس والجد ، فى مواضع الهزل والد^(٣) ، وقيموا لإبراهيم صنماً على صورته ، وفى وسط سوق الفسوق وسرته ، مشيراً بيمينه إلى مواطن اللهو والفجور ، وأما كن الفحش والمهور ، ودینهه ينههم عن تشييد الأصنام وإقامتها ، ويأمرهم بكسرها وإبادتها ، وبأبوس قوم جعلوا اليد التى كانت تشير للحكمة والفرسان ، فى ميدان الضرب والطعان ، بمصافحة المنايا ومقارعة الأقران ، تشير اليوم وسط هذا الميدان ، بمغازلة البغايا ومعاقرة الدنان ، فسبحان محوّل الأحوال ، ومبدل الأزمان . فقلت له : ما هذه الأفكار الحزنة ، أحنيناً إلى تلك الأزمنة ، وقد انقضت بخيرها وشرها ، وذهبت بحلوها ومرها ، وأين أنت من طريقك فى الحكمة والسداد ، ومن سبيلك فى الهداية والرشاد ؟ فحفض عليك من حزنك وهملك ، واترك تلك الهواجس فأنت ابن يومك ، ولا تجعل لهواك القديم عليك سلطاناً مطاعاً ، فيذهب ما استفدناه من العلم رجحاً مضاعفاً ، أما إقامة التماثيل فى الميادين ، ومخالفتها للشرع والدين ، فقد أقامها حكامنا تقليداً للغربيين ، ولم ينكرها أحد

(١) ذكاه : اسم للشمس ، والكافر : الليل (٢) الأوار : حر النار (٣) الدد : اللهو واللعب

من طلبة العلم وعلماء المسلمين ، فاستنامت إليها الأفكار ، ولم يوقظها التحريم والانكار ،
وأما وضع النمثال في هذا المكان دون سواه ، وإشارته فوق الحصان يمينه ، فلعل الأمر
بوضعه أراد أن يذكر هؤلاء الغافلين الذاهبين ، بما كان لأبائهم الأولين ، من الشأن
الرفيع ، والركن المنيع ، أيام إمارته ، وينبئهم على ما انتشر ذكره في الآفاق ، وخلدته لهم
بطون الأوراق ، من اقتحام المهالك ، وافتتاح الممالك ، تحت قيادته ، وهو يشير اليوم بتلك
اليد ، ليستفهم إلى مواقف العز والمجد ، ويستفهم عن بواطن الخلاعة والبطالة ، إلى مواطن
الشجاعة والبسالة . فتبسم الباشا من قولي ضاحكا ، وقال : ما عهدتك في الجواب محاولا
مماحكا . فقلت له : دَعْ هذا وانظر إلى هذه المنيّة الايوانية ، ذات الأرائك الخسروانية .
فقال : أعظم به من بناء ، بين بيوت الكبراء . قلت : هو بيت لهُو رَفَعَ اسماعيل قواعده ،
وبوَأ الناس مقاعده ، يشاهدون فيه صنوف الأعالي ، وضروب الأعاجيب ، مما يؤخذ
عن أساطير الأولين ، وأقاصيص الراوين ، وما تَفَتَّنَ فيه كلُّ غادة حسناء ، من جمال
الزينة وحسن الرواء ، وتَفَتَّنَ به كلُّ قينة هيفاء ، من فنون الرقص والغناء ، اقتداءً بالغربيين
في ديارهم ، واحتذاءً لآثارهم ، وقد بقي من بَعْدِهِ تنفق عليه الحكومة من عيش الصانع
والفلاح ، لتفكهة النزلاء والسُّيَّاح ؛ ثم انظر أمامك إلى هذا المجتمع الملتحم ، والموقف
المزدحم . فالتفت وقال : ما هذه الضوضاء العظيمة ، أمانتم ما أرى أم وليمة ؟ قلت له : لا بل
هو مجتمعٌ عام ، تتزاحم فيه المناكب والأقدام ، لمسامرة الأصحاب ، ومعاقرة الشراب وبيننا
نحن كذلك إذ وقف بأصحابنا المسير ، عند باب هذا الخان الشهير ، فسرنا في عقبيهم ولحقنا
بهم ؛ فسمعنا الخليل يقول لصاحبيه : كُونَا هُنَا في الانتظار ، حتى أعود اليكما بالأخبار ،
إنجازاً لوعدي ، وإيفاء بعهدي ، فأجاباه بالقبول ، وتقدما للدخول ، فقال العمدة للتاجر :
ما أحوجني إلى تضييع الزمن ، ورياضة البدن ، بشرب كأس من العقار ، ولعب دور من
« البليار » . وقال التاجر : وما أحوج يدي إلى ملامسة ورق القمار ، وأذني إلى رنين الدرهم
والدينار ! ثم صعدنا وراءهما إلى قاعدة بأعلى المكان ، أعدت للعب والرهان . فتقدم العمدة
وهو يهز أعطافه وأردانه ، فتسلم كُرَّة « البليار » وصولجانه . وقعد التاجر وهو يرتعد من

الفرق ، في مجلس اللاعبين بالورق . وجلسنا نحن للنظر والسمع ، في غمار ذلك الجمع ، فسمعتُ عن يميني أحد السماسرة المعروفين بالدهاء ، يقول في مناقشته لأحد أرباب الثروة والغناء : (السمسار) — لا نزاع ولا جدال في أن ينابيع الثروة قد نضبت بذهاب تلك الأيام الماضية ، التي يفتنى الرجل فيها بكلمة ، ويُثرى بإشارة ، فيصبح بها أغنى الأغنياء ، بعد أن كان معدوداً من الفقراء ، ولقد وصل المصريون الآن إلى زمن كله ضيق وعسر ، ولم يبق من حكمهم من يقطع الأقطاع ، ويهب الضياع ، وبقى الغنى الحازم فيهم على حال الخمول والانكماش لا يستثمر أمواله ولا يستريح ثروته ، وقد زادت الحاجات وتعددت وجوه المطالب يوماً بعد يوم ، فأصبح مضطراً إلى الإنفاق من تليده ، فسرى النقصان إلى رأس المال ، حتى إذا مضى لسبيله لم يترك لأهله وذريته إلا ما يقوم بالكفاف وحده بعد توزعه بينهم ، وكن على يقين أنه لا يمضي جيل واحد على هذه الحال إلا ويندثر بين المصريين ما بقى من بيوت المجد والغنى ، واعلم أنه لم يبق أمامنا اليوم سوى بيت واحد ، وهو منبع المنابع في الثروة والمال ، وكنز السكنوز في الغنى واليسار ، يقوم للمصريين مقام أعظم بيت من بيوت الحكام الذين كانوا ينعمون عليهم بالسيب والعتاء ، ويدفعون عنهم الضراء بالسراء ، وما يخفى عليك أنه بيت البورصة .

(الغنى) — اسكت ولا تذكر لى اسم البورصة ، فقد سمعنا في هذه الأيام عن فعلها بفلان وفلان ما فيه عبرة للمعتبر وموعظة للمتدبر .

(السمسار) — ألتس من سعادتكم غرض النظر عن الاستشهاد بفلان وفلان ، فإن الخسارة لحقتهما من سوء رأيهما وشدة جهلها ، أما أحدهما فإنه كان يعتمد في المضاربة بأمواله على التفاؤل والتطير ، وكان لا يأخذ إلا بكلام إحدى العرافتين : العرافة السودانية أو العرافة الافرنجية ، تلك بودعها ، وهذه بورقها ؛ ومن نوادره في الأخذ بالتفاؤل أنه سمع رجلاً مجذوباً يصيح في الطريق بقوله : « اذهب يا يزيد » ، وكان لا يزال متردداً بين البيع والشراء ، لا يرجح بين الهبوط والصعود . فتفاءل بالكلمة واعتمد عليها ، وسار من توه إلى سمسار ، فأمره أن يشتري له عشرين ألف قنطار ، فنصحته وحاول أن يحوله

عن رأيه فلم ينتصح ولم يتحوّل ، وهبطت الأسعار في اليوم الثاني ، وتوّالى هبوطها ، فكان ما كان من خسارته ؛ وأما الثاني فكان جلّ اعتمادِه على الأخذ بأفكار أرباب الجرائد ، والثقة بالأخبار الكاذبة من الموظفين ، ولم يعمل برأى السماسرة الذين هم أدرى الناس بوجوه المضاربة ، وأعلمهم بطرق الصواب فيها .

(الغنى) — لن تزيدني والله براعتك في البيان والبرهان إلا ابتعاداً عن مضاربة البورصة وعن أهوالها ، ولا أعتبرها في نظري إلا أكبر باب من أبواب المقامرة ، والمقامرة هي عين المخاطرة .

(السمسار) — أما المخاطرة فهي لاصقة بالإنسان في كل حركة وسكون ، وملازمة لعمله في كل زمان ومكان ، ومن أراد أن يتوقى الأخطار ، ويسلم من المخاوف ، فلا يباشر عملاً من الأعمال ، والأولى له أن يترك هذا العالم إلى سواء ، واسمح لي بآخر قول أقوله لك في هذا الباب ، وهو أنك أخبرتني بمقدار محصولك في هذا العام وهو ثلاثة آلاف قنطار مخزونة عندك إلى اليوم ، لم تبعها تربصاً لصعود الأسعار ، ولم تبال بما يلحق القطن في طول خزنه من نقص الوزن ، وما يتهدده من بقية الأخطار كالسرقة والحريق ، فإذا كنت فضلت الانتظار ، لصعود الأسعار على هذه الحال في ثلاثة آلاف قنطار ، فما الذي يمنعك عن مثل هذا العمل في ثلاثين ألفاً من « الكونترات » ، دون كلفة ولا مشقة كالتي احتملتها في استخراج المحصول ؟ فإنك لا تدفع هنا ثمن أرض ، ولا تنفق على حرث ، ولا تؤدى ضريبة ، ولا تبذل ماء وجهك لرى الأطيان ، ولا تحنى ظهرك لأصاغر الحكام وما دخلت في قضية ، ولا وقعت في منازعة ، ولا تخوفت شيئاً من الآفات ، سماوية كانت أو أرضية ، بل هو ربح يأتيك عفواً صفواً ، ولا رأس مال له سوى أربعة حروف أو خمسة تخطها بيمينك في التوقيع .

(الغنى) — يجوز أن يكون في قولك هذا بعض ما يقنع ، ولكني لا أجد نفسي مطمئن يوماً إلى ولوج هذا الباب .

(السمسار) — أنا لا أكلفك أمراً عظيماً ، ولا أدعوك إلى أدنى خسارة ، وما عليك

إلا أن تجرب صدق نصيحتي ، فتشتري ألفين من « الكونتراتات » ، فتنتظر بها صعود الأسعار مع أقطانك الخزونة ، وأنا أضمن لك الربح ، مادمت آخذاً برأى ، ولا تستمر في هذا الانكماش والحذر اللذين هما علة تأخر المصريين ، وخذ في النشاط والإقدام اللذين هما سبب تقدم الغربيين ، واعلم أن الفرق في سرعة الربح بين ما يشتغل به الناس من التجارة والصناعة والزراعة وبين أشغال البورصة و « الكنتراتات » ، كالفارق ما بين السفر على ظور الجمال والطيران على أجنحة البخار ، أو ما بين نسخ الكتب بالخط ونسخها بالطبع ، ولكل زمان ما يقتضيه من العمل ويحكم به من السير ، وأنت الخبر مع ذلك فيما ترضاه لنفسك .

(الغنى) — وكيف حال الأسعار اليوم ؟

(السمسار) — كما كانت أمس وهي فرصة ثمينة للشراء .

(الغنى) — خذ لي اليوم خمسمائة قنطار للتجربة .

قال عيسى بن هشام : وتركنا هذا العصفور قد وقع في يد الصائده المحتال ، والتفتنا إلى ذات الشمال ، لسمع ما يدور من الجدال ، بين رجل فرغ كيسه من المال ، وامتلأ رأسه من الآمال ، وبين تباع محام من الأجانب ، يتلقط القضايا من كل جانب : (التباع) — لا أشير عليك أبداً برفع هذه القضية أمام المحاكم الأهلية ، وهي معروفة بجبنها وخوفها من الحكم على الحكومة في مثل هذه القضايا ، ولئن حكمت مرة فقلما تبادر إلى التنفيذ ، أما المحاكم المختلطة فإنها لا تحسب لغير الحق حساباً ، وسواء لديها الحكومة والأهالى . والتنفيذ فيها أسرع من نفاذ السهم عن القوس ، كما أن المحاكم الأهلية لا تعرف قدر هذه القضية ومنزلتها من التاريخ ، ولا تقدر لك الفائدة من عهد وضع اليد عليها إلى الآن ، فلا مندوحة لك عن المحاكم المختلطة ، ولكن أخبرني قبل كل شيء عن تلك الشجرة هل لها ذكر في الحجة باسمها التاريخي المعلوم ، وهل يمكنك إثبات نسبك متصلاً إلى الواقف ؟

(صاحب القضية) — أما الشجرة فذكورة في حجة الوقفية أنها « شجرة العذراء » ،

وهي قائمة على أرض سواد ، وأما نسبي فهو متصل بأحد عتقاء الواقف السلطان الغورى ، ولكن من لى بدخول القضية فى المحاكم المختلطة ، وأنا رجل من رعايا الحكومة ؟ ومن لى بمحام أجنبى وأنت تعلم ما يلزم لمثله من المبلغ الجسيم فى « مقدم الأتعاب » الجعالة ؟ (التبيع) — هوّن عليك الأمر ، أما رفع القضية إلى المحاكم المختلطة ، فإنه سهل هين ، يكون بالتنازل عن القضية لأحد الأجانب ، وأما المحامى الأجنبى فأنا أتكفل لك بإقناع المحامى الذى اشتغل معه ليقبل القضية من غير أن يلتفت إلى « مقدم الأتعاب » ، وإنما يتفق معك على مناصفتك فيما تأتى به القضية من الأموال ، وأما الأجنبى الذى تتنازل له عن القضية ، فهو حاضر فى مكتبنا تحت يدنا ، اتسخيره فى مثل هذه القضايا ، وما عليك الآن سوى النفقات والرسوم القضائية .

(صاحب القضية) — لا بأس بما تقول ، ولكن ليس عندى ما أستغنى عنه اليوم لتلك النفقات ، ولو كنت واثقاً بعض الوثوق بكسب القضية ، لبادرت إلى بيع الحصة التى بقيت لى من العقار ، ولكننى أخشى أن تذهب الحصة وأخسر القضية ، فأصبح بلا مال ولا أمل . (التبيع) — لو كنت تعلم بمهارة معلمى ، وما له من علو الشأن فى المحاكم المختلطة ، ومن الاتصال بقناصل الدول ، لاستخرت الله فى بيع الحصة ورفع القضية . (صاحب القضية) — استخرت الله واعتمدت على هذا رأى .

(التبيع) — فقد أذنتنى حينئذ بالكلام مع المعلم ، ولك أن تحضر غداً لعقد الشروط . (صاحب القضية) — أمهلنى أياماً ، حتى أجد من يشتري الحصة بالثمن المناسب . (التبيع) — أنت فى سعة من الوقت لبيع الحصة إنما يجب أن تبادر باحضار الأوراق والمستندات من الغد للاطلاع عليها ودرسها .

(صاحب القضية) — بينى وبينك مساء الغد فى هذا المكان .

قال عيسى بن هشام : وتركنا أيضاً هذه السمكة ، تتخبط فى الشبكة ، ثم حولنا النظر إلى العمدة فى لعبة البليار ، فما راعنا منه إلا أن ضرب الكرة بصولجانه ضربة أفقية فأطارها إلى وجه أحد الجالسين من الأجانب ، فاستشاط غضباً واحتدم غيظاً ، وقام هاجماً على (١٣)

العمدة يريد به شرًّا ، وهو يُدْمِدِمُ ويطمطم ، والعمدة يجمعهم ويغمغم ، وكاد يقع ما تسوء عقباه لولا أن أسرع التاجر خال بينهما ، وأخذ بيد الأجنبي يستعطفه ويبالغ في الاعتذار إليه ، حتى لانت شكيمتهُ بافتتاح زجاجتين من « الشمبانيا » لعقد الصلح على حساب العمدة ، ثم عمد العمدة إلى الجلوس ، فلم يمهله الذي كان يلاعبه وطالب منه استكمال اللعب ، فقام إليه مكرهاً وقلبه يرتجف ويده ترتعش ، فها هي إلا الضربة الثانية حتى أخطأ الكرة بصولجانه فأصاب غشاء البليار فخرقه وشقه ، فذهب الخادم مسرعاً ، وعاد بصاحب « البار » ومن ورائه بقية الخدم ، وهو يقول لهم بصوت عال : كيف تسلمون عصا البليار لهذا الفلاح الأخرق ، فيخرقه ويتلفه ؟ ثم وقف للعمدة يطالبه بضمن ما أتلف ، وتعويض ما عطل ، وقدّره له بخمسة عشر جنيفاً لا يتجاوز عن درهم واحد منها ، فأخرج العمدة كيسه فأحصى مافيه عدّاً فإذا هو لا يزيد عن ثلاثة عشر جنيفاً ، فلم يقبل منه . فتوسط إليه بعض الحاضرين فقبلها متكرهاً ، وجلس العمدة متكدرًا ، ولقد كان اللعب بالأفغوان ، أقرب إلى السلامة من هذا الصولجان ، ثم استمر جالساً ينتظر انتهاء التاجر من لعبه ، حتى قام عنه زاعماً أنه خسر فيه ثلاثة جنيهات . وقعد بجانبه يظهر التأسف والتندم ، فقال له العمدة : دع عنك الأسف والكدر ، فالضائع ضائع ، ومصيبتك على كل حال أخف وقعاً من مصيبتى . وبينما هما على هذه الحال إذا بالخليع قد حضر من غيبته يقول لهما هاشاً هاشاً وفرحاً مرحاً : (الخليع) — أشرق أنسنا ، وسعدت ليلتنا ، وطاب وقتنا ، وانقضت حاجتنا ، وأسأل الله أن يطيل لنا ليلنا ، ويبعد عنا نهارنا ، فقد تم مرادنا وهلمّ بنا .

(العمدة) — ونحن نسأل الله أن يقصر ليلنا ويذنى منا نهارنا ، فاقعد معنا نقصص عليك مادهاًنا في غيابك .

(الخليع) بعد سماع القصة — وبلى ثم وبلى ، فأنا المعلوم إذ تركتكما . فوقع لكما ماوقع ولكن قدر الله لكما ولطف بكما ؛ أما مصيبتى الآن فهي أعظم من مصيبتكما وأبلغ ، فإذا أقول وماذا أفعل ؟ وكيف أدفع وبأى عذر أعتذر ، وقد أخرجت البيضة من خدرها والظمية من كناسها . واستعد المجلس لحضورنا وأنسنا ؟

(التاجر) — الأمر أيسر مما تخشاه ، فما يفوتنا الليلة ندركه غداً .
(الخليع) — ذاك شيء لا يدرك في كل وقت وحين ، وهذه المرة هي بيضة الديك
لبيضة الخدر ، وكيف يمكن فض هذا المجلس وتأجيله ، وقد مضى قطع من الليل وتعذرت
سبل الرجوع .

كيف الرجوع بها وحول قبابها سمر الرماح يملن للاصغاء ؟
فخلصاني ناشدتكما الله مما وقعت فيه ، وأنقذاني من هذا البلاء العظيم .
(التاجر) — وما وجه الخلوص ، وقد علمت بتفصيل الحال ؟
(العمدة) — تالله إن الحرمان من هذا المجلس النادر لأعظم مصاباً من كل ما نابنا ،
ولو كان الوقت نهراً لأسرعت إلى « البنك » فأخذت ما يلزم لنا من الدراهم .
(التاجر) — إذا كانت الرغبة انتهت بك إلى هذا الحد فالأمر يسير ، ومعى الآن
مايكفى ، وأنا أقوم لك مقام « البنك » ، فكم تطلب ، ولأى ميعاد تكتب ؟
(الخليع) — هكذا يكون الصديق ، في وقت العسر والضيق ، فحيك الله وأبقاك .
(العمدة) للتاجر — أعطى عشرين جنياً تكون معى على سبيل الاحتياط .
(التاجر) — ولك الفضل هاك سبعة عشر جنياً تبلغ العشرين المطلوبة بالثلاثة التي
خسرتها هنا أمامك ، وألتمس منك كتابة ورقة على سبيل التقييد .

قال عيسى بن هشام : فما كان أسرع من الخليع في استحضار الدواة والقرطاس ، لإجابة
هذا الالتماس ، فطلب العمدة منه ، أن يكتب الصك عنه ، ثم خرجوا والعمدة يجرون أذياله ،
ويحك قذاله^(٣) ، وخرجنا خلفهم في الحال ، نتبعهم متابعة الظلال .

العمدة في المطعم

قال عيسى بن هشام : ولما صرنا في الطريق أخذ الباشا يطيل من فكرته ، ويقصر من مشيته ، ويقول : ما هذا الذي أرى ، من فساد هذا الوري ؟ كأن نافعاً نفعهم في خابية^(١) ، جمعت أخلاط الكبائر ، أو غامساً غمسهم في جابية^(٢) ، وعت أمشاج الجرائر^(٣) ، أو كلما خطونا خطوة رأينا من الغش والمكر أصنافاً وأضراباً ، أو حضرننا ندوة شهدنا من الخداع والنفاق فصولاً وأبواباً ، فما أنعس من يعاشرهم ! وما أنحس من يحيا فيهم ! وما أشقى من يجاورهم ! وما أسعد من يجافهم ! واغوثاه من الانسان ، في هذا الزمان ؛ فقلت له : قدك^(٤) ، بل في كل زمان :

لن تستقيم أمور الناس في عصر ولا استقامت ، فذا أمناً وذا رعباً ولا يقوم على حق بنو زمن من عهد آدم كانوا في الهوى شعبا هكذا كان بنو آدم ، تأخر عهدهم أو تقادم ، فهم على ما هم فيه أبداً ، أمس واليوم وغداً ، وما عسائك تقول في ذرية الشيخ آدم وزوجه حواء ، وقد قالت من قبل فيهم ملائكة السماء : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ، وما عسائك تقول في قوم ترى الصغير منهم قبل الكبير ، والمولى قبل الأمير ، يهون عليه أن يفتدى ما أسف من الدنيا ، وسفل من المطالب ، بمنطقة البروج ومجرة الكواكب ؟ وما عسائك تصف خلقاً أفضل مافي أعضائه ، أكبر سبب لشقاء الخلق وشقائه ؟

أفضل ما في النفس يَغْتَالها فتستعيز الله من جُندِه

هذه المضغة التي بفيه ، ويقال إنها أفضل ما فيه ، لو نسجت مضغة على قدرها ، حَمَاتُ العقارب^(٥) — حَمَاكُ الله — لَحَمَتِهَا ، وَلَعَابُ الْأَفَاعِي — عَافَاكَ اللهُ — صَبِغَتِهَا ، لَكَانَتْ في جانب هذا اللسان أخف ضرراً ، وأهونَ شرّاً ؛ وما عسائك تنعت نوعاً نعت الله

(١) الحَايِيَة : الجرة الضخمة (٢) الْجَايِيَة . الحوض

(٣) الْأَمشَاج : الاخلاط والأوساخ . والجرائر : جمع جريرة وهي الائم (٤) قدك : بمعنى كفك

(٥) الحمة : الابرة التي تضرب بها العقرب

واحداً منهم في آية من الآيات، بتسع صفات : « حَلَّافٍ مَهِينٍ ، هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنِيمٍ ، مُنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ، عُتُلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ . »

فَأَفٍّ لِعَصْرِ يَهُم نَهَارٍ وَحُنْدُسٍ
وَلَيْتَ وَلِيداً مَاتَ سَاعَةً وَضَعَهُ وَلَمْ يَرْتَضِعْ مِنْ أُمِّهِ النَّفْسَاءِ

وما يدريك أن ما رأيته من أخلاق هذا النفر ، أفضل من أخلاق مَنْ علاهْم من سادة البشر؟ ولعل ما أدركته من طمع الغنى ، ومكر السمسار ، وخداع التبائع ، وما تبينته من غش التاجر ، وغفلة العمدة ، واحتمال الخليع . هو دون ما تكنه صدور الكبراء ، وتجنُّه قلوبُ الأمراء ، تحت حجاب التكلف والتطبيع ، ويسترونه عن أعين الناس بستار التويه والتصنع ، وكلما اعتلى الانسان درجةً في المقام ، وخطأ فيها خطوة إلى الأمام ، تقف لها بقناع ، وتلثم بلثام . فتجد حقائق الخلائق مرموسة تحت صفائح الدَّهَاء ، مضروحة بين جنادل الرياء ، بل ربما كان أخلاهم أخلاقاً حسناً ، أبلغهم في التظاهر بها زوراً وبهتاناً ، كان لى صاحب تراه من لسانه غَضَنْفَرٌ رِثْبَالاً^(١) ، يحمى عريناً ويحرص أشبالاً ، تنقيهِ القياصرة ، وتخشاه الأكَسرة ، فإذا كَشَفْتَ عن قلبه ، وحسرت عن لُبِّه ، وجدته شاةً تعطف على سَخْلِهَا^(٢) ، وظئراً تخنو على طفلها^(٣) ، وأعرف آخر قد ضجَّت أحرف الفضيلة من ذكرها بقلبه ، ولو كها في فمه ، وهو مع ذلك يحمش وجهه ويديم جفونه ، إن سمع أن مُخْتَلَساً اختلس دانقاً دونه ؛ وفيهم مَنْ يملك من وجهه التغير بالانفعالات المتناقضة ، والتلون بالألوان المتعارضة ، فتكون دموعه طوع إرادته ، وابتساماته عند حاجته ؛ قال حكيمٌ لآخر : ما أكثر ما تتحوَّل رُقعة الشطرنج وتقلب ! قال له : تقلُّب وجه الإنسان أعجبُ وأغرب ، وقد تبقَّى الأخلاقُ الذميمة ، والصفاتُ اللثيمة ، مطويةً عن النظر ، محجوبة عن البصر ، حتى يُتاح لها كاشفٌ من الحوادث ، فينزِع عنها القِدام^(٤) ، ويحسر اللثام ، فيظهر الطبع السقيم ، ويبدو الخلق الذميم ، ومن عوامل التبئين والبيان ، في أخلاق الإنسان ،

(٢) السخل : جمع سخلَة ولد الشاة

(٤) القدام : غطاء الابريق

(١) الغضنفر والثبال : من أسماء الأسد

(٣) الظئر : المرضعة

الغضبُ والجُبنُ ، أو السكر والحزن ، ونحن الآن في ساحة السكر ، فهل بنا ، نلحق بأصحابنا .
فأدركناهم وهم وقوف يتشاورون ، وسمعناهم وهم يتحاورون .

(العمدة) — دعوني من هذا كله ، فقد صاحت عصافيرُ بطني ، ولم يدخل جوفى اليوم
شيء من الطعام سوى لقمة الصباح التى أكلتها مستعجلاً ، فهيا بنا إلى « السكة الجديدة »
نعطف على « العَطْفَى » ، فإن طعامه دسم ، وسمنه زبدة ، ولحمه سمين .

(التاجر) — ما هذا « العطفى » الذى تذكره ، وأين أنت من كباب « الحاتى » ،
وحمام « لوكه » ، أو طواجن « الفار » ، وأرز « العجمى » ؟

(الخليع) — ما هذا الخلط ونحن في وسط الأزبكية بين « النيو بار » و« سان جمس بار »
و« اسبلند دبار » ، وفيها ماتشتهى الأنفس وتلد الأعين ؟ وناهيك بهذه الأماكن ونظافتها ،
وحسن خدمتها ، وعلو قدر الواردين عليها .

(العمدة) — دعنا من هذه الأماكن ، فإن طعامها لا يسمن ولا يغنى من جوع ،
خصوصاً وأنا على هذا الخلو من بطني .

(الخليع) — وأنا لا يمكننى على كل حال أن أترك هذه الأماكن وأذهب معك إلى
الخوانيت التى تشير أن بها ، وأخشى أن يرانى بها أحدٌ ممن يعرفنى فأصغر فى عينه .

(التاجر) — إذا كان الأمر كذلك ، فأننا على رأيك .

(الخليع) للعمدة — لا مناص لك حينئذٍ ، فضعيفان يغلبان قوياً ، فادخل
بنا « النيو بار » .

قال عيسى بن هشام : فدخلوا ودخلنا معهم ، وجلسوا وجلسنا على مقربة منهم ،
وما خلع الخليعُ طربوشه ، حتى نزع العمدة عمامته ، وما ضرب الخليع بيده على المائدة ،
حتى صفقَ العمدة بيديه . فحضر الخادم ومعه قائمة الألوان ، فتناولها العمدة ونظر فيها نظرَ
المريضِ إلى وجوه العوَدِ ، ثم ناولها للخليع ليقراها ، فأخذها ، وتأمل فيها ، وشرع يسرد
الألوان حتى انتهى منها ، والعمدة لاه عنه ، والتاجر منصتٌ إليه .

(الخليع) للعمدة — ماذا تحب وتختار ؟

(العمدة) — أختار المرق ، ومن بعده لحم الفرن أو الكبما .

(التاجر) — وأنا أطلب كباباً وقرعاً وأرزاً .

(الخليع) — وأنا أختار « فاتحة الطعام » أولاً . ثم خلاصة اللحم بالبيض ، وأرزاً

بفاكهة البحر ، ودجاجة بعش الغراب ، وسماناً بالكماة ، وهكئونا بالزبدة .

(العمدة) — ما هذه الأسماء الغريبة ؟

(الخليع) — هي أطعمة خفيفة لا تقوى معدتي على هضم غيرها .

(التاجر) — كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس . »

قال عيسى بن هشام : فيذهب الخادم ويحیی للخليع بفاتحة الطعام من زيتون وفجل وسمك ملح وزبدة ؛ فيأكل العمدة فيها ، ثم يميل على قطعة الزبدة فيبتلعها وهو يقول : أزبدة وسمك ؟ فيطلب الخليع سواها ، ثم يأتي الخادم بصحن المرق للعمدة فيجده قد أكل ما كان وضعه أمامه من الخبز ، وعطف على خبز الخليع يأكل منه ، فيأتيه الخادم بنصيب آخر ، فيتناوله العمدة ويفتته في صحن المرق حتى يمتلئ ويفيض على المائدة ، ثم إنه انحنى فانحنى عليه وصدق يطلب صحناً آخر وخبزاً آخر ، وهو يميل في هذه الأثناء على طعام الخليع ، فيأخذ قطعة من الدجاجة ويضعها أمامه ويحاول قطعها بالشوكة والسكين فتفلت منه إلى الأرض فيقوم فيلتقطها ويأكلها باليد ، ثم يأخذ جزءاً من عش الغراب فيقضم منه فلا يألفه ، فيمجه ثم يرده إلى صحن الخليع ثانية ، ويقول ما هذه القشور التي يطبخونها هنا ، وهي عندنا شائعة على الجسور تفحص عنها الخنازير في الأرض بأرجلها فتستخرجها ولا تأكلها ، فتبقى ملقاة على ظهر الطريق لا يمسها إنسان ولا حيوان ، ثم يأتي الخادم بالمرق فيطلب منه خبزاً آخر فلا يكفي لامتلاء الصحن ، فيعاود الطلب ، فيميل الخادم ويقول له : إنما أنت هنا ياسيدي في مطعم لا في مخبز .

(الخليع) للخادم — ما هذا الكلام البارد « يا جورج » أليس لكل شيء ثمن هنا ؟

ونحن نأكل بدرانها ما نستهي ونطلب ما نريد .

(الخادم) للخليع — لا مؤاخذه فإن كلامي ليس موجهاً إليك .

- (الخليع) — إن لم يكن الكلام لى فهو لصاحبى ، وصاحبى هذا أعزُّ على من نفسى .
(العمدة) — دعهُ يأتِ لنا بنخبز ولو بالثمن ولا تشغل نفسك بما يقول مع أنه يقال إن هذه المطاعم العالية تبذل الخبز للآكلين مجاناً .
(التاجر) للخادم — أعطني أيضاً لونا من الخضر .
(العمدة) للخليع — قل للخادم يحضر لى مع لحم الفرن فخل بصل .
(الخليع) — كل شئٌ يجوز إلا أكل البصل فى هذه الليلة .
(العمدة) — لا مؤاخذة فإن النفس الملعونة ذهبت إليه من غير تروى .
(التاجر) للخادم — إئتِ لى بشئٍ من الحلوى أو الفاكهة .
(العمدة) — إذا كان فى الفاكهة برتقال أو بلح فأعطني منه .
(الخليع) — ولا تنس « يا جورج » أن يكون فى نصيبى من الفاكهة « ما نجو »
و « قشطة خضراء » و « موز » و « أناناس » .
(العمدة) للخليع مازحاً — ومن قال إنك لست من الناس ؟
(الخليع) للخادم — هات زجاجة نبيذ أخرى بغبارها .
قال عيسى بن هشام : ولما حضر الخادم بالفاكهة وانصرف ، أسرع العمدة بيده إليها فانتهى من كل فاكهة زوجين ودسها فى جيبه وهو يقول : هذه تنفعنا للتقليل بها على الشراب فيما بعد ، ثم حضر الخادم بأنية من البَلُور الملون فيها ماء وقشر ليمون ، فوضع أمام كل واحد منهم إناء ، فهم العمدة بشرب إنائه فى الحال ، فبادره الخليع ونزعه بيده عن فمه .
(العمدة) — لماذا تمنعنى عن شرب هذا « الخشاف » وقد أنعشتنى منه رائحة الزهر ؟
(الخليع) — هذا يا سيدى ماء لغسل أطراف الأصابع بعد الأكل .
(التاجر) — من عاش رأى !!
(العمدة) للخادم — الحساب « يا خواجا »
(التاجر) — القهوة .
(الخليع) — الخلال مع كأس من « الكونياك » بجانب القهوة ، ويأتى الخادم بجميع

هذا ، فيتناول العمدة ريش الخلال فيتمخلل بريشة ثم يعيدها إلى مكانها ، ويأخذ أخرى فينكش بها أذنه ، ثم يمسح ما علق بها في غطاء المائدة ، ثم يلتفت إلى الخليع ويطلب منه أن يقرأ قائمة الحساب ويخبره بكميته .

(الخليع) — أربعون فرنكا .

(العمدة) — اقرأ جيداً فان هذا غلط فاحش .

(الخليع) — قد قرأت وحسبت وأعرف أنهم لا يغالطون هنا .

(العمدة) — ما هذا النهب والسلب ، وما هذا الاسراف والتبذير ؟ لو كنا ذهبنا إلى مكان من الأماكن التي عدّناها قبل دخولنا هنا لسكنا ملأنا البطون وتمتعنا بالطعام الكثير مع الثمن القليل ، ولو كنا توجهنا إلى الحل الذي أبيت فيه لكنا وجدنا من الأكل ما يكفيننا بغير ثمن ، لأن في غرفتي برمة أرزٍ بحمام مما أحضرته معي من البلد ، ولا شك في أن الخادم يريد أن يستغللنا فزاد في الحساب ما أراد ، وأنا رجل لا أقبل الغفلة على نفسي ، ولا أدفع هذا الحساب ، وسأكشف لكما هذا الغش بكل طريقة ، فإنه يهون عليّ أن أبدو عشرة جنيهات في الهباء ، ولا يهون عليّ أن أدفع قرشاً واحداً بطريق الغش والاختلاس . ثم إنه رفع كأس النبيذ وهو في حديثه فصكّ به قدحاً آخر ممتلئاً لاستدعاء الخادم ، فانقلب الكأس وأهرق النبيذ على غطاء المائدة ، فحضر الخادم فعز عليه ما رأى .

(الخادم) — ما هذه الليلة السوداء ؟

(العمدة) — هذا ما أقوله أنا أيضاً ، فقل لي ما هذا الغلط في الحساب ، وهل تريدون

أن لا يدخل محلّكم بعد اليوم أحد ؟

(الخليع) — هل في الحساب غلط « يا جورج » ؟

(الخادم) — وأى غلط يكون في الحساب بعد الذي حصل ، وهذا هو بيان الثمن أمام

كل صنف ؟

(العمدة) — أى حساب وأى بيان ! ولكفك أنت الكاتب له .

(الخادم) — نعم أنا الكاتب له ، ولكفك أنت الآكل له .

(العمدة) — وهل أكلنا أر بعين صحناً ، حتى ندفع أر بعين فرنكا ؟

(الخادم) للخليع — أرجوك أن تقنعه .

(العمدة) — وهل أنا جاهل حتى يقنعنى ؟

(الخليع) وهو قائم — حاشا لله يا سيدى .

(التاجر) للخليع — إلى أين ؟

(الخليع) — أراهم وضعوا فى لوح التلغرافات السياسية تلغرافاً جديداً أريد أن أقرأه .

(الخادم) للعمدة — أعطنى الحساب ولا تعطلى عن الشغل .

(العمدة) — هاك عشرين فرنكا لا أدفع سواها .

(الخادم) — ليس هنا محل المساومة فى ثمن الطعام بعد أكله .

(التاجر) — زدهُ فرنكين .

(الخادم) — لقد كان الأولى بكم أن تأكلوا فى غير هذا المكان ما دمتم بهذه الصفة .

(التاجر) — لا تغلط « يا خواجا » فإن حضرته يأكل فى مثل هذا المكان وفى

أعظم منه ، ولكنه يجب الأمانة ويكره الاستغفال .

(الخادم) — وهل أنا خائن ؟ وأنا صاحب شرف مثلك ومثل أعظم منك .

(التاجر) للعمدة — حقيقة إنه لقليلُ الحياء .

(العمدة) — وحياتك لا أخاف منه ولا يأخذ منى غير هذا المبالغ .

(صاحب المحل) — وقد حضر مع الخليع — ماذا جرى ؟

(العمدة) — خادمك يسرقنا ويشتمنا .

(صاحب المحل) — هذا كلام لا يقال عن محلنا .

(التاجر) — وذاك كلام لا يقال لنا .

(صاحب المحل) للخليع — عهدى بك لا تصاحب إلا الكبراء والظرفاء ، فما هذا

الشيخ الذى جئتنا به هذه الليلة ، وقد شاهدتهُ من مكانى يفعل أفاعيل انتقدها جميع الحاضرين فإنه كان يبلع الزبدة ، ويطوى الخبز ، ويمدّ يدهُ إلى صحن سواه ، ويعيد

إليه فضلة ما يأكله ، ويتناول قطعة الدجاجة من الأرض فيلتهما ، ويلوٲ المائدة بالمرق والفبذ ، ويمسح يده في الغطاء ، ويكسر الكأس ، ويختلس الفاكهة فيضعها في جيبه ، ويهم بشرب ماء الغسل ، وينكش أذنه بريشة الخلال ، ولم يكتف بهذا كله حتى أخذ يغازل السيدات ويغامزن ، فقم من مستقبحات مستنكرات ، وقام كثير من المتردين على الحل اشمزأ من هذه الأفاعيل ، ولا أشك في أنه إذا حضر عندنا شيخ آخر مثل هذا أن يبتعد الناس ويتعطل الحل .

(الخليع) — لا تُلَقَّبُهُ بلقب شيخ ، فان سعادته من الحائزين للرتبة الثانية ، وله سعى في رتبة التمايز ، ولا تستصغر قدره فهو من كبار الأغنياء في الأرياف .

(صاحب الحل) للعمدة — لا تؤاخذ الخادم يا سعادة البك فهو على كل حال خادمك والحل محلك .

(العمدة) للخادم — يجب عليك أن تعرف الناس وتعلم حسن المعاملة من حضرة الخواجا صاحب الحل ، والله لولا حسن ذوقه ولطفه لما زدت عن العشرين فرنكاً ، ولكنني أعطى الآن ما تطلبه مراعاة لخاطره عن طيب خاطر وحسن رضاء .

(صاحب الحل) للخادم — اسأل حضراتهم ماذا يشربون على حساب الحل لتأكيد المعرفة والمساحة فيما حصل .

قال عيسى بن هشام : ثم مال الخليع على العمدة يشير عليه بأن يطلب دَورين من الشرب لإكرام صاحب الحل في مقابلة إكرامه لهم ، فطلب العمدة ثم طلب ، وشرب ثم شرب ، وقام بعد الدفع يتمايل ويتثنى ، ويتشاءب ويتمطى ، ويشكو للخليع فَعَلَ الكاس ، وهجوم النعاس . فيقول له : هذه عادة تكون عند الامتلاء ، ولا يصرفها إلا كؤوس الصهباء ، فهيا بنا الآن ، نذهب إلى الحان . نخرجوا وخرجنا من ورائهم ، نستقي بقية أنبائهم .

العمدة في الحان

قال عيسى بن هشام : وأخذوا طريقهم إلى الحان المقصود ، والحوض المورود . وفيما نحن
 نسير ، بين تقدير وتفكير ، إذ التفت الباشا إلى ذلك الفندق الكبير ، بل الخورنق
 والسدير ^(١) ، فرأى فيه شمس الكهرباء مشرقة ، وينابيع الضياء متدفقة ، يلوح فيها زنجي
 الليل بقميص أبيض ، ويبدو فيها أديمه كالآبنوس المفضّض ، وعمد المصاييح كأنها أغصان
 الأشجار ، أزهرت بالأنوار ، مكان الأنوار ، فصار كل عمود منها عمود فجر ، يُفجّر ثغرة
 الدجّة أيّ فجر ، وكأنّ منشور الشموع في ظلمة الحلّك ، منشور النجوم في قبة الفلك ،
 ورأى تحتها صفوفاً من الرجال ، بين صفوف من ذوات الجبال ، على سُرر متقابلين ،
 وأرائك متكئين ، يُسعدهم الجدد المقيم ، ويُرفرفُ عليهم الرقةُ والنعيم ، فطلق يسألني : أتراه
 محفلاً ليوم أنس ؟ أم زفافاً في بيت عرس ، أم تراها ليلة مهرجان ، لقبيل من الجان ،
 نسوا تفاوت الجنس ، فأنسوا إلى الأنس ، وهجروا جوف الأرض لظهرها ، ودرجوا من
 بطنها إلى حجرها ؟ فقلت له : نعم هؤلاء شياطين الإنس يطوون البر والبحر ، ويقطعون
 الحزن والوعر ، ويطيرون في السماء ، ويمشون على الماء ، ويخرقون الجبال ، وينسفون
 القلال ، ويقلبون الآكام وهادا ، ويسطون الرُّبى مهاداً ، ويعملون القنار بحاراً ،
 ويحمّلون البحار بخاراً ، ويُسمِعُون منْ بالشرقيين ، أصوات منْ بالمغربين ، ويستنزلون
 لبصرك أنأى الكواكب ، ويعظمون في عينك أوْهى العناكب ، ويمجدون الهواء ،
 ويذيبون الحصباء ، ويستحدثون الأنواء ، ويزنون الضياء ، ويستشفون خبايا الأحشاء ،
 ويكشفون خفايا الأعضاء . فقال لي : أئنك لتحدث عن جن سليمان ، في هذا الزمان .
 قلت : هؤلاء سيّاح الغربيين أهل المدنية والحضارة ، الناظرون إلى الشرقيين بعين المهانة
 والحقارة ، فإن نظروا إليهم من جهة العزة فنظرة العقاب من شماريخ رضوى وثبير ^(٢) إلى
 جنادب ^(٣) الرمل وضفادع الغدير ، وإن نظروا إليهم من طريق العلم ، فنظرة معلم
 الاسكندر عالم العلماء ، إلى صبي يتهجّى في العين والياء ، وإن نظروا إليهم من باب الصناعة

(١) الخورنق والسدير : قصران معروفان

(٢) الشماريخ : جمع شمارخ ، وهو رأس الجبل . ورضوى وثبير : جبلان معروفان

(٣) الجنادب : جمع جندب وهو الصغير من الجراد

فنظرة « فيدياس » صانع التماثيل والدُمى^(١)، إلى بناء يقيم أكواخ القرى، وإن نظروا إليهم من جهة الغنى، فنظرة صاحب المفاتيح التي تنوء بالعصبة إلى أجير ينضح عرقاً تحت القرية، وإن نظروا إليهم من جهة الفضائل النفسانية فنظرة الحكم « سقراط »، شارب السم غراماً بالفضيلة، إلى الشرير « أرسطراط » حارق المعبد ولعاً بالرديلة، تلك دعواهم في نفوسهم، وقولهم بأفواههم.

وهم في رحلتهم إلى الشرق على ضريبن : أهل الفراغ والجدة، الذين أبطرم الغنى، ولهاهم الاستمتاع ببعد المدينة، ولم يبق في أعينهم جديد، فانتقمت منهم الطبيعة في خروجهم عن سننها؛ فسلطت عليهم داء الملل والسأم، فأصبحوا هائمين على وجوههم في الأقطار والبلدان، وخطتهم القدرة إلى الاستشفاء من ذلك الداء بالتنقل في البلاد المنحطة عنهم في درجات المدينة، والاقامة في الأقطار الباقية دونهم على الفطرة الغريزية.

والضرب الثاني : منهم أرباب العلم والسياسة وأهل الاستعمار والاستنفاض^(٢)، يستعملون علومهم ويعملون أفكارهم في احتلال البلدان وامتلاك البقاع ومنازعة الناس في موارد أرزاقهم ومزاحمة الخلق أرضهم وديارهم، فهم طلائع الخراب أذهى على الناس في السام من طلائع الجيوش في الحرب.

قال عيسى بن هشام : وانقطع الحديث بدخول أصحابنا في الحان، واصطفاهم حول الدنان، فأخذنا مجلسنا بقرهم، ننظر ما يُصنع بهم، وإذا الخليع يلتفت عن اليمين والشمال، ويبادر الخادم بالسؤال :

(الخليع) للخادم — ألم يشرف دولة « البرنس » هنا في هذه الليلة ؟

(الخادم) — هو في داخل المسكان وسيعود إلى مجلسه في الحال .

(العمدة) مدهوشاً — هل يجيء هنا البرنسات، وهل يليق بنا أن نجلس للشرب في

مكان يحضروننا فيه، فلم اخترت هذا المحل، ولم لاندب إلى محل سواه ؟

(الخليع) — لا بأس علينا هنا، وسترى كيف أفل حتى لا تخرج من هنا إلا والبرنس

مصالحك ومجالسك .

(١) الدمي : جمع دمية وهي الصورة المنقشة من الرخام أو العاج (٢) استنفض المكان : نظر جميع ما فيه حتى يعرفه . وأهل الاستنفاض : الذين يعيشون في الأرض يتجسسون .

(العمدة) — لا تهزأ بى ولا تمزح ، فأين نحن من البرنسات ؟

(التاجر) للعمدة — لا تستبعد ذلك ، فإن لبعض البرنسات أخلاقاً واسعة ونفوساً
تُرايية ، ومن رأيهم الاختلاط بالناس والتساوى بهم في مجتمعاتهم ومعاملاتهم .

(العمدة) للخليع — وهل لك معرفة سابقة به ؟

(الخليع) — كيف لا أعرفه ولى معه جلسة في كل ليلة ؟ وكثيراً ما أوصلتهُ آخر الليل

إلى قصره .

(العمدة) — إنك لتبالغ ؟

(الخليع) — لا مبالغة ودونك البرهان .

قال عيسى بن هشام : ويقوم الخليع واقعاً عند عودة البرنس إلى مجلسه ، فيومىء البرنس
إليه بالسلاط ، فيتبعه إلى مائدة عليها صنوفٌ وألوانٌ من الحمر والنقل ، فيجلس بجانبه مع
الجالسين حوله يخاطبه بصوت يسمعه العمدة من مكانه :

(الخليع) — لا زال أفندينا في أسعد حال وأنعم بال .

(البرنس) — وأين أنت ؟ فقد سألت عنك مراراً .

(الخليع) — أنا في الخدمة تحت أمر أفندينا وعند طلبه ، وما منعنى عن المبادرة إلى
مجلسكم العالى إلا اصطحابى بصاحبين أحدهما من عمد الأرياف والآخر من تجار الثغور ،
لصقاً بى للبقاء معهما وألحاً على أن أحبهما .

(أحد الجلساء) مازحا — لا بل تسحبهما .

(البرنس) منكثراً — وهل هنا « زريبة » يا بك .

(جميع الجلساء) ضاحكين — لله در أفندينا في هذه النكتة : فما ألفتها وأرقها !

(البرنس) — أنا لم أتعلم التنكيت ، ولكن يصادفنى منه بعض كلمات في بعض الأوقات .

(أحد الجلساء) لآخر — أنظر بالله يا أخى حدة البرنس في لطافته ، وشدة في رفته ،

وقوة إدماجه في ألفاظه .

(الجليس) — وأنت ما شاء الله ما أفصحك الليلة في تعبيرك ! وما أبلغك في كلامك !

أأنت تأخذ هذه الجمل عن الجرائد ؟

(البرنس) للخليع — ماذا تشرب ؟

(الخليع) — العنقويامولاي ، فلا بد من الرجوع إلى صاحبي أولاً حتى أنخلص منهما

(البرنس) — وهل هما من الأغنياء المعتمدين ؟

(الخليع) — أما العمدة فإنه يمتلك ألف فدان ، وللتاجر في بلده أعظم خان ، والعمدة

عشرة وابورات للرى وعنده الرتبة الثانية ، وللتاجر وابور للخليج وعنده وعدة بالثالثة .

(البرنس) — لا تحرمنا من وجودك ، ولا بأس من استدعائهما للجلوس معنا .

(أحد الجلساء) لآخر — قم بنا نفصح لهما .

(الجليلس) — انتظر قليلاً حتى يأتي « الدور » المطلوب مع صحن بلح البحر الذي

أوصى عليه البرنس آنفاً .

قال عيشي بن هشام : وينصرف الخليع إلى صاحبيه لإحضارهما ، فينهض له العمدة واقعاً لتبجيله وتعظيمه ، فيسقط من يده « فم السجارة » على الرخام فينكسر فينحني إلى الأرض يجمع شظاياه ، ويظهر عليه من الأسف والكدر ما لا يقدر ، فيجره الخليع إليه ويقول له :

(الخليع) — لا يليق بنا أن نكون على هذه الحال من الأسف لأجل هذا « الفم » ،

فإن البرنس ينظر إلينا وقد جئت لك بدعوة منه للجلوس معه .

(العمدة) — ليس أسفى على « الفم » في ذاته ، بل لأنه تذكاري عندي من حضرة

مأمور المركز ، كنت أهديته فرساً فأهداني إياه ، فهو ثمين عندي من هذه الجهة ؛ ولكن

قل لي : كيف يدعوني دولة البرنس إليه ، وكيف ذكرتني له ؟

(التاجر) — أى نعم قل لنا كيف كان ذلك ، وهل جرى لي ذكر عنده أيضاً ؟

(الخليع) — قد قلت ما قلت وذكرت ما ذكرت ، ويقال في المثل : « أرسل

حكماً ولا تؤصه . »

(العمدة) — أحب أن أسمع تفصيل ما دار من الكلام بشأني ، فإني رأيت به يضحك

كثيراً وأنت تكلمه .

(الخليع) — أخبرته بقصتك مع سمسار القطن ولطف حيلتك معه حتى حرّمته أجره .
(التاجر) — وعلى ذكر السمسار ، هل تعلم أن دولة البرنس باع قطنه في هذا العام ؟
قال عيسى بن هشام : فكان جواب الخليع أن أخذ بيد العمدة وتبعهما التاجر حتى صاروا أمام مائدة البرنس ، فطأطأ العمدة إلى ركبة دولته ، فدفعه بيده ، فاستلمها العمدة وقبلها مراراً بطناً وظهراً ، فتنبسم له البرنس وأشار إليه بالجلوس ، فامتنع واستمر واقفاً ويده إلى صدره ، حتى أقعده الخليع مع التاجر بجانبه بعد شدة الإلحاح .

(البرنس) لأحد جلسائه — لا تنس أن تذكرني غداً بتصوير الفرس « سيرين »
فان « الدوك أوف بروك » أرسل إلى صاحبنا المستشار يطلب منى صورتها ليعرضها في معرض السباق بلوندره .
(الجليس) — الأوفق أن يكون ذلك بحضور المستشار في اليوم الذي عينه أفندينا له للعداء مع مفتش الرى .

(البرنس) للعمدة — ما ذا تشرب يا حضرة الشيخ . . . يا بك ؟
(العمدة) واقفاً على قدم التاجر — التمس السماح يا مولاي فاني لا أشرب شيئاً .
(التاجر) متمملاً من الألم — العفو يا أفندينا أستغفر الله فان ذلك لا يليق في حضوركم .
(البرنس) — لماذا جئتما هنا إن لم تشربا ؟
(الخليع) — يشربان حسب أمر دولتكم فالامتنال فوق الأدب .

قال عيسى بن هشام : ويتناول الخليع « علبة السجارات » من أمام البرنس فيعطى للعمدة واحدة وللتاجر واحدة ، فيتحاشى العمدة إشعالها في حضرة البرنس ظاهراً — وربما كان غرضه الباطن إبقاءها لديه أثراً من البرنس يفتخر به عند أقرانه — ثم يأتي أحد باعة الزهور فيهمس في أذن البرنس بكلام يقهقه له ، ويأمر الخادم أن يعطيه كأساً فيشر به وينصرف ، ثم يلتمس الخليع من البرنس أن يسمح للعمدة بطلب زجاجة من « الشمبانيا » فيسمح له ، ويلتفت إلى العمدة يخاطبه بقوله :

(البرنس) للعمدة — كيف حال المحصول عندكم ، وكَمْ ربحي الفدان من القطن ؟

(العمدة) — رمى الفدان عندى سبعة بأنفاس دولتكم .
(التاجر) — المحصول جيد ، ولكن الأثمان فى هبوط ، وهل باع دولة أفندينا أقطانه
أم هى باقية ؟

(البرنس) لأحد جلسائه — أنا لا أدفع فى ثمن الخنجر الذى رأيناه اليوم أكثر من
عشرين جنهما ، ولو كان عليه تاريخ صنعه لدفعت ما يطلبه صاحبك فيه .
(الجليس) — لا بأس به إلى الثلاثين .
(البرنس) — ما الذى تراه فى مسابقة الخيل غداً ؟
(الجليس) — أرى فرس البرنس سابقاً بغير شك .

قال عيسى بن هشام: ولما جاءت الزجاجة المطلوبة بادر العمدة إلى جيبه فأخرج منه ذلك
الموز فسح واحدة منه وقدمها إلى البرنس ووزع البقية على الحاضرين ، فيجد أحدهم صوفاً
متلبداً فى الموز فيعافه ويتركه على المائدة .

(أحد الجلساء) للعمدة — هل هذا الموز من زراعتكم وهل تنضجونه فى
الصوف عندكم ؟

(العمدة) — كلا يا سيدى بل هو موز « النيو بار » ، ولم يمكث فى جيبى غير مسافة
الطريق ، ومعى أيضاً برتقال أحمر وبلح أصفر وقشطة خضراء .

(أحد الجلساء) — أظن أن لكم شركة مع حسن بك عيد فى تجارة الفاكهة ؟
(التاجر) — حضرته لا يشتغل بالتجارة ، وليس كل الناس من يقدم عليها فهى
رجح مخوف بالخطر .

(العمدة) للخادم — أحضر لنا أيضاً زجاجة شمبانيا انكليزى
(أحد الجلساء) لآخر — يظهر أن الفدان رمى بعشرة .

(الجليس) — فى البنك العقارى .

(البرنس) — وما معنى انكليزى ؟

(الجليس) — يعنى أنها من جنس الجنيه

قال عيسى بن هشام : وفي هذه الأثناء يعود بائع الزهور فيبقى في أذن البرنس كلاماً ، فيقوم البرنس في الحال ويخرج والبائع في أثره ، ثم يتسلل الجلساء من بعده واحداً واحداً ، فلا يبقى منهم أحد ، وتخلو المائدة للعمدة ، فيشرب سؤر الكأس التي تركها البرنس ، ويميل على ما بقي في آنية النقل فيأتي عليه أكلًا .

(التاجر) للعمدة — ينبغي أن تطلب من الخادم غيرها قبل حضور دولة البرنس .

(العمدة) — أنا لا أطلب شيئاً إلا في حضور دولته .

(الخليع) — أظن أن دولته لا يعود في هذه الليلة ، وهذه عادته إذا هو قام مع أحد

الباعة عند تمام نشوته .

(العمدة) — ولكنني لم أره دفع شيئاً من الحساب .

(التاجر) — لعل له هنا حساباً جارياً .

(الخليع) — نسأل الخادم .

(العمدة) للخادم — ألم يدفع دولة البرنس شيئاً ؟

(الخادم) — لم يدفع شيئاً قبل خروجه .

(الخليع) — وكم الحساب ؟

(الخادم) — مائة وواحد وعشرون فرنكاً .

(العمدة) — أنا لا أصدق أن أفندينا يخرج من غير أن يدفع ما عليه من الحساب ،

ومع ذلك فلننتظر عودته .

(الخادم) — إذا قام البرنس على هذه الصورة فانه لا يعود ، وإن أردت أن لا تدفع

ثمن ما شربه البرنس فأنا أقيده في حسابه .

(العمدة) — وأنا إذا كنت أدفع شيئاً فلا أدفع إلا ثمن ما شربه دولة البرنس وحده .

وفياهم على هذا النزاع إذ دخل أحد وكلاء المديريات ، فينهض العمدة لمقابلته ، ويلج

عليه في الجلوس معه ، ثم يلتفت إلى الخادم بصوت عال :

(العمدة) — على بتفصيل الحساب وبين لي فيه ما شربه دولة البرنس ، وما أكله

دولة البرنس ، وبكم شرب أصحاب البرنس ، وكم شربنا مع البرنس وكم شرب قبلنا البرنس ،
واسأل سعادة البك الوكيل ماذا يشرب ، وعد لأدفع لك كل الثمن المطلوب .
(الوكيل) — أنا لا أشرب شيئاً .

(العمدة) — كيف لا تتفضل علينا بالشرب معنا ، كما تفضل دولة البرنس إرضاء
لخاطرنا ؟

(الوكيل) — لا بأس أن أشرب كأساً واحداً من « الكنيك » .
(العمدة) — لا والله لا تشرب إلا « شمبانيا » ، كما شرب معنا دولة البرنس .
(الخليع) للعمدة — لماذا لم تقدمنا للتعارف بسعادة البك ؟
(العمدة) — سعادته وكيل مديرتنا ، وحضرته (مشيراً إلى التاجر) من أكابر التجار ،
وحضرته (مشيراً إلى الخليع) من ظرفاء مصر .

(الخليع) للوكيل — تشرفنا بهذه المعرفة ، وكيف حال سعادة المدير فهو من أعز أصحابي
وطالما قضينا معه أوقات أنس وسرور ؟
(العمدة) للوكيل — أظن أن سعادتكم حضرتكم إلى مصر في عقب كشف الرتب
المقدم إلى الداخلية .

(الوكيل) — نعم كنت اليوم في الداخلية وسينتهى الأمر إن شاء الله على ما تحب .
(العمدة) للخادم — زجاجة شمبانيا أخرى .
(الوكيل) — يكفي فإني أريد أن انتقل إلى داخل المكان في مجلس إخواننا القضاة
ووكلاء النيابة .

(الخليع) — لا لزوم لا نتقال سعادتكم فأنا أدعوهم للجلوس معنا وفيهم فلان وفلان من
أعز أصدقائي .

(الوكيل) — لا تكلف خاطرك بذلك فإن الأليق أن أذهب للجلوس معهم .
(العمدة) للوكيل — إذا كان الأمر كذلك فكلنا نقوم مع سعادتكم ويأتينا الخادم
بزجاجة الشمبانيا هناك .

(الوكيل) — إن أردت ذلك فلا بأس .

قال عيسى بن هشام : فيقومون فيجلسون مع أهل ذلك المجلس ، ويحضّر الخادم بزجاجة الشمبانيا ، فيرجوهم العمدّة الشرب منها فيمتنعون ، فيشدد فيمتنعون ، فيقسم عليهم بالطلاق وهو يتلّعثم سكرًا إلا شربوا معه ، ثم يتناول الكأس ويقوم متساندًا على الخليع ليشرّب معهم ، فما يكاد يضع الكأس في فيه حتى تأخذه غصة فلا يملك نفسه عن رد الفعل فتتلوّث ثيابه ، ويبادر الخليع مع الخادم إلى سحبه داخل المكان ليصلح ما فسد من أمره .
ثم لبثنا مدة ننتظر العمدّة ، ونترقب له الرجعة والعودة ، حتى أقبل يتهادى في مشيته ، بعد أن أفاق من غشيته ، وعمد إلى الخروج والخليع عن يمينه ينجيه ، والتاجر عن شماله يرائيه ويداجيه .

العمدة فى المرقص

قال عيسى بن هشام : ولما خرجوا من ذلك الحفل ، ونحن أتبع لهم من الظل ، سمعنا العمدة يشكو للخليع فى طريقه ، ما يجده من انقباض الصدر وضيقه ، ويسأل التفرج لكربه ، والترويح عن قلبه ، ويذكره بما كان من الوعود ، ويطلبه بزيارة ذلك المجاس العدود ويقول له : تالله لقد أنصبتنا وأجهدتنا ، فهلم بنا الآن إلى ما وعدتنا ، لنزباً عنا لهم بربيئات الخدور ، ونكشف عنا الغم بكاسفات البدور ، ونجلو أعيننا بنجل العيون ، وننفس أنفسنا بناعسات الجفون ، ونستصبح ليلتنا بالوجوه الصُّباح ، قبل أن يصبحنا جيشُ الصُّباح ؛ فيقطع عليه الخليع كلامه ، ويدفع عن نفسه ملامه ، بأن طول الانتظار ، يذهب بحسن الاصطبار ، ولا صبر لدوات الدلال ، على خلف الوعود من الرجال ، وقد جاءنى رسولها فى غفوتك برسالة ، تشكو فيها ما لحقها من السامة والملالة ، وتُنجى على بالعتاب المرء ، وأن ما فعلته معها ليس بفعل الحر ، إذ اخترقت من أجلنا ما اخترقته من السجوف والكلل^(١) ، وتحملت فى حجيتها ما تحملته من الخوف والوجل ، حذر الوشاة والرُقباء ، وخشية الأهل والقرباء . ثم إنها أقامت طويلاً فى انتظار اللقاء ، وهى على مثل حرّ الرضاء ، فاذا الوعد بلا وفاء ، وإذا الدين بلا قضاء ، وكأنا كانت تنتظر غائباً لا يؤوب ، وتستمطر سحاباً لا يسحّ ولا يصب ، فذهبت بحسرتها ، ومضت لطيتها^(٢) ، وفاتنا ما كنا نبتغيه ، وأياسنا ما كنا نرتجيه ، وتلك فرصة أضعناها ، لنزعة شيطانٍ أطعناها . فيقول التاجر : إذا ما الذى اكتسبناه ؛ بعد الذى احتسبناه ؟ وماذا أفدناه ، بعد الذى فقدناه ؟ وأين منّا ما نجمع به شملنا ، ونبدد به ليلتنا فى خليع : لم يبق أمامنا فى هذه الساعة ، سوى ملاعب الرقص والخلاعة ، عسانا نجد فيها بديلاً ، مما لم نجد إليه سبيلاً . فيُخرج العمدة دراهمه فيعدها ، ثم يخشخش بها ويردها . فيقول له التاجر : لا تهتم فذرهم الأنس ميسر . ويقول للخليع : تقدّم ، فما من شيء عليك ميسر . فيعطف بهما الخليع من غير إبطاء ،

(١) السجوف : جمع سيف وهو الستر . والكلل : جمع كله وهى ستر رقيق .

(٢) مضى لطيته : أى لنيته التى اتواها .

إلى حان للرقص والغناء . فدخلوه ودخلنا من خلفهم ، وجلسوا وجلسنا في صفهم ، فرأينا المكان حومةً وغىً احتدمَ وطيسه ، وميدانَ حرب اصطدم خميسه ^(١) ، عجاجتهُ الدخان ، ومتارسهُ الدنان ، وسلاحهُ الأباريق والأقداح ، ودروعهُ الغلالة والوشاح ، ونيلهُ أصفهُ القوارير ^(٢) ، وطبولهُ توقيع العيذان والمزامير ، ومغافرهُ العصائب والأكاليل ^(٣) ، وأعلامهُ المآزر والمناديل ، وقوادّه وشجعانهُ ، وقوادّه وغلمانه ، وكان منصة الرقص هي حصنهُ الحصين ، وصاحبُ الحان هو قائد الكمين ، وكان المغنين هم السكاة والأقران ، والراقصات الحماة والفرسان .

أُولَاتُ الظَلَمِ ^(٤) جَنَ بَشَرٌ ظَلِمَ وَقَدْ وَاجِهْنَنَا مُتَظَلَّمَاتِ
فَوَارِسُ فِتْنَةٍ أَعْلَامُ غَيٍّ لَقَيْنَكَ بِالْأَسَاوِرِ مُعَلَّمَاتِ

وترى كل ذات ثدي حاسر بارز ، تنادى : هل من مُنازل أو مبارز ؟ ثم تتبختر وتجول ، وتخطر وتصول ، فتَرمي كل طامع في وصالها ، بسهام اللحاظ ونصالها ، ثم ترشق بها الدنان تارةً فتسيل بدم العقار ، وتشقّ بها الجيوب أخرى فتسيل بدم النضار :
وَقَدْ أُغِدِدْنَ فِي أَزْرِ وَلَكِنْ سَيُوفُ لِحَاطِنٍ مُجَرَّدَاتُ
قَدَحْنَ زَنَادَ شَوْقٍ مِنْ زُنُودِ بَنَارِ حُلِيِّهَا مُتَوَقَّدَاتُ

وترى في وسط تلك المعركة ، من كل هَلُوكٍ مُهْلِكَةٌ ^(٥) ، تنساب في حلة رقصها وتسعى كأنها حية في قميصها أو أفعى ، لعاب الأفاعى القاتلات لهاؤها ، وأنياب الأسود الضاريات أنيابها ، تنفث السم رائحةً ، وتنتمش غادية ، وإن رأيتها شاذنةً وسمعتها شاذية ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية .

قال عيسى بن هشام : ولما طال جلوسنا ، وضائق أنفاسُنا ، وكاد يُغمى علينا من كراهة الروائح المنبعثة من أرجاء المكان المتصاعدة من أكنافه : رائحة عكر الخمر ، ورائحة عرق الأبدان ، ورائحة زيت المصابيح ، ورائحة الدخان والحشيش ، ورائحة أنفاس

(١) الخميس : الجيش (٢) صامة القارورة : سداها .

(٣) المغفر : زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس (٤) الظلم : ماء الأسنان وبريقها .

(٥) الهلوك : الفاجرة .

الخمورين ، ورائحة تلك المراحيض التي لم يدخلها ماء ، ورائحة الأرض التي تسقى بالأفذار ولم تَسْطَعْ فيها شمسٌ ولم يتغير عليها هواء ، فإذا امتزجت هذه الروائح بعضها ببعض ، انعقدت منها في جو المكان سحابة سوداء تُمطر الأدواء ، وتساقط الأوباء ، فتستنشقها الأنوف ، وتمتصها الرئات ، وتضوى بها الأجسام ، وتتضاءل منها ذبالاتُ المصابيح تضاًؤُها في أجوافِ المناجم وبطون الكهوف . وكاد الباشا يحتنق ، وهَمَّ به الغثيان ، فهمَّ بالقيام ، فأمسكت به وقلت له :

(عيسى بن هشام) — أيصبر مثلي على هذا المقام ، ولم أشهد في عمري معركة ، ولم أحضر معمعةً ، ثم يجزع منه مثلك ، وقد مارست الحروب ، وشاهدت الوقائع تحت سحُب العجاج ، وفوق جثث القتلى وأشلاء الجرحى ، لاتبالي برائحة الجيفة ، ولا برائحة الدم ممزوجاً بصدأ الحديد ؟

(الباشا) — لقد كان ذلك ولكن في الخلوات والفلوات حيث تسطع الشمس وتجري الرياح ، ولم أستنشق تلك الروائح منحصرةً كانحصارها في هذا المكان ، ومع ذلك أتجلد مثلك للبقاء به كيلا يفوتنا شيء مما نحن بصده من بداية الأمر إلى نهايته .

وَبَيْنَا نحن كذلك إذا بصديق لي دنا مني فسلم عليَّ وأظهر لي تعجبه من دخولي هذا الحل ، فأظهرتُ له تعجبي من دخوله أيضاً ، فأجابني بقوله :

(الصديق) — إن السبب في دخولي هنا هو البحث عن رجل أحتال على في بعض الشؤون ثم غاب عن نظري ، وأنا أعلم أنه يأوى إلى مثل هذا المكان ، فدخلتهُ على كره مني بعد أن حرّمتُ على نفسي التردد عليه منذ زمان بعيد ، وحُكِمُ الضرورة مطاع ، ولكن قل أنت ما الذي جاء بك إلى هذا الوكر ، وكر الأفاعي ، وأدخلك في هذا العُش ، عشّ الشيطان ؟

(عيسى بن هشام) — أَدْخَلْنَا فيه حبُّ الاستطلاع والاستكشاف عن الأخلاق والعادات ، ولكنني فيه غريب لا أفقه كثيراً مما أرى ، والحمد لله الذي سخرك لنا في هذه الساعة ، لتبَيَّن لنا ما غمض وتُبْدَى لنا ما يخفى .

(الصدیق) — لك ذلك منى وفوق ما تريد .

قال عيسى بن هشام : وجلس الصدیق معنا یحدثنا ویرشدنا ، ویسرد علينا من غرائب الوقائع وعجائب النوادر فی هذا الباب ما أدهشنا به . ثم انقطع الحديث بیننا بدخول رجل یتمايل سكرًا ، فاخترق صفوف الجالسین ، وقد سكتت ضوضاؤهم ، وهدأت حركاتهم ، لسماع الغناء من إحدى القیام البارعات فیہ ، فاعناقهم نحوها مشرئبة ، وأبصارهم إليها شاختة ، كأنهم جالسون تحت المنبر یستمعون أحسن الحديث من وعظ الخطیب . واستمر السكران فی سیره یقع بینهم مرة ویقوم أخرى ، حتی وصل إلى منصة الرقص والغناء ، فضرب علیها مرارًا بعضا فی یده ، ونادى على مَنْ فیها بأعلى صوته یطلب العدول عن الغناء إلى الرقص ، فلم یسمعوا لندائه ، فالتفت إلى زمرة من الجالسین ، وطلب منهم مساعدته على غرضه ، فنادوا معه : الرقص الرقص ، ونادى الراغبون فی السماع : الغناء الغناء ، فانبرى لهم السكران یهزأ بذوقهم ، ویسفهم فی سوء اختیارهم ، فأجابه سفیه منهم على سفاهته ، فهجم علیه السكران بعصاه ، فقفز صاحب الحان من مكانه إلى السكران فأخذ بتلاببه . ویقوم طالب الغناء حینئذ من مكانه ، فیشبع السكران ضربًا وصفعًا ، فیتعلق السكران بخناقه وینادى : البولیس البولیس ، فیجتمع غلمان الحان یجرونه إلى الخارج ، وهو ممسك بعنق الضارب له لا یخلیه ، حتی إذا صاروا إلى الباب أدركهم جندى البولیس ، وقبض على المتضاربین ، فیتعرض له صاحب الحان ، ویمنعه من القبض على الضارب ، ویقول له : لیس لك إلا أن تأخذ هذا السكران وحده ، فقد جاءنا بعد أن امتلأ سكرًا من الخارج یرعبد فی محلنا ، وكأنه مأجور من أرباب الحانات الأخرى للاضرار بنا ، وإحداث الفشل فی محلنا ، فیا بى الجندى إلا أن یسوق المتضاربین معًا ، فیغمزه صاحب الحان لیلین له فیتدره أحد غلمانہ قائلاً له : لا لزوم لما تأتیه مع هذا الجندى من المصانعة وغرضًا یقضى بدونه ، فإن حضرة معاون القسم جالسٌ عندنا داخل « البار » مع صاحبتہ .

(صاحب الحان) للجندى — لم یبق لك من وجه لسحبهما إلى القسم ، وتعالوا ندخل

جميعًا عند حضرة معاون فی « البار » .

(الجنديّ) — هذه حيلة غير خافية تريد بها تهريب صاحبك ، وكيف يكون
حضرة المعاون موجوداً الآن في « البار » والنوبة عليه الليلة في القسم !
(صاحب الحان) — ما عليك إلا أن تدخل وهما في قبضتك لتراه بعينك ، فيجيب
الجنديّ صاحب الحان إلى ذلك ، فيدخل فيرى المعاون جالساً بجانب صاحبه خالفاً رداءه
على كتفها وطر بوشه على رأسها ، وهو يسقيها من كأسه وتعاطيه من كأسها .
(صاحب الحان) للمعاون — لقد تعطل الحل يا حضرة الأفندي في هذه الليلة ، وتعطيله
لا يرضيك ، فإن هذا الرجل دخل علينا سكران ولم يشرب من محلي شيئاً ، فعربد بين
الجالسين ، وأخلّ بنظام الاجتماع ، ثم تعدّى على هذا البك بالشم والضرب ، وهو من
أجلّ المترددين على الحل ، والقريب أن جندي البوليس هذا لم يسمع لقولى فيه بل صم
على سحبه مع ذلك المتعدى إلى القسم ، وهو من أبناء السكرام ، ولا يليق بكرامته أن
يساق مع هذا السكران إلى المحاكمة .

(المعاون) للجندي بعد أن يلبس طر بوشه — ما هذا الذي أسمعه ؟
(الجندي) رافعاً يده بسلام التعظيم — لم أعلم بوجود حضرتكم هنا ، والأمر إليكم .
(المعاون) للجندي — إذا كان الرجل السكران في حالة سكر بين ، نخذه وحده إلى
القسم ، وما دام حضرة البك لم يحصل منه اعتداء بشهادة حضرة الخواجه ، فلا لزوم لذهابه
معك ، ويكفي أن حضرته يعطينا وعداً بالحضور غداً إلى القسم لأخذ شهادته على
هذا السكران .

(وعند ذلك يدفع صاحب الحان بالسكران إلى الخارج مع الجندي) .
(الجنديّ) — إذا كنت تطاوع غلامك كل مرة فيما يشير به عليك يا حضرة الخواجه
فليس يكون حضرة المعاون عندك في كل ليلة ، والأيام بيننا .
(صاحب الحان) — أوصيك بهذا السكران شراً ولا يكن عندك شك في دوام الرعاية بك .
قال عيسى بن هشام : وخرج السكران أمام الجنديّ مدفوعاً في ظهره ، يقع ويقوم ،
ويستعدي ويستنجد . وعدنا إلى داخل الحان ننظر ما يجري فيه ، فإذا صاحب الحان ومعه

البك خصيم السكران قد جلسا مع حضرة المعاون والسكرؤوس تغدو عليهم وتروح ، فجلسنا ناحية نستمتع لهم ونؤثر ما يجري من حديثهم على نحو ما ترى :

(صاحب الحان) للمعاون — لماذا أوعزت إلى صاحبك بالقيام عند جلوسنا معك ؟
(المعاون) — أنا لم أوعز إليها بشيء ، ولكنها هي التي قامت مغضبة .

(صاحب الحان) — ولأى سبب أغضبتها ؟

(المعاون) — لم آت سبباً يغضبها ، بل هي التي انتحلت سبباً كدرتني به وكدرت نفسها أيضاً .

(صاحب الحان) — لا شك أن ما حصل هو من باب الدلال دون سواء ، وسأدعوها في الحال لعقد الصلح بينكما .

(المعاون) — لا دخل للدلال هنا ، ولكن جرى في أمر حضرة البك والسكران ما هو ، على خلاف هواها ، فانها كانت ترغب في التضييق على الأول والتفريق عن الثاني ، لأن حضرة البك هو من أكبر أصحاب المغنية ، والمغنية من ألد أعدائها .

(صاحب الحان) — لقد حرت في أمر هذه الفتاة ، فان ضروب حماقتها لا حد لها ، وفي كل ليلة تأتيني بنوع من المشاكل جديد ينتج عنه ما لا يعوّض من خسارتي ، ولولا منزلتك عندي ومنزلتها عندك لما أبقيتها في الحل يوماً واحداً ، ولا كابدت إعطاءها في كل شهر مقدار ما يأخذُه وكيل المديرية مرتباً من الحكومة ، ولو شاهدت منها ما أشاهده كل ليلة تسافهها على الرجال وتخاصمها مع النساء اعتماداً على سلطتك واتكالا على مساعدتك لعلمت مقدار حماقتها وجنونها .

(المعاون) — نعم إن حماقتها عظيمة ، وطالما شددت عليها لتجتنب المنازعات والمشاجرات حتى لا يقال إن علاقتها بي هي التي تجرّها على ارتكاب ذلك ، ولكنها على كل حال سليمة القلب خفيفة الروح .

(صاحب الحان) — صدقت وهي مع ذلك تحبك حباً صادقاً .

(وهنا تدخل المغنية في البار بعد انتهاءها من الغناء ، فتتقدم نحو هذا المجلس لتسأل من

حضرة البك صاحبها عما تم عليه أمر الخاصمة مع السكران ، فيقول لها) :
 (البك) — أنا في غاية التشكر لحضرة المعاون الذي أنصفتني ، وفي غاية التكدر لما وقع له من فلانة بسببي ، فانها اهتمت غضباً لما علمت بمساعدته لي ، وهي تبغضني لعلاقتي بك ، فبحياتي عليك إلا ما قبلت التوسط في الصلح بينكما وإزالة ما في النفوس ، فتعود راضية على حضرة المعاون ، ويتم الصفو لنا جميعاً .
 (صاحب الحان) — أنا أوافق على هذا الرأي .
 (المعاون) — وأنا لا أرفضه .
 (البك) — وأنا أرسل في طلبها .

قال عيسى بن هشام : وتحضر الفتاة فيقع نظرها على المغنية جالسة مع المعاون وأصحابه ، فتشتعل جذوة نار من الغضب ، وتنقلب لبوءة هاجت لفقد أشبالها ، فتشتم وتسب وتقذف وتلعن وتنفل وتبصق ، وتنقض على المغنية فتأخذ ببرقعها فتزِيلها من مكانها ، وتلتفت إلى المعاون فتتوعدده بالشكاية والطعن فيه لدى رؤسائه ، ثم إلى صاحب الحان فتتهدده بأنها لا ترقص في ليلتها ، فلا يسع صاحب الحان إلا أن يتلافى الفضيحة ، فيجرها إلى خارج البار بالقوة ليتمكن المعاون أن يتسلل هارباً ، ثم أخذ ينصحها ويحذرهما ، ويقول لها : إن المعاون قد ذهب إلى القسم الآن ، وقلبه مملوء منك حقداً وغيظاً ، فاذا أنت لم ترجعي عن حماقتك وتصعدى إلى المنصة للرقص أوعزت إلى المغنية أن تمسك بك وتذهب معك إلى القسم ، والحاضرون يشهدون أنك تعديت عليها بالضرب ، والمعاون هناك ينتظرك للتشفي منك .

قال عيسى بن هشام : فوق هذا القول منها وقع الماء في النار ، وإنذار الحجز على أهل المدار ، فهذا جأشها ، وسكن طيشها ، وصعدت للرقص على منصتها ، تتأوّه من حسرتها وغصتها . وعدنا للجلوس أمام الميدان ، ننظر ما يكون من الغلبة والخسران .

قال عيسى بن هشام : جاء دور الرقص ، فضجت الغوغاء ، واشتدت الضوضاء ، وامتدت الأعناق بالصفير والنعيق ، واشتغلت الأكف بالتصفيق ، ترحيباً وتأهيلاً ،

وتكبيراً وتهليلاً ، إذ قامت على المنصة هلوكٌ ورهاء^(١) ، عشاء مرهاء^(٢) فطساء فورهاء ، عجفاء شوها^(٣) مَزَجَّة الحاجبين ، محمّرة الخدين ، مبيضة الساعدين ، مخضبة اليدين ، قد ألبست وجهها من الطلاء نقاباً ، وأسدت على أطرافها من الدهان ثياباً ، بأصباغ شتى وألوان ، بين أبيض ناصع ، وأسود فاحم ، وأحمر قان ، تتلون تلون الحرباء ، في هجير البیداء ، وقد وارت ما تعرض من جسمها ، وتعري من لحمها ، بأنواع العقود والقلائد ، والأساور والمعاضد ، والدمالج والجلالجل ، والمناطق والمخالخل ، فأخذت في الرقص والحجلان ، على توقيع الضروب والألحان ، وبجانها خادم ما شككنا من قبح هيئته ، أنه إبليس اللعين في طلعته ، رُكبت منه أقبح هامة ، على أسوأ قامة ، بوجه قد قُد من الصخر ، وعين كعين الصقر ، وأنف كمنسر النسّر ، وفم يرمي بالزبد كالبحر ، وشفة مهدولة ، وعمامة مجدولة ، وفي يمينه قدح وإبريق ، يسقيها منه بكأس من حريق ، لا بكأس من رحيق ، ويُعاطيها من غسلين أو قِطران^(٤) ، ويجرعها من حمم آن ، وكلما أترع لها كأساً ، همست في أذنه همساً ، ثم تشير بطرف الكف ، إلى بعض الجلوس في أول صف ، فيصيح اللعين صيحة الأسد في عريسته^(٥) ، وقَع بصره على فريسته ، فيحبيه غلام الحان جذلاً وابتهاجاً ، ويأتيه بالزجاجات أزواجاً ، فيفيض عنها النِدام ، ويصففها أمامها تحت الأقدام ، ولا يزال خادمها يملأ لها ويسكب ، وهي تشرب وتطلب ، لا تكفي ولا تقنع ، ولا تروى ولا تنقع ، كأنما يمتح لها من قليب^(٦) ، ويصب في وادٍ جديب ، أو يملأ من ماء منبثق ، ويُفرغ في دنٍ منخرق ، فإذا دبّت في عروقها نِمالُ الحر ، واشتملت في جوفها اشتعالُ الحجر ، جدّت في لعبها ودورانها ، واشتدّت في قفزها وجولانها ، وتلوت كالحية في طُرُقها ، ولعبت كالسَلَحَفَة بعُنُقها ، والخادمُ أمامها ينازلها وتنازله ، ويغازلها وتغازله ، ويراقصها وتراقصه ، ويقارصها وتقارصه ، وهي ترسل على الحاضرين أقوالاً بذيمة ، وتخطبهم بألفاظ قبيحة رديئة ، فتفتّر لها الثغور ، وتنشرح الصدور ، ليس

(٢) المرهاء : التي ابيضت بواطن أجفانها

(٤) الغسلين : ما يسيل من جلود أهل النار

(٦) القليب : البئر

(١) الورهاء : الحمقاء

(٣) العجفاء : المهزولة

(٥) العريسة : بيت الاسد

فيهم إلا كل مستحسن مستزید ، ومستملح مستعید ، إلى أن تخور قواها ، وتغور عيناها ، وتقلص شفتها ، ويكلح شدقاها ، وينضج العرق من أطرافها وتراقبها ، وينعقد الزبد بنجرها وفيها ، ففضطر إلى إزالته ، وتعمد لإزاحته ، فتتناول المنديل تمسح به من وجهها وذراعها ، فيتلون بأشكال الصبغة وأنواعها ، فيغدو المنديل كأنه قوس قرح ، بما تصبب من أديمها وارتشح ، وينكشف التويه والتلبيس ، ويفتضح التليفق والتدليس ، فيظهر ما بطن ، ويبرز ما كمن ، وتنقلب إلى صورة سعادة ، تترامى في سراب فلاة ، أو غول ، تكشر وتصول ، أودب ، يهتز ويدب ، فحولنا عنها الوجوه استنكافاً واستنكاراً ، ولوينا الأعناق استقباحاً واستقذاراً ؛ ومال الباشا على الصديق يسأله في دهشته ، ويقول له في نفرتة : أعلى مثل هذه تذب القلوب ، وتنشق المراثر والجيوب ؟ وهل وصل العمى بالناس إلى هذا الحد ، ولم يبق فيهم تمييز للغزال من القرد ؟

(الصديق) — نعم إن هذه — التي تهرب منها الوحوش لفظاعتها ، ويتعوذ منها الشيطان لدمايتها — هي عند هؤلاء الحاضرين دمية القصر ، وفريضة العصر ، كم ذهبت بأموال ، وأودت بأرواح ، وكم أضاعت شرفاً ، وأزالت مجداً ، وأذلت رقاباً ، وأفسدت حكماً ، وكم فرقت بين المرء وزوجه ، وولدت العقوق بين الوالد وولده ، وألهبت العداوة بين الأخ وأخيه ، وكم خربت بيوتاً عامرة ، ودنست أنساباً طاهرة ، وكم بذرت للشر أسباباً ، وفتحت للسجون أبواباً ، وهؤلاء الذين تراهم جلوساً في هذا المستنقع الوبيء ، والمرعى الوبيل ، يقضون فيه ليالى الشهر تباعاً ، وشهور العام ردافاً ، لا تتوهمهم من أسافل القوم ، ولا من أدنياء الناس ، بل فيهم الكبير والأمير ، والسرى والوجيه ، وانظر عن يمينك إلى هذا الجالس بين إخوانه جلسة الكبرياء ، فهو أحد أبناء الأمراء ، مات أبوه وترك له أموالاً جمة ، فالتف حوله قرناء السوء من أهل البطالة والفراغ ، فبدأ في تبديد تلك الأموال باقتناء الخيول المسوومة ، والمركبات المظهمة ، ثم ثنى بالإسراف الفاحش في مهرجان زواجه ، ثم ثلث بتسليم ما بقى منها لأيدى العواهر والفواجر ، وأخضهن هذه اللعنات التي لم يبق له منها إلا التمتع بالنظر ، وهي لا تنظر إليه ، ولا تسأل عنه ، بعد أن استفرغت أمواله ؛ وانظر عن

شمالك إلى هذا الجالس الذي يقتل شاربيه ، ويملئ بعينيه ، ويعجز بحاجبيه ، فهو من أبناء الكبراء أيضاً ، ماتت أمه فورث عنها أموالاً طائلة ، ولم يمض على موتها بضعة أيام حتى أوقعه سوء طالعها في محالب هذه الخداعة الغرّارة ، فهو لا يصبر عنها ، ولا يقطع الجحى إليها في كل ليلة ، وهي تسلبه كل ما تصل إليه يده من خفيف وثقيل ، وما كان لأمه من حلّ وجواهر غير ما ينثره من الذهب والفضة في أرض هذا المسكان ؛ وانظر أمامك إلى هذا الجالس معظماً بين جلسائه مبعجلاً ، فهو من كبار الحكام في الأرياف ، وقع في أشراك هذه المرأة ، فكادت لفضاعة أعمالها معه أن تسلخه من شرفه ، وتسقطه عن منصبه ، وهو مع ذلك لا يسلوها ، ولا يلهو عنها ، وليس له في مدة إقامته بالقاهرة غير بيتها مأوى ، ومقصها ملهى ، فإذا هو عاد إلى مقرّ وظيفته عاد بغير لبه ، فيسعى في استغواء العمد والأعيان لاقامة الولائم والحفلات ، واستتجار هذه الراقصة لاحياء لياليها ؛ وانظر إلى هذا الشيخ الجالس منفرداً منزوياً ، ويده مرتشقة بين صدغه وعمامة ، فهو من أعيان البلد ، لم يمنعه وقار السن وهيبة المشيب من الوقوع في أسر هذه الغاوية ، فأخذ يبدد عندها في شيخوخته ما كان جمعه في شبابه .

(الباشا) — لو أنه كان لهذه المرأة مزية ظاهرة من مزايا النساء ، لقلنا الهوى في الناس داء قديم ، والولوع بالحسان أمرٌ بدّيه ، والعذر غير معدوم ، ولكن ما بالهم والمرأة في القبح والدماة بمنزلة الشيطان ، والهروب منها مندوب إليه ، فهل تعلم لذلك من سبب خفي ؟

(الصدّيق) — السبب فيه حبُّ التباهى والتفاخر والأثرة والاختصاص ، وقد اشتهرت هذه البغى باتقان الرقص والتفرد فيه ، وأنفسُ الجهلاء مولعة بالشهرة الباطلة والصيت الكاذب يتشبثون به عُنى النواظر ، عُمة البصائر ، فهم يرون أن الاختصاص بمثل هذه الشهيرة في فنّها ، وإن قُبِحَ منظرها ، وساء نخبها ، هو الفخر كل الفخر والسبق كل السابق ، وهم مجبولون على الحكاية والتقليد ، فلذلك نفّذ فيهم سهمها ، وسرّى في عروقهم سمها .

(الباشا) — إن كان لا يوجد في هؤلاء الناس عقول تردعهم ، ولا يوجد بينهم واعظ يرشدهم ، أفلا كان هناك من سلطان يزعمهم ، وحكم يكف الأذى عنهم ؟

(الصدق) — لا واعظ ولا ناصح ، ولا سلطان ولا وازع ، وقل يئبنا من يشتغل للناس في نفع الناس .

قال عيسى بن هشام : وانتهت الراقصة من رقصها ، فدخلت حجرة لتغيير لباسها ، وإصلاح ما فسد من حالها ، ثم نزلت منها وقد جددت ألوانها وأدهانها ، وسارت تتكسر في مشيتها بين الجموع وهم يرمقونها رفق الشهوة ، ويتطلعون إليها تطلع البهيمة ، فتزحزحت لها المجالس ، وحُلَّت لها الحُبَى ، وأعد لها كل فريق كرسيا بجانبه ، وتناثرت عليها الاشارات بالتفضل بالجلوس ، فلم تعبأ بشيء من ذلك ، ولم تلتفت إليه ، واستمرت في تكسرها وتهاديها ، حتى وصلت إلى مقام صاحب الخان ، فوقفت معه مُلَاعِبَةً مُدَاعِبَةً وممازحة مضاحكة ، وجاء خادمها في عقبها ، فاستوقفه إليه ذلك الحاكم من حكام الأرياف ، فوقف بجانبه يهزل معه ويمزح ، ثم شاهدنا الحاكم يخرج من جيبه بعض الدراهم فوضعها في يده ، فانصرف الخادم إلى الراقصة فكلمها وأشار بيده إلى الحاكم يستعطفها له ويستدعيها إلى الجلوس معه فأبانت عن أمارات الإباء والرفض في أول الأمر ، ثم انتهت بها لاجئة الخادم إلى الرضاء والقبول ، فقصدت مجلس الحاكم وقصد الخادم غلام الخان ، فما جلست حتى كان الغلام بجانبها يحمل في يده أربع زجاجات من الشمبانيا ، فَبَزَلَهَا كلها مِمْبَزَلَةً^(١) ، ففارت وفاضت ، وانتشرت كلها حبباً ، والغلام متلاهِ عنها لا يسرع الإملاء منها ، حتى إذا لم يبقَ بها مقدار صُبابَةٍ^(٢) صَبَّهَا الخبيث في الأقداح وقدمها للفاجرة ، فبادرت إلى لمس كل كأس لمسةً بيدها وفيها ؛ ثم يعود الغلام بعد هنيهة لأخذ الزجاجات الفارغة ، فتأمره بإحضار سواها ، وهكذا يتوالى الحال في طلب الأدوار ، حتى يبلغ إلى الدور الخامس في مدة يسيرة ، وجميع الجالسين لا يتحولون بنظرهم عنها يراقبون حركاتها وسكناتها كأنما يرصدون نجماً أو يرقبون هلالاً ؛ ولما انقطع ورود الزجاجات ، التفت العاهرة إلى خادمها وهو على بعدٍ منها ، فرأته يشير إليها بحاجبيه تارة ، وبطرف لسانه أخرى فهَمَّتْ بالقيام ، فأمسك الحاكم بأذيالها ، فصفعته صفعة مزاحٍ على قفاه ، بعد أن لعنت أمه وأباه ، استرضاء له

(٢) الصبابة : البقية في الاناء

(١) بزل الحجر : ثقب إناءها . والمبزل : المنقب

عن تركها إياه ، فهشّ وبشّ اعتقاداً منه أنها لا تعامله بهذه المعاملة إلا لسقوط الكلفة ، وتمكن الألفة ، وتنسلّ من حضرته إلى حيث أشار الخادم ، فتهبط على الفئة التي عن يميننا ، وفيها ذلك الشاب الذي أفنى في حبها ماله وأضاع في هواها شرفه ، فخطبته بلسان اللوم والعذل ، تسأله لأيّ سبب دعاها ، ولأجل أية علة أقلقها من مكانها ، فيتلثم المسكين ، ثم يجيبها بأنه دعاها لمصلحتها وقضاء حاجتها ، فإن الحمى أخبره بنجاح قضيتها ، فتبسم له قليلاً ، ثم تلتفت عنه إلى سواه ، فيستحلفها بالود القديم والعهد العتيق أن تجلس معه لحظة ليقصّ عليها تفصيل الخبر ، فتتفر منه ، فيرميها بسوء الوفاء ، وخيانة العشرة ، ويبيكتها مذكراً لها بما كان بينهما من الصفاء والهناء ، وما أتلفه في معاشرتها من نضار وعقار ، فتلطمه على وجهه لطمه المعلم المؤدب ، وتجلس إلى جانبه ، وتسأله أن يدع عنه ذكر تلك الليالي ، والأيام الخوالي ، وأن يحفظ عنها « قصة الأضراس » في باب الاعتبار ، وروت له هذه القصة التي هي عندهنّ عماد الصنعة وأساس الفن : « زعموا أن فتى كان يهوى فتاة وتهواه ، فعاشا تحت جناح الحب زمناً سعيداً ، ثم طرأ على الفتى سفرٌ يبعده عنها في طلب المال ، وجاءت ساعة الوداع ، فانهملت العبرات ، وتوالت الزفرات ، وأقسمت له بأن العيش لا يطيب لها من بعده ، وأن الموت أهون عليها من بعده ، وسألته أن يُبقى عندها أثراً منه تتعلل به في غيابه ساعة الحنين ، وتشم منه ريحه وقت هيام الذكرى ، فقال لها سأترك لك بضعة منى ، وانزع لك أثراً من بين لحمى ودمى ، ثم عمد بيده إلى فيه فاقتلع لها ضرساً من أضراسه غير مبال بألم الانتزاع ووجع الاقتلاع ، وناولها إياه يقطر بالدم ، فأخذته منه وأشبعته لثماً وتقبيلاً ، ووضعته في حقة نفيسة . وسافر الفتى سفره ومضت عليه الأيام والليالي ، ثم أب من سفره خائباً لم يظفر بحاجته ولم يفرّ بطيبته ، رقيق الحال ضعيف الركن ، فذهب إلى دار صاحبتة ، وقد أضناه الشوق ، وبراه النوى ، فلما طرق الباب ولحنته من النافذة تنكرت له وأنكرته ، فناداها أنا فلان فاسمحي لي بالدخول ، قالت له : ومن فلان فإني لا أعرفه ؟ قال لها : خليلك وحبيبك ، صاحب العهد الوثيق والعشرة الطويلة ، قالت له : كل الناس عاشر وفارق فأيهم أنت ؟ قال لها : أنا صاحب

الضرس ، قالت : أولك ضرس عندي ؟ قال : نعم ، قالت : فادخل ، فدخل . فأجلسته وأحضرت أمامه حقة كبيرة وأمرته بفتحها ففتحها فوجدها مملوءة بكمية عظيمة من الضروس ، وقالت له : دونك ، إن كنت تعرف ضرسك من بين هذه الأضراس ، فأنا أعرفك اليوم من بين الناس . ولما أتمت الواعظة وعظها انصرفت عن هذا المجلس إلى مجلس ذاك الشيخ الوجيه ، فيقوم لتحتيتها واقفاً ، ويؤدى لها نواجذهُ مهللاً ، فتجلس معه وغلام الحان فوق رأسها ينتظر طلب الزجاجات ، فلا تلتفت إليه ، فيديم الوقوف ، فتأمره بالانصراف ، فيعود خائباً ، وتقول للشيخ : إنها لا تريد أن تحمله في حبها مغرمًا ، ولا تقيسه عندها ببقية الحاضرين الذين تسلبهم لصاحب الحان ، فيخرج الوجيه من حزامه عقدًا يتلألأ فيضعه بين يديها ، فتبسم له وتنعطف إليه وتقيم عنده مدة مضاحكة ومغازلة ، ثم تقوم لتنصب على سواه شابًا كما وترى لصيد القلوب أشراكها .

تُحَيِّ وَجُوَّةَ الشَّرْبِ فِعْلَ مُسَالِمٍ^(١)

يُضاحِكُهُ والكَيْدُ كَيْدُ مُحَارِبٍ

قال عيسى بن هشام : وأقمنا نتأمل في أفعال هذه البغي الفاجرة ، ونفكر في أعمال هذه الخداعة الماكرة ، ونعجب كيف يقدر مثلها على ختل الرجال ، فترميهم في مهاوى الغواية والضلال ، وهى عارية من ثوب الجلال ، مجردة عن جميع المزايا والخصال ، مُفرغة في قالب الوقاحة ، معجونة من حمأة الدمامة والقباحة ، وما زالت الفاجرة تتقلب بين الجالسين وتتنقل ، وتتجول بين الصفوف وتتجول ، وتروح إلى صاحب الحان وتغدو ، وتخفى آونةً ثم تبدو ، منطلقة اللسان بالسب والثلب ، منبسطة اليد بالنهب والسلب ، ممتدة الكف باللطم والضرب ، دائبة في السكب والشرب ، وهى فى تنقلها تقطع تارة وتبجهم ، وتفتّر تارة وتتبسم ، وتنسبط حيناً وتنقبض ، وترضى ساعة ثم تمتعض ، وتعامل كلَّ إنسان بما يلائمه ، وتجري معه على ما يوائمه ، فتضلُّ الألباب والنهى ، ويقع الجميع فى أسر الهوى ، وآية حبها وميلها ، أن تصفع الصب بنعلها ، فإذا أضافت إلى الضرب بالنعال ، شقَّ القباء ونَتَفَّ السبال^(٢) ، كان فى ذلك بلوغ الآمال ، بدنوّ ساعة الوصال ، واستوى المضروب

(١) الشرب : جمع شارب الخمر . (٢) السبال : مقدم اللحية .

يُفاخر أصحابه وخلانه ، ويباهى أنداده وأقرانه ، كالظافر في ساحة الطعان والضراب ، والفائز بالغنائم والأسلاب ، فيغالى في إظهار الابتهاج والاثتناس ، وتنبسط يده في الكيس ويدها في الكاس ، والفلام على رأسه بالآنية ، يصب لها زجاجة كل ثانية ، وهي تصب الكؤوس في الهاوية ، كأن حلقة قناة وكأن الساق ساقية ، وحانت منها التفاتة إلى الخليع وصاحبيه ، فإذا العمدة يشير بيديه ، ويعمز بحاجبيه ، ويقول للخليع في اشتعاله والتهابه ، ويخاطبه في ارتبائه واضطرابه :

(العمدة) للخليع — لقد أسعدنا الجد ، وحلت لدينا عاقبة الصبر ، ولئن فاتنا الأنس بالغائب ، فما أكل أنسنا بالحاضر ، وهذه الراقصة التي اجتمعت على محبتها القلوب ، وافتتنت بها العقول ، هي عندي الضالة المنشودة ، والأمنية المطلوبة ، ومن يبلغنا إياها سواك ، ويمن علينا بها غيرك ؟

(الخليع) — هذه هي الفتانة المشهورة بكثرة العشاق والطلاب ، ولا عيب فيها غير المزاحمة عليها ، والمورد العذب كثير الزحام ، والوصول إليها من دونه أهوال .

وإنك إن أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوم أتعبتك المنـظرُ
رأيت الذي لا كله أنت قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ
(التاجر) — نعم هذه هي البضاعة الثمينة والسلعة الرائجة ، فاز من حازها ، وخسر من فاتها ، ولو كانت الأيام أيام ربح ورخاء ، لصبا إليها القلب وولعت بها النفس ، ولكن رب العيال ما يشغله عنها ويبعده منها .

(العمدة) — ليس يفوتنا على كل حال أن نتمتع بها الليلة بالجلاسة والمغازلة ، ونروى بمحادثتها الغليل ، ونشفي بكلامها الهيام .

(الخليع) — حبذا لو جلست معنا ساعة ، ولكنك ترى من المزاحمة فيها والمنافسة بين الحاضرين في الغرام بها والغرم عليها ما يجعل نيل الغرض متعسراً ، ودرك الطالب متعذراً

(العمدة) — أما المزاحمة عليها ، فإن لنا من مهارتك ونباهتك ما يقرب الأمل بالوصول إليها ، وأما المنافسة في الغرم عليها فالأمر مستدرك والدرهم موجودة .

(التاجر) — ما أشكُّ بعد هذا في نيل الغرض وقضاء الوطر ، وستنتهي ليلتنا بمسك الختام .

قال عيسى بن هشام : ويدعو الخليع خادم المرأة ويهيم بإعطائه شيئاً من الدراهم ، فيسابقه التاجر ، فيمنعهما العمدة ويقوم مقامهما ، فيأق الخليع في أذن الخادم قولاً ، ويطول الخطاب بينهما همساً ، ثم يذهب الخادم ، فيعود بمولاته تتيه دلالاً ، وتثني اختيالاً ، وتبدي الرضا من خلال التمتع ، فتسلم على أهل الجلس ، وتخص الخليع بابتسامة ، وتجلس بجانبه ، وتسأله عما جرى في الجلس بعد انصرافها عنه بالأمس ، فيقطع عليها هذا الحديث بالهتفه ، ثم يبدأ بعقد التعارف بينها وبين العمدة ، ويطنب لها في علو شأنه ورفعة مقامه ، فترحب به ، فيرفع العمدة يده إلى رأسه مراراً تشكراً لها ، فتلمح فص الخاتم يتألق في إصبعه ويتوهج ، فتضع يمينها في يمينه وتجرها إليها ترصد الحجر ، فيسمل الرجل طرباً وابتهاجاً ، ويعتقد أنها كلبت به حباً وغراماً ، فلا يروعه إلا أصوات الأصمة ينزعها الغلام عن الزجاجات تباعاً ، وكلما أفرغ أرباعاً عاد بأربع ، حتى هال التاجر من ذلك ما هاله ، فمال إلى الخليع ينجيه ، فسكن الخليع من روعه ، وأزال الهواجس عنه ، فيميل التاجر إلى الأقذاح يسكب ويشرب ، وإلى المرأة يهازل ويغازل ، ويعاطي ويناول ، والعمدة على حاله باهت شاخص ، ومولع موله ، والخليع مسرور مبتهج ، لا يرسل الكأس عن فيه ، إلا ممسكاً بأخيه ، والمرأة تخذع وتكيد ، وتقول للغلام : هل من مزيد ؟ ثم يخرج العمدة ساعته من جيبه ويتشاغل عن النظر إليها بالحديث ، فتقبض المرأة عليها تتمعن فيها وتقول له : قد آن أوان الانصراف ، وحانت ساعة الختام ، وتقوم مودعة ، فيتلهف العمدة ويتحسر ، ويسألها أن تتم جميلها بالبقاء معه بعد الانصراف في مجلس آخر ، فتضحك له ضحكة القبول ، وتلطم الخليع بالمروحة على خده ، وتغادرهم إلى صاحب الخان فتجلس معه ؛ يأخذ الناس في الانصراف ، والخدم في رفع الكراسي ، وإغلاق بعض الأبواب ، ولا يبقى في المكان غير أصحاب الوعد من العاهرة : ذلك الحاكم الوامق ، وذلك الغلام الوارث ، وذلك الشيوخ المتصابي ، وهذا العمدة المغرور بتاجره وخليعه ؛ فإذا طال عليهم

الانتظار، ويئس الواحد بعد الآخر من صدق الوعد عمدوا إلى الانصراف، يصحبهم الهمّ ويرافقهم الكدر إلا العمدة فإنه يلح في الانتظار لشدة ما به من سكر الهوى وسكر الحر.

سُكران: سكرُ هوى وسكرُ مُدَامَةٍ ومتى يُفنيق فتى به سُكران! ويقصد المرأة في مكانها عند صاحب الحان، وهو يتعثر في مشيته، ويجر في عباءته، فيقف بين يديها يستنجزها الوعد، فتغضى عنه، فيلح عليها، فتكّج في الإعراض، فيُخرج من جيبه كيس الدراهم ويدسط به راحته راجياً متضرعاً، فتظهر له الجفوة، فتشدد به الصبوة، فيتراعى عليها، فتدفعه برجلها عنها، فيقع على الأرض، فينتثر ما في الكيس، فيعمد الخليع لالتقاطه، فيسبقه إليه صاحب الحان، ويتمائل العمدة واقفاً، فيمد يده إلى المرأة فيأخذ بصفيرتها يجذبها نحوه، فتسبه وتلعنه، وتُمسك بصاحب الحان، ويستمر العمدة في الشدّ والجذب، فتخونه الضفيرتان، فيرتدى على ظهره طريقاً وهما في يده، والمرأة باقية في مكانها تصيح وتستغيث، فينقض من أقصى المكان رجلٌ رث أهيمته قبيح الطلعة، وسخُ العمامة، يرفع في يمينه هراوة، ويتأبط في شماله صرة ثياب، فيقع على العمدة ضرباً بالهراوة، ويدفع العمدة عن نفسه ضرباً بالصفيرتين، ويتوسط بينهما التاجر، فيسأل الرجل عما يعميه في الأمر، فيقول له إنه زوج المرأة، وإنه يدافع عن حريمه، ولا يرجع عن غريمه، فيتعرض له التاجر يمنعه عن الفتك بصاحبه، فينصحه الخليع بالرجوع عنه، لأن الرجل من أهل «الحماية»، وفي التعرض له إلقاء باليد إلى التهلكة، فإنه فوق القانون يجنى ولا عقوبة عليه؛ فما يسمع العمدة هذا القول حتى يستنجد بالخليع لينقذه من بلائه، فيتقدم الخليع، فيكلم الزوج طوراً، والحليلة تارة، وصاحب الحان أخرى، فينتهى النزاع بينهم على أن يترك العمدة ما التقطه صاحب الحان من دراهمه، مرضاة المرأة عن إهانتها، وعوضاً لها عن خسارة الصفيرتين؛ ثم يقوم صاحب الحان وينادى غلامه وهو مشغول بإطفاء الأنوار، فيسأل عن حساب العمدة فيكونه له، فيلتفت إلى العمدة قائلاً:

(صاحب الحان) للعمدة — والآن فادفع لنا ثلاثة عشر جنيتها ثمن المشروب ، وانظر ماذا تعطينا من العوض في تعطيل الحل بهذه الأفعال الصبائية .

(العمدة) — ما هذه الحسبة ، وما هذا الكلام ؟

(صاحب الحان) — أما الحسبة فصحيحة ، وأما ما أتيتهُ فإنه لا يليق بمقامك ، وأنت رجل من أهل الوجاهة والرفعة ، ولكنها الخُرَامُ الشرور ، وإن خالها الشارب أمَّ السرور ، وما كان لك أن تتعلق بهذه المرأة المشهورة بتمنعها عن أهل التنافس فيها ، والنساء غيرها كثيرات في الحل ، وإن كان لابد لك منها ، فأنا أسمى في الصلح بينكما عند تشريفك الحل في الليلة الآتية ، وأرجو أن لا تتوقف في دفع هذه الحسبة الصغيرة ، فإني لا أرضى لك الإهانة ، ولا ترضى لنفسك الفضيحة .

(العمدة) للتاجر — هل عندك ما نسدد به هذا المبلغ ؟

(التاجر) — لا وحق العشرة وحرمة الصحبة ، فلم يبق معي من الدراهم لاقيل ولا كثير .

(العمدة) للخليع — دبرني يا صديقي في أمرى ، وانظر لى طريقة الخلاص .

(الخليع) — يعز علىّ والله ما نحن فيه ، ولكن عزّت الحيلة ، ولو كان صاحب الحان يقبل منى ساعتى هذه رهنا على هذا المبلغ لرهنتها عنده ، ولكنه ربما استضعف قيمتها عن قيمة المطلوب ، ولو كان في الوقت سعة لذهبت لاستحضار النقود بأية طريقة كانت .

(العمدة) — إن كان الأمر ينقضى بالرهن ، فهذه ساعتى أئمن من ساعتك ، وهى عندى أعز علىّ من روحى ، لأنى أخذتها هدية من دائرة « البرنيس » يوم بعت لها أطيافها ، وعليها حروف اسمها منقوشة ، وقد قدرها لى الجوهريّ بخمسين جنيتها .

(الخليع) — إن كان الأمر كذلك فلا يليق رهنها ، وعندك الخاتم ترهنه مكانها .

(العمدة) — هذا هو الأصوب ، وإن كان الخاتم أغلى من الساعة قيمة ، فخُذْه يا حضرة الخواجة رهنا عندك ، حتى أسدد لك المطلوب في الغد .

(صاحب الحان) — أنا لا آمن لهذه الفصوص الماعة ، فقد غشونى فيها مراراً بإحكام التقليل في صناعتها ، وليس هنا الآن من أثق به من أهل الصناعة ، ليكشف لى عن حقيقة هذا الفص .

(التاجر) بعد أن يعن في النص — كيف تقول ذلك وهو من الماس القديم وقيمته لا تنقص عن مائة جنيه ، وأنا مستعد لرهنه عندي على خمسين جنيها ، فانتظروني ريثما أذهب إلى محل مبيتى وأرجع إليكم بالمبلغ.

(صاحب الحان) مكفهرأ — ليس عندي وقت للانتظار ، فقد مضى الميعاد المقرر لإغلاق المحل ، وهذا جنديّ البوليس واقف أمامنا يتمجلى في مطاوعة أوامر الحكومة . (الجنديّ) — نعم مضى الميعاد ، ولا بد من الإغلاق حالا ، فانظروا معكم شيئا آخر للرهن يُفَضُّ به هذا المشكل .

(الخليع) للعمدة — أعطه الساعة ، فلا حول ولا ... وليس هناك ما تخشاه عليها فإننا نستخلصها غداً بعد أن تقابلني في الصباح بقهوة الموسيقى .

(صاحب الحان) بعد التأمل في الساعة — هذه الساعة لا توفى قيمة المطلوب وحدها ، فاترك الحاتم معها أيضاً .

(العمدة) — هذا لا يصح مطلقا ، فإن المبالغ المطلوب لا يزيد عن ثلاثة عشر جنيها ، على فرض صحته .

(الخليع) — ما دام العزم أكيداً على فك الرهن غداً فسيان رهن قطعة أو رهن قطعتين ، وأنا أرجو الحواجا أن يتجاوز لنا عما يطلبه من العوض في تعطيل المحل . (صاحب الحان) — إني أتجاوز عنه لأجلك .

قال عيسى بن هشام : ويشدد جنديّ البوليس في طلب الإغلاق في الحال ، فلا يسع العمدة إلا التسليم في الخاتم والساعة ؛ وبينما الجميع يتأهبون للخروج ، والمرأة واقفة تهزأ وتسخر ، إذ دخل رجل قبيح الخلقة جهم الوجه عريض القفا جاحظ العينين واسع المنخرين أهرتُ الشدقين ، فأخذَ يجيل في الحاضرين نَظَرَهُ يميناً وشمالاً ، ثم تقدّم إلى المرأة فسبّها ولعنها ولطمها ولكمها ، وقال لها : قد فات الوقت ومضى الميعاد ، وأغلقت الحانات ، وأنا قاعد في انتظارك بالبيت ، وأنت واقفة هنا تلعبين وتسخرين ، فأين هذا الصيد الذي أُلْهَكَ عني وأنساكِ أمرى يا عاهرة؟ فتجيبه مع الذل والاكسار بأنها أخطأت ، ولكن لها العذر ،

فقد وقعتْ حادثة مع بعض العمدة يشهد بها الحاضرون . وتذكر له ما كان من هجوم العمدة عليها ونزع ضميرتها ، فيشهد زوجها مع خادمها بتفصيل الواقعة ، فيزجر الرجل ويتوعد ، ويعمد للحاق بالعمدة وهو يعدو نحو الباب ، فتستعطفه الناجرة ، وتطلب منه أن لا يكدر على نفسه صفاء الليلة بالوقوع في محاسبة أخرى ، وتطلب منه الإسراع إلى البيت في صحبتها . وخرجنا مع الباشا نتعوذ من كيد النساء ، ونأسف على وقوع الرجال في أشراك المكر والدهاء ، وكيف نزل العمى بهم والجهل ، حتى يستسلموا لهذا الخدع والختل ، ويخرجوا عن مثل هذا المكان الدنيء ، والموطن الرديء ، وقد خرجوا من الثروة والشرف ، ودخلوا في البؤس والتلف ، ونزلت بهم أنواع المرض والسَّقم ، وضُبَّ عليهم سوط الأحزان والنقم ، ثم التفت الباشا إلى الصديق ، يسأله في أثناء الطريق :

(الباشا) — ألا تخبرني أيها الناقد الخبير ، كيف يصبر مثل هؤلاء الناس على الإقامة في هذا المكان ، وكيف يترددون عليه ليالى متتابعاتٍ ، ولا يدركون ما يدرهم فيه من الهلاك والوبال ، وقد كاد يقضى على الإقامة فيه بضع ساعات ، فما وجارُ الضيع وما وكر الظربان^(١) ، وما قبر الميت — يرحمنا الله وإياك — بأنتن رائحةً ، ولا أقدر مكاناً ، ولا أسوأ مقاماً من هذا الذى كنا فيه .

(الصديق) — يصبر الناس على الإقامة في هذا المكان ، ويكثر من التردد عليه ، بحكم التدرج وإلف العادة وقوة التماذى ، وكأنما أبدانهم تتلقح شيئاً فشيئاً بسمه ، فلا تحس بضربه وألمه ، كالمريض يذهله المُرقدُ عن ألم الداء وبتير الأعضاء ، وإن شكك فكالهندي يتدرج ويرتقي في تناول الأفيون ، وهو سُمٌ قاتلٌ ، حتى ينهض بجسمه إلى حالٍ لو لسمته معها عقربٌ أو لسبته^(٢) حية لم يؤثر سُمُّها فيه .

(الباشا) — أفدت بما شرحت ، وقد بقى عليك أن تفسر لي ما أشكل على من أمر الرجلين مع العاهرة ، أحدهما الذى يقول إنه زوجها ، والثانى الذى أخذت بيده أمامه إلى بيتها . (الصديق) — أما الزوج ، فإنه رجل من سفلة المغاربة المنتمين إلى دولة أجنبية ، تحميه

٨٤

من سلطة القوانين المصرية أن تناله عند مخالقتها، وهذه المزية هي التي تؤهلها عند العاهرة للتأهل به، فتدخل حينئذ في حمايته، وتخرج ببركته عن دائرة المحاكمة والعقوبة إذا أتت في فسقها وفجورها ما يخالف أوامر الحكومة، ويعيش الرجل معها زوجاً بالاسم، وديوناً بالفعل، وذلك في مقابلة شيء من الدرام يتناولها منها في كل ليلة، وهذه الطريقة قد تألفها الناس، ولم تقتصر على العواهر، بل تعدتهن إلى أرباب القضايا وأصحاب الجرائد، فترى صاحب القضية يتنازل في الظاهر عن قضيته إلى أحد أولئك المسخرين من رعايا الدول الأجنبية، ليخرج بها من نظام المحاكم الأهلية إلى نظام المحاكم المختلطة، إن ترجح لديه نجاح قضيته فيها. وترى صاحب الجريدة، الذي يزعم أنه الواعظ المرشد بين الناس إلى محاسن الأخلاق وغرر الفضائل، يضع على جريدته اسم الواحد منهم بأنه هو المسؤول عما يُنشر فيها ويطلع، يملؤها بما تسوّله له نفسه من الطعن على أولياء الأمور وأرباب الحكومة وأشرف الناس، ويُسوّد صحيفته بكل فاحش من القول وبذيء من الكلام، فاذا عوّل أحد الناس على محاكمته يوماً من الأيام وارى وجهه عن المحاكم بوجه الأجنبي، وقال لك: ما ذمّ الأمراء، ولا هجا الأشراف، ولا طعن في الناس إلا صاحب الاسم المسؤول، فعليك به، فاذا التمسته وجدته بائع نعال يصفق بها في عرض الطريق وينتسب إلى دولة من أكبر الدول الأجنبية يتمتع بحمايتها من سلطة المحاكم والقوانين المصرية، ولا سبيل إلى محاكمته إلا في بيت القنصل.



وأما الرجل الذي سحبتَه العاهرة بيدها إلى بيتها، فهو صاحب ودّها، وحبیبُ قلبها، تفضّله في آخر ليلها على كل رجل يتعلق بهواها، ويبدل نفسه في سبيل رضاها، ولا تعجب من سوء معاملته لها، وسوء غطرسه عليها، فذلك مما يزيدُها فيه حباً، ويولعها به شغفاً، والنفس الدنيئة الحقيرة لا تميل إلا لمن يبادرها بالاهانة والتحقير، ولا تنقاد إلا لمن يتناولها بالضر والأذى، فهو يضرُّ بها ويؤذيها على ما شهدت ورأيت، ثم يتمتع بها دون المتهاككين عليها، وينتفع بما تجمعه له من أموالهم لفضل هذا الوحش الضاري عندها على تلك الدواجن التي تدبّ حولها.

(الباشا) - لا شك أن في هذا نوعاً من الجزاء لهذه البغى على بغيها في الناس، وسلبها للأموال، وفكها بالأرواح، وقُلْ لمثل هذا الجزاء المعجل في الدنيا قبل العذاب المؤجل لها في الآخرة .
 (الصديق) - لا تستهيننَّ أيها الأمير الجليل بما ينال مثل هذه العاهرة في دنياها من الجزاء، فانهم جميعاً في معيشة كلها هموم وأدواء، ومن تأمل في حقيقة أحوالهم خَفَّ من سخطه عليهم، ووجدُهم أحق بالشفقة من القسوة، فإن هذه الأموال التي ينهبونها، والأسلاب التي يسلبونها، لا تلبث في أيديهم إلا ريثما ينفقونها في الحلى والحلل، والعاهرة لا تنتهي حاجاتها من الزينة، ولا تخلو من حبيب تكفله، وخليل تقوم عليه، فهي على الدوام في عسر شديد ودين ثَقِيل، وإن جميع ما عليها من الحلى والجواهر، وما يتأق في عنقها من القلائد، وفي معصمها من الأساور، وفي رجلها من الخلائل، إنما هي كلها في الحقيقة أغلال وقيود يسحبها بها الصائغ والجوهري في أسرٍ لا فكك لها منه طول الحياة، وهي كما رأيت تقضى ليلها إلى الصباح في شرب السموم من الخمر، وفي تحريك الأعضاء والأحشاء بتلك الحركات المنهكة لقوى الأبدان، وفي اشتغال الفكر بمراقبة الناس، وتكلف التعجب إليهم، وفي التفتن للتحايل عليهم، ثم التعرض لسوء المنازعات والخصاصات مع دوام التذلل والخضوع لصاحب الحان، فإذا انتهت من ذلك كله وصلت إلى بيتها منحلة الأعضاء، مفككة المفاصل، فترتمى على فراشها كالرمة في مكان هو أقدر من ذلك الحان وأفسد منه هواء، وربما لم تذق في يومها طعاماً، ولم تتناول في ليلها غذاء، فإذا قامت من نومها بعد نصف النهار، كالذي يتخبطه الشيطان، مصدعة منخورة لا تستهي طعاماً، ولا تسيف شراباً، حتى إذا تماسكت قليلاً بادرت إلى إصلاح الفاسد منها، ومداواة القبيح فيها بأنواع الزينة واللباس، وقعدت لمقابلة زائريها إلى أن يدخل عليها المساء، فتعود لما كانت عليه .
 لا تزال المسكينة هكذا دائرة في حلقة من التعب والوصب، ولا خلاص لها منها إلا بحلول الأمراض والأوجاع، ثم يُقضى عليها وهي في المعصية بعيدةً، عن ذوى الحنو والإشفاق من الأهل والأقارب، وذلك هو البلاء العظيم والعذاب الأليم .

قال عيسى بن هشام : وما راعنا في طريقنا إلا صوت الديك يؤذن بالصباح، وصوت المؤذّن يؤذّن حتى على الفلاح، فأسرعنا نطلب مأوانا، ونذكر أمّ مثوانا، ونحن نسأل رب الأرض والسموات، أن يغفر من ذنوب المسلمين والمسلمات .

العمدة في الرهن

قال عيسى بن هشام : ولما ارتفع وجهُ النهار أو كاد ، ومسحنا عن النواظر كل الرقاد ، بادَرْنَا كل الابدار ، بالخروج من الدار ، لنلحق بأولئك الرفقاء ، في المكان المعين للقاء ، فقصدنا « قهوة القزاز بالموسكى » ، فوجدناها تتموج بالداخلين ، وتضطرب اضطراباً بالواقفين والقاعدين ، فوقفنا هنيئاً نرسل النظر إرسالاً ، ونتصفح الوجوه يميناً وشمالاً ، حتى اهتدينا إلى « الصديق » جالساً جلسنا عن جانبيه ، ورأينا العمدة جالساً بجانبنا مع صاحبيه ، فإذا العمدة يثن تحت الموم المتقاطرة ، من سواد ليلته الغابرة ، حيث ناله فيها من الهوان ما ناله ، وأضاع تحت أقدام الراقصات شرفه وماله ، ورهن ما رهن من حلية ومتاع ، من غير لذة ولا استمتاع ، فهو متخاذل متضائل ، « له شقٌّ مائل ، ولونٌ حائل ، ولعبٌ سائل » ، وسحنة مُعبرة ، وأنامل مُصفرة ، وجفونٌ مَحْمرة ، وأحداقٌ جامدة ، وأعضاء هامة ، ورأسٌ متصدع ، ونفسٌ متقطع ، يفتح تارة فاه ، ويحكُّ طوراً في قفاه ، فيخاله كل من يراه ، نضو^(١) سفر أضناه السرى وبراه ، أو حلف تسخير أدمته العصا وألهبه السوط ، ليبلغ من جهد « السخرة » منتهى الشوط ، وإذا التاجر بجانبه يقلب حدقتيه ، ويتحلب بشفتيه ، ويصعد أنفاساً كالخريق ، في ميزاب^(٢) من الريق ؛ كأنه ذئب يهم بالعثيان ، ويخشى صولة الرُعْيَان ، أو صائدٌ يخاف أن يخونه كيده ، ويفلت منه صيده ، والخليع بينهما يطرق برأسه ، ويكنم ما في نفسه ، متفكراً ينكت الأرض بعصاه ، ويحاول أن يبلغ من الغرض أقصاه ، دائماً يبرم الخديعة ويهيئ العدة ، ليسقطها على رأس التاجر ودماغ العمدة ، ورأينا هنالك من دونهم نفرا ، لا يحولون عنهم نظرا ، كأنهم الطيور الجارحة تترقب حمامة سائحة ؛ فاستخبرنا من الصديق ، عن شأن هذا الفريق ، فقال ، هم جماعة من الفئة الباغية الماكرة ، والطائفة الراجحة الخاسرة ، طائفة الوُسَطَاء والسماصرة ، وشاهدنا الخليع يُوحى إليهم باللحظ والنظر ، كأنه يعاھدھم على النجح والظفر ، ثم سمعناه يقول للعمدة تهويناً لأمره ، وتيسيراً عليه من عسره :

(١) النضو : المهزول من الحيوان (٢) الميزاب : القناة يجري فيها الماء .

(الخليع) — لا تهتم يا مولاي ولا تقم، فالخطب أهون مما تنظن، والأمور بأمر الله ميسرة، والحاجات بأذنه مقضية .

(التاجر) — إن كان التيسير من جهة الاقتراض ، فأنا لا أتصور أن أرباب الأموال يقرضون اليوم أحداً بدون التوثق من الرهن لزوال الثقة بين الناس في هذا العهد ، عهد الماكسة والمضاربة ، وفي هذه الحالة أراني أوّلَى الناس بتأدية هذه الخدمة لصاحبي ، فاني له أرجح جانباً وأربح معاملة ، وأنقص في قدر « الفائدة » من سوى .

(العمدة) — لا أرى في ذلك من بأس لو كان في الوقت سعة ، وفي الحالة مهلة تسمح بما يقتضيه إجراء الرهن من الكشف والمعاينة ، والتحديد والتقويم والتقدير والتحرير والتمقيد والتسجيل ، إلى غير ذلك .

(الخليع) — ولا تنس ما يكون وراء ذلك من سوء السمعة وقبح الشبهة بين الأهل والجيران، وصدق من قال : « بيعُ الشيء خير من رهنه ، والرهن يُبيعُ وغبنٌ » ، وأنت بحمد الله لك صيت بالغنى وشهرة بالثروة ، وأنا أضمن أن توقيعك وحده يكفيك مؤونة الرهن عند الاقتراض (التاجر) للخليع — ما أحسن هذا لو أنه يتم ، ولكن لا تنسى أنت أيضاً ما قيل :

« إن الذي يقرضك على الشهرة والسمعة ، لا بد أن يأخذ فائدة شهر في جمعة » ، ولن يخاطر أحد من أرباب الأموال بماله من غير رهن إلاّ من ضمن الفائدة الجسيمة والربح الطائل .

(الخليع) للتاجر — ما بالك تعسر علينا في الأمور مع إمكان تيسيرها ، ولا يأخذك شكٌ فيما أقول ، فأنا أضمن الحصول على القرض ، في هذه الساعة ، في هذه القهوة في هذه الجلسة، ولا محل للتخوف من جسامه الفائدة، ما دام وقت الحصاد قريباً، والتسديد عتيداً . (العمدة) للخليع — هكذا يكون التسهيل والتيسير بين الأصحاب والأصدقاء ، وهكذا

تكون محاسن الشيم ، يا أبا المكارم والههم .

(التاجر) — قد قلت ما عندي ، وكل إنسان حرّ في عمله .

(الخليع) للعمدة — قل لي كم تريد أن يكون مبلغ القرض ؟

(العمدة) — يكفيني على ما أظن مقدار مائة جنيه لسداد الحاجة في الحالة الراهنة .

(الخليع) — هذا التقدير ضعيف ، وماذا ينفع مثل هذا القدر القليل وبماذا يفيد ؟
وعليك قبل كل شيء تسديد ما لصاحبنا هذا في ذمتك من الدين ، ثم يتبعه ما لصاحب
الخان لفك رهن الساعة والخاتم ، وأضف إلى ذلك ما يلزم لك من المال لتأجير البيت
الذي تريد سكناه في حلوان ، وما يتبعه من أثمان الفرش والأثاث ، هذا غير ما يجب أن
يكون في يدك للبذل والانفاق في أوقات الأُنس والطرب ، وأنت بلا شك في حاجة عظيمة
إليها بعد كل هذا الكدر والتعب ، فلا بدّ لك حينئذ من اقتراض مبلغ خمسمائة جنيهه على
الأقل ، ولا سيما أن أرباب الأموال الذين أعرفهم لا يقرضون أقل من هذا المقدار إن
كانت مدته قصيرة .

(وهنا يُومى الخليع إلى جماعة السماسرة بالحضور ، فيتقاطرون عليه ، فيهمس في أذن
أحدهم كلاماً ، ثم يبحر بالخطاب فيقول) :

(الخليع) — إعلموا أن سعادة البك هو العمدة فلان الفلاني من كبار المزارعين الذين
يملكون من الأطميان والعقار ما هو معروف مشهور ، ولم يسبق له اقتراض مال قط ،
وليس عليه دين مطلقاً ، وأطميانه وأملأكه خالصة له بلا منازع ولا مشارك ، وقد حلت
به ظروف استنفدت جميع ما كان يحمله معه للانفاق في مدة وجوده بالقاهرة ، وهو الآن
في حاجة إلى اقتراض خمسمائة جنيهه يقوم بتسديدها في أوان الحصاد الآتي ، ولست أرضى
له أن يقترض مثل هذا المبلغ الزهيد بالرهن من أرباب المصارف الكبيرة لما يجري عندهم
من طول التحرر والتنقيب وتضييع الوقت جهلاً منهم بحالة أعيان البلاد .

(أحد السماسرة) — مرحباً بسعادته مرحباً ، وما هو بالجھول عندنا ، فإننا نعرفه كلنا ،
وبما وصفته من شرف البيت وسعة المال زاده الله منه ، كان للمرحوم والدى مع المرحوم
والده معاملة قديمة وصحبة أكيدة ، وطالما سمعت من والدى وأنا صغير السن أنه لا يوجد
بين أعيان القطر مثل المرحوم في الصدق والأمانة وكرم الخلق وسماحة النفس ، ولكنك
تعلم أن الدراهم عزيزة المال في هذه الأيام ، وقل من يخاطر بقرض هذا المبلغ من غير رهن
يوازيه أضعافاً مضاعفة ، ولو كان الأمر لى وحدى لما تأخرت عن إجابة الطلب بدون

ميثاق أو رهن أو فائدة ، إكراماً للصحبة القديمة بين والدَيْنَا ، وتوثيقاً لعرى الحبة بيننا ، ولكن شريكى فى الأشغال رجل متفرج من أبناء هذا العصر ، لا يعرف حقوق المودة القديمة ، ولا يرضى بقرض المال إلا إذا كان مستجعماً للشروط القانونية ، ومع ذلك فأنا أعمل معه جهدى وأترضاه بضمانتى أولاً و « بتشريف » مقدار « الفائدة » ثانياً ، فإن اتفقتم معى على أن تكون الخمسمائة بثمانمائة إلى وقت الحصاد باشرتُ معه الأمر ، وقت بالخدمة الواجبة على لسعادة البك .

(التاجر) — سلامٌ قولاً من ربِّ رحيم ، أياكون مقدار الربا فوق مقدار نصف القرض . . . ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ؟

(السمسار) للتاجر — لعل مولانا من المجاورين بالأزهر الشريف ، فإنه لا يستعظم مثل هذه « الفائدة » فى الأحوال الحاضرة إلا مَنْ يعتقد بتحريمها ، على أن الربا محرّم عندنا أيضاً ، كما هو محرّم عندكم ، ولكن « الضرورات تبيح المحظورات » .
(العمدة) — حضرته ليس من المجاورين ، بل هو من التجار المشهورين .

(السمسار) — إذا كان حضرته من التجار ، فلا بد أن يكون واقفاً على ضيق الحال ، وقلة المال ، وكساد السوق ، وعالماً بمقدار « الفائدة » فى قرض من غير رهن ، ثم إنه لا يجهل فى الأشغال تكاليف المشاركة . . . والمساهمة . . . والمقاسمة . . . إن شاء الله .

(التاجر) — نعم نعم ، ولكن يجب إنقاص مقدار « الفائدة » على كل حال ، فإن أنت رضيت بأن يكون مبلغ الخمسمائة بسبعمائة وخمسين رضيتُ أنا لسعادة العمدة بالاقتراض منك وحكمت بذلك عليه .

(السمسار) — ما أصعب المعاملة مع التجار ، وما دمتَ حكمتَ حكمتك فلا مردّ له عندنا وما علينا إلا الطاعة والقبول إكراماً لسعادة البك ، فتنفضوا بالذهاب معى إلى المحل على بركة الله لاتمام الأمر مع شريكى .

(الخليع) — لا حاجة إلى ذهابنا جميعاً ، ويكفى أن يذهب معك سعادة البك وحده فان المسألة صارت بسيطة ، ونحن نمكث هنا فى الانتظار .

قال عيسى بن هشام : وقام العمدة مع السمسار وأقننا جالسين في مكاننا نتشغل بالحديث مع الصديق ، ونستفيد من واسع علمه أموراً شتى مدة من الزمن ، وإذا بالعمدة عائداً وحده مقطب الوجه منقبض النفس ، فأسرع الخليع والتاجر إلى لقائه واستخباره عما جرى له .
(العمدة) — لعن الله الحاجة والاضطرار ، وما كان أغنانا عن هذا الخراب والدمار .
(الخليع) — وماذا وقع بك ودهمك ، هل خاب الأمل في عقد القرض ، أم عقدته وسرقت منك الدراهم ؟

(العمدة) — لم تسرق كلها بل نصفها .

(التاجر شاهقاً والخليع محملاً) — وكيف كان ذلك ؟

(العمدة) — ركبت مع الرجل وذهبنا إلى محل شريكه ، فأجلستني هناك ناحية ، وكتب الصك وختمته ، ثم إنه انفرد بشريكه يناقشه ويجادله ، ثم أخذ عاد إلى عابس الوجه يقول لى : إن الأمر متعذر متعسر ، وإنه بذل كل ما فى وسعه من طرق الاقتناع والرجاء ليقبل شريكه بقرض المبلغ ، فلم يقبل ولم يتحول عن رأيه . ثم أخذ يظهر لى أنواع التأسف والتوجع لحبيبة مسعاه ، ويشير على بالصبر أياماً حتى تنفرج الشدة وتنقضى الأزمة ، فأريته شدة ما بى من الحاجة إلى الدراهم فى هذا الوقت ، وليس فى الاستطاعة تأجيل الاقتراض ، وهممت بالرجوع إليكما لترشدانى إلى باب آخر يأتى بالتيسير المطلوب ، فدنا منى شريكه عند ذلك ، وقال لى : يعز على والله أن أردك خائباً ، وأرفض رجاء شريكى ، ولكنك تعلم مقدار العسر والضيق الذى لحق بهذا القطر فى هذا العام من كساد الموسم وانخفاض النيل ، وانتشار الدودة ، وكثرة المضاربات ، وظهور الأوبئة والطواعين ، وأنا أقسم لك بشرفى وذمتى وأولادى أنه لا يوجد فى محلنا من الدراهم الآن سوى أربعمائة جنيهه هى أمانة عندى لطفل يتيم من أقاربنا نشتغل له فى استثمارها بكل احتراس واحتياط ، وأنا أضن بها وأحرص عليها أشد من حرصى على أموالى ، ومع ذلك فقد فكرت طويلاً ، وعولت على أن أضعها بين يديك ، لشرف مكانتك عندنا وحسن سيرتك ، وجعلتها أول خدمة جليلة نقدمها إليك ، فأمرعت إلى قبولها مع الشكر والامتنان ، فأخرج صرة ووزن ما فيها من الذهب ،

ثم سلمه إلىّ، فعددتُه فوجدته أر بعائة تماماً، ثم وضعتها في جيبي، وطلبت منه تغيير الصك لأن المبلغ المسمى فيه يزيد مائة جنيه عما قبضته من الذهب، فتلکاً في الإجابة، واعتذر لي بأن فرق ما بين المبلغين يبقى عنده، بعضه لربح اليتيم، وبعضه لنفقات القضية من رسوم وأتعاب محاماة، إن وقع مني تقصير في التسديد عند الميعاد لا سمح الله، كما هي العادة السائرة اليوم، فهأنى الأمر، ونبذت الدراهم، وطلبت منه أن يردّ لي الصك في الحال، فلم يلتفت لقولي، واشتغل عني بالكلام مع بعض الوافدين إليه، وأنا مقيم على مثل الجر، وكلما أشرت إليه بإشارة من بعيد ليكلمني لوى وجهه عني، وأظهر الاشتزاز مني، فتفقدت السمسار الشريك داخل المكان وخارجه، فلم أجد له أثراً، فاشتدّ بي الكرب، وحرّ قنّي الغيظ، فلم أتمالك نفسي وهجمت على صاحب الحل، فأمسكت بتلابيبه أطلابه برد الصك، فأظهر لي حينئذ من الملاينة والملاطفة ما حل خناقه من يدي، وقال لي: إنه لا يمنعه عن إجابة طلبي إلاّ غياب الشريك، فإن الصك كتب بحضوره، ولا يجوز أن يسلمه إلىّ بدون علمه، فعليّ أن أنتظر أوبته، وبينما نحن على هذه الحال وإذا بسعادة عمر بك صهر مديرنا قد دخل علينا، فما وقع بصري عليه حتى تراخت مفاصلي خجلاً منه وحياء أن يسمع ما يجري بيننا، ويراني في مثل هذا الموقف، فقسقط منزلتي في عينه وعين صهره، فتقدمت إليه وسلمت فردّ عليّ التحية بالكریم والتعظيم، فلحظ اللثيم صاحب الحل ما أنا فيه، فانتهر الفرصة وقص على سعادة البك قصتنا على حسب هواه، وطلب حكمه في الأمر، فقال له سعادة البك: لا يليق بك أن تتنازع مع حضرة العمدة فأنا أعرفه رجلاً من عيون المديرية التي يديرها صهرى، وله شهرة عظيمة بحسن السيرة وسعة الثروة، ثم التفت إلى وقال: وأنت لا يجدر بك أن تخالف حضرة الخواجة، وهو رجل مشهور بالأمانة وحسن المعاملة، وإذا كانت نقطة الخلاف في المائة جنيه التي حجزها عنده لنفقات القضية، فأنا لا أشك في أنه سيردها إليك بتمامها عند إيفاء الدين في ميعاده، وأنت بحمد الله في ثروة لا يتصور معها التأخر عن التسديد، وإن كنت لم تتعامل مع الخواجة إلا في هذه الدفعة ولم تجرب مقدار أمانته، وحسن عهده، فإنّي أكفل لك صدقه ووفاءه؛ فاضطرت من كل الوجوه إلى التسليم والإذعان، وأخذت الدراهم، وسلمت على سعادة البك، وقلت له عند خروجه:

لا يظنن سيدى أننى اقترضت هذه الدراهم للضرورة والعسر، فإن الأمور ميسرة بفضل الله، ونعمة الله وافرّة على، كما يعلمه سعادة صهركم المدير، ولكنى وجدت فرصة لا تعوض فى أثناء إقامتى بالعاصمة، وهى مشترى أطيّان من أحد أولاد الذوات، وهو فى حاجة الليلة إلى استلام العربون، ولا يمكنه أن يمهّنى ريثما أستحضر له المبلغ من البلد، فاضطرت للاقتراض على هذه الصورة، فقال لى: نعم ما تفعل، وبارك الله لك فى البيع والشراء، ثم إنه حلّنى سلاماً وكلاماً لسعادة المدير، وانصرفت وخلفته مقيماً مع الخواجه، وحضرت إليكما، ولم يدخل فى يدى من مبلغ الدين المسمى بسبعائة وخمسين جنياً إلا أربعائة جنيه فقط، فهذا معنى قولى لكما لم تسرق منى الدراهم كلها ولكن سرق نصفها.

قال عيسى بن هشام. وكنا نشاهد فى أثناء هذا الحديث رجلاً واقفاً على رأس العمدة ينتظر انتهاء من الكلام، وهو يمد إليه يديه ويحرك شفقيه، فتبيننا من هيئته أنه سائق المركبة يطالب العمدة بالزيادة فى قيمة الأجرة، ولما فرغ العمدة من كلامه بادره السائق بقوله: (السائق) — خلصنا من فضلك ياسيدنا السيد، فقد طال وقوفى وعطلتنى عن شغلى. (العمدة) — أنا لا أعطيك شيئاً زيادة عما دفعته اليك ففيه الكفاية.

(السائق) — من يقول يا حضرة الشيخ إن خمسة قروش تكفى فى أجرة المركبة مدة ساعتين تنقلت فى أثناءها من مكان إلى مكان، ثم عدت بك إلى هذه القهوة، وأنا لا أبرح مكانى حتى تعطينى الأجرة اللائقة بهذه المدة، وإن كان الذنب من جهتى لأننى قبلت أن تركب معى ورفضت ركوب الخواجه الذى استوفىنى قبل ركوبك ظناً منى أنك من كبار العمد الذين لهم تردد كثير على العاصمة ويعرفون مقدار أجرة المركبات، ولكن ظهر لى الآن أن هذه أول مرة لك فى زيارة العاصمة وفى ركوب المركبات، وجعلتنى أفضل «برنيطة» الخواجه على عمامة السيادة، فلا حول ولا قوة إلا بالله، خلصنا يا سيدى.

(الخليفة) للسائق — اسكت عن هذا الكلام البارد، وهاك قرشاً سادساً خذ وانصرف.

(السائق) — كن محضر خير يا حضرة الأفندى، واعلم أننى لا أقبل زيادة قرش

أو قرشين مطلقاً، فإما الأجرة اللائقة، وإما الذهاب معى إلى صاحب المركبة؟

(العمدة) — دونك قرشاً آخر فاتركنا واذهب لحالك .

(السائق) — كيف أذهب وكيف أقبل سبعة قروش في أجرة هذه المسافات الطويلة مع طول الانتظار ، فهل تحسبها أجرة ركوبك من هنا إلى محل الخواجه ، أو أجرة انتظاري هناك زيادة عن الساعة ، أو أجرة ركوبك من محل الخواجة إلى دكان الكوارع وانتظارك مدة الأكل ، أو أجرة رجوعك إلى هنا ووقوفك في الطريق عند بائع الفاكهة ؟

(التاجر) — دكان الكوارع !! وبائع الفاكهة !! « وَاَحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِيمٌ ^(١) . »

أهكذا يكون شرط الصحبة والوفاء تتركنا على الجوع وتنفرد دوننا بالأكل ، ونحن معك لم نذق منذ أمس طعاماً ؟

(العمدة) — ما أجباني إلى ذلك وحق الصحبة إلا الجوع المفرط واحتياج الجسم إلى ما يقيمه ، فإني أحسست بالنور ظلاماً في عيني من خلو البطن ، وأشهد أن الجوع كافر .
(السائق) — أدركوني برحمتكم ، فهذا جندي البوليس يأخذ نمرة المركبة ليكتبها في الخالقات حيث خلقتها واشتغلت عنها بكم .

(الخليع) — لقد صدعتنا وشغلتنا نخذ هذا القرش أيضاً وأنا أخلصك من جندي البوليس ، وإلا فاني أقوم إلى « القسم » وأرفع الشكوى لاجترائك علينا ، ولا تجد في « القسم » مَنْ يرحمك .

(السائق) — ما باليد حيلة ، أعطني ما تريد وقمّ أشهد عند جندي البوليس بأنني في انتظاركم حتى أخلص من الخالقات ، والله يعوضني خيراً ولا يحكم عليّ بركوب أمثالكم مرة ثانية .

(الخليع) للعمدة عائداً — قد انتهينا والحمد لله من جميع العقبات ، فلننظر الآن في تدبير شؤوننا ، وهلمّ فادفع أولاً مبلغ الصك المطلوب منك لصاحبنا هذا ، ثم ثنّى بصاحب الحان لفك الرهن ، ثم نثلث بمشتري المقتنيات اللازمة لك .

(العمدة) — نعم لك ذلك ، وهذا هو المبلغ المطلوب لصاحبنا جزاه الله خيراً .

(التاجر) بعد استلام المبلغ — أستغفر الله فالفضل والشكر لك على كل حال ، ولكن يتعذر على أن أرد إليك الصك في الحال لأنني تركته بالمنزل ، فالأليق أن تبقى المبلغ حتى آتيك به غداً .

(الخليع) — سبحان الله ! ما هذه المعاملة التجارية بين الأصدقاء الأوفياء ، وهل يجوز بينهم ذكر الصكوك والخطوط في معاملتهم ؟ فتقديم الصك وبقاؤه عندك سيئان ، ما دام المبلغ تسدد لك ودخل في جيبك .

(العمدة) — صدقت صدقت ، فليس بين الإخوان ما يدعو للتوقي والتحرز في مثل هذه الأمور ، وقوموا بنا إلى صاحب الحان .

(الخليع) للتاجر ضاحكاً — أنظر إليه ، فلا يزال قلبه يحنّ ، وهو اهيميل إلى سكان تلك المعاهد والديار .

(العمدة) — أقول لك الحق ، إن غيظي من معاملة تلك المرأة القاسية شديد ، وحنقي عظيم ، ولست أنسى ضروب تفننها في التدلل على والتمنع مني ، ولا أغفل عن تلك النظرات التي كانت ترسلها إلى بالتعطف والتلطف وأنا أسحبها من شعرها ، وودى لو أراها مرة ثانية فأوسّعها عتاباً وأشبعها تأنيباً .

(الخليع) مبتسماً — أنا فهمت غرضك وعرفت نيتك ، تريد من العتاب أن ينتهي بك إلى العتبي ، وتخرج بها من التعنيف إلى التلطيف ، وما ألدّ الرضى بعد الغضب ، وما أمتن الصداقة بعد العداوة ، لكنني أقول لك قول المشفق الناصح : إنك مهما حاولت مع هذه المرأة ، فلا يمكن أن يخلو لك وجهها بالليل مطلقاً لكثرة شغلها وازدحام الحائمين عليها ، وإنما الرأي لك أن تلتمسها نهاراً وتدعوها للغداء معك في بعض جهات النزهة ، وأنا أفضل نزهة الأهرام على سواها ، فانها تكون هناك خالصة لك من دون الناس بمعزل عن العذال والرقباء .

(التاجر) — ما أدقّ الحيلة ، وما أطفّ الرأي !

(العمدة) للخليع — لله درك ، فما حار من أنت حاديه ، ولا ضل من أنت هاديه ،
وهيّا بنا إلى الحان أولاً لفك الرهن .

(الخليع) — ولعلنا نصيب خادم المرأة هناك فنرسله إليها بعرض التماسنا ، ولا شك
عندى فى إجابة سُؤلنا .

(العمدة) — نعم نعم ، وليكن الاجتماع بها غداً بخير البر عاجله .

(الخليع) — لك ذلك بكل تأكيد إن شاء الله .

قال عيسى بن هشام : وقاموا ونحن نعجب من كيد الإنسان ، بما لا يأتيه حيوان مع
حيوان ، ثم بادرنّا نحن أيضاً إلى القيام ، على أن يكون الاجتماع غداً فى الاهرام .

العمدة في الأهرام

قال عيسى بن هشام : ولما وقفتُ بنا الركاب في ساحة الأهرام ، وهناك موقف الإجلال والإعظام ، قُبالة ذلك العلم الذي يطاول الروابي والأعلام ، والهضبة التي تعلو الهضاب والآكام ، والبنية التي تشرف على رَضْوَى وشمام^(١) ، وتُبلى ببقائها جدّة الليلالي والأيام ، وتطوى تحت ظلالها أقواماً بعد أقوام ، وتنفى بدوامها أعمار السنين والأعوام ، خَلَقَتْ ثيابُ الدهر وهي لاتزال في ثوبها القشيب ، وشابتُ القرونُ وأخطأَ قرنُها وَخَطُ المشيب ، ما برحت ثابتة تناطح مواقع النجوم ، وتسخر بثواقب الشهب والرجوم ، وتحدث حديث المشاهدة والعيان ، ماتعاقب الفتيان^(٢) ، وتناوب الملوّان ، عن قدرة هذا الإنسان ، في بدائع الصنع والإتقان ، وتنبئ عن قوة هذا الضعيف الضئيل ، في إقامة هذا الأثر الجليل ، وكيف جاز لهذا الغاني البائد ، أن يصدر عنه مثل هذا الباقي الخالد ، وجلّ صنع التقدير الخالق ، في تصوير هذا الحيوان الناطق ، حيث جعله مصدراً للأعمال المتناقضة ، والأفعال المتغايرة المتعارضة ، فبينما تراه يصعد إلى أجرام السماء وعوالمها ، ويبحث بفكره في رسومها ومعالِمها ، ويسير بعلمه في أنحائها ومناكبها ، ويهتدى لحساب أقمارها وكواكبها ، إذ تراه يعثر عثرة برجله ، فيكون فيها منتهى أجله ، أو يكبو في طريقه ، فيغصّ بريقه ، ويهوى بإذن الله إلى مكامن الخلد^(٣) ، وهو طامع في شجرة الخلد ، فهو ذاك الذي كبر وصغر ، وعظم وحقر ، وعزّ وذل ، وكثر وقلّ ، وصعد وهبط ، وعلا وسقط ، وصلح وفسد ، وعرف وجحد ، وسعد وشقى ، وفنى وبقي ، وسبحان القاهر فوق عباده .

ثم انتقلنا من التفكير إلى التفسير ، وانبرى الباشا يكشف عن ضميره ، ويقول لنا في تعبيره : (الباشا) — كنت أعتقد ، وأنا في سالف الأوان ، أن هذه البنية لمصر تاجها الذي تفاخر به التيجان ، وأعجوبتها التي تباهى بها الأقطار والبلدان ، وشاهدُها الذي يشهد لها بالمدنية والعمران ، ولكنني أراها اليوم ، بعد أن استضأت بنور العلم واهتديت بهدى العقل ،

(١) جيلان معروفان (٢) الفتيان : الليل والنهار (٣) الخلد : الفأرة العمياء .

وبحثت في حقائق الأمور ، أن لا مزية فيها ولا خير منها ، سوى أنها أحجار مرصوفة ، وجنادل مصفوفة ، لا تمتاز عن جبل من الجبال ، أو تل من التلال ، فهل تعلمان لها من معنى غامض التوى على فهمه ، أو سر خفي عز على علمه ؟

(الصديق) — ليس لها على الحقيقة من سر خفي ، ولا من فائدة بادية ، سوى أن بعض القدماء من أغبياء الملوك وطفاة الولاة كانوا يعتقدون بالرجعة في هذه الدنيا بعد المات وأن أرواحهم تعود ثانية إلى أجسادهم بعد أن تنتقل مدة من الدهر في أجسام أخرى ، فكان همهم في حياتهم مصروفاً إلى حفظ أجسادهم من البلى بعد موتهم في قبور مشيدة قائمة على الدهر ، لتعود إليها الأرواح بعد طول التنقل والتطور مثل هذه الأهرام وخلافها . والناظر في الآثار المصرية يحكم حكماً قاطعاً أن التقدم والتفنن في البنين والتصوير عند المصريين ينتهى أغلبه إلى المعابد والمقابر ، وكانت قصورهم وبيوت ملكهم مبنية بلبن الطين كأدنى الأكواخ ، قانعين بذلك في جانب تسخير الأمة بأسرها في نقل الصخور ورفع الأثقال لابتناء مثل هذا البنين واتخاذ قبراً لهم تحفظ في جوفه أجسادهم بعد تحنيطها سالمة من البلى إلى الرجعة — ولكن إلى المتحف متحف الجيزة — فتسخير الأمة المصرية ، وتعطيل أعمالها ، وتمزيق أبدانها ، وإهراق دماؤها ، وإزهاق أرواحها ، في بناء هذه الصخور إنما كان لفكر ساقط ، واعتقاد سخيف ، من ملك جاهل ، لفائدة له موهومة ، أو من عمل كاهن ما كر ، لمنفعة له معلومة ، ومثل هذا لا يكون فيه من فخر لمفتخر ، ولا من عزة لمعتز وما هو إلا الظلم والغشم ، والضلال والجهل ، وما لذين الهرمين من معنى اليوم غير أنهما قائمان على الدهر شاهدي عدل على سابق الشقاء في الأمة المصرية ، وما كانت تقاسيه من فظاعة الظلم والهوان ، ومران الاسترقاق والاستعباد ، ولو كان لأولئك الملوك أدنى لمحة في ارتقاء المدنية والعمران ، لكانت هذه الأحجار والصخور ، مرتفعة في بناء القناطر والجسور ، وتالله لبأنى القناطر الخيرية مثلاً ، في نظر الباحث المدقق ، أحق بالعزة والفخر من أولئك الملوك عبّاد الأوهام ، ومستعبدى الأنام ، وما أعلم لهذا الهرم من معنى آخر يذكّر سوى أنه صار يوماً من الأيام منبراً من المنابر اعتلاه جبار آخر فرنسى اسمه نابليون ، فخطب من

فوقه على جنوده بكلام يَهْزُ فيهم أريحية التفاخر والتباهى ، ويخدعهم به ليظلوا على العمى في طاعته يمارسون الحروب ، ويعانون أهوال الوقائع ، ويصبرون على الموت والقتل في هواه . وما لهذا البنيان اليوم من فائدة حاضرة إلا كونه صار مورد رزق لجماعة من العربان التهوا به عن ابتغاء الرزق من قطع الطريق على السابلة ، وما يحضرنى الآن من كلام بعض المؤرخين في شأنه : أن الملك الذى شيده أمر أن يكتب على جدران عبق الفراغ منه هذه العبارة عن لسانه على جهة التحدى : « إني ابتغيت هذا البناء في ثلاثين عاماً ، فإن جاء بعدى من الملوك من يدعى القوة والقدرة فليهدمه في ثلاثمائة عام » ، ولو عقل المسكين أنه سيأتى عصر من العصور يمكن فيه لأحق صعلوك أن ينسف هذا البناء في لحظة واحدة ، فيجعله كالمهن المنفوش والهباء المنثور بمقدار قبضة اليد من بعض الأجزاء الكيميائية ، لما اغتر بسعة القوة والسلطان ، ولما تحدى بشيء سلمه ليد الحدثنان ، وليس للحدثان من أمان ، اللهم إنك تعلم أنه عمل ضائع ، من جهل شائع ، لا ينبغي للمصرى أن يراه إلا بدمع منهمر ، وقلب منفطر ، لأنه الشاهد الأكبر على كبرياء كبرائه ، وهو أن أجداده وآبائه .

قال عيسى بن هشام : وهنا رأينا أصحابنا قد أقبلوا ، وبينهم تلك العاهرة الفاجرة ، فأشارت عليهم بالجلوس ، فاتخذوا لهم مجلساً فى ظل من ظلال الأهرام ، وانبطخوا على بساط الشرب والنقل ، قطعنا من بيننا حديثنا ، واتهمنا إلى جوارهم ، لنسمع ونرى من أخبارهم وأحوالهم ، فإذا العمدة يقول للتاجر ، متظاهراً أمام المرأة بمظهر الباحث المدقق والعالم المحقق : (العمدة) — هل لك علم أيها الصاحب بشيء عن أصل هذه الأهرام ، وسبب وضعها ، وتاريخ تشييدها ؟

(التاجر) — كيف لا يكون لى علم بذلك ، وقد وقفتُ على قصتها تماماً ، وقرأتها مراراً فى كتاب « قصص الأنبياء » عند الكلام عن سيدنا نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، بحيث يمكننى أن أقصها عليك حرفاً بحرف : « ذلك أن الملك « سودون » كان ملكاً على مصر قبل الطوفان ، فرأى فى منامه رؤيا أفزعته ، فاستدعى السحرة والكهنة والمنجمين ، وقص عليهم أنه رأى النجوم تناثرت والقمر هاوياً إلى الأرض ، فقالوا له : إن هذه الرؤيا تدل على حدوث طوفان عظيم يغمر الأرض قريباً ولا يبقى على شيء

فيها ، فارتاع الملك ، واستشارهم ماذا يفعل للنجاة من هذا الحادث العظيم ، فأشاروا عليه بابتناء هذه الأهرام ، حتى إذا حل الخطب انتقل إليها واستعصم بها مع أهله وحاشيته وذخائره وكنوزه ، فحشد الملك الألوف المؤلفة من الخلق وسخرهم لهذا العمل ، فأتوا له هذا البناء في مائتين وخمسين عاماً ، ثم كساها بالديباج وفرشها بالحرير ، ونقل إليها من نفائس الجواهر وذخائر السكنوز ما تعب الناس في حمله ونقله شهوراً كثيرة ، ثم إنه جمع السحرة فخصنوها له بالأرصاد والطلاسم ، ولما قرب وقت الطوفان لجأ إليها بأهله وحاشيته ، وطغى الطوفان فلم ينج منه إلا أهل السفينة وعُوج بن عُنق وهذه الأهرام ، وعوج بن عنق هذا هو حفيد آدم عليه السلام ، ولد في زمن جده وأدرك موسى صلوات الله عليه ، وذكروا أن ذلك الطوفان الذي علا الهضاب والجبال لم يبلغ حد ركبتيه ، فكان يخوض فيه مع السفينة فإذا أحس بالجوع مديده إلى قاع البحر فأخذ الواحدة من السمك فيدنيها من عين الشمس ويأكلها مشوية ، ولما انقضى الطوفان وعاد العمران إلى الدنيا أخذ يعيث في الأرض فساداً دهرأ طويلاً ، حتى بعث الله موسى عليه الصلاة ، فشكا الناس إليه ما يفعله عوج بن عنق فدعا الله أن يكفيهم شره ، وكان عوج بن عنق قد حمل صخرة فوق رأسه ليلقيها على أهل بلدة حل بهم غضبه ، فأرسل الله تعالى طيراً له منقار من الفولاذ ، فما زال ينقر الصخرة من وسطها حتى ثقبها ، فسقطت في رقبة حاملها وصارت غلا له يمنعه عن الحركة والانتقال ، فجاء موسى بعصاه ، وكان طوله عليه السلام أربعين ذراعاً وطول العصا أربعين ذراعاً ، ثم إنه وثب في الهواء أربعين ذراعاً ، وضرب عوج بن عنق ضربة فلم تتجاوز كعبيه ، ولكن قوة سيدنا موسى ألقته إلى الأرض ، لأنه من أولى العزم ، فوقع عوج بن عنق في النيل فحسره عن أرض مصر سنة كاملة ، ووقعت الوحوش الضارية تنهش من رجله فكان إذا مر عليه مارٌ عند رأسه قال له : « إذا وصلت بسلامة الله إلى قدمي فامنع عني ما يؤلمني من هذا الذباب » يعني الوحوش المفترسة ، وبقي على هذه الحال إلى أن مات ، فاتخذوا من أضلاعه قناطر للنيل ، واتخذت الوحوش من عينيه وأذنيه ومنخره كهوفاً ومغائر تسكنها ، وكفى الله العباد شره وفساده .

(العمدة) — سبحان الخلاق العظيم ، أرجوك بالله يا أخى أن تشتري لى نسخة من

هذا الكتاب أحملها معي إلى البلد ، ليقراها لنا إمام المسجد أو مأذون الناحية عند خلونا من الأشغال .

قال عيسى بن هشام : وكان الخليع في هذه الأثناء مشغولاً بمحادثة المرأة متفرغاً لها ، يضاحكها وتضاحكه ، ويشاربها وتشاربه ، فلما انتهى التاجر من قصته ، أقبل الخليع على العمدة يلاطفه ويؤانسه ، ويقول له :

(الخليع) — هل رأيت بالله عليك يوماً أعظم أنساً ، وأنم سروراً ، وأجمع لأسباب الهناء والصفاء من يومنا هذا ؟

(العمدة) — حقاً إنه يوم سعدٍ وأنس ، غير أنني كنت أود أن يكون هذا المجلس في البيت لا في الخلاء ، وتحت السقف لا تحت السماء ، فإنك ترى كثرة السباح والعربان من حولنا ، وفي ذلك من التضييق على حريتنا ما لا يخفى عليك .

(الخليع) — لا تخش الناس ، ولا تشغل نفسك بالخلق ، واغتنم اللذات بكل جسارة وإقدام ، وليس للانسان سوى ساعة الصفو ، إن لم يغتنمها ترك الدنيا بصفقة المغبون ، وأنا أقترح عليك الآن أن نعمل مثل عمل السباح في الصعود إلى الأهرام ، حتى لا يفوتنا شيء من أسباب التنزه .

(التاجر) — دعنا من هذا الاقتراح ، فليس هو من شأننا ، وأية لذة بالله عندك في صعود الجبل واحتمال المشقة والتعب مع التعرض للخطر في كل خطوة ؟

(الخليع) — هذا أمر سهل جداً ، وقلّ من يزور الأهرام إلّا ويصعد فيها مسافةً على قدر جهده ، وانظر إلى هذه النسوة الأمريكيات الصاعدات النازلات في أيدي العربان أمام عينك ، هل تراها تخشى خطراً أو ترهب تعباً ، وهل يليق بنا معشر الفحول من الرجال أن نكون أدنى من النساء جرأة وإقداماً ؟ وعلى كل حال فلا بدّ لنا من الصعود قليلاً ليعلم من حولنا أننا جئنا مثلهم لزيارة الآثار لا للهو والخلاعة ، والسيدة توافقتني على هذا الرأي .

(العمدة) — وأنا أوافق عليه أيضاً ، أرجو الله أن نعثر في صعودنا على فص من الفصوص العتيقة التي طالما عثرتُ على مثلها في التل الكُفري بفاحية بلدتنا ، ولكن كيف نترك سيدتنا وحدها ؟

(التاجر) — أنا أنتظر كما معها .

(الخليع) — لا بل تصعد هي معنا أيضاً اقتداءً بهذه السيدات .

قال عيسى بن هشام : ويقومون للصعود ، ويتكأ التاجر في أخرياتهم ، ويحاول التخلف عنهم ، فيدفعه العدة بكل قواه ممازحاً له وساخراً منه لشدة تخوفه وحذره ، والخليع والمرأة يغريانه به ، ويضحكان لضحكه ، وما كادوا يصعدون قليلاً ، حتى حانت من العدة التفاتة إلى الأرض ، فهاله ما بينه وبينها من الفضاء ، فامتقع لونه ، وارتعدت فرائضه ، ومال على الدليل البدوي مستعيناً به أن ينزله إلى الأرض ، معتذراً أن الصفراء لعبت برأسه فلا يقوى على متابعة الصعود ، فيدركه الخليع فيسندده مع البدوي ، فيسقط من أيديهما ، فيحمله البدوي على ظهره وينزل به ، فما يبلغ الأرض إلا ونسمع من المرأة صياحاً وعويلاً من فوق الهرم وهي تناديهن جميعاً أن يبحثوا لها عن فص الخاتم الذي وقع من إصبعها ، فيلحق بها الخليع ، فيبحث فلا يجد شيئاً ، فينزل معها فيمقلها العدة بالتخفيض والتهوين عند ما تتلقاه بالبكاء والعويل ، ويغلب على ظن التاجر أن الفص ربما لم يسقط في حال الصعود بل في حال الجلوس ، ويطلب من العربان أن يدركوه يغربل يغربل به الرمل عساه يجده فيه ، هذا والمرأه لا ينخفض لها صوت ، ولا يرقأ لها دمع ، ولا تنتهي لها شكوى ، والخليع يطيب من خاطرها تارة ، ويميل على العدة طوراً يظهر له الأسف من الحادث الذي كدر عليهم الصفو ، وأبدلهم بالأنس حزناً ، وأن هذه شيمة الدهر قلما يتم فيه صفاء أو يكمل فيه سرور ، وما من لذة إلا وهي مشوبة بالألم .

فَسَدَ الزمانُ فما لذيذُ خالصٍ مما يشوبُ ولا سرورٌ كاملُ

على أن المصيبة هيئة ، مادامت في المال دون النفس ، ومن ذا الذي يدرى بما هو مخبأ له في الغيب ، والحمد لله على اللطف في القضاء . ولا يزال الخليع بالعدة حتى يتقدم إلى المرأة ويقسم لها أنها لا تبیت الليلة إلا ولديها فص مثل الفص الضائع ، فتشكره وتقول له : أنى لها بمثل ذلك الفص ، وهو من الياقوت النادر المثل في لونه وصفائه ، فيعيد عليها القسم بأنه سيأتيها في الغد بفص أثمن منه وأجل ، ثم إنه يشد على يدها توثيقاً للوعد ، فتشد على

يده للتقبيل ، فيعز عليه حينئذ أن يرى إصبعها بخاتم من غير فص ، فيخلع خاتمه الذي استخلصه من الرهن ويلبسها إياه حتى يأتيها بغيره ، ويعودون إلى مجالسهم ، ويأخذون فيما كانوا عليه من المسامرة والأنس ، ويقول العمدة بعد استقرار المجلس بهم :

(العمدة) — ما أحسن المجلس ، وما أضيّق الوقت ، وحبذا لو واصلنا الليل بالنهار !

(التاجر) — لعلك تريد أن نقضى ليلتنا مثل تلك الليلة الماضية في ذلك الحان

المنحوس .

(الخليع) — وهل تظن أنه يمكن لنا التمتع بصاحبتنا في الحان ، مثل ما نتمتع

بها الآن ، وقد شاهدنا بأعيننا ما حوّلها هناك من المزاخرة والخاصمة ؟

(العمدة) — وما العمل حينئذ ؟

(الخليع) — العمل أننى أكلفها أن تتارض هذه الليلة وترسل إلى صاحب الحان

بَعْدُ حضورها عنده .

(العمدة) — نعم الرأى ما ترى .

قال عيسى بن هشام : ويأخذ الخليع في استعطاف المرأة لقبول هذا الطلب ، فتمتنع أولاً معتذرة بما بينها وبين صاحب الحان من الشروط التى تقضى عليها بدفع عشرة جنيهات إليه تعويضاً عن كل ليلة تتأخر عن الحضور فيها ، فيلتفت الخليع إلى العمدة ينتظر رأيه ، فيميل العمدة على المرأة متعهداً لها بدفع هذا التعويض ، ثم يتساءلون فيما بينهم كيف يقضون ليلتهم في الأنس والسرور ، فيرى العمدة قضاءها في البيت ، ويرى التاجر قضاءها في التنقل بالمرأة في « البارات » ، ويرى الخليع قضاء جانب منها أولاً في مشاهدة الرواية البديعة الجديدة التى تُمثّل في « التياترو » العربى ، فيقع اتفاقهم على هذا الرأى الأخير ، فيسرعون بالقيام ليدركوا فسحة الجزيرة أولاً ، وينصرفون على هذا العزم المؤكد ، والميعاد المحدّد ، ويعنّ « للصديق » أن تتخلف عنهم ، ريثما تنقضى فسحة الجزيرة بهم ، وأن نقضى هذه المدة الوجيزة ، في زيارة قصر الجزيرة ، ثم نلحق بهم عند المساء في دار التمثيل والتشخيص ، وديوان الروايات والأقاصيص .

قصر الجيزة والمتحف

قال عيسى بن هشام : ووصلنا إلى قصر الجيزة ومتحف الآثار ، وملتقى السيارة ^(١) من سائر الأقطار ، فدخلنا روضة تجرى الأنهار من بينها ، كأنها الجنة بعينها ، ولما رأى الباشا مسالك الروض منضدة ، وطرقه مرصعة مزرّدة ، حسبها أرضاً مفروشة ، يبسط منقوشة ، وأشكل الأمر عليه ، فهمّ بخلع نعليه ، فقلت : طريقٌ مُعبّد ^(٢) ، لا فرشٌ منجّد ، وحصباء ومرور ^(٣) ، لا بساطٌ وفرو ؛ ثم شاهدنا قصرًا يكلُّ عنه الطرف ، ويقصر دونه الوصف ، فسرنا نرتاد خلاله ، ونتفيا ظلاله ، فإذا الأسود مقصورات في المقاصير ، والأساود ^(٤) مكفوفات في القوارير ، ورأينا النور في الخدور ، الرّئال ^(٥) في الحجال ، والذئاب في القباب ، والظباء في الخباء ؛ فقال الباشا : لمن هذه الجنان ، وكيف يسكنها الحيوان ؟ وما علمتُ من قبلُ أن الليوث الضواري ، تسكن مغانيّ الجواري ، وأن أوابد ^(٦) البيد ^(٧) تتعجب في خدور الغيد ؛ فقلت له : سبحان القادر العظيم ، هذا بيت إسماعيل بن إبراهيم ، لما كانت حُجراته مطامع للأقمار ، ودرجاته منازل للأقمار ، كان إذا نادى صاحبه فيه «يا غلام» ، شقيت أقوام وسعدت أقوام ، ولبيّ نداءه البؤسُ والندى ، بأسرع من رجع الصدى ، وكان من احتفى بظل هذا الجدار ، تحامته غوائل الأزمان والأدهار . هنا كان يفصل الأمر ويحكم ، وينقض الحكم ويبرم . هنا كانت تنفرط فرائد القلائد ، من أجياد الخرائد ، فتختلط بمشور أزهاره ، وترصع لجبين أنهاره . هنا كانت تتناثر الحليّ من قدود الحسان ، فتشبهه بأثمار الأغصان . هنا كانت تصدح القيان على المظاهر والأعواد ، فتجيبها ذوات الأطواق فوق الأفنان والأعواد ... فأصبح اليوم حديقة مبتذلة عامة ، وموطئاً لأقدام الخاصة والعامة ، وأصبحت أرضه تكترى ، وجنى أشجاره يباع ويشترى ، ودوّى فيه صياح النسور وزئير

-
- (١) السيارة : القافلة ، وأصلها القوم يسرون
(٢) طريق معبد : أى مذل
(٣) المرو : حجارة بيض رفاق براق
(٤) الأساود : جمع أسود وهو العظيم من الحيات
(٥) الرئال : جمع رأل وهو ولد النعام
(٦) الأوابد : جمع أبدة وهي الوحش
(٧) البيد : جمع بيداء وهي القلاة

الأسود ، وامتلات أرجاؤه بعواء الذئب وهممة الفهود ، وزال ما كان فيه من عز و طول ،
ومجدٍ وصول ، وأيدٍ^(١) وحول ، وصدق الكتابُ خَقَّ عليه القول :

في هذه الدار ، في هذا المسكنِ عَلَى هذا السير ، رأيت الملك قد سَقَطَا
وذكرت للبasha ما كان لصاحب هذا القصر ، ومليك ذلك العصر ، من الجدِّ الصاعد ،
والبخت المساعد ، وما صار إليه بعد ذلك من أفول السعد ، وما دهاه في الغربة إلى
أن سكن اللحد .

نالوا قليلاً من اللذات وارتحلوا بِرَغَمِهِمْ فإذا النعماء بأساء
ثم وقف البasha هُنيئة ففكر فيها واعتبر ، وتلا : « ولقد جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ،
حكمة بالغة فما تُغْنِي النَّذْرُ . »

ثم إننا سرنا في وسط الحديقة ، حتى انتهينا إلى دار التحف العتيقة ، فدخلنا نشاهد
ما أبرزته يَدُ البحث من الخفاء إلى الظهور ، وما أعادته قوة التنقيب من البلى إلى النشور ،
وما صانته أرحام القبور من يد الفناء والدثور ، وجمعه أحشاء الرموس من العفاء والدروس ،
وما أجنَّته أرحام المعابد والهياكل ، من بقايا المواضي وخفايا الأوائل ، وما انسدت عليه
سجوف الأحقاب ، من ودائع الأسلاف للأعقاب ، وما انشقت عنه الأرض من مكنون
الدقائق ، ومكنوز الخزائن ، وعجائب الفن الدقيق ، وبدائع الصنع الأنيق ، بليت في
اصطحابها جدَّة الأيام والليالي ، وانحنت عل احتضانها ظهور العصور الخوالي ، ومضت
دول بعد دول ، وذهبت أولٌ في إثر أول ، واندثرت مدائنٌ ونشأت مدائنٌ ، وبادت
مواطنٌ وقامت مواطن ، وانقلبت الأغوارُ أنجادا ، والأبحار أطواداً ، وغدا العمارُ خراباً ،
والغمارُ^(٣) سرايا والسرايا غماراً ، والخراب عماراً ، وهي هي مصونٌ شكها ، كما تركها
أهلها ، لسانٌ صادق ، وخبرٌ ناطق ، تنطق بالعبر ، وتحدث عن غبر :

مضت غبرات العيش وهي غواب^(٣) على الدهر مكتوبٌ عليها حبايس
واقمنا هناك تنتقل بين الأصنام والتماثيل ، ونتأمل في التصاوير والتهاويل^(٤) ، ونفكر

(١) الأيد : القوة (٢) الغمار : جمع غمر وهو معظم البحر (٣) غبرات : غير الشيء
بقية وغواب : جمع غابر وهو الباقي والماضي ضد (٤) التهويل : زينة التصاوير ، النقوش
والحلي ، الواحد تهويل .

في هذه العظام المنشرة ، والرؤفات المنظرة ، بما عليها من الحلى والزينة ، وتلك الأحجار الثمينة ، كيف كانت ملوكاً للأُم ، ثم بقيت على بلى الرَم ، وتوالى القدم ، في حال الوجود مع العدم .
ورأينا بجانبنا رجلاً من ذوى العائِم ، مع فتى من الطرز المتحاذق المتعامل ، ظهر لنا من أمرهما ، وتبين من شكلهما ، أن الرجل عين من أعيان المدينة ، وأن الفتى ابن له وزينة ، وإذا هما يتناظران ويتحاوران ، فيما يريان ويبصران ، فدنونا منهما وأنصتنا إليهما .

(الابن) — أشهدت مشاهد عزنا ، ورأيت معاهد نفخرنا ، وعلمت كيف كان مقدار مجدنا ، وإلى أية رتبة بلغت بنا صناعة أجدادنا ؟ فله درهم ، ما كان أرقاهم في الفكر ، وأبدعهم في العمل ! ولو أن نوابغ الأُم اجتمعوا اليوم اجتماع مفاخرة ، ونزلوا إلى ميدان المناضلة والمناظرة ، كما سبق المصرى منهم سابق ، ولا تعلق بأثره لاحق ، ولكن له من بينهم الكعب الأعلى ، والقدح العلوى ، وهذه الآثار في يده يفاضل بها ويفاخر ، وينشد عليهم قول الشاعر :

هذه آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

(الوالد) — ما أرى شيئاً في هذه الآثار التي تماجد بها وتفاخر يفوق ما يكون السوق من البضاعة الكاسدة والسلع البائرة ، وما يخرج عن بيوت الناس من الأعراض الواهية والأمتعة البالية .

(الابن) — كيف يكون منك هذا القول ، وهى بشهادة العالم أجمع : أثنى من كل ثمين ، وأنفس من كل نفيس ، لا تقويم لها ولا تقدير إلا بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وكيف غاب عنك تهافت هؤلاء الغريبين أهل المدينة الحاضرة على اقتناء شئ منها بالمال الجُم ، تنافسهم في التمتع بمشاهدتها ، يتحملون لذلك الأسفار البعيدة ، والمتاعب الشديدة ، ولا يعقل ، وهم هم أهل الهدى والعلم ، أن يشتغلوا بباطل ، أو يجهدوا أنفسهم على غير طائل .

(الوالد) — لكم دينكم ولى دين ، وما أزال أكرر القول لك بأننى لا أجد فى نفسى شيئاً مما تشعرون به فى هذا الباب ، وما أراهم هذه الأحجار والتمثيل لايساوى فى نظرى

إلا أنقاض بيوت عفت ، أو طول دراست ، وإن صح ما يقال عن هذه التماثيل إنها أشخاص قديمة نزل بها السخط والمسخ ، كان التعلق بها والتعجيد لها مما يُغضب الخالق ولا يُرضى الخلق ، وأما قولك إن فيها منتهى غفرنا ومجدنا ، لأنها من صنع آبائنا وأجدادنا ، وإن آبائنا وأجدادنا هم من نسل هذه الرمم الفرعونية ، فإنه إثم ونكر أستعيز بالله منه « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » ، ما كان أجدادنا وآباؤنا إلا أولئك العرب الكرام ، أهل الدين والإسلام ، لا تفاخر إلا بمفاخرهم ، ولا نفتسب لغير أصلهم ، وأما من جهة الصنعة في كل ما أراه هنا فإن صبيان الفلاحين اليوم يشتغلون بصنع مثل هذه الآثار والأحجار ، ويتفننون في تقليدها ، فتخرج من أيديهم ، وهم بين الروث والطين ، أتقن صنعاً من هذه الحجبة في القصور ، المصونة في البلور .

(الابن) — علم الله لو كان في لغتنا العربية من الكتب المؤلفة في مزايا هذه الآثار ، مثل ما في اللغات الأجنبية ، لعلمت منها ما لم تكن تعلم ، على أن مجرد النظر يكفي وحده لإثبات هذه الآيات والمعجزات في حسن الصنعة والدقة ، أفلا تنظر إلى هذا التمثال البديع ، تمثال شيخ البلد ، وهو قطعة واحدة من خشب الجميز ، فما أدق الصنع ، وأتقن العمل ، وما أكل الشبه ، وأجل الصورة ؟

(الوالد) — نحن في كل يوم نشاهد مائة شيخ بلد من لحم ودم لا من خشب وحجر ، فدعني على غباوتي وجهلي ، وبارك الله لك في علمك وعقلك .

(الابن) بصوت خفي — « وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ » — (ثم يجهر بالقول) — لا لزوم حينئذ لطول إقامتنا هنا ، وهلم بنا فقد حل اليعباد المضروب بيني وبين ذلك السائح الذي زارنا بالأمس لتناول العشاء معه في « أوتيل شبرد » .

(الباشا للصديق) بعد انصرافهما — ماذا تقول في هذه المناقشة ، وما دار من الكلام بين الولد والوالد ؟

(الصديق) — ما عساي أن أقول غير ما قاله الله عز وجل : « فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا » ، وماذا نرى هنا غير الذي رآه هذا

الوالد الساذج : قبور مقلوبة ، ورموس معكوسة ، وأجداث منبوشة ؛ فإن كان الغرض من عرضها العبرة أو الموعظة ، فإن فيما هو أمامنا كل يوم من هبوط الملوك عن ذهب العرش ، إلى خشب النعش ؛ ومن وسائل الخبر ، إلى مساند الحجر ، ومن ظهور الصافنات الجياد ، إلى بطون الديدان في الأكفان والأحاد ، لنعم الموعظة الحاضرة للنظر والحس ، والحكمة البالغة للعقل والنفس .

(الباشا) — هذه هي الحقيقة بعينها في نظري الآن ، وقد كنت أحسب أن لهذه الآثار شأنًا عظيمًا فيما مضى من دهرى عند ما كنت أرى تهافت الغربيين عليها في زمن الولاة السابقين ، ولكن لعل شأنها عندهم وعلو قيمتها لديهم ، هو لأجل توغلها في البلى والقدم ، ومحللها من التاريخ ، وما تحمله منقوشًا عليها من أساطير الأولين .

(الصديق) — نعم إن كان من وراء هذه الآثار والأشياء قيمة عند الغربيين فإنما هي كما تقول ، لتعلقها بمباحثهم في أخبار الأوائل وفلسفة التاريخ ، وزد على ذلك حبهم للاقتناء ، ولوعهم بالاختصاص بالنادر ، ولذلك علت قيمتها عندهم ، وارتفع قدرها بينهم ، وليس للمصريين منها أقل فائدة سوى الشهرة بأن في مصر آثارًا تفوق في القدم مثلها من بقية المتاحف ، ولو أنك عرضت أهل مصر على هذه الآثار واحدًا واحدًا ، لما استفادوا منها شيئًا ، ولا أفادوك عنها شيئًا ، ولما وجدوا لها قيمة تذكر ، سوى النزر اليسير من المقلدين للغربيين ، ولم تجد بين عشرة الملايين اليوم سوى شخص واحد يفقه لغة « الهيروغليف » ، أعنى لغة آبائهم وأجدادهم ، كما يزعم الزاعمون ، مع كثرة الخبيرين بها من الأمم الغربية ، والله أعلم بمقدار علمه بها ، ولو تمتد الأمانى لقلت : عسى الله أن يخفف بقيمتها العالية بعض ما على الحكومة المصرية من أثقال الديون ، وما على المصريين من أعباء الضرائب والمكوس ، وياليت المصريين يخرجون عنها لا عليهم ولا لهم ، فإنها تكلف الأمة المصرية نفقات على البحث عنها في خبايا الأرض وجمعها والتحفظ عليها ونقلها من أما كنها إلى المتحف ، وناهيك بنفقات المتحف التي أنفقتها الحكومة أولاً على متحف بولاق ، وثانيًا على متحف الجيزة ، وما تنفقه ثالثًا على المتحف الجديد بقصر النيل ، فإنها تعد بالملايين .

(الباشا) — كنت أرى رأيك هذا وأتمنى أمينتك ، لولا أن يقال : إن المحافظة على هذه الآثار ، والحرص على بقائها بمصر ، مزية أدبية لها قدر عظيم ، يعرفه من عرف مقدار حرص أهل الممالك الأخرى على الآثار والتحف ، وشدة ضنهم بها ، فلا يرغبون البتة في بيعها والتخلي عنها ، ويرون فيها نخرهم ومجدهم ، فلا يليق بمصر أن تشذ عن هذا السبيل .

(الصادق) — إن حرص أهل الممالك على ما في متاحفهم من الآثار ، وتفاخرهم بها ، هو لأنها عندهم علامة من علامات التغلب والانتصار ، وإشارة إلى الجدل القديم والعز التليد ، ولكن أين علامة التغلب والانتصار عند المصريين ، وما هي إشارة المجد والشرف في هذه الرمم البالية ، رمم أهل الجهل والظلم من أغبياء الملوك الأقدمين — ولأن الغربيين في غير حاجة إلى قيمة أثمانها ، فهي عندهم من الكماليات ، أما عندنا فالأمر بالعكس ، ولم تأتنا هذه الآثار من جهة الفتح والنصر ، وإنما جاءتنا من طريق النبس والحفز ، والمصريون في حاجة إلى المال لإنفاقه في ضروريات المعاش ، وقلماء يمر عام إلا ويكشف المكشوفون في مصر من هذه الآثار الشيء الكثير بحيث يوجد لكل نوع منها أشباه كثيرة ، فما ضر المصريين لو تخلو عن بعض هذا الكثير الزائد ، وعن تلك الأشباه المتعددة ، وانتفعوا بقيمة أثمانها في بعض شؤونهم العامة ، ويبقى في المتحف مع ذلك من الآثار ما يكفي للفخفة والمباهاة ، ومباراة الأمم في تشييد المتاحف ، وإن كان قد جاز لحكام مصر السابقين أن يهادوا ملوك أوربا وأميركا بالحناب العظيم والقدر الجليل من هذه الآثار القائمة اليوم في الأنحاء المختلفة من أقطارهم ، وأن يعضوا النظر عن الوافدين على الديار المصرية لسلبها أو ابتياعها من أيدي الملاحين بدرهم أو دينار ، فلم لا يجوز التخلي عن بعضها للانتفاع بأثمانها ، وهي على ما تراه — ما لا يباع فانه يتقسم — وجملة القول أن الانتفاع بها اليوم قاصر على الأجانب وخدمهم ، إما بمشاهدتهم لها في ديارنا ، أو بانتقالها مسلوبة إلى ديارهم ، وأى عار على الأمة المصرية أن تنصرف في بعض الآثار المتشابهة التي تنبت لها الكهوف والتلال في كل يوم ، لتنتفع بأثمانها في ترقية شأن المعارف ، وبث الأدب بطبع تلك الكتب الخزونة للأرضة بدار الكتب المصرية في المطبعة الأميرية ، التي طالما أفادت الناس بطبع الكتب النافعة في أيام

الحكومة السابقة ، حكومة الجهل والظلم ، وخبروني ، ناشدتكم الله ، أى نفع وفائدة للأمة المصرية الإسلامية فى أن تنشر بين يديها رمم الفراعنة فى الأنتكخانة ، وتقبر أرواح العلماء والحكماء فى الكتبخانة ؟ وأى الأمرين أعظم نفعاً وأكثر ربهاً ، أن يعرض على أعيننا تمثال « إيميس » وصورة « إيزيس » وذراع « رعسيس » وفخذ « امينوفيس » ، أو أن تتداول الأيدى كتاباً للرازى ، ومقالة للفارابى ، وفصلاً لابن رشد ، ورسالة للجاحظ ، وقصيدة لابن الرومى ؟ ما تجرى الأمور عندنا — شهد الله — إلا على التناقض ، وما تسير إلا على خلاف المصلحة .

قال عيسى بن هشام : وجاء أوان الخروج ، فقمنا نسعى ، لنلاحق بأصحابنا فى الملهى ، ونشاهد ما يتم عليه حالهم ، وينتهى إليه ما لهم .

العمدة في الملهى

قال عيسى بن هشام : وعدنا إلى المدينة ، وقد مد الغروب حبالته ، ليقتنص من الأصل غزالته ، فطارت نفسها شعاعاً^(١) ، واضمحلت قرصها شعاعاً ، وجدت نافرة إلى كناسها ، وهى تصعد الشفق من أنفاسها ، ثم اختفت شقائق الشفق ، تحت أكام الأفق ، ولما أن اخضر من الليل جانبه ، وطر شاربه ، وتوقدت مصابيح السماء ، فى قباب الظلماء ، قصدنا دار التشخيص والتمثيل ، وبدت التصوير والتخييل ، فدخلنا مع الداخلين ، نساء ورجالا ، أجناساً وأشكالاً ، واخترنا لجلوسنا الكراسى دون الغرف ، لتيسر لنا المشاهدة من كل طرف ، ثم جالسنا نحدد النظر ، فيمن حضر ، وإذا نحن بين أخلاط من الطبقات اختلفت أزيائهم ، واتفقت أذواقهم وأهواؤهم ، وعلا ضجيجهم وصياحهم ، وكثر لعبهم ومزاحهم ، سباً وشتماً ، ولكزاً ولكها ، ثم يتأيل بعضهم على بعض ، ويضربون بعضهم وأرجلهم ظهر الأرض ، رجالا وغلماً ، شديباً وولداناً ، متظاهرين بملل الاصطبار ، ومطالبين برفع الستار ، ثم حولنا النظر إلى أعلى الشرف ، وجوانب الغرف ، فرأينا من بينها مقاصير عليها رقائق الستائر : تشف عن لوامع اللائى والجواهر ، فى محور الحور ، من مكنونات القصور ، ويمضات الخدور ، ولولا التأدب لتخيلناها من بنات الفجور ، فهن يزحزن من الوشى والخبر ، ويكشفن عن الطر ، تضى بالغرر ، ضوء الليل تحت القمر ، ويتراءى ترائى الكواكب والنجوم ، من خلل السحب والغيوم :

وتنقب بخفيف غيم أبيض هى فيه بين تخف وتبرج
كتنفس الحسناء فى مرآتها كملت محاسنها ولم تنزوج

والرجال من تحتها ينظرون ويتشوفون ، ويتشوقون ويتلهفون ، لا تنثنى أبصارهم عن وجهتها ، ولا يحولون الوجوه عن قبلتها ، فهم قائمون على عبادتها عاكفون ، لا ينفكون عنها ولا هم يستنكفون ، وهن يوالين الضحكات ، ويتألين الحركات ، ويتبادلن معهم

(١) الشعاع : المنفرق .

الغمز ، ويتبادلون معهن الرمز ، ويتراسلون بمراوح تثير مكنون الهوى والغرام ، ويشيرون بمفاديل تغنى عن فصيح اللفظ والكلام ، وقد خرّقت الأصابع نسيج الأستار ، لتنفذ منها رسل الأزهار ، وتقابلت بينهم المناظير بالمناظير ، تدنى البعيد وتكبر الصغير ، وكل فتى يرى أنه المرمى دون سواه بالنظرات ، وأنه المعنى بتلك الإشارات ، فيتصنع التجميل والتظرف ، ويتكلف التأنق والتلطّف . وفوق أعلى الشرفات أقوام وأى أقوام ، متزاحمين أكواماً على أكوام ، كأنهم فى سوق من أسواق الأنعام ، لا ينتهون فيه عن الشجار والخصام ، وتفقدنا أصحابنا فى أنحاء الملهى ، فوجدناهم فى غرفة والعامرة فى أخرى ، وقد تزيت بزى الأجنيبات ، فنبذت الحجار والإزار ، وتبدت فى القُبعة والزنار ، وهى تغامر العملة بعينها ، وتشير إليه بيديها ، والخليع يكون تارة فى الغرفة عندها ، وأخرى يظهر فى غرفة بعدها ، إلى أن دق الجرس بالدخول ، وارتفع عن الملعب مئتمره المسدول ، وظهر فيه أمامنا طائفة من الممثلات والممثلين ، ما بين ملحنين ومرتلين ، على طريقة يمجّجها السمع ، ويعافها الطبع ، وبكلام مبهم ، وألفاظ لا تفهم ، كأنهم حداة فى مفازة^(١) ، أو سعاة فى جنازة ، وهم فى أزياء متعاكسة ، وأشكال غير متجانسة ، وثياب تنافرت ألوانها ، على أشخاص تباينت أوطانها ، وظلوا يعبثون بالأناشيد والتلاحين ، ثم انصرفوا عنا بعد حين ، ثم ظهر من بعدهم رجل مكتهل ، مزجّج الحواجب مكتهل ، مصبغ الخلد والجبين ، بأحمر كالورد وأبيض كالياسمين ، فأخذ يخطر ويتثنى ، ويهتف ويتغنى ، وبجانبه امرأة نصف ، تتمايل وتنعطف ، لا تقل عنه شيئاً فى باب التصبغ والتدهن ، والتصنع والتلون ، يقول لها فى شكوى الغرام ، وشرح الوجد بها والهيام :

« يا حبيبة الفؤاد ، وغاية المراد ، ما ألطف هذا الشكل ! فهيا بنا نغتم الوصل » .

فتجيبه : « قد يكون ذلك أيها الخلل الوسيم ، إذا ساعدتنا ألى نسيم ، فدبر أنت ما عليك ، وها أنا ذاهبة لأرسلها إليك . »

ثم تنصرف الفتاة ، ويبقى الفتى فى انتظار حضور الأم ، فتدخل عليه ، وإذا هى عجوز شوهاء ، وجلبانة ورهاء^(٢) ، فيتصل بينهما الكلام ، وينتهى بالقبول والانتفاق ،

(١) المفازة : القلاة لا ماء فيها . (٢) الجلبانة : المهذارة السيئة الخلق . والورهاء : الحمقاء

ويضع الفتى في يدها كيساً من الدراهم عند مفارقتها إياه ، ثم يفرد متجولاً ينشد ويغنى مدة من الزمن ، ثم يذهب لسبيله ، وتأتى الأم ومعها زوجها ، وإذا هو رجل قد أثقلت ظهره السنون ، ولم تقده التجارب شيئاً ، فتحتمل عليه ليقبل زيارة الفتى وتردده على ابنته في بيته . فيمتنع ويتعلل بقوله : « حقاً إن ذلك الشاب ، هو ألح من الذباب ، وهو عندى أفسق من الشياطين ، وأخبث من البراذين ، لا يترك من النساء الدون ، ولا العجوز الحيزون . »

فتجيبه بقولها : لا تحف أيها الزوج الأفضل ، فما كل الطيور تؤكل ، وابنتنا العاقله الحلوة ، لا يُخشى عليها منه في الاجتماع ولا في الخلوة . « ، ثم يطول الكلام بينهما ، وينتهى بقبول الوالد ما دبره له كيد الوالدة ؛ ثم يذهبان ويجتمع العاشق بالفتاة فيمتعانه ويتلاثمان ، وتقول له في حديثها : « الحمد لله أيها الشاب الأنيق ، على التيسير والتوفيق ، فقد سهلت أذى لنا الطريق ، ولم يبق أمامنا إلا استرضاء الخادمة ، حتى تكون لأسرارنا كاتمة . » ، فيجيبها : « نعم ، وإن لم تطاوعنا فإنها تصبح حزينة نادمة ، لأننى أقسم يا بنت الكرام ، بما بيننا من الحب والغرام ، أننى أذيقها كأس الحِمام ، بحدّ هذا الصمصام ، إن امتنعت عن تسهيل الأرب ، بقبول ما في هذا الكيس من الذهب . » فتقول له : « آه يا حبيبى ، ما أطرب الجلوة ، وما أطيب الخلوة ، حيث نصبح فى بحر النشوة ، وهى بنا أيها الهمام ، فإنى أسمع صوت أقدام ، وعندى الآن أن أحسن طريقة ، أن نتنشق نسيم الصبا فى زوايا الحديقة » ، فيقول لها : « حُفظت يا سيدتى ومولاتى ، ومنبع حياتى ومماتى ، فالآن قد بزغت شمس سعودى ، وعطر الأكوآن عرف ندى وعودى . »

ثم يذهبان ويحضر بعدهما غيرهما ، فيتداول الكلام بينهم مرة عن سرقة واحتيال ، وخيانة واغتيال ، وأخرى عن احترام واقتراف ، واختلاس واختطاف ، ثم يعلو بينهم الضجيج ، ويصيحون بغناء كأنه ندب وعويل .

وعلى هذا ينتهى الفصل الأول ويرخى عليه الستار ، ويجدّ الحاضرون حينئذ فى الصغير والتصفيق ، والتأوّه والشهيق كأنهم جميعاً فى نوبة من الصرع أو المسّ ، ثم إنهم يتناثلون

إلى الخروج لشرب الخمر والتدخين، ونقيم نحن جلوساً في مكاننا، فيلتفت إلى الباشا ويقول :
(الباشا) — لقد سئمتُ — علم الله — وملأتُ من منظر هذه المراقص والملاعب ، فما

أشبه بعضها ببعض ، وما أجمعها لأشتات النقائص والردائل على اختلاف أوضاعها ؟

(عيسى ابن هشام) — ليس هذا المكان في أصل وضعه بمرقص ولا بملعب ، هذا هو
«التياترو» المعروف عند الغربيين بأنه أصل التثقيف والتأديب ، ومنبع الفضائل ومحاسن
الأخلاق ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهو عندهم توأمة الجرائد ، هذه تعظ بالخبر ،
وهذا يعظ بالنظر ، فيغرس في النفوس صورة الفضيلة مجسمة للأبصار ، بما يعرضه على الناظرين
والسامعين من تاريخ أهل الفضائل في الأزمان الغابرة أو الحاضرة ، ويفعل في النفوس ما لا
تفعله الرواية والخبر ، وهى في بطون القصص والسير ، فيمثل لك محاسن الفعال ، ومحامد
الخصال ، وما تأتى به عواقبها من الظفر بالمرغوب والحصول على المقصود ، وإن اعترضتك
معها المصاعب ، ونالتك المتاعب ؛ ويشرح لك شناعة الرذيلة ، ويصور فظاعة النقيصة ، وما
يكون في عاقبتها من السوء ؛ وفي أثرها من المكروه ، وإن خلبتك بمنظرها ساعة ،
وخدعتك بهرجها لحظة ، فيجتمع لديك من الموعظة والعبرة ما عساه يردعك عن القبيح
إن همتَ به ، ويردك إلى الحسن إن تقاعدت عنه ، ويهديك إلى الطريقة المثلى ، ويخرجها
لك من الغيبة إلى الشهود ، ومن القول إلى الفعل ، فتتجذب نفسك إلى أنواع الفضيلة ،
من شجاعة وشهامة ، وكرم ومروءة ، وأمانة ووفاء ، وسماحة وسجاجة ، وصبر وحلم ، وينفر
طبعك عما تجمه الرذيلة ، من دناءة وجبن ، وخيانة وغدر ، وجهل وحق ، وغش وفسق .

(الباشا) — إن كان الأمر كما تقول ، فكيف تسنى للمصريين أن يقلبوا وضعه ، ويشينوا
شكله ، ويجعلوا هذا المكان على مثل حال الحان ، فلا فرق عندى فيما أنظره هنا الآن ،
وما رأيته في الحانات الأخرى ، من الرقص والعزف ، ومعاقرة الخمر ، ومغازلة النساء ، وتمثيل
أحوال العشق بأعظم شكل يجرى به ، ويهيج من شهوات النفوس إليه ؟ فإذا كان التشخيص
على هذا النمط معدوداً بينهم باباً من أبواب الآداب ، وهم يحضرونه ويشاهدونه على هذا
الاعتقاد ، فإن شرّه عندى أعظم من شر الملاعب والمراقص الأخرى ، لأن الداخل إليه
لا يرى على نفسه من لائمة يتقيها في دخوله ، ولا يفكر على أدبه منكر فيه ، ولا يخشى

انتقاداً عنده ، فتسترسل النفس في غيها ، ولا تجد منها لها رادعاً ولا وازعاً ، بخلاف الحال في الداخل إلى تلك الحانات ، فإنه يدخلها وهو واثق بأنه قادم على ما يلام عليه ويعاب ، فيأتيه وفي نفسه من الخجل والحياء ما عساه يصرفه يوماً عن غيه وجهله ، والإقدام على المحرم الصراح ، فيه من تأنيب النفس ما يزرع وينهى ، لكن الإقدام على تحليل الحرام وإباحة المنكر هو الداهية الدهية ، والمصيبة العامة ، فلا وازع من الخجل والحياء ، ولا زاجر من خوف الهلاك والعقاب .

(عيسى بن هشام) — لا تأخذن ما تراه هنا من التقصير دليلاً على أن هذا الفن غير مفيد للآداب ، فقد قدمت لك أنه فن غربي ، ووصفته لك بتقدير ما وصل إليه من الإتقان لدى الغربيين ، وهو لا يزال هنا على حال القصور والانحطاط ، لم يلتفت المصريون إلى إتقانه وحسن وضعه ، وجهل الناس أصل الغرض المقصود منه فحسبوه نوعاً من أنواع اللهو والخلاعة على ما ترى ، وعذر الذين يشتغلون بهذا الفن في تقصيرهم أنه لا بد من مساعدة أهله بالمال ، ليتمكنوا من السعى في ارتقائه وإتقانه ، وهم يولمون الحكومة المصرية في كل يوم حيث تبذل المال لمعاونة الممارسين له من جماعة الغربيين أسوة ببقية الحكومات الغربية ، ثم إنها تحرم أهل بلادها كل مساعدة من هذا القبيل .

(الصديق) — قد سمعت مقالك ، وعندي أنه يجب على الباحث في الأمور المتعلقة بتربية الأخلاق وتهذيب الطباع أن ينظر أولاً إلى تأثير التربية والإقليم ، وإلى تركيب الغرائز والفطر ، وإلى العادة والعرف ، ولا يتحتم أن ما يكون ذا نفع عند الغربيين يكون له نفع عند الشرقيين ، لا اختلاف ذلك كله فيهم وتفاوته بينهم ، والشواهد كثيرة حجة على أن ما يكون في باريس حسناً يكون في برلين قبيحاً ، وأن ما يكون في لوندرة حميداً يكون في الخرطوم ذميماً ، وما يكون في رومية حقاً يكون في مكة باطلاً ، وما يكون عند الغربيين جداً يكون عند الشرقيين هزلاً ، ولست أرى أن هذا الفن ، لو تم لأحجابه ما يبغونه من وفرة المال ، ومعاونة الحكومة ، أن يصلوا به إلى حد الإتقان المطلوب ، ولأن يكون له النفع المقصود في تربية الأخلاق وحسن الآداب ، لما فيه من المنافرة البيئة لطباع أهل المشرق ، وأخص بالدكر منهم أهل

الإسلام ، لا بل ربما كان منه الضرر البحت ، ولا يغيب عنك أن هذا التشخيص والتمثيل قائم على أساس العشق يدور فيه بكل أدوار ، ولا تخلو قصة من قصصهم التي يمثلونها عن ذكر العشق والغرام ، وما من رواية لهم إلا والعاشقان يكونان فيها كالفاتحة والخاتمة لها ، هو إن كان مقبولا عند الغربيين ، مسموحا به لموافقة العادة عندهم ، ولكونه شيئا لا عيب فيه ، يجهز به فتيانهم وفتياتهم ، بل هو أصل من أصول التزاوج بينهم ، لكنه غير مقبول عند الشرقيين ، ولا مسموح به في عاداتهم ، ولا يدخلونه في أبواب الفضيلة ومحاسن الآداب ، ولذلك كان شأن الكتمان والتستر ، لا التجاهر به والتظاهر ، ولقد جرى العشق في بعض البلاد الشرقية مجرى العيب المحض والعار الفاضح ، وكان عند بعض قبائل العرب إذا اشتهر أحد فتيانهم بعشق فتاة منهم منعه عن التزوج بها لهذا السبب ، وربما رفعوا أمره إلى السلطان ، إن شهر بها في شعره ، فيهدر دمه . فهذا العشق الذي هو الركن الأكبر والسبب الأعظم في حصول التزاوج عند الغربيين ، هو من أكبر الموانع في التزاوج لدى الشرقيين ، ثم إن تهذيب الأخلاق بهذا الفن لا يأتي إلا من الطريق المألوف والمسلوك المعروف عند أهل كل بلد ، فتشخيص هذه الأقاصيص والروايات الغربية الموضوعة على أخلاق أمة بذاتها لا يؤثر في أمة أخرى ، ولا بد أن يكون التشخيص والتمثيل بين الشرقيين مطابقا لأحوالهم وظروفهم ، جازيا على مقتضى عرفهم وتاريخهم ، وليس من المقبول عندهم حصول هذا التشهير والتمثيل في معيشة الأهل والولد ، وما تنسدل عليه الحجب والمستور ، في البيوت والدور ، وليس في الدين الإسلامي ما يسمح باشتراك النساء مع الرجال في تأدية هذا الفن ، لأنه ينهى النساء عن التبرج بالزينة ، فضلا عن الاختلاط بالرجال ، ويأمرهن بغض البصر ، فضلا عن طموحه ، ولا من أدب المسلمين أن يمثل بينهم تاريخ الإسلام وتاريخ خلفائه وصلحائه على أسلوب يتبدى بالعشق والغناء ، وماذا ترى في أبي جعفر عاشقا ، وأبي مسلم مغنيا ، وأبي الفوارس راقصا ، كما يجترىء عليه الآن أهل هذا الفن ، وذلك أكبر إهانة للأسلاف وأعظم خرف في التاريخ ، وإن أردت أن أكشفك بكل ما يحول في خاطري قلت لك إن هذا الفن الذي تغالى الغربيون في إتقانه وارتقائه لم يفدهم أدنى فائدة في باب الآداب ،

Pritham
anti-Pritham

وضرره بينهم اليوم ظاهر ونفعه غير باد ، لأن المول عليه عندهم في هذا الفن أن يظهر والفضيلة من خلل تمثيل الرذيلة ، ويدينوا عن العفاف بتصوير الشهوات إلى حد المبالغة التي يذهب إليها خيال الشاعر ، فتوضيح الرذائل ، وتبيين الشهوات ، وعرضها على أصحاب الرذائل في القوالب المختلفة بما تنطوى عليه من وجوه الحيل والمكر والخداع والختل ، مدرجة إلى تعمق صاحب الرذيلة في رذيلته ، واقتناعه فيها بتلك الوجوه المتنوعة ، فلا يسبقه إليها سابق ، ولم تدرّب اللصوص ومهرة الأسقياء ، وبرز أهل الفسق والفجور بحضورهم تمثيل الروايات ، فاكتمسبوا منها ما كان ينقصهم ، وأخذوا عنها ما كان يعجزهم ؛ ومن تأمل قليلاً وجد أن الشرح والإيهاب في خفايا الرذائل ، التي ينذر حدوثها ويقل وقوعها ، كان من الأسباب في انتشارها ، ولذلك قالوا : إن توضيح الجرائم التي من هذا القبيل في القوانين مما لا يؤمن معه تيقظ المجرم إليها ، وقد سئل الشارع الحكيم اليوناني عن سبب إغفاله عقوبة القاتل لأبيه في شريعته ، فقال : ما كنت لأتصور أن يونانياً في الوجود يقدم على قتل أبيه ؛ فكان قوله هذا أتق لوقوع هذه الجريمة من تدوينه شدة العقوبة عليها . واكتساب صاحب الفضيلة من كشف الرذيلة لا يقوم بمقدار الضرر الذي يلحق بأهل الشر منها .

perb
to
disem

قال عيسى بن هشام : ودق الجرس ، وعاد الناس إلى مقاعدهم ، واشتدت بينهم الجلبة ، وعلا الصياح ، وزين السكر لأحدهم أن يقوم فيهم واعظاً خطيباً ، فما زال يهذي في القول حتى سقط على الأرض يتخبط في قيئه ورجيعه ، لا في دمه ونجيجه ؛ ثم ارتفع الستار عن منظر غابة ، يدور فيها ذلك الفتى ويتغنى بغناه يشبه أذان المؤذن ، ومن ورائه عشيقته تغلقت وتتمثر ، ثم رأيناه قد ترك الغناء مرة واحدة ، وتقدم نحو الحاضرين يخاطبهم بالزجر والتأنيب على جلبتهم وصياحهم ، ويشكو من الشكوى من الانصراف عنه في غنائه ، ثم إنه يعود إلى ما كان فيه من الغناء ، ويأخذ بيد خليته للهروب ، فيدخل والدها عليه في تلك الحال ، فيحول بينها وبين عشيقها ، فينبري له الفتى بضربة حسام تلقيه على الأرض صريعاً ، ويدركه قومه ، فيصوب الفتى عليهم أسهمه ونصاله ، فيلجأون إلى الفرار ، وتقع المرأة مغشياً عليها ، ويقع العاشق باكياً تحت قدميها ، وعلى هذا يسدل الستار ، وينتهي

الفصل ، ويعود الناس إلى مكان الشرب والتدخين ، فنتبع أثرهم ، ونجلس ناحية في بعض زوايا الحان ، وإذا بالعمدة وصاحبيه وعاهرته جالسون جانباً أمام إحدى المنافذ ، وأمامهم الراح والكووس مترعة ، وإذا برجل عابس الوجه بين الغلظة قد وقف أمامهم يقول المرأة في كلامه : « أنظنين أن الهرب وخلف الميعاد يمنعك مني ويؤجل وفاء القسط المطلوب لي منك ، وأنا لا أزال أقتنى أثرك منذ الصباح إلى الساعة ، وتحملت في البحث عنك تعباً عظيماً ؟ والحمد لله إذ عثرت عليك في هذا المكان ، ولست أبرح من هنا ، حتى تعطيني مبلغ القسط ، أو تردى إلى هذه الحلى التي يتزين بها صدرك أمام عشاقك وخلانك » ويمد يده ينتزع الحلى من صدرها ، فيمنعه الخليع متوسطاً بينهما ، ويقول له : ليس هذا وقته ، وليس هنا محل المطالبة ، وأمامك الحاكم ؛ فلا يرجع الرجل عن عزمه ، بل يقول : « أنا لا أطلب بحق أمام الحاكم ، وأمامي مالى في صدرها » ، ثم يمد يده ثانية ، فتقبض العاهرة على حليها ، وتميل على العمدة تستغيث به وتستجير ، فتأخذه الحمية والنخوة ، فيدفع عنها الصائغ بيده ، فيقول له : « إن كان قد عز عليك يا حضرة العمدة مطالبة صاحبتك ، فالشهادة تقضى عليك بأن تدفع لي المبلغ من عندك لا أن تدفعني عن حق بيدك » ، فيسأله العمدة عن مقدار المطلوب له ، فتقول له المرأة : إنه لا يزيد عن عشرين جنيهها ، فينقد الصائغ الدراهم في الحال ، ويطلب منه ورقة الاستلام ، ثم يقدمها إلى المرأة بيد والكأس بيد أخرى ، فتقبل حافة الكأس شكراً له وحمداً ، وينصرف الصائغ ضاحك السن قرير العين ، ويعودون إلى شربهم وحديثهم ، فيقترح العمدة عليهم أن يغادروا هذا المكان إلى سواء ، وأنه يفضل الذهاب إلى منزل صاحبتهم ، ويطلب من الخليع أن ينظم له مجلساً هناك فوق سطح المنزل في ضوء القمر ؛ وبينما هم في أخذ ورد ، وإذا بصاحب الحان الذي تشتغل فيه المرأة واقف على رأسها واضع يديه في خاصرته يبكتها بقوله : « أهذا هو المرض الذي تعتذر به عن تأخيرك في هذه الليلة عن الشغل ، وهذا هو المستشفى الذي تتعالجين فيه ؟ وأظن أن حضرة العمدة هو الطبيب الماهر في هذا العصر الحاضر » ، ثم يجرها بيده لتذهب معه إلى مباشرة الشغل في الحان ، فيمسكها العمدة من أذيالها ، ويقول له : « ما هذه

الوقاحة ، وما هذا التهجم بعد أن أخذت منها عشرة جنيهات في نظير تأخيرها عن الشغل في الحان ، ورضيت بهذا العوض لتكون على حريتها في هذه الليلة ؟ » ، فيقول له : « إن كانت أخذت منك هذا المبلغ لدفعه إلى فقد كذبت في دعواها وادخرت الدراهم لنفسها ، فإما أن ترد إلى المبلغ وتتعهد لي بأنك لا تجتمع بهذه المرأة في غير محلي ، وإما أن تستعد للقضية التي أقيمها عليك بطلب التعويض الذي لا يكفيني فيه دخل أطيانك » ، ويشتمد بينهم اللجاج والخصام ، فتنبهرى إحدى الممثلات الجالسات في الحان ، ممن انتهى دورهن ، فتستصرخ البوليس لإخراجهم ، فيأتى البوليس ويصمم على أن يسوقهم إلى « القسم » جميعاً ، ونخرج وراءهم ، لانباعهم ، فيأبى الباشا ذلك كل الإباء ، وينفر عنه كل النفور ، ويقول : أنا لا أتوجه إلى « القسم » ، لا شاكياً ولا شاهداً ولا مراقباً ولا مستخبراً ، فقد جربت ما يقع فيه ، وكفانى ما علمته من ظواهره وخوافيه ، وقد شعرت بسأم في النفس ، وصداع في الرأس ، فلنذهب إلى البيت ، لنتمتع بشيء من الراحة ، ونخلص من رؤية هذه الحرمات المباحة ، فأجيبه بالطاعة والانقياد ، ونترك الصديق على ميعاد .

المدنية الغربية

قال عيسى بن هشام : وما وصلنا إلى البيت حتى عمد الباشا إلى غرفة نومه ، يحاول أن يشتقي بالرقاد من غمه وهمه ، فتركته في غرفته ، ورغبت في النوم كـرغبته ؛ وبينما أنا غريق في المنام ، أصبح في بحر الأحلام ، إذ سمعت الباشا يناديني نداء مقتالياً ، فقممت إليه مسرعاً وملبياً ، فأخبرني أن طول التفكير نفي عنه الرقاد ، وأورثه الأرق والسهاد ، وطلب مني أن نحبي الليلة بالسمر ، وأن أقتلها معه بالسهر ، فجلسنا نتجاذب أطراف الحديث ، من قديم في الزمن وحديث ، إلى أن صارت الليلة في أخريات الشباب ، فاستهانت بالإزار والنقاب ، ثم دب المشيب في فودها^(١) ، وبان أثر الوضع^(٢) في جلدنا ، فعبثت بالعقود والقلائد ، من الجواهر والفرائد ، ونزعت من صدرها كل منشور ومنظوم ، من درر السكواكب ولآلئ النجوم ، وألقت بالفرقدين من أذنيها ، وخلعت خواتيم الثريا من يديها ، ثم إنها مزقت جلبابها ، وهتكت حجابها ، وبرزت للناظرين عجوزاً شمطاء ، ترتعد متوكئة على عصا الجوزاء ، وتردد آخر أنفاس البقاء ، فسترها الفجر بملاءته الزرقاء ، ودرجها الصبح في أرديته البيضاء ، ثم قبرها في جوف الفضاء ، وقامت عليها بنات هديل^(٣) ، نائحة بالتسجيع والترتيل ، ثم انقلب المآثم في الحال عرس اجتلاء ، وتغير الفحيب بالغناء ، لإشراق عروس النهار ، وإسفار مليكة البدور والأقار ، وما نشعر إلا وقد طلع الصديق علينا مع الشمس ، للموعد الذي كان بيننا من أمس ، فسألنا كيف أصبحنا ، وهل نعمنا واسترحنا ، فأخبرته بما كان ، من اتصال السهر إلى الآن ، وما كانت تجرى عليه المسامرة ، وتدور به المذاكرة ، وجعلتها أن الباشا لا يزال يدهش مما يراه في رحلته ، ولم يكن له أثر في أيام دولته ، ويستخبرني عن سرعة هذا الانتقال ، من حال إلى حال ، وما الأسباب والعلل ، في انتشار هذا الفساد والخلل ، فذكرت له بعض ما حضرني منها ، وما علمته عنها ، وإنك

(٢) الوضع : بياض الصبح

(١) الفود : معظم شعر الرأس مما يلي الأذن

(٣) بنات هديل : الحمام

خلقها الصديق أن تكشف لنا عن وجه الحق الصريح ، وتجبرنا بما عندك من السبب الصحيح .

✱ (الصديق) — السبب الصحيح في ذلك هو دخول المدينة الغربية بغتة في البلاد الشرقية ، وتقليد الشرقيين للغربيين في جميع أحوال معاشهم ، كالعُميان لا يستنيرون يبحث ، ولا يأخذون بقياس ، ولا يتبصرون بحسن نظر ، ولا يلتفتون إلى ما هنالك من تغافر الطباع ، وتباين الأذواق ، واختلاف الأقاليم والعادات ، ولم ينتقوا منها الصحيح من الزائف ، والحسن من القبيح ، بل أخذوها قضية مسلمة ، وظنوا أن فيها السعادة والهناء ، وتوهوا أن يكون لهم بها القوة والغلبة ، وتركوا لذلك جميع ما كان لديهم من الأصول القويمة والعادات السليمة ، والآداب الطاهرة ، ونبدوا ما كان عليه أسلافهم من الحق ظهرياً ، فأنهدم الأساس ، ووهت الأركان ، وانقضَّ البنيان ، وتقطعت بهم الأسباب ، فأصبحوا في الضلال يعمهون ، وفي البهتان يتسكعون^(١) واكتفوا بهذا الطلاء الزائل من المدينة الغربية واستسلموا لحكم الأجانب يرونه أمراً مقضياً ، وقضاء مرضياً ، وخربنا بيوتنا بأيدينا وصرنا في الشرق كأننا من أهل الغرب ، وإن بيننا وبينهم في المعاش لبعد المشرق من المغرب .

(الباشا) — قد يكون ذلك ، ولكن لست أدرى لأية علة أخذ الشرقيون بباطل المدينة الغربية ، وارتدوا بلباسها ، ولم يلتفتوا يوماً للرجوع إلى سابق مدينتهم الصحيحة وعمرانهم القويم ، فهم أهل السبق في ذلك كله ، وعندهم أخذ الآخذون وقلد المقلدون في كل زمان ومكان .

(الصديق) — لا أعلم لذلك من علة إلا ما أعقب العزة السابقة من البطر والأشر ، وما يتولد عنها من طول التواني والتواكل ، وسوء التراخي والتخادل ، فغفلوا عن ماضيهم وذهلوا عن حاضرم ، ولم يكتثروا لمستقبلهم ، وقعدت بهم همتهم عن مشقة التكليف التي كان يتباهى أسلافهم باحتمالها ، ويتفاخرون بممارستها ، وراقهم أن يأخذوا بهذا الطلاء الحاضر من مدينة الغربيين بلا مشقة ولا تعب ولا جد ولا كد ، فعظم مقدار أهل الغرب في

(١) تسكع الرجل : تمادى في الباطل .

أنظارهم ، وتوهموا أنهم من طبقة عالية فوقهم ، فخفضوا وذلوا ، وقهر الغريبيون وغلبوا .
(الباشا) — ألا ليت شعري كيف يمكننى الوصول إلى البحث والنظر فى أصول
المدنية الغربية ظاهرها وباطنها ، وأن أقف على خافيتها وباديتها فى أرضها وديارها ، ولكن
بعدت الشقة وعز المطلب .

(عيسى بن هشام) — لاتستبعد أيها الأمير حصول الغرض ونيل المطلب فى يوم من
الأيام ، فإنه لا يزال يدور فى خاطرى أن أرحل معك رحلة إلى البلاد الغربية نجتنى منها
ثمرات العلم والبحث ، فإن كان هذا العزم من غرضك أيضاً فأنا أجهز له أمرنا .
(الصديق) — وأنا إن شاء الله معكما .

قال عيسى بن هشام : ثم قمنا وعقدنا النية ، على تحقيق هذه الأمنية ، ونسأل الله أن
يسلك بنا سبيل الهداية ، فى المبدأ والنهاية .

الرحلة الثانية

باريس

قال عيسى بن هشام : سبحان من لا تجرى الأمور إلا بتقديره ، ولا تنفذ العزمات إلا بتيسيره ، فقد يَسَّرَ اللهُ لنا الرحلة إلى الديار الأوربية ، لنشهد مظاهر المدنية الغربية ، وياخذنا من سفرنا المدى ، فألقينا بباريس العصا ، وشرعنا نجوب منها الطرقات الجامعة ، والساحات الواسعة ، فلا القبائل تُدعى وتُهرع ، ولا الجيوش تحشد وتجمع ، ولا الموتى وهم يُنشرون ، ولا الخلق وهم يحشرون ، يُضاهي ما القوم فيه من ازدحام واقتحام ، واصطدام والتحام ، متدفقين في سيرهم تدفق السيل ، تحت أضواء تحت آية الليل فلا ليل ، يُخشى فيها على الأبصار ، أن تعشو من شدة الأنوار ، وربما اتخذت بها الديكة فأخذت في الصباح ، إيداناً بانبلاج الصباح .

فإذا نظرت إلى الشارع من العلو ، لم تبال بالغلو ، إن قلت بحر مسجور^(١) ، قام عليه شاطئان من نور ، وإذا أبصرته من أسفله عند أوله ، قلت أسراب الدو^(٢) ، تصعد إلى الجو ، بين الكواكب الزهراء ، من كرات الكهرباء ، والبيوت عن حافتيه تشارف جو السحاب ، وتحاول أن تعلق من السماء بأسباب ، فارةً بأسقة ، متلاصقةً متناسقةً ، كأنها في انتساقها سطور الخط ، والأزهار على جدرانها شكل ونقط ، فأين منه ما بفاه لفرعون هامان ، وشاده جن سليمان لسليمان ، ورفع سماراً للنعمان ؛ وأين شماریخ ثبير^(٣) ، من سنام البعير ، ومعارض الجبال ، من مدارج النمال ؟ لا بل أين البحر العباب ، من لامع السراب ، وأجرام الكواكب ، من بيوت العناكب ؟

وشاهدنا المارة يتسابقون في هذا الموقف المتلاطم ، والمأزق المتزاحم ، من كل شيخ وكهل ، وصبي وطفل ، وفتى وفتاة ، بين ركبان ومشاة ، والألوف من صنوف العجل تخترق صنوف الناس ، وتنفذ بينهم نفاذ السهام عن الأقواس ، طائرة بقوة الكهرباء أو البخار أو الأفراس ،

(١) المسجور : المرتفع الأمواج (٢) الدو : الغلاة . (٣) الشماریخ : رؤوس الجبال ،

وثبير : جبل معروف

ولما لم يسابقهن شيء من الحيوان سابقن الظلالا

وكل سائر منهم في اضطراب العصفور ، وتلفت القطا المذعور ، إن خائته لفتته ،
أدركته منيته ، وإن عثرت قدمه ، هُريق دمه ، وإن شمع شامخ بأنفه ، وقع في حتفه ،
فهم يتلمسون شاكلى الطريق ^(١) ، كما يتلمس الشاطئ الغريق ، والخوانيت على الجانبين
متبرجة ببذائع البضائع ، ونفائس الصنائع ، تغوى الزاهد فيشتتها ، وتغرى الشحيح فيشتريها ،
والحانات من بينها ممتلئة بالنفوس ، مشحونة بالجلوس ، في يد كل واحد منهم كأس الصهباء ،
وفي الأخرى جريدة المساء ، ونحن في هذا الموقف تكاد تطيش منا العقول ، من هول
الدهش والذهول ، وتطير منا الألباب ، من شدة الوجع والاضطراب .

في ساحة لو أن لقماناً بها وهو الحكيم لكان غير حكيم
ومال بنا طلب الراحة ، إلى حان في تلك الساحة ، فلم نجد به مكاناً خالياً من الزحام ،
فعمقنا مدة واقفين على الأقدام ، وكدنا نذهب عنه آيسين ، لولا أن تحرك بعض الجالسين ،
فذهبوا لشأنهم ، وخلفناهم في مكانهم ، وجلسنا في هذا المأمن نتصفح وجوه الحاضرين ،
وأجناس المارين ، فإذا عدد ربات الحجال ، يربو على عدد الرجال ، من كل ذات حسن
وجمال ، وتيه ودلال ، وقد متأود ، وخذ مؤتورد .

تحتال في مفوف الألوان من فاقع وناصع وقان
وهن يرفلن في الوشى ، ويسرعن في المشى ، ويبارين في رفع الفضول ، من الأطراف
والذيول ، ويضربن الأرض بأرجلهن ، ويزحزن ما استطعن من حُلَّاهن .

وييسمن عن دُرّ تقلدن مثله كأن التراقى وشحت بالمباسم
وينشرن من الأرج والطيب ، مثل نشر الزهر في الغصن الرطيب ، ويرسلن سهام
العيون ، فيحركن سواكن الشجون ، ويسلطن من الاحاظ القواتل ، ما يدمى حبات
القلوب الغوافل .

إشارة أفواه وعمز حواجب وتكسير أجفان وكف تسلم
وأصناف الباعة يكثر من الغدو والرواح ، ويهيجون في النداء والصياح ، بمثل العواء
والنباح ، دائبين في الإلحاف والإلحاح .

ولما أفقنا هُنيهة ، أخذ الباشا كعادته^(١) في السؤال ، يَسْتَجْلِي منا واقعة الحال ، ويقول : ما أشك في أن هذا اليوم يوم عيد ، عند أهل هذا العالم الجديد ، أو هم في نظري سكان مهاجرون ، أو جند قافلون ، انتهوا من حومة المنايا ، بالغنائم والسبايا ؛ فأقول له : لا بل هي كما يصفها الواصفون ، ويُعرفها العارفون ، تلك المدينة الفاضلة ، أم المدينة الكاملة ، مهبط العمران والحضارة ، ومظهر الزينة والنضارة ، وموطن العز والمجد ، ومصدر النجس والسعد ، بل هي تلك عندهم إرم ذات العماد ، التي لم يُخلق مثلها في البلاد ، لو رآها صاحب الإيوان ، كسرى أنوشروان ، لم يفخر على الدهر ، بأبوان ولا قصر ، ولحسبكم بأن «المدائن» لديها سبب^(٢) فقر ، ولو نظرها قيصر الرومان لأقسم أن رومية ، وهي عنده عاصمة الدنيا ، قريبة لديها من الطبقة الدنيا ، مثل التي ذكرها في كشفه عن طماعيته ، قبل ولايته ، إذ قال : أفضل أن أكون الأول في أدنى قرية ، ولا أكون الثاني في مدينة رومية ، ولو شاهدها أفلاطون حكيم اليونان ، لم يقل فيما دبر من الزمان . أحمد الله على نعم ثلاث يعجز عن حمدها اللسان ، ولا يقوم بحمدها شكران : أن خلقتني من نوع الإنسان لا من نوع الحيوان ، ومن جنس الرجال ، لا من جنس النساء ، ثم جعل نسبتي إلى «أثينا» عاصمة اليونان ، دون سائر البلدان ، ولو اطلع عليها هاروت وماروت ، لم يُمارياً في أن بابل عندها فلاة سُبُوت^(٣) .

كجنة الخلد تسر من رأي فتزدرى «الخلد» و«سر من رأي»^(٤)
هذه هي اليوم بيت العلم والفضل ، ودار السلام والعدل ، ومعهد الحق والانصاف ، ومهد الاتحاد والائتلاف ؛ هذه هي المدرسة التي يُشرق منها على العالم شمس الهدى والعرفان ، ويتلقى الإنسان عنها حقوق الإنسان ، ويعرف منها وجوه الخير والإحسان ، ولكل إنسان وطن ، وهي لكل وطني وطن ثان ، لولاها لم يدرك الإنسان لنفسه من قدر ، ولم يأمن في دياره من اغتيال أو غدر ، فقد كفت عن الناس عاديّات المظالم ، وكفتهم بائقات^(٥)

(١) العاد : العادة (٢) السبب : المفازة والأرض البعيدة المدى (٣) السبوت : الفقر

(٤) الخلد : قصر للنصور . وسر من رأي : بلدة بناها المعظم العباسي شمال بغداد .

(٥) البائقات : جمع باقّة . وهي الداهية

المغارم ، وعلّمتهم كيف تؤتي المكارم ، وتجتنب الأوزار والمحارم ، وكيف يعيش البشر في دار الشقاء ، عيش السعادة والهناء ، تحت ظل « الحرية » و « المساواة » و « الاخاء » . إذا ناداها المظلوم من أى جنس وأى قوم ، أجابته : لبيك مات الظلم فلا ظلم اليوم . وهؤلاء أهلها كما تراه يهجرون الرقاد ، ويواصلون السهاد ، ويصرفون الحياة في الجد والعمل ، ولا ينتهي بهم أمل إلا إلى أمل ، فليس على همهم شئ بمحال ، في كل حال ، يذیبون بعزائمهم صلب الحديد ، وتلين لشارتهم صم الجلاميد ، ويذيبون الهواء ، ويكتبون على الماء ، ويفتلون الحبال من الرمال ، ويزيلون راسيات الجبال ، برائشات النبال ، وينضبون الدأ ماء^(١) بمتح الدلاء ، ويمحون آية الليل فلا تبلغ فيهم أمداء ، ويجعلون النهار دائماً عليهم سرّمداء .

أولئك الناسُ إنْ عُدُوا بأجمعهم وَمَنْ سَوَاهُمْ فَلَعَوْهُ غَيْرُ معدودٍ
والفرقُ بين الورى جَمْعاً وَبَيْنَهُمْ كالفرق ما بين معدومٍ وموجودٍ
أقول قولى هذا ، والباشا ينصت ويتأمل ، و « الصديق » يتبرم ويتعامل ، فالتفت إليه أستخبره الخبر ، عن سبب هذا الضجر ، فما أتممت عليه أحرف السؤال ، حتى انهال علينا في المقال ، انهيال السيل من مُشرفٍ عال :

(الصديق) — تالله لقد سئمنا ومللنا من سماع مثل هذه المبالغات ، وتردادها على آذاننا في وصف هذه الديار ، ونحن في ديارنا السنين والأعوام ، وأولى ما يوصف هذا الوصف للغائب عنها لا للحاضر فيها ، وأنت رجل بحاث نبأ^(٢) من دأبك استنباط الغوامض واستجلاء الدخائل ، وألزم ما يكون لنا الآن أن نجعل فكرنا مجرداً عن مثل هذه الأوصاف والأخبار ، التي شحنت خيالنا زمنًا طويلاً ، فننساها ولا نذكرها ، ليكون حكمنا على المشاهدة والعيان خالياً من مقدمات سبقت على الغيب ، ورسخت في أذهاننا بالخبر ، وقد علمت أن ذهن الإنسان يغلب عليه الاتقباض عن الفحص والتحصيل ، ولا يباشرها في الغالب إلا مضطراً مقسوراً ، لما في التسليم المطلق والتصديق المعجل من

راحة الفكر وسكون البال ، وربما ارتسم في خياله أمر استحسنه بالخبر ، فيركن إليه ويردُّ كل ما يردُّ عليه من قبيله إلى صحيفة الاستحسان والقبول في نفسه — والأذن تعشق قبل العين أحياناً — كما أنه إذا هو استقبح أمراً كان الأمر على هذا القياس ، ولذلك ترى العاشق يردُّ كل ما يصدر عن معشوقه إلى الحسن ، وإن كان غير حسن في الواقع عند الفحص والتأمل ، للميل الأول والاستحسان السالف ، واستعداد لوح الرضا والقبول في نفسه ، لانتقاشه فيه ، ومن هنا جاء قولهم :

وعينُ الرضى عن كل عيب كليفةٌ كما أن عين السخط تُبدي المساويا

ولقد ترى الرجل الشاعر الأديب إذا أنت أنشدته بيتاً من الشعر لم يكن يعرفه ولم تسم له قائله ربما استهجنه ولم يستملحه ، فإذا سميت له أبا تمام مثلاً أو أبا الطيب ، ارتد إلى الاستحسان ، وأخذ يتحمل القائل البيت عذراً ، إن كان في البيت ما يستهجن حقيقة ، وما كان ذلك إلا لما اطمانت عليه نفسه وتعودته من القبول والاستحسان لكل ما يصدر عن هذين الشاعرين .

ويمكن من هذا كله أن نستخرج معنى الحظ والسعد والإقبال الذي يناله الإنسان في دنياه ، إن صادف عمله في النفوس صحيفة الاستحسان بين الناس ، ومعنى النحس والتعس والإدبار ، إن صادف ما يأتيه عندهم لوح الاستقباح ، والشاعر يقول :

إذا أقبل الإنسان في الدهر صدقتْ أحاديثه عن نفسه وهو كاذبٌ

فما بالك بأحاديث الرواة عنه وحسن القالة فيه ، وقد عهدنا الغربيين عموماً ، وهؤلاء الفرنسيين خصوصاً ، لا تنصفح لهم كتاباً ولا نسمع منهم حديثاً إلا بتمجيد مدنياتهم ، ومباهاة الناس طرّاً بنظام معيشتهم ، وأنهم هم أرباب الخلق وسادة البشر ، وأن الهدى هدام ، والضلال فيمن عداهم ، وأنه أوحى إليهم من سماء مدنياتهم أن يخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، فإما الإيمان بها وإما الحسام ، وقد ذاعت فينا دعوتهم ، وأعائهم منا على نشرها من أعانهم ، فقبلنا مبالغاتهم بالتصديق والتسليم من غير بحث ولا نظر ،

وصرفنا كل ما يأتونه إلى وجوه الحكمة والصواب ، وبسطنا لهم صحيفة الاستحسان من النفس ، يرتسم فيها كل ما يتخيلونه لنا ويموهون به علينا .
فالرأى لنا حينئذ أن نطرح عنا ما قالوا وما وصفوا ، وننظر اليوم إلى الأمور في حقائقها ، ونحكم عليها بحسب قيمتها في ذاتها لا على حسب ما رسمه الوهم وسوِّله الخيال في نفوسنا ، ومعنا الباشا يمتاز علينا والحمد لله بأنه كان بعيداً عن هذا العالم محتجباً عن هذه الدنيا الدهر الطويل ، فبقى خالي الدهن مما شحن رؤوسنا من هذه المدنية ، فحكه اليوم على ما يشاهده بالعيان ، دون الخبر والرواية ، يكون أصح حكم ونظرة أصدق نظر ، وما علينا إلا أن نشاركه في صحة النظر مجردين عن الهوى ، حتى نقف على كنه الحق والباطل في نظام هذه المدنية وقوفاً تاماً .

(عيسى بن هشام) — لك الله فيما تبدى وتعيد ! ! كأنك تريد أن نخالف الإجماع ونقابل الناس بغير ما ألفوه ، فننتقد لهم ما هو خال عندهم من انتقاد ، بعيد من الزام والعار ، فيرموننا بغلظة الطبع ، وجفاء الفهم ، وسخف الرأى ! ثم لا يفوتنك أن كثيراً من ذوى الرأى يرون أنه ليس من أدب الدنيا أن كل حقيقة تقال وكل صحيح يُروى .
أو ليس من صواب الرأى حينئذ أن نسير على أسلوب الذين سبقونا إلى زيارة هذه البلاد ، فنرجع على أهل الشرق باللائمة عليهم في انخفاضهم وارتفاع أهل الغرب فوقهم ، وأن نصف ما القوم فيه من القوة والمنعة ومظاهر العز والعظمة في النعيم المقيم ، وأننا لا نزال راقدين رقادنا الطويل في كهوف التراخي والخلول ، يقولون فنسمع ، ويأمرون فنصعد ، ويقتسمون أرزاقنا فنشكر ، وينقصون من أرضنا فنحمد ، ويحتلون ديارنا فنقبل ، أفلا أقل من أن نسهب في بيان الأسباب التي ارتقت بهم إلى مرتبتهم في الوجود ، ونظنب في شرح القواعد والأصول التي أسسوا عليها بنيانهم ، لنحذو حذوهم ، ونعمل على شاكلتهم ؛ أو ليس الأليق بنا أن نحض قومنا ، لينفضوا عنهم غبار الكسل ، ويخلعوا عنهم لباس الخمول ، ويهيموا إلى تقليد هؤلاء المجتهدين في أنواع الكالات ؟ أو لست ترى ، من أفضل الأبواب في الحث والتحريض . أن نفخم ما استطعنا في وصف هذه المدنية ، ونعظمها

في أعينهم ، ونكبرها في صدورهم ، ونبتكتهم بأحاديثها ، ونرفع من قدرها بقدر ما نخط من قدرنا ، ونعيرهم بالمقارنة ، ليكون الحث والتحريض على المباراة أشدّ ، والإثارة إلى اللاحاق بهم أبلغ ، ولو سكت الأستاذ عن تلميذه ، ولم يعيره بسبق غيره عليه ، أكنت تراه يجد في الأخذ ، ويجتهد في التحصيل ؟

(الصادق) — لا يعزب عن فطنتك بادىء الأمر أن جل هؤلاء الذين تحكى عن طريقته ممن زار هذه البلاد من أقوامنا ، وعادوا إلى بلادهم فحدثوا عنها ، وكتبوا وقرروا وحكموا ، ينقسمون إلى أقسام :

القسم الأول منهم : الطلبة الذين تلقوا في هذه البلاد دروسهم ، وهؤلاء لما هم فيه من غُلُوّاء الشباب والافتتان بكل رائع يغلب عليهم الأخذ بالظواهر ، ولا تمتنع ثمة عندهم للبحث والفحص ودقة التمييز فيما هو داخل تحت حكم الفضيلة ، وداخل تحت حكم الرذيلة عند النظر في معيشة أهل هذه المدينة الغربية ، بل هي تتجلى لهم في صورة معظمة ، فيأخذونها على الجملة زاهية زاهرة ، حتى إذا انقلبوا إلى أهلهم ، رَوّوا لنا عنها مثل حديث المغرم عن معشوقه في أوقات نشوته ، وكان همهم أن يظهر عليهم أثر من آثار تلك المدينة العظيمة مما تحف مؤونته وتهون تكاليفه ، ليلاحقوا بأنفسهم شيئاً من تلك العظمة التي بهرت خيالهم وبهروا بها أعين الناس ، ولسنا من أهل هذه الطبقة .

والقسم الثاني : جماعة منا قصدوا هذه البلاد للنزهة والاسترواح لا سواها ، فهم لا ينظرون إلى هذه المدينة إلا من وجه تطبيق العيان على الخبر ومن بحث منهم فأنكشف له فيها عيب ، كره تغيير الرأي ومخالفة المهود ، لما فيه من المشقة والكلفة ، ثم أضف إلى ذلك ما يكون للاختصاص بمشاهدة المحاسن دون المعاييب ، والتبسط في الحكاية عنه من الفضل على السامعين والمستخبرين ، ولسنا من هذا الصنف .

والقسم الثالث : طائفة من أرباب الوظائف في الحكومة يفرون إلى هذه البلاد من أسر الخدمة مسافة الشهر أو الشهرين فرار الأسير من القيد ، ومنهم من تلقى دروسه فيها ، وحكمه حكم الذين ذكرناهم في القسم الأول ، وفيهم من لم يتعلم في أوروبا ،

فهم يسرون على نهج المباراة المتعلمين فيها ، صائرين على نطهم ، ليلتحقوا بهم ، ويحشروا في زمرةهم ، ويرتفع عنهم بعض امتيازهم عليهم ، وحكمهم حكم واحد أيضاً ، على أنهم ليس عندهم جميعاً من سعة الوقت ما يفسح لهم مجال البحث والتدقيق فيما يرونه ، فان كل موظف منهم لا ينفك مدة زيارته مشغول الفكر ، مقسم النظر ، بين أمرين : عين تنظر إلى ما بقى في صحيفة إجازته من الأيام ، وعين ترمق ما بقى في كيسه من الدراهم ، ولسنا من هذه الرتبة أيضاً .

وجميع هذه الأقسام كما تراهم مولعون بالمبالغة في الوصف والغلو في القول ، ولا غرو فالتناس لا يرون لهم فضلاً في الرواية والنقل ما لم يضيفوا إليهما الكثير المفتري من عندهم ، ولحكاية الغريب ورواية العجيب لذة في نفس الراوى وحلاوة في أذن السامع . على هذا درج الخلق منذ خلق الله آدم إلى اليوم ، ومنذ جرت أساطير الأولين عن الجن والعفاريت والأغوال والسعالى إلى قصة « ألف ليلة وليلة » و « سيرة عنترة » و « خريدة العجائب » .

وهناك قسم رابع ربما يخص ودقق ووقف وعلم ، ولكن لهوى خالصاً به يمنعه من كشف الحقائق ، ويدفعه إلى المبالغة على القصد والغلو على العمد ، فلا يروى ما يرويه عن هذه المدنية إلا بالتشديد والتجديد ، باطلاً كان أم حقاً ، لينصر مذهباً له معيناً وغرضاً مضمراً ، فيدأب بيننا كالأجير للأجنبي ، يرفع لنا من شأن مدينته وقوة حضارته ، ليرتفع معه بارتفاعه ، ويتسلط علينا بسلطانه ، وينتفع منه بتمكين جاهه فينا وقدرته علينا ، وفي هذا القسم من يرى أن في استيلاء المدنية الغربية على الشرق وتغييرها لتقدم عاداته وأخلاقه انتصاراً لمذهب بعينه ، فهم في إشادتهم بأمرها وتشجيعهم لها ، وتبشيرهم بها ، كالمثبيين لمذهب والمبشرين بدين .

فقد تبين لك إذن أننا لسنا بمعدودين في قسم من هذه الأقسام ، وقد خرجنا من ديارنا واصطحبنا في سفرنا على شريطة الفحص والتنقيب والاعتراض والانتقاد ، وأن نتحدث عن هذه المدنية بما فيها من ضار ونافع ، ومعوج ومستقيم ، على المشاهدة في منبت أرضها وتربة نشأتها ، وأنا رجل أميل إلى أن كل حقيقة تقال وكل صحيح يروى ، فدعنا حينئذ من

الغلو والاغراق ، واتركنا من التخيل في النعت وتعمّل الشعر في الوصف ، وخذّ بنا فيما عهدناه على أنفسنا ، وقد آن أن نسأل الباشا ، وهو ينظر إلى الأمور بنظر صادق مجرد عن الهوى ، عما وقع عليه من التأثير في نظرتة الأولى عن هذا العالم الحديث عنده ، وعن جملة ما حصل منه في نفسه .

(الباشا) — ما أراني أميّز شيئاً فيما رأيته من هذا الخلق المزدهم ، وهذه الحركة المشابهة لحركة الأسواق في هذا الدوّى المائل لدوىّ الخلايا ، وهذه الأضواء التي يتأذى منها البصر ، وجملة ما أنا فيه الدهشة والحيرة ، ولعل هذا هو الذي يمنعي من التمييز ، وكنت أود أن يقع اختيارنا على ناحية ساكنة من المدينة ، خالية من مثل هذا الزحام ، حتى نألف الديار وساكنيها .

(عيسى بن هشام) — ليس ماتوده من هذا القبيل بميسور ، لأن الزحام منتشر في جميع أرجاء المدينة ، وهذه الحركة لا تنتهي الليل والنهار ، ولا جرم فإن عدد سكانها يُقدّر ببضعة ملايين ، ولك أن تقول فيها إنها جملة بلاد متجمعة متشابكة يعدّها منها مدينة واحدة .

(الصديق) — وفي هذا من عظمة الملك ما لا يخفى على أحد !!

(الباشا) — إن كان الأمر كذلك ، فلا بدّ لنا من مرشد يرشدنا وهادٍ يهدينا ، فنقف منه على ما يخفى علينا فيها ، وما يغمض من حقائق الأمور .

(الصديق) — ما إخالك واجداً لطلبك ، فقلّ أن تجد في أهلها من لا يسلك السبيل المعروف في تشييد مجد قومه ونشر مفاخرهم بما نحن في غنى عنه ، ولسنا نستفيد منه إلاّ كثرة اللغو وقلة الحصول .

قال عيسى بن هشام : وجاء وقت الطعام فقمنا إلى المطعم ، ولما أخذنا مقاعدنا على المائدة تبصّرنا أمامنا ثلاثة أشخاص من أهل المدينة يتجادلون بينهم . فأنصتنا إليهم نتلقف من أفواههم ما يخوضون فيه ، أحدهم شاب ضئيل الجسم حسن الشّارة محلوّق اللحية والشارب ظاهر التحكف في زيه ينمّ شكله وحديثه على أنه أديب من كتّاب العصر ، وثانيهم رجل بدّين منتفخ البطن أحمر اللون ينبئك وجهه وقوله أنه من طائفة التجار ، وثالثهم شيخ جميل

المنظر في وقار السن وورزاة العلم ما يشك رائيه والسامع له في أنه رجل من أهل الفلسفة والحكمة ، ولَدَّ لنا أن نجعل التفريغ لاستماع كلامهم سمر المائدة ، فوجدناهم ينتقلون فيه من باب إلى باب ، ومن شأن إلى شأن ، حتى انتهى القول بهم في الأحوال الحاضرة إلى حرب الصين ، فسمعنا « الكاتب » يقول ، وهو يضرب المائدة بيديه والأرض برجليه :

(الكاتب) — لقد آن للمدينة أن تزيل الهمجية وتمحو الوحشية من الوجود ، وأن نقوم بنشر الرسالة التي سخرنا أنفسنا لتبليغها إلى الناس ، فنصلح من شأن الإنسان في أي مكان كان ، ونغرس فيه أصول المدنية ، ونأخذ به تعاليمها ، لنصل بالعالم الإنساني إلى الراحة الدائمة والسعادة المطلقة في هذه الحياة ؛ وإلا فما مزية جهادنا في فنون الترقى والتقدم والتسابق في العلوم والفنون ؟ وما فائدة هذا الاختراع والابتداع في أبواب الصناعات والآلات ؟ فإن كان المقصود من المدنية أن نتقن هذه الآلات الحربية ، ونعد هذه القوى العسكرية ، ليقتل بها بعضنا بعضاً ، ونخرّب بيوتنا بأيدينا ، فبئست العلوم والفنون ، وبئس ما سخرنا له أنفسنا وأضعنا فيه أعمارنا ، إذ تنقلب الغاية من تهذيب المدنية إلى فظاعة الوحشية .

ولقد كان الواجب على دول الغرب وأممه أن يتحد بعضها ببعض فتتصرف بكليتها ، وتندفع بجميع قواها ، التي شيدتها لها أفكار العلماء وذوى المعارف منا إلى تهذيب بقية أهل هذا العالم المقيمين على الجهالة إلى اليوم ، لتنتزعها من حضيض الهمجية إلى مقام الرفعة الإنسانية ، فيحق لكل واحد منا بعد ذلك أن يفخر على الطبيعة بأنه أصلح فسادها وسد نقصانها .

(التاجر) — نعم هكذا يجب أن تكون سيرتنا ، وإلا فكيف يتسنى لنا تصريف بضاعتنا ، وترويج صناعتنا التي تقوم عليها معاشنا وتضييق بها أرضنا إذا اجتراً أهل الصين على أن يقوموا في وجوهنا ويعطوا مصالحنا ؟ وكيف نجهد أفهامنا في العلوم ، ونشقى ونتعب ، وفي العالم أقوام نيام على أرض من الذهب كالأرصاد فوق الكنوز لا ينتفعون بها ولا يتركون الانتفاع بخيرات الطبيعة وطيباتها للذين استحقوها بكشف أسرارها ورفع أسرارها ؟

(الحكيم) - إن كان الكلام يدينكم عن المدنية الصحيحة التي تقوم على الحرية والمساواة والإخاء حقيقة ، وتعم الخلق من غير استثناء بالعدل والاحسان ، وتوفر لهم أسباب السلم والأمن في السعة والرخاء ، فلسنا منها في شيء إن كنا نظنها مقصورة على إتقان الآلات وحشد الجنود ، والتفنن في تشييد قوى الحرب ، وإتقان ثروة الأمة في سبيل ذلك ، حتى تضيق بنا الأرزاق في أرضنا ، فنعمل على طلبها في أنحاء المسكونة ، ونسلط على أهلها هذه القوى الحربية ؛ ولسنا من المدنية في شيء أيضاً ، إذا كنا نعتبر أنفسنا ملائكة الأرض ، وصفوة البشر ، وأرباب الخلق ، فنحتقر بقية العالم ، ولا نرضى منهم إلا بتغيير أخلاقهم ونسخ عاداتهم ، وأن يفوضوا إلينا أمورهم ، ويسلموا إلينا مقاليدهم ، ونكون فوقهم كالأوصياء نصرهمهم إلى ما نحب ونسوقهم إلى ما نهوى ، وليست المدنية أن نذهب إلى الصين في أقصى الأرض ، وهو آمن مطمئن بين أهله وولده في عيش يرتضيه ونظام يألفه ، فنقول له : قم فقد جئناك بالهدى والحق ، فهلم فكسر أصنامك ، واهدم مناسكك ، واحرق كتابك ، وغير ثيابك ، وبدل طعامك ، وارفع حجابك ، وكن أوروبياً في الصين القديم ، وغريباً في الشرق الأقصى ، فإذا قال لنا : لست أفقه شيئاً مما تدعوني إليه ، ولا أدري ما هذا الدين الذي تبلغونني رسالته ، قلنا له : ليس هذا بدين ولا بمذهب ، وإنما هي دعوة المدنية الغربية ندعوك إليها لتقرها وتلبس بها ، فيقول لنا إن كانت لكم مدنية غربية فلنا مدنية شرقية أسسها فينا تجارب القرون المتراكمة ، وبقيت فينا نقيّة خالصة هذبها الدهور وأخلصتها يد الزمان ، وليس يبقى على الزمن من الأخلاق والعادات إلا ما كان له أصل ثابت وجوهر نقي ، وأنتم إن كنتم تؤرخون وجودكم في العالم بسبعة آلاف من السنين ، فنحن نؤرخ وجودنا بمئات الألوف ، وإن كانت مدنيّكم بنت قرن أو اثنين ، فإن مدنيّتنا بنت عشرات القرون ، اصطلحنا عليها وألفناها ، وطاب لنا العيش بها طول هاتيك الدهور ، ومن دلائل المدنية الصحيحة أن تعيش فيها بأمن وسلام لا يطمع أحد فيما ليس له ، ولا يغير على حق لغيره ، وقد علمتم أننا عشنا دهرنا الطويل لم نطمع في أرضكم ولم نثرح بآفاتكم ، ومن دلائلها أنها لا تنتهي بأصحابها إلى مفاصد الترف

والنعيم فتضعف الأجسام ويقل النسل ، وقد علمتم أن بلادنا هي أكثر البقاع سكاناً وأعظمها عمراً ؛ فنقول له : ما أضلّ أحلامكم يا معشر الصيدين ! ألم تعلموا بأن مدينتنا هي مدينة العالم كله لا سواها ، قامت على العلوم والمعارف ، واستوت على أساس متين كان ينشده الخلق منذ القدم ، فما زالوا يتخبطون دون الوصول إليها ، حتى سمحت الطبيعة آخر الدهر فأنجبتنا لها ، فأخرجناها للناس هدى ورحمة ، وعهدنا على أنفسنا دعوة الخلق إليها ليسعدوا بها مدى الحياة ؟ بهذا وصانا أئمة المدينة فينا ورجال الدعوة منا .

إن كانت هذه هي المدينة التي نفاخر بها ونساجل ، فلا بدع أن يعتقد أهل الشرق أنها ليست إلا وسيلة من وسائل الفتوحات لنيل المطامع وبلوغ المآرب .

قال عيسى بن هشام : وتأتى غادة هيفاء ، تتثنى بقوامها ، وتشكسر في مشيتها ، فتخاطب « الكاتب » بالعتاب ، لأنه أهملها في الانتظار ، وجلس للكلام والجدال ، وتسوقه أمامها بعضا المظلة ، ويتبعهما التاجر ، ويبقى الحكيم يرى ثلاثتهم بالنظر الشرر ، وينعى عليهم سوء رأيهم وفساد نظرهم .

ويلتفت إلى « الصديق » فيقول لى : ما أغرب ما نرى من هذا الشيخ الفرنسي ، فما أصلبه في قول الحق ، وما أجراه على الجهر بالصدق ، وما أولانا بمعاشرة مثله نستبصر به ونسترشد ؟ فأرفع ببصرى إلى الشيخ ، فإذا هو يرمى بنظره إلينا ، ويستمتع لحديثنا بالعربية ويظهر نحونا البشر ، فقابلته بابتسامة أخطب بها وده ، فبادرنا بالحديث ، واتصل بيننا حبل الكلام ، فسألنا عن أمرنا ، وسألناه عن أمره ، فتبين لنا أنه رجل من أساتذة الفلسفة والحكمة ، ومن المستشرقين الذين يشتغلون بالشرق وأهله ، وكشفنا له حقيقة أمرنا ، والغرض الذى رمينا إليه ، فاتفق معنا على المخالطة والمصاحبة نحكى له عن الشرق ويحكى لنا عن الغرب ، ودعانا لزيارة المعرض العام معه فى الغد ، فقابلناه على ذلك بالشكر والحمد .

المعرض

قال عيسى بن هشام : وانطلقنا نقصد عكاظ الممالك والأُمم ، وسوق الأقدار والهمم ، ومشهد النفائس والعظامم ، ومظهر القوى والعزائم ، وحلبة الابتكار والابتداع ، وميدان الإنشاء والاختراع ، ومعرض التبصر والاهتداء ، في حسن التقليد والاقتداء ، ولهذا المعرض خمسون باباً ، تختلف ابتعادا واقتراباً ، فبلاغناه من ناحية الباب المعظم ، والمدخل المقدم ، فإذا الباب قبة تقوم على ثلاث قوائم ، تلامس بعلوها الغمامم ، كأنها اليفاع^(١) ، في الاتساع والارتفاع ، ينحدر من تحتها الجيش المتراكب ، فلا تتماس فيه المناكب ، وعلى كلا الجانبين^(٢) سارية ، تقارن السحب غادية وسارية ، يدور في رأس كل واحدة منها نبراس وأى نبراس ، إذا اشتعل جعل فحة الليل قبساً من الاقباس ، فكلتاها علم في رأسه نار ، يستوى عندهما الليل والنهار ، ومن لصخر الخنساء أن يأتهم بهما في ظلمة البيداء وهو المؤتمم به في أبيات الرثاء :

وإنَّ صخرًا لتأتهم الهدأة به كأنه عَلمٌ في رأسه نارٌ

فهما عمودا فجر ، لاعمودا صخر ، يكتنفان تمثال غانية غيداء ، قائمة على رأس تلك القبة السماء ، رشيقة القد ، بارزة النهد ، ممكورة لفاء^(٣) ، مجدولة عجراء ، قد خلعت الإزار والوشاح ، وتبدت في « قميص الصباح » ، وهي تضمه بيديها إلى صدرها ، خشية أن يحاول النسيم هتك سترها ، إذا عارض وجهها القمر ، علا وجهه الكدر ، ثم بان فيه الكلف والنمش ، فاحتجب بالغيام وانكش ، وغارت منها الزهرة ، غيرة الضرة من الضرة ، فغارت في الدجون ، وغابت عن العيون ، لوقام نابغة بنى ذبيان من قبره ، لشهد أنها الدمية التي وصف بها المتجرودة في شعره :

(٢) السارية : الأسطوانة والعمود

(١) اليفاع : التل المرتفع

(٣) المكورة : المدجة الخلق . والفاء : الممتلئة الساقين

أَوْ دُمِيَّةٌ مِنْ مَرْمَرٍ مَرْفُوعَةٌ بُنِيَتْ بِأَجْرِ يُشَادُّ وَقَرَمَدٍ^(١)
 أَوْ دُرَّةٌ صَدْفِيَّةٌ غَوَاصُهَا بَهِيْجٌ مَتَى يَرَهَا يُهَلِّ وَيَسْجِدُ
 لَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطَ^(٢) رَاهِبٍ عَبْدَ إِلَهٍ صَرُورَةٍ مُتَعَبِّدٍ^(٣)
 لَرْنَا لِرُؤْيَيْهَا وَحَسَنٍ قَوَامِهَا وَلِخَالِهِ رَشْدًا وَإِنْ لَمْ يَرِشِدْ

فقد أقامها الصنّاع آية الفن في التصوير والتشكيل ، وشاردة الشوارد في الرسم والتمثيل ، يُخَيِّلُون بها « فرنسا » في ترحيبها بالزائرين والقاصدين ، تحييتها للواردين على المعرض والوافدين ، والباب كله مرصع بمحقق من البلور^(٤) ، إذا تلالاً فيها شعاع النور ، خلتها أنوار الأزهار في أغصانها ، أو أذيال الطواويس في اختلاف ألوانها ، بل قلائد منظومة من در وجوهر ، وعقود ياقوت من أحمر وأزرق وأصفر ، لا بل فصوصاً مُنصَّدة من اللباس ، يتراءى فيها طيف الشمس بالانعكاس .

ولما تجاوزنا الباب ، انتهينا إلى سهل رحيب ، ووادٍ عشب ، نبئت أرضه بالقصور المنيفة ، كما نبئت الروض بالأغصان الوريقة ، تضل فيه الحداة ، وتجار الهداة ، ولا بدع فالمدينة في اتساعها قطر من الأقطار ، وهذا المعرض في سرتها مصر من الأمصار ، وما زلنا سائرين على أرض تزهر فيها أغراس الجنان والبساتين ، وأزهار الأغصان والرياحين ، يتخللها من الدُحَى والتماثيل ، ما يعرب عن الدقيق من المعاني والجليل ، فتكاد تبادرك بالخطاب ، أو تردّ رجع الجواب ؛ ولما امتلأت العين من هذه المحاسن الشائعة ، وجنّ اللب من هاتيك المناظر الرائعة ، التفت إلى أصحابي أتلهّس ما يجري في خواطرهم ، وأتحسّس ما يدور في ضمائرهم ، فرأيت الباشا يتأمل ويحدق ، ويمعن ثم يطرق ، وإذا هو يقول في همسه ، وحديثه لنفسه : لله أبوه ، ما أبعد شأؤهم في التشييد ، وأجل شأنهم في الإنشاء والتجديد ، وما أسبقهم في الجد والاجتهاد ، إلى التوسع وحب الازدياد ، وما أشغلهم بما يكفي الإنسان أقله وأدونه ، ويكفل راحته أصغره وأهونه ، ولو تيقن ابن آدم أن القبر غايته ،

(١) القرمذ : كل ما يطل به (٢) الأشمط : الذي خالط سواد شعره بياض

(٣) الصرورة : الذي لم يتزوج (٤) البلور : نوع من الزجاج

لم تخفق على القشور رايته ، وكان همه بحفر القبر ، أعظم من همه بنشيد القصر ، فمقامه هناك طويل ، وبقاؤه هنا قليل ، ولو علم أن هذه الأحجار المذهبة في الشرفات العالية ، لا تلبث أن تنتقل صفائح في القبور البالية ، لم يعمل عمل الخلدن ، وهو بين أظفار المنايا رهين .

تَبْنِي المَنَازِلَ أَعْمَارُهُ مَهْدَمَةٌ من الزمان بأنفاسٍ وساعاتٍ

ووجدت « الصديق » في هذا الموقف على حال لا تتغير ، وهيئة لا تتأثر ، ينظر إلى ما نستعظمه نظرة الفلاح إلى قرينه ، والبدوي إلى ديمته ، لا يعجبه شيء ولا يزدنيه ، مما تحار أحلام الوري فيه .

لا مُعْنَى بِكُلِّ شَيْءٍ وَلَا كُلُّ عَجِيبٍ عِنْدَهُ بِعَجِيبٍ

إلا أنه مع ذلك غير هاديء البال ، ولا ساكن البلبال ، كأنما هو يغوص على معنى يَدِقُّ في الفهم ، ويبحث في أمر يجل عن الوهم ، ويستجمع لديه حواشي التفكير ، ويلم أشتات التذكير ؛ فاستخبرته عما يشغله ، وسأله عما يذهله ، فلم يسمع بالجواب ولم يسعد ، غير أني سمعته يترنم وينشد :

ما أَقْلَّ اعتِبارَنا بالزَمانِ وأشدَّ اغترارَنا بالأمانِ !
وَقَواتٌ على غُرورٍ ، وإِقدا مٌ على مَزَلَقٍ من الحِداثِ
التَفانًا إلى القُرُونِ الخوالِ هل تَرى اليَومَ غَبرَ قَرَنِ فانٍ ؟
أَينَ ربُّ السَديرِ فَالحِيرةَ البَينِ ضاءٌ ، أم أينَ صاحِبُ الأَيوانِ ؟^(١)
والسَيوفُ الحِدادُ من آلِ بَدْرٍ والقَنّا الصمُّ من بَني الرِّيانِ
يَكرعونَ المُقارَ في فَلَاقِ الإِبرِ رَيزِ كَرعِ الظِّماءِ في الفُدرانِ^(٢)
من أُبابَةِ اللعنِ الَّذينَ يُحَيِّوُ نَ بها في مَعاقدِ التَّيجانِ^(٣)
تَترأءُ هُمُ الوُفودُ بَعيداً ضارِبينَ الصُّدورَ للأَذقانِ

(١) قصران معروفان

(٢) أباة اللعن : الملوك الذين يخاطبون بأبيت اللعن .

(٣) ريز كرع : ريز كرع

في رياض من السماح حوال
وهم الماء لَذَّ للعطش
ما ثنت عنهم المنون يد شو
عطف الدهر فرعهم فرآه
وثنتهم بعد الجراح المنايا
ليس يبق على الزمان جرى
وجبال من الحلوم رزان
ن برداً والنار للحيران
كأ أطرافها من المران^(١)
بعد بعد الذر قريب المجاني
في عنان التسليم والإذعان
في إباء أو عاجز في هوان

ورأيت الشيخ « الحكيم » يهز كتفيه ، وينظر في عطفه ، ويقول في التفاته إلينا ، وانعطافه علينا : ما أشبه الأواخر بالأوائل ، في التفاخر بالباطل الزائل ! لا يظن ظان أن كل ما يراه من هذا المشهد الفخم ، ويستعظمه من البناء الضخم ، بما أنفق عليه من الأموال الطائلة ، وما اقتضاه من المشاق الهائلة ، سيدوم السنين والأعوام على الدهر ، وإنما يعدُّ بقاؤه باليوم والشهر ، وليس يمكث من كل هذا البناء والعمران ، إلا هذان القصران ، وأشار بيده إلى قصرين متقابلين كأنهما في ارتفاعهما ذروتا جبلين ، وهما أخذ الباشا يستفهم منه ويستعلم ، وأنا أنقل له وأترجم :

(الباشا) — وما مقدار الأموال التي أنفقت في تشييد هذا المعرض ؟

(الحكيم) — اشتركت الحكومة في الإنفاق عليه بعشرين مليوناً من الفرنكات ، وبلدية باريس بعشرين مليوناً ، وتألقت جمعية اشتركت فيه بستين مليوناً أصدرت بها خمسة وستين مليوناً من التذاكر لأيدي الناس تحت ضمانه البنك العقاري .

(الباشا) — وما الغرض منه ؟

(الحكيم) — الأصل فيه الكسب والربح ، والغرض منه عرض الأعمال والصناعات بما يظهر مقدار المسافة التي تقطعها الأمة من حين لآخر في باب الإجابة والإنقار ، ليتضاعف الجهد والاجتهاد ، وتتسابق الهمم في أسباب التقدم والارتقاء في مدارج المدنية .

(الباشا) — وهل تظنه يأتي بريح عظيم ؟

(الحكيم) — كان أمل الريح منه عظيماً ، ولكن خاب الظن فيه ، فإن الشركة قدّرت عدد الزائرين والمترددین عليه بخمسة وستين مليوناً في مدة وجوده وهي مائتان وأربعة أيام ، ولكن لم يتردد عليه إلى الآن سوى عشرة ملايين وقد مضى من المدة نصفها ، وقد بلغ عدد الشركات التي اشتهر إفلاسها فيه سبعين شركة إلى اليوم ، وآخر شركة شاهدت إفلاسها أمس شركة « شارع القاهرة » ، ورأيتمهم يبيعون « معروضاتها » وأثاثها بحكم المحكمة في ناحيه من نواحي المعرض كانت الشركة أقامت لها فيه مكاناً فسيحاً جمعت فيه ما يكون في شوارع مدينتكم من لعب القرد ، وألثواء الثعابين ، ورقص الزنوج ، وتسريح الجمال ، وسوق الحير ، فرأيت الجمال وهي ثلاثة تباع بمائتين وخمسين فرنكاً ، وبيع الحمار من الأربعين حمراً بتسعة عشر فرنكاً ، وكان من ينظر إلى هذه الدواب ، وهي تعرض للبيع بهذه الأثمان في غير بلادها ، يتخيل من أعينها كأنها تنذب نحس طالعهما ونحس قيمتها في غربتها ، ولا تسأل عن سوء الحال التي كان عليها النساء والرجال المصاحبون لهذه الحيوانات وقد تداركهم « مأمور التفليسة » فخصص لهم مقداراً من الدراهم يُنفق عليهم لإعادتهم إلى وطنهم ، وعلى الجملة فالخسارة في هذا المعرض عظيمة ، وأرى أنهم أخطأوا كل الخطأ بالتوسع فيه وتكبير ساحته حتى لا تكاد تدرك الدورة الواحدة فيه إلا بقطع مسافة لا تقل عن عشرة كيلومترات ، فوزعوه وشتتوه مع قلة الزائرين والواردين ، ولو أنهم اختصروا فيه لكان خيراً لهم .

(الصدیق) — أهذه الشركة التي تذكرها في كلامك هي « شركة المعرض المصري »

التي سمعنا به ؟

(الحكيم) — لا ولكنها شركة أخرى فرنسية ، وليس من الضروري أن يكون أصحاب الشركة من أبناء مصر .

(الباشا) — ولما لم تقدروا في هذا المعرض حسابكم بما لكم في مختلف الأمور من

الدقة وصحة النظر ؟

(الحكيم) — كانوا يحسبون أن أمم العالم ستهرع إليه من كل فج ، وكانوا يعتقدون أن أكثر ملوكها يقدون على المعرض فينفقون فيه خزائن أموالهم ودقائق كنوزهم ، فلم يحضره إلا ملك السويد من ملوك الغرب ، ولم يزره إلا شاه العجم من ملوك الشرق ، وكانوا قد دعوا إليه ستاً وخمسين مملكة للاشتراك فيه فلم يجبههم سوى ثلاثين منها .

قال عيسى بن هشام : وكنا وصلنا في هذه الأثناء إلى باب أحد القصرين المشار إليهما بالبنان ، المعدودين لعرض ما يسمونه بالفنون الجميلة ، وهو المعروف بالقصر الصغير ، فعولنا على البدء بزيارته ، فدخلناه فإذا هو ببنائه وتشيدده وزينته وزخرفته ونقشه ورسمه يفوق كثيراً من قصور الملوك والقيصرة ، وناهيك أنهم أنفقوا في إقامته اثني عشر مليوناً من الفرنكات ، وقد عرضوا فيه نفائس المصنوعات مما حُفِظَ عن الأوائل منذ العصر الروماني إلى القرن الثامن عشر من قطعة المعدن المضروبة إلى نقوش أبواب الكنائس ، ومن أواني الفخار إلى الحلى والجواهر ، ومن النعل المطرزة إلى التاج المرصع ، وهنا يعجز القلم عن الوصف والنعته ، والإحاطة بمثل هذه النفائس لا تأتي من طريق الخبر والنقل بل من جهة المشاهدة والعيان ، ولا يمكن أن يتجلى أثرها في نفس القارئ مثل أثرها في نفس الرائي . ولما فرغنا من دورتنا الأولى في القصر ، استوقف الصديقُ الباشا يسأله عما شاهد من التحف ورأى من الطرف :
(الباشا) — ما أرى إلا كثيراً مما كان يوجد عندنا بعضه في الأسواق القديمة وبعضه في البيوت العظيمة .

(الحكيم) — اعلما أن ماترونه هنا هو أنفس الأشياء وأغلاها قيمة في العالم لاتتناول كنهها الظنون . مثال ذلك أن هذه الساعة التي بجانبنا ، ولم تلتفتوا إليها في وقوفكم عندها ، قد رغب في شرائها بعض الأغنياء ، فساومها بثلاثة ملايين فرنك ، فلم يسمح صاحبها بالبيع لقلّة الثمن ، وما هي إلا كرة محمولة على أيدي ثلاثة هياكل من الرخام ، ولكن دقة الصنعة وقدم العهد أورثاها هذه القيمة العجيبة في الثمن .

✽ (الصديق) — حقاً إن التحفظ على التحف القديمة والآثار العتيقة حسنة من حسنات

أهل الغرب يُعبطون عليها ، فان النظر إليها يورث إحساساً جليلاً في النفس ، وذكريات جميلة
بمجد الأمم الغابرة ، ودرساً مفيداً في التاريخ ، كما أن في ذلك من حفظ السلسلة في الصناعات
ما يفيد الفكر ويساعد على الترقى في العمل ، وقد أهل أهل الشرق هذا الباب إهمالاً
لا يغتفر لهم ، حتى اندثرت الآثار واندرست ، ولم نعلم من كفايات المعاش عند المتقدمين
إلا الأسماء التي غابت عنا مسمياتها ، وقل لى بالله : أى شىء يكون اليوم أجمل في العين
نظراً وأجل في القلب وقعاً لو حفظنا ما ضيعه التفریط مثلاً من « درة عمر » و « صمصامة
معدى كرب » و « قميص عثمان » و « درع علي » و « تاج الرشيد » و « راية المعز » ؟
ولكننى أرى مع ذلك أن الغربيين تجاوزوا الحد وتغالوا في هذا الباب غلوّاً كبيراً ، وذهب
بهم حب التنافس في اقتناء العتيق مذهباً يلامون عليه لحبسهم الأموال الطائلة على أثمان
هذه المقتنيات التي لولاها لكانت من قسمة الأرزاق بين العباد ، وكم في هذا العالم المتمدين
من الألوف الذين لا يجد أحدهم فرنكا واحداً لقوت يومه ، بينما نرى أحد المولعين بالمقتنيات
يعرض ثلاثة ملايين لاقتناء مثل هذه القطعة من الرخام .

(الحكيم) — نعم لك الحق فيما تعقب به علينا من هذه المغالات لمجرد التباهى والتفاخر ،
مع حرمان الناس من أرزاقهم ، ولكن ليس عندنا من الوقت الآن ما يكفيننا لبسط القول
في نصرة المذهب الاشتراكي .

قال عيسى بن هشام : وأدركنا التعب والكلال ، وإن لم يكن يدركنا السأم والملال ،
واحتاج الجسم إلى الراحة والسكون ، فغادرنا القصر وفي النفس منه بلائيل وشجون .

القصر الكبير

قال عيسى بن هشام : وزرنا القصر الكبير ، بعد القصر الصغير ، أعنى الآية الكبرى ، بعد المعجزة الصغرى ، ناطقةً بما لا يُتصور من جمال الوضع ، وحسن الصنع ، فيما احتواه هذان البناءان من الكنوز التي لم تجتمع لأحد من قبل ، ولم يظفر بمثلهما ملك في الدهر ولا قيل ، ما كنوز قارون عندها إلا من التراب والحصى ، ولا قُربط « مارية » إلا من الخرز أو النوى ، وما طوقُ « عمرو » ، إلا طوق أسمر ، وما أسلابُ الاسكندر لديها إلا من أطمار « المجاذيب » و « الأولياء » ، ولا وُشي « دَار » إلا من فراء « العرفاء » والفقهاء ، وما أقلام البلغاء ، إلا مغازل النساء ، إذا هي حاولت في وصفها تسطيراً ، ورامت لنعته تحبيراً ، وماذا تقول في خزائن المسكونة تسكن في دَارَيْن ، وأفلاذ البسيطة مبسوطة بين جدارَيْن ، لو توزع بعض ما اختزنه على الخلق ، لم يكد أحد بعدها في طلب الرزق ، ولم يشك شاك من عيش الحرمان ، ولم يبك بك من بؤس الزمان ، ولأصبح المحروم بين الوري غنياً ، وغداً اسم الفقر في الدنيا خبراً مطويّاً ، وتسأوى الناس في الرتبة والقدرة ، ولم يسلكوا فيما بينهم سُبُل الختل والغدر ، نعم ولم يُغرّ سالب على مسلوب ، ولم يفتك غالب بمغلوب ، ولم تُتقرّف في العيش المآثم والذنوب ، ولم يبق للنفوس في الدنيا من مُشتهى ولا مطلوب ، فالتقصران قائمان يفخران على الدهر ، بما ليس له به عهد من الثراء والوفر ، وسرناً في أمحاء الغُرف ، تتأمل التحف والطرف ، ومن أبداع ما اجتلاه النظر ، بين تلك الدرر والغُرر ، معرضُ التماثيل والصُور ، فكيف هناك من صُورِ بَراها الإتيان والأحكام ، تمثل للعقول والأفهام ، ما لا يمثله تأليف الكلام ، وتشخص لك حوادث التاريخ ومناظره ، كأنك كنت حاضره وناظره ، ويوضح لك قلم الرسم والتصوير ، ما يعجز عنه قلم الخط والتحرير ، من مكنون الأهواء والأشجان ، بلفظ مبين من النقوش والألوان :

أراك المني فتمنيتها — وصاغ لك الطيف حتى انبرى

فما شئت فيها من أثر يجلو صدأ الحس ، ويرقق حواشي النفس ، فتتولاك هزة الطرب لرؤيتها ، وتعتريك نفحة السحر من هيئتها ، فتكاد تننّ للفارص المقتول ، وتمطف على الواله المتبول ، فتترحم على قتيل الرمح والحسام ، كما تستغفر لشهيد الهوى والغرام ، وتستبشك الفتاة الحسناء ، والكاعب العذراء ، فتصبو إلى محبتها ، وتطمع في مودتها ، لولا عيون الرقباء من أهلها . وهم ضاربون من حولها .

وترى هناك صورة غادة باهرة الخلق ، عريقة الحسن والعشق ^(١) ، يتألق على وجهها نور العفاف والصيانة ، ويبدو على محيّاها خصال الرزانة والركانة ^(٢) ، مع قوة الشكيمة ، وثبات العزيمة ، قد وطئت تحت أقدامها غولاً من الأغوال ، لها مائة فم للنهش والاعتقال ، وطعناتها بالرمح في أحشائها ، فأوردتها مورد فنائها ، وعلى رأس الغادة فوّج من ملائكة النصر ، يُتوجّونها تاج العز والفخر ، وتلك هي صورة « الفضيلة » في مصارعها « للرديلة » ، وعن يمينها حرّة بارعة الجمال ، بادية المهابة والجلال ، ترمقها بعين المستبشر بظفر حربه ، والمغبط بنيل سوئله وإربه ، وتلك هي « الحكمة » التي لا تُنال الفضيلة إلّا بها ، ولا تدرك إلّا بخالصها ولبابها ، وعن شمالها حرّة أخرى ، يتلألأ في غرتها نور المعرفة واليقين ، وقوة الإدراك والتمكين ، تحمل على كتفها طفلاً في سن الرضاع ، وتمسكه في يده شبه القلم أو البراع ، وهي تنظر إلى « الفضيلة » نظر التوقير والتعظيم ، في موقف التبجيل والتكريم ، وتلك صورة « العلم » وفضله ، وذلك الطفل صورة الإنسان في جهله .

وترى امرأة نصفاً وضعت على كل ثدى لها طفلاً ترضعه وتضمه ، وكأنها تقبله وتشمه ، ومن حولها أطفال عراة تجذبهم إلى حجرها ، وتستترهم بفضل إزارها ، وعلى محيّاها سمات الغبطة والارتياح ، وعلامات الرضا والانشراح ، فيكاد يلوح فيها ما طوته يد الزمان ، من براعة الحسن والافتتان — وتلك صورة « الخير والإحسان » .

ثم ترى صورة وليدة من حسان الولائد ، وخريدة من أبهى الخرائد ، كأنها المهابة في الخائل ، والظمية في الشائل ، يطول شعرها فضل الأزار ، ويريك الليل في وضّح النهار .

بفرعٍ يُعيد الليلَ ، والصبحُ نَيْرٌ ووجهٌ يُعيد الصبحَ ، والليلُ مظلمٌ
تبدتْ في مُلْتَفٍّ غابَةِ أغصانُها من العود والند ، وأغراسها من البنفسج والورد ،
فالأرض مفروشة بمنثور الأزهار ، والسقف معروشة من أغصان الأشجار :

فهى تختال في زبرجدة خضراء تغذى بلؤلؤ منشورٍ
وغدت كل ربة تشمهي الرقــــــــص بثوب من النبات قصير

وقد نثرت الشمس عليها مثل ثمار العرائس ، بدنانير تُعي أيدي اللوامس ، كما عَيَ
المتنبى بمثلها من قبلها ، وهو يجتاز شعبَ بَوَّان ، ويصف فيه التفاف الأغصان :

فسرت وقد حَجَبْنَ الحرَّ عني وجئن من الضياء بما كفاني
وألقي الشرقُ منها في ثيابي دنانيراً تفرُّ من البناف

والأطياف واقفة من حولها على هيئة التفريد ، وترديد النشيد ، كأنها تجابو الفتاة في
سؤالها ، عن أوبة خيلها ، بأن لكل حمامة منا شوقاً ينازعها ، إلى ألف يضيئها ، فيشتد
بالفتاة الولع والهيام ، وتشترك في الهديل مع الحمام ، وتلك هى «الطبيعة» في جمال الفطرة ،
وجلال القدرة .

وترى «هوميروس» آدم الشعر اليونانى وهو أعمى البصر ، متلفعاً بالوشى والحبر ،
تضئ لحيمته بنور المشيب ، ويملاً العين بالمنظر المهيب ، متربعا على سرير الملك ، مُلكِ
الأشعار ، لا مُلكِ الأقطار ، وسلطانِ الأوزان ، لا سلطان البلدان ، وشعراء الجن يكلونهم
بأكاليل الانتصار ، وشعراء الأنس بين يديه في موقف الإعظام والإكبار ، من «هبرنون»
و «إسكيل» و «هوارس» و «فيرجيل» ، وعن يمينه أبطال الشجعان ، وفرسان الزمان ،
ممن روى الشعر أنبأهم وخلدَ النظم أسماءهم ، وهم على سمة الخضوع ، وهيئة الخشوع ،
من «أشيل» و «اسكندر» و «إينية» و «قيصر» ، وعند رأسه كاعبان ، كأنهما
اللؤلؤ والمرجان ، متفتحتان في جمال الوجه والجسم ، وإن اختلفتا في الشكل والرسم ، هما الفنان
الذان ابتكرهما في الشعر ، منذ شبيبة الدهر ، والشعراء في وقوفهم كأنهم يتأدبون بأدبهما ،

وَيَنعمون بقر بهما ، والقيانُ من حوهما صفوف ، يضر بن بالزاهر والدفوف ، ويوقعن النغم والالحن ، على ذلك النظم والوزن .

وَمَنْ لفا بهذا الشاعر وأمثاله من الأولين الأقدمين ، والسابفين المتقدمين ، يصورون بأشعارهم ما بين أيدينا من صور هذه الألواح والمهارق ، فالتصوير شعر صامت والشعر تصوير ناطق .

ولما أقفنا قليلا من نشوة الإعجاب والازدهاء ، واقتربت زيارتنا من الانتهاء ، إذا نحن برجل أمامنا رث الثياب ، خلق الجلباب ، كأنه المعنى بقول القائل ، من شعراء الأوائل أخو سفر جواب أرض تقاذفت به فلواتُ فهو أشعث أغبرُ وقد اختلط شعر جبهته بشعر لحيمته ، فاخفت بينهما مقاطعه وملاحه ، وغضت أساريه ولوائحه ، ونحل جسمه نحول الشاة بالأجاذب^(١) ، وطالت أطافره فتقوّست كالخالب ، واخترن فيها الوسخ فصارت كالمسكاحل علفت بها المراد ، أو كخطوط الحداد على صفحات الجرائد ، وهو يلحظ الداخلين والخارجين لحظة المزدري المحتقر ، ويذهب بنفسه ذهاب المبتدع المبتكر ، والناس يقابلونه مع ذلك بالاحترام ، ويواجهونه بالاكرام ، فالتفت الباشا إلى صاحبنا « الحكيم » يستخبره عن هذه الكتلة من الدمامة ، والكومة من القمامة ، وكيف راق لهم الجمع بين هذه المناظر الحسان ، وبين منظر هذا الشيطان ، فاشتبك بينهما الخطاب ، وأخذت أترجم لهما في السؤال والجواب .

(الباشا) — أفما كان ينبغي منع هذا الرجل وأمثاله عن هذه الأماكن النفيسة ليحفظوا لها رونقها ، ولئلا يضيعوا بهجتها في نفوس الزائرين ، ولكن لعلمهم أرادوا بذلك صرف عين الكمال .

(الحكيم) — هذا الرجل هو من كبار المصورين الذين نفتخر على العالم بصنع أيديهم ، مما ابتهج به نظرك في هذا القصر الذي أقيم لتفخيم هذه الصناعة ، وأنفق على تشييده أربعة

(١) الأجاذب : الأرض التي لا تبت فيها

وعشرون مليوناً من الفرنكات ، ولا تعجب من تفاوت المنظرين ، فالذهب من التراب والماس من الفحم .

(الباشا) — وكيف جاز لكم أن تتركوهم على مثل هذه الحالة من الفاقة وشطف العيش وتضنوا عليهم بما يصلح أحوالهم ، وينقذهم من هذه الرثالة التي يرثي لها الناظر ؟ وإن كانت هذه الصناعة لا تدر الرزق على أربابها ، فلم هذا التشييد لها وشدة العناية بها ؟

(الحكيم) — إن هؤلاء الذين تعطف عليهم ، هم بيننا أوسع الناس رزقاً ، وأكثرهم بضاعة رائجة ، واللوح الواحد من صنعتهم يقدّر بالمئات من الألوف وبالملايين ، وليست هيئتهم هذه عن حاجة أو فاقة ، وإنما هي ناشئة عن إهمال أنفسهم وذبول عقولهم ، وعذرهم فيها أن أرباب الأعمال الدقية التي يغوص فيها الفكر ، وتجهد القريحة ، ويتوزع لها الدهن في عالم الخيال ، قل أن تتوازن فيهم قوَى الدماغ ، فما تنمو قوة إلا تضعف أخرى ، فيصيبهم من الفتور والذهول ما يقصر بهم عن النظر في نظام اللبس والمطعم ، ولا يميزون في المعيشة الطيب من الخبيث ، فتختل أجسامهم ، وتسوء أخلاقهم إلى أن ينتهوا إلى حال من الطيش والحماقة لا تطاق معها المعاشرة مع الأقارب والأجانب . ومنهم من يتصنع ذلك كما يتصنع بعض أهل الدين التقشف والزهد ، وقد ألف الناس ذلك منهم ، فإذا قيل لك هذا فلان الشاعر أو فلان الصانع أو فلان المتفنن ، غفرت له ما ساءك من منظره ، لما يسرك من مخبره ، وربما لم يكن عند بعضهم من حسن الصناعة سوى قبح الهيئة ورثالة المرأى .

(الصديق) — إنى لأعجب لقوم يعتمدون في أعمالهم على رؤوسهم ، ثم يذهلون عن أبدانهم ، وقد علموا أن الفريجة السليمة لا تسكن إلا الجسم السليم ، وكيف يصح البدن إذا لم تتعده بالنظافة وطيب الغذاء وحسن الرياضة وقضاء الفروض الطبيعية له ، ولقد يعرض للرجل المتفكر ، وهو في تجلّ قريحته ، أن يشم رائحة كريهة ، أو يبصر منظرًا رثيلاً فيضيق في الحال صدره ، وينقبض فكره ، فكيف بمن يجد ذلك في نفسه ويحس به في جسمه ، وأخر بمن ينقطع في عمله للفنون النفيسة أن يكون نفيساً في ذاته ، فلا يعرف عجرفة الطبع ، ولا شراسة الخلق ، بما تولده فيه من صفاء الحس ولطف الشعور ،

وبما تورثه من حلاوة الشيم ورقة الطبع ، وعلى الوجه الأعم ، لست أدري ما فائدة العلوم والمعارف والفنون إذا لم تكسب صاحبها بادي ، الأمر محاسن الأخلاق ومكارم الصفات ، فيكون القدوة الحسنة لمن يقتدى بعلمه ويتأدب بأدبه ، وإلا فكيف تنبت الزهرة من السبخة ، ويسطع النور من مهجور القبور ؟

(الحكيم) — صدقت وأجدت ومن قَصَّر في تربية نفسه فكيف يطمع في تربية غيره ؟
(الباشا) — وماذا يصنع هؤلاء الصّناع بهذا الرزق الواسع والثراء الوافر ، وحالهم في سوء المعيشة على ما أسمع وأرى ؟

(الحكيم) — يصنعون به ما يصنعه أهل الطيش والنزق من أرباب المواريث في الإسراف والتبذير ، وهم لشغفهم بالجمال ، الذي تستمد صناعتهم منه جسنها ورونقها ، لا يفترقون عن التولع بالنساء والافتتان بمحاسنهن ، فترى ثمن اللوح الثمين يخرج من خزانة الغنى المتباهى ، إلى يد الصانع المفتون ، إلى كيس الفاجرة الهلوك ، إلى صندوق التاجر والصائع ، وعندهم أيضاً باب إنفاق عظيم على طائفة من النساء التي يطلقون عليها اسم « المِثَال » .
(الباشا) — وما « المِثَال » ؟

(الحكيم) — « المِثَال » هو المرأة التي يتخيرها المصور ، ليأخذ في التصوير على مثالها ، لجمال وجهها ، أو لحسن تركيبها وتناسب أعضائها ، فهذه لزندها ، وهذه لنهدا ، وتلك لقوامها ، والأخرى لشكل ابتسامها ، وهلم جرا ؛ فترى غرف المصورين مملئة بهاته « الأمثلة » ، التي تختلف أجورها باختلاف أقدارها ، وكلما تدخل على مصور في مصنعه إلا ترى أمامه امرأة مكشوفة البدن ، عارية الجسم ، يقلبها كيف شاء ذات اليمين وذات الشمال ، حتى تصير على الشكل الذي يريد أن يملأ عينه منه ويحصره في ذهنه ، ليخرج الصورة على مثاله .

(الباشا) — ما هذا الذي تحكيه من التبذل والتفضح ؟

(الحكيم) — ليس هذا عندنا بعيب ولا نقص ، ولا غضاضة على النساء منه ، فالأمر معدود بينهن كأنه صنعة من الصناعات الجليلة ، لا عار في مزاولتها ، ولا بأس على السمتة

منها، وعندنا اليوم خلاف قائم : هل يجوز للمصور أن يمارس صناعته على هذا الشكل في طريق الناس ، وفي مسالك السابلة ، كما يفعل ذلك في داخل مصنعه ؟ فإن أحد المصورين عن له بالأمس أن يصور صورة انبعاث من القبور ، فقصده إحدى المقابر وجلس هناك بأدوات صناعته وفيها امرأتان للعثال ، وأقامهما أمامه وهما عاريتا الجسد ، وكان يقيم هناك في كل يوم الساعة والساعتين على هذه الحال ، يعمن بنظره في الفتاتين ، ثم يخطط ويصور ، وكان بجانب المقبرة دار تبني قام على حائطها البناءون ، فاشتمأوا من هذا المنظر ودفعهم دافع الحياء إلى مخاطبة المصور ليعدل عن قبح ما هو فيه ، فلم يعأ بهم ، ولم يبال بتأنيدهم ، واستمر على ذلك أياماً ، فرفعوا الأمر إلى رجال الشرطة ثم إلى قضاة المحاكم ، لمنع الرجل عن هذا الفعل السيئ ، ولا تزال الجرائد تتجادل في المسألة ، أيجوز المنع أم لا يجوز ، فبعضها يذهب إلى وجوبه ، ارتكناً على نص القانون الذي يعاقب من ينتهك حرمة الآداب العامة في الطرق ، وبعضها يرى الإباحة ، لأن كل إنسان حر في صناعته ، ولا يجوز لأحد أن يحول بينه وبين ما فيه إتقان صناعته وإجادة فنه .

(الباشا) — نعوذ بالله من هذه البدع .

قال عيسى بن هشام : وانتهينا بالخروج من القصر ، بعد أن كدنا نضل فيه ، لاتساع أطرافه ونواحيه ، وتعدد غرفاته وحجراته ، وهي كلها غاصة بالصور والتماثيل ، ثم وقفنا في الخارج وقفة الإجلال والاعظام أمام هذين القصرين اللذين هما تاجا المعرض وإكليلا الصناعة ، وعاد الباشا إلى « الحكيم » يسأله :

(الباشا) — وماذا يكون شأن هذين القصرين بعد انتهاء المعرض ؟

(الحكيم) — يبقيان على حالهما دون ابنية المعرض لعرض أعمال أهل الصناعة والتصوير في كل عام .

(الصدیق) — إنني كلما نظرت إلى هذه العناية السكبرى عندكم بفن التصوير والخلو فيه إلى هذا الحد ، ثم نظرت إلى قلة العناية به عندنا ، حرت في معرفة السبب ، فإن كان ذلك ناشئاً عن الترقى في المدنية ، فإنني أراه فيكم قديماً منذ جاهليتكم الأولى كما أراه والمدنية

مسفرة بينكم ، وربما كان القديم أبدع من الحديث ، مع أن أهل الشرق ، على ما تعلمون ، أوسع مجالاً في الخيال ، وأبعد شأواً في التصور ؛ فكيف نما هذا الفن فيكم دون أن ينمو فينا؟ (الحكيم) — إن أهل الغرب كانوا قبل الدين المسيحي أهل عبادة للأوثان والأصنام ، فقضى الاعتقاد الديني باتقان الرسم والتصوير ، واتسع نطاقه على الأخص في الدولة اليونانية والدولة الرومانية ، حتى تعدى التصوير تماثيل الآلهة إلى تماثيل الخلق ، فأقيمت التماثيل لكبراء الرجال وعظماء الأبطال ، ووصل الغلو في ذلك أيام الدولة اليونانية أنهم أحصوا ثلثمائة تمثال لشخص واحد في شوارع « أثينا » في حال حياته ، فلم تمكث بعد وفاته ثلثمائة يوم ، لأنه كان ممن نال الشهرة بالباطل ، وعلو الصيت على غير استحقاق ؛ ومن ملح ما يروى في هذا الباب أن بعض الناس قال لعظيم من عظمائهم جليل القدر كبير الخطر: إني لأعجب لأهل « أثينا » يقيمون لمثل هذا الرجل ثلثمائة تمثال بغير حق ، ولا يقيمون لك تمثالاً واحداً ، وأنت المقدم المفضل فيهم ، فقال له : لأن يتعجب الناس مثلك من أنهم لم يقيموا لي تمثالاً واحداً أفضل عندي من أن يتعجبوا لماذا أقيمت لي التماثيل ؛ ولما دخل الدين المسيحي على هذه الحال ، لم يحظرها ولم يحرمها ، فاستمر الناس على ما ألفوه ، وتناولوا الدين المسيحي نفسه بفن النقش والتصوير ، وصوروا المسيح وأمه في كثير من أطوار حياتهما ، ودونوا به ما شاءوا من روايات التاريخ المقدس ، فبقيت العناية بذلك متصلة قائمة إلى اليوم ، بخلاف الدين الإسلامي عندكم ، فإنه حظر التصوير ، فكان هذا سبب تقلص هذا الفن بين الأمم الإسلامية ، وإلا فهو منتشر في الشرق انتشاره في الغرب بين الأمم الوثنية كالصينيين واليابانيين والمجوس من أهل الهند .

قال عيسى بن هشام : وسرنا عن هذين القصرين نقصد سواهما من المعاهد ، ونقف على ما اشتهر في المعرض من المرائي والمشاهد .

الأشجار والأزهار

قال عيسى بن هشام : ودخلنا معرض الأشجار ، وبستان الأزهار ، في قصر لم يُبنَ بناء القصور والديار ، ولم تُشدْ أركانه بالشيد^(١) فوق الأحجار ، ولم ترتفع بالآجر حُجْرُهُ وغُرْفُهُ ، ولم تُتخذ من الخشب أبوابه وسقفه ، عُقدت له القباب والأبراج ، من صقيل البلور وسبيك الزجاج ، فهو صرح ممرّد^(٢) من قوارير ، كأنه لجة يَمُّ أو صفحة غدِير ، لودخلته « بَلْقِيسُ » صاحبة العرش في الأيام الخالية ، لكشفت عن ساقِيهَا مرة ثانية ، جفوا فيه أشتات النبات الغض ، من كل بقعة وناحية في الأرض ، مما ينبت بين ثنيات الجليلد وتنشق عنه صُمُّ الجلاميد ، وما اخضرّ في رُبَا الصحراء ، وأورق في وهاد البیداء ، وأزهر في الجُد ، وأينع في الوَمَد^(٣) ، ومن حيث تجري الأنهار والجداول ، إلى حيث تعصم الأراوى والأجادل^(٤) ، ومن حيث تشدوا الحمامة الورقاء ، تحت الظلال والأفناء ، إلى حيث تدور الحرباء ، حول الغزالة في كبدِ السماء^(٥) ، ومن أدنى الشرق إلى أقصى الغرب ، ومن طرف القطب إلى طرف القطب ، فما أردت هناك من جميع الأنواع ، في متفرق البقاع ، ما بين مُلتفٍّ ومنتشب^(٦) ، ومتسلق منه ومتشعب ، يفتّر بكل محمّر ومُبَيَضٍّ ، ومذهّب ومفضّض ، ومشرق ومومض ، وأين ابن الروميّ يتأملها فيخلع عنه رداء الفخر والتميه ، ويُقر بعجزه في الوصف والتشبيه ، ويحرق ديوانه بكبريته المذكور ، في تشبيهه المشهور :

ولا زَوْرْدِيَّةٍ تزهو بزُرْقَتِهَا بين الرياض على حمر اليواقيتِ^(٧)
كأنها ، وضعافُ القضبِ تحملها أوائلُ النارِ في أطرافِ كِبْرِيتِ

(١) الشيد : ما طلى به من الجص وغيره (٢) ممرّد : أملس مصقول
(٣) الجمد : الثلج . والومد : الحر (٤) الأراوى : جمع أروى وهو الوعل . والأجادل : جمع أجدل وهو الصقر
(٥) الكبد : وسط الشيء . والغزالة : الشمس
(٦) منتشب : ملتف (٧) اللزورد : معدن شفاف أزرق يقرب إلى الحمرة

هنالك تستبيك ألوان الأزهار ، بما يزرى بلمعان الجواهر ، فما الياقوت عندها
والزبرجد ، وما الفيروز والزمرد ، وما العقيق والجمان ، وما الدر والمرجان ! وكيف يقاس
الحجر ، بالشجر ، وتستوى الحصباء اليابسة ، بأكام الأغصان المائسة ، وكيف يُقدّم الجامد
الثابت ، على الفأى القابث ، وأين الحركة من السكون ، والمنشور من المدفون ، وأين المنشور
على ظهر الروضة الزهراء ، من الملقود في بطن الغبراء. ولئن انتظمت القلائد ، بجواهر تلك
الفرائد ، في لبّات الخرائد ، وكان مكانها من الحور ، في المعاصم والنحور ، لكانت هذه الزهور ،
بين الرئات والصدور ، ولم أنعشت حامد النفوس والأرواح ، بطيب الأنفاس وشذى
الأرواح ، فوقفنا نستنشق الأريج والشر ، من أصناف ذلك الطيب والعطر. لو كان معنا
ضرب المعرة رهن الحبسين ، لا قلب منشرح الصدر قرير العين ، ولأنس من وحشته ،
وذهل عن فاقته وختمه ^(١) ، وعلم أن من المسكر ما هو طلق حلال ، ولم يتلهف على شرب
المتعقة حيث قال :

تمنيتُ أن الخمر حلتْ لنشوة تجهلني كيف اطمأنتُ بي الحالُ
فأجهلُ أنى بالعراق على شفا رزى الأمانى لا أنيس ولا مالُ

وما زلنا في هذه الروضة الغناء ، والجنة الفيحاء ، نردد قول العبد الصالح الأواه :

« ولولا إذ دخلتَ جنتك قلتَ ما شاء الله لا قوةَ إلا بالله . »

ونكرر النشيد ، لبیت التوحيد :

ففي كل شيء له آيةٌ تدل على أنه الواحدُ

حتى إذا آن أوان الإنصراف ، خرجنا من بين هذه الجنة الألفاف ^(٢) ، خروج أبينا
من دار الخلود والبقاء ، إلى دار الهموم والشقاء ، ولما تركناها إلى نواحي المعروض ضؤل
في أعيننا ، ما كان يروؤفنا ويزدهينا ، وصغر في أنفسنا ، ما كان يخلبنا ويُسجينا ، وذبل
أماننا ما كان من المناظر ناصراً ، وذال ^(٣) ما كان فخماً نادراً ، وغلب ذلك المنظر على

كل بديع رائع ، من مختلف الفنون والصنائع ، وأين قدرة الحيوان الناطق ، من قدرة المبدع الخالق ، وما تسوية آلات المصانع ، مما تصوره يد البارئ الصانع ؛ وكاد الباشا يهيم بالرجوع من حيث أتينا ، ويقتصر في يومه على ما رأيناه ، لولا أن استوقفنا قول «الحكيم» للصديق في عرض كلامه ، عن ترتيب المعرض ونظامه :

(الحكيم) — نعم تنقسم أما كن المعرض إلى قسمين : هذا القسم الذي شاهدناه من نفائس الصناعة والطبيعة ، وهو مباح للزائرين بغير أجر ؛ وقسم آخر أقاموه لترويح النفس ، واستجلاب الأنس ، بالمشاهدات الغريبة ، والمناظر البديعة ، يدخله الداخلون بأجر معين .

(الصديق) — لقد قرأت في الجرائد عن هذا القسم الأخير ما يعجب ويدعش ، وأشد ما تشاق نفسي لزيارته تلك « النظارة العظيمة » الهائلة التي اخترعوها لمشاهدة القمر على بعد متر واحد ، فتحيط به العين في زعمهم كما يحيط الجالس في الغرفة بأجزاء جدرانها ، فأين ذلك المكان منا الآن ؟

(الحكيم) — ليس هو ببعيد ، وهم يسمونه « قصر الأضواء والمرايا » ولطالما أسهبت الجرائد كما قلت في وصفه بما يهيج الرغبة إلى زيارته ، ولم أزره بعد ، فلهم بنا نقصد قصده . (الباشا) — البدار البدار إلى زيارته ، فلو كان ما يقولونه عنه صحيحاً لكان إحدى المعجزات .

قال عيسى بن هشام : سرنا جميعاً نلتمس هذا المكان ، حتى وصلنا إلى قصر مشيد ، قل أن يكون مثله لكبار الأمراء والملوك في فخامته وضخامته ، ووجدنا مكتوباً على بابه ، بين صور الكواكب والنجوم ، هذه العبارة باللغة اللاتينية : « من هنا يصعد الإنسان إلى أجرام الكواكب ويتصل باللانهاية » ؛ ولما دخلناه رأيناه مزدحماً بالجوع ، فبدأنا معهم بالدخول في حجرة واسعة تبلغ خمسة عشر متراً في الطول وعشرة في العرض ، وهي مقسمة بالمثلثات والأضلاع من زجاج المرايا القائمة يبلغ علو الواحد منها مترين ونصفاً في عرض متر ونصف ، وقد تخللتها مصابيح الكهر باء ، فاذا نظر الانسان بين تلك الأضلاع والمثلثات رأى

صورته تتعدد بالمئين ، وإذامشى بضع خطوات ضلّ الطريق ، ولم يهتدِ السبيل ، وكلما ظن أنه وجد منفذاً للخروج منه ، اندفع إليه ، فيصطدم وجهه بزجاج المرايا ، فتعلو أصوات الضاحكين وهم في حيرتهم وضلالهم ، ولا يزال على هذه الحالة مدة من الزمن حتى يصل إلى نهج الطريق من طريق الاتفاق ؛ وما أوسع مجال الخيال هنا للشعراء في وصف أشكال الزائرات ، وانطباع صورة الواحدة منهنّ على صفحات المرايا ألف مرة ، كما تنطبع محبتها وهي واحدة على صفحات قلوب الرجال وهم ألوف .

ولما اهتدينا للخروج من هذه الغرفة التي يضل الداخل فيها ، كما يضل الراكب في الغياض والقفار ، سرنا نقصد غيرها ، « والحكيم » يقول « للصديق » في حديثه :

(الحكيم) — إن الفكرة في إقامة الأماكن والأبنية على أوضاع وأشكال ، يضل الداخل فيها ، ولا يهتدى للخروج سبيلاً ، شيء قديم في الوجود ، وقد علمنا أن قدماء المصريين هم أول من شيد الأبنية للضلال والتميه ، منها الهيكل الذي رآه « هيرودّس » في زمانه ووصفه في تاريخه ، وكان يحتوى على ثلاثة آلاف حجرة بعضها متداخل في بعض ، فمن دخل هذا المعبد ، ولم يكن معه دليله ، ضلّ فيه حتى يهلك جوعاً ، ولا يزال أثره باقياً عندكم إلى اليوم بقرب بحيرة « موريس » أمام المدينة القديمة المعروفة بمدينة « التمساح » ؛ وقد حذا قدماء اليونانيين حذو المصريين ، فأقاموا في مدينة « كريد » معبداً يماثله ، ومما يذكر عنه في أساطيرهم أن غولاً من الغيلان كانت تفسد في الأرض وتعيث ، ثم تلجأ إليه ، فلا يدركها أحد ، وصمم أحد المشهورين من شجعانهم على اتباع أثرها ، والتفتك بها ، فلم يتوصل إلى ذلك إلا بالحصول على خيط معلوم دلّته عليه عشيقة ، فربط طرفه عند الباب قبل دخوله ، وسار به في طريقه ، فأدرك غايته ، وفتك بالقول ، واهتدى به في رجوعه ، والفرق بين ما صنع القدماء في السالف ، وما صنعه المحدثون في الحاضر ، كما ترى ، أن بناء المتقدمين من الحجر ، وبناء المتأخرين من الزجاج .

قال عيسى بن هشام : ودخلنا بعد ذلك غرفة في إثر أخرى ، وكلها على هذا النمط من

انعكاس الأضواء في المرآيا وتعدّد الصور ، فتتخيّل هنا بئراً ، وهناك بحراً ، إلى غير ذلك من وجوه التخييل ، ثم انتبهنا إلى تلك الغرفة المنشودة التي يُرصد فيها القمر على بُعد متر واحد ، فما جاوزنا بابها حتى اطفئت في وجوهنا المصابيح ، وتخبّطنا في الظلام الدامس ، ثم ساطوا أشعة الكهر باء على قسم من الحائط فأضاءت عليها خريطة القمر مصنوعة بكيفية تتبين فيها مرتفعات كرة القمر ومنخفضاته فتتراءى لك الأولى بمقدار قلامة الظفر ، والأخرى بمقدار خروق الغربال ، ووقف هناك رجل كالمرشد يشرح للناس ما يشرحه عن هذا الرسم ، ويزعم أنه صورة القمر بعينه على بُعد سبعين كيلومتراً كما يُرى في « النظارة » التي انتشر الاعلان عنها بأنها تُريكم على بُعد متر واحد ، وأسهبّت فيها مقالات الجرائد العلمية والسياسية مدة من الزمن قبل افتتاح المعرض ، ثم خرجنا و« الصديق » يقاب كفاً على كف من شدة الدهش والعجب ويسأل صاحِبنا « الحكيم » على كُنة هذا الغش والكذب .

(الحكيم) — خَفِضْ عليك ، فإن أكثر ما تقرأ من التفتخيم والتهويل لمثل هذه المسائل في الجرائد لا يُعوّل عليه ، فانها تعتمد ذلك لمصلحتها الخاصة لما تتناولها عليها من الأجور ، ولمصلحة أبناء البلاد في ترغيب الناس إلى زيارة المعرض ، وهي تستحل الغش والكذب في سبيلهما ، ولا تعجب إن قلت لك إن الذي باشر هذا المشروع هو أحد مشاهير المستعمرين من النواب عندنا ، فقد قام في المجلس خطيباً ، وطلب منه الموافقة عندنا على إقامة المعرض العام ، وأعلن أنه وجد عنقاء المعرض والآية الكبرى في ارتقاء الصناعة بانشاء « نظارة معظمة » يرى الناظر فيها القمر عن بُعد متر ، وما زال يحكي ، والجرائد تتكتب ، حتى أنشأ شركة من بعض الفلكيين لعمل هذه « النظارة » التي يقولون عنها إنها ترى القمر على بُعد سبعين كيلومتراً ، وأقاموا هذا القصر بمنظاره لاجتناء الربح من تهافت الزائرين وإقبالهم عليه لرؤية المعجزة الكبرى ، وعلى هذا تدور أكثر الأمور بين الناس في العالم من التهويل الباطل في أقوالهم والعلو الفاضح في وصف أعمالهم بمقدار القرق ما بين المتر الواحد والسبعين كيلومتراً ، والراح فيهم من كان ماهراً في الغش والخداع ، والفائز فيهم مَنْ كان سبّاقاً في المكر والاحتيال .

قال عيسى بن هشام : وانصرفنا ونحن نعجب من هذا النائب الذي لم يكفه الغش من طريق السياسة والاستعمار ، حتى ترقى فيه إلى طريق الكواكب والأقمار .

المرائى والمشاهد

قال عيسى بن هشام : وسرنا فى قسم المرائى والمشاهد ، ندخل واحداً منها فى إثر واحد ، فلا نجد فيه ، عند ما نوافيه ، مصداق ما سمعنا من وصف واصفيه ، بل ربما وجدنا ما يخالفه وينافيه ، إلى أن وصلنا إلى قصر مشرف منيف ، يزهو على القصور بحسن الترتيب والتصنيف ، أعدوه هناك لأنواع الرقص والعزف ، وفنون القفز والقصف ، منذ الغابرة ، إلى عهد الحضارة الحاضرة ، ومن عيش الخشونة والشطف ، إلى عصر النعمة والترف ، فما شئت من رقص الحماسة والشجاعة ، إلى رقص الخلافة والخلاعة ، فترى رجال البداوة يرقصون بالسيوف ، فى مواقف الختوف وترى العذارى من ورأهم يضربن بالدفوف ، ويصفقن بالكفوف ، تحريضاً لهم على الحرب وإلهاباً ، وإثارة لهم على العدو وإغضاباً ، فتحلوا لهم مضاضة الإقدام ، كما تحلوا لشاربها غضاضة المدام ، ويرتشقون كؤوس المنايا ، كما يرتشف سواهم رُضاب الثنايا ؛ ثم ترى رقص الآيين من السفر ، والقافلين بالنصر والظفر ، بين عذارى الحى وجواريه ، وسبايا العدو ومأسوريه ، بإشارات تبين أيما بيان ، عن مكنون الهوى والأشجان ، فى صدور ملؤها الغيرة والشمم ، وقلوب حشوها الشهامة والكرم ، ونفوس تفرع لصولتها الوحوش الكواسر ، وتفرق من هيبتها الأسود الكواشر ، لكنها تخضع لربات القدود والنهود ، خضوع العابد للمعبود ، فتتفرق لديها أوزاعا ، وتطير أمامها شعاعاً^(١) ، إن خشيت منها بادرة صدّ وجفاء ، أو حركة نفور وإباء ، وهنّ يقابلن حركات التذلل والتزلف ، بحركات التذلل والتعفف ، ويجزّين على التولع ، بالترفع والتنع ، ويبيدين لطيف التجنى ، بيدع التثنى ، ويغضضن من أبصارهنّ ، فى جلائهنّ وإسفارهن ، ثم يسرعن إلى الالتفاف ، ويسترن ما انحسر من الأطراف ، فيرتدّ طرف الواله حسيراً ، وقلب الهائم كسيراً ، وما أبدع الحياء فى الوجه الجميل ، كماء الفرند فى السيف الصقيل ، إذا عارض

(١) طار قلبه شعاعاً : تفرق من الخوف .

حياء الشجاعة في الفارس المغوار ، فلَّ غَرَبه عن ربة الحجل والسَّوار ، وكأَنما الشجاع منهم في يد الغادة ، لا يفتأ ينشد قول أبي عبادَة :

نحن قومٌ تُذَيِّبنا الأعين النُّجْلُ على أننا نُذَيِّب الحديد
طَوْعُ أيدي الغرامِ تَقْتادُنَا البِيضُ وتَقْتادُ بالطعان الأسود

ثم رأينا أشكالا متفرعة من الرقص والحجلان ، وأنواعا متعددة من الدَّورانِ والخطَّرانِ مما هو شائع عند عبدة الأوثان ، وسائغٌ مباح في بعض الأديان ، حتى يجد المشاهدُ لحركة تلك الأبدان ، ما يجده راكب السفينة من الهیضة والغنيان ، وكأنَّ الأصل في ذلك إنهاك القوى الجثمانية ، لإضعاف الجواذب الشهوانية .

ثم شاهدنا بعد ذلك ما في رقص المدينة والحضارة ، من الفضاحة والدعارة ، فترى أفواج النساء ، كأسراب الظباء . لا يستر أجسامهنَّ إلاَّ غلالة كالقشرة ، في لون البشرة ، تنطبق على أعضائهنَّ انطباق الغرقى على ترائك الرثال^(١) ، وتلتصق التصاق القميص بأجساد الصَّلال^(٢) ، فهنَّ عاريات للنَّاظر ، كاسيات في الخاطر ، فيأبَّينَ في رقصهنَّ أشكالا تشرح في ساطع الضياء ، مذهب الأعصاب ومفاصل الأعضاء ، فتارة يَنْثْنين ، وطورا يَنْحَنين ، وآونة يذرنَّ على أطراف أصابعهنَّ ، غير متنفلات من مواضعهنَّ ، وفيهنَّ من ترفع ساقها حتى تلطم في الخد سواد الخال ، بذهب الخللخال ، وتلمس الجبين الوَضَّاء ، بطرف الخذاء ، والنظَّارة من أنحاء المكان يستعذبون ويستجيدون ، ويصفقون ويستعيدون ، ثم ما لبثن أن عُدْنَ بنوع آخر من أحدث الأنواع ، في ضروب التفنن والإبداع ، فتوشحت كل واحدة منهنَّ بِمِلاَة بيضاء ، متسعة الأطراف والأنحاء ، إذا استدارت فيها خلتها قطعة غمام ، أطْلَّ منها بدرُ التمام ، أو زُفَّة حمائم بيضاء^(٣) ، ترفرف ظلما حول الماء ، وفي قبائلهنَّ مصباح الكهرباء يرسل أشعته من أعلى المكان ، بمختلف الأضواء والألوان ، فتبدو الراقصة بانعكاسها فيها كأنها طاقة أزاهر ، أو قلائد جواهر ، وكأنها في سرعة تلونها واهتزازها ، زَبْدُ اللج هاجتُه السفينة في اجتيازها ، فانعكست فيها أشعه الشمس المشرقة ،

(١) الغرقى : القشرة المترقة ببياض البيض . والتركبة : بيضة النعامة . والرأل : النعامة .

(٢) الصل : الحية .

(٣) زفة : جماعة الحمام .

بألوانها السبعة المتفرقة ، وفي يد كل راقصة منهن عصا جرداء ، إذا هزتها في الهواء ، وقابلت بها شعاع الكهرباء ، أزهرت بأزهار من نور ، وأينعت بأثمار من البلور ، يخالها كلُّ من يرى « كعنقود ملاحية حين نوراً^(١) » لورآها سحرةُ فرعون وهامان ، لأقروا بفضل العصا في كل زمان ومكان .

ولما توارت عن أعيننا هذه الأدوار ، وانسدل عليها الستار ، خرجنا ونحن في دهش وذ هول ، والتفت الباشا إلى « الحكيم » يخاطبه ويقول .

(الباشا) — أرى أن للرقص عندكم ، معشر الغربيين ، شأنًا فخماً ، كأنه من نفائس الفنون وطرائف الآداب ، وأنه لا بأس لديكم بهذه المناظر والأشكال ، التي يأبى الأدب انتشارها واشتهارها على أعين الناس بهذه الكيفية الفاضحة .

(الحكيم) — إن شأنه عندكم أعظم ، وشكله فيكم أفضح ، ولا يزال كتائبنا وأهل النقد منا يعيرونكم به ، ويستفزعون ذلك الشكل الذي يسمونه « رقص البطن » ، وهذا المعرض المصري هنا ، كل من دخل فيه ، وشاهد النساء المصريات ، حاسرات النهود ، عاريات البطون ، يحركن طياتها ، خرج يقطر وجهه خجلاً ، وتبكد تجيش نفسه غشياناً من شناعة هذا المنظر في عينه ، فيحكم عليكم بحسبة الآداب وقلة الاحتشام ، ومن شاهد مواضع اللهو في بلادكم ، لم يجد لها حافلة بسواه ، فإذا عرضتم علينا آثاركم في ديارنا كانت هذه الراقصات في أوائل ما تعرضونه ، لنفاسة قدرها بينكم وجمال موضعها فيكم .

(الصديق) — إن الأمر على غير ما تتوهمه أيها الحكيم ، فإن هذا الرقص ليس يمتشتر في عاداتنا ، ولا معروف في بيوتنا ، وإنما هو من عمل المواخير وبيوت الفاحشة ، يباشره العواهر فيما يباشرنه من أبواب الإثم والفجور في بيوتهن ، ولم يظهرن به على الملأ في الملاهي العامة إلا فضل أصحاب الحانات من الأجانب الذين يرون وجوه الرمح متساوية لا حطة فيها ولا نقيصة ، والجمهور عندنا على استقباحه ، والنفور منه كما تنفرون ، ولا يشهده عندنا سوى أهل البطالة والخلاعة ، ولا يأتيه من النساء إلا الفواجر العواهر ، وكلما حاولت

الحكومة ، في محافظتها على الآداب ، حظره ومنعه ، اعترضتها امتيازات الأجانب وحریتهم المطلقة فيما يأتون ويذرون . أما الرقص عندكم ، فهو متأصل في عاداتكم ، وسنة متبعة بينكم ، لا يقتصر على الملاحى والأماكن العامة ، ولا ينفرد به النساء دون الرجال ، ولا يخلو منه بيت من بيوت السوقة ، ولا قصر من قصور الملوك ، ولا تقام عندكم وليمة من الولائم ، ولا يتم لكم احتفال فى المواسم إلا والرقص ركن من أكبر أركانه ، ومظهر من أفر مظاهره ، والرقص عندكم من الفنون النفیسة ، يدرسه الرجال كما يدرسون العلوم ، ويتعلمه النساء كما يتعلمن الغزل والتطريز .

(الحكيم) — ليس الرقص فى أصله من المنكرات ، ولا مما يعاب شأنه ، كما تذهب إليه ، وهو حركة طبيعية فى الإنسان يقتضيها تركيب الجسد لرد الأعصاب إلى ميزانها ونظامها عند ما تلحقها خفة الطرب وهزة التأثير ، وهو قديم فى الفطرة ، وربما تجاوز نوع الإنسان إلى بعض الحيوانات والطيور ، وقلما خلت أمة من أنواعه منذ البداوة إلى اليوم ؛ وهو ينقسم إلى أربعة أنواع : نوع يستعمل فى الحرب ، ونوع يستعمل فى الصيد ، ونوع يستعمل فى حكاية الهوى من طريق الإشارة والإيماء ، والنوع الرابع فى الشعائر الدينية ؛ وقد اعتنى بأمره كثير من أم الحضارة الغابرة ، وبلغ عند قدماء اليونانيين مرتبة عالية ، وكان كبارهم وأمرأهم يمتازون بإتقانه ، ويتباهون بالتبريز فيه ، وفيهم من انقطع له واشتهر به ؛ ولقد كان السفير بين أهل « أثينا » وبين الملك « فيلبس » والد الإسكندر المقدونى رجلاً اسمه « توستيديموس » من أكبر الأساتذة فى هذا الفن ، ثم إن هذا الملك نفسه تزوج براقصة معروفة اسمها « لاريسا » ، وكان سقراط أبو الحكماء يهوى الرقص ولا يستنكره ، وكان « إبيامينونداس » ، وهو من أشهر الفلاسفة ، راقصاً مبرزاً فى الفن ، والأمر على ذلك أيضاً من جهة الرقص الدينى فى الدولة الرومانية عند نشأتها ، ثم انتشرت فيها أنواعه انتشاراً عاماً إلى أن دخل الدين المسيحى على الوثنية الرومانية ، فلم يستنكره فى بادى الأمر بأشكاله التى تفنن فيها الرومانيون على ما هو معهود فيهم من التناهى فى الملاذ الفاضحة فى أواخر دولتهم ، ثم دخل فى عادات الأم الغربية ، فتمسكت به ،

ولم يصدّها عنه بعد ذلك استنكار الرؤساء الدينيين له تارة بعد أخرى ، إذ كانت النفوس ألفتّه واعتادت أن لا ترى فيه عيباً أو شيئاً ، وإنما الذى شأنه فى نظركم اجتماع الرجال والنساء عليه فى حفلاتهم ، وذلك ناشئ عن ارتفاع الحجاب عندنا ووجوده فيكم .

قال عيسى بن هشام : وقطع الحديث بيننا أن رأينا فى طريقنا مكاناً يتزاحم عليه الناس ، وعلمنا أنه أحد المرائى الشهيرة الذى قرأنا عنه فصولاً متعددة فى الجرائد العالية مثل « الديبا » و « الفيجارو » ، ووصفته بأن الداخل يركب فيه سفينة عظيمة تسير به فى مياه البحر المتوسط فتمرّ به على الثغور فىرى ما فيها من البنيان ويشاهد حركة السكان ، فدخلناه بعد أن دفعنا الأجرة ، وصعدنا السلم حيث انتهينا إلى هيئة سفينة كبيرة فركبناها ، فإذا هى تميل بجانيها كما تميل كفة الميزان بالصعود والهبوط فى حركة مثل حركة السفينة عند اضطراب الأمواج ، ويحف بها من الجانبين حائط من قماش نُقِشت فيه أمواج البحر وأشكال الثغور الكبيرة مثل « نابولى » و « فينسيا » وغيرهما ، فيتخيّل للراكب عند ذلك أن السفينة تسير به فى عرض الأمواج المرسومة ، والرسم متصل بألة السفينة تديره بسرعة كبيرة ، والسفينة فى تمايلها كالأرجوحة لا تتحول عن مكانها ، فلم نر فى الأمر ما يستغرب له . ثم زرنا بعد ذلك العدد الكثير من قسم المرائى ، فرأيناها كلها على هذا النسق من التمويه ، وما برح « الصديق » يظهر التذمر لشدة الفرق بين ما رآه من هذه المناظر التافهة ، وبين ما انتشر عنها فى أنحاء العالم من المبالغة فى الوصف والغلو فى البيان ، ولم يخالفه « الحكيم » فى ذلك ، وإنما أشار علينا بأن نزور المنظر الوحيد الذى أعجبه حسنه من قسم المرائى كله ، وهو منظر القرية التى أقامها أهل سويسرا فى المعرض ، يمثّلون بها جبالهم وأنهارهم ومعيشة الأهالى فيها على حال الفطرة ؛ ولما دخلناها تملّكنا الطرب وتولانا الابتهاج من جلاء المنظر وبهاء الهيئة ، وشاهدنا الجبال شاحخة تسيل من قممها السيول إلى قرار الوادى ، فتتشعب منها الجداول والأنهار ، وتتخلل البيوت والجدران ، وشاهدنا هناك الأبقار المشهورة فى تلك البلاد واقفة على مذاودها ، ومن حولها الولائد والجوارى تتألق فيهن نضرة الشباب وتبرق أسرتهن بحسن البداوة .

حُسْن الحضارةِ مجلوب بتطرية وفي البداوة حُسْنٌ غير مجلوب
وهن يحتلبن ألبانها في فُجُوب من البُور ، ويُقدِّمنها برغوتها لمن يرغب في استئقائها من
الزائرين ، ورأينا الرجال في حوانيتهم يملأون العين حسناً وبهاءً واقفين وقمة التأدب يعرضون
ما طاب وحلا من أثمار بلادهم وأزهار جبالهم ، ولقد علمنا أنهم أقاموا في تشييدها ثلاث
سنوات وأنفقوا عليها ثلاثين مليوناً من الفرنكات ؛ فأعجبنا المقام ، وقضينا هناك زمناً
نتناقل ونتفاكه وتذاكر في حديثنا فضل المعيشة الطبيعية في سذاجتها ، على المعيشة المدنية
في تصنعها وكلفتها .

الافتراء على الوطن

قال عيسى بن هشام : وفيما نحن ندور بين أقسام المعرض ونجول ، إذ سمعنا صوت مزمار وطبول ، فهاج منا الذكري والشَّجَن ، وأذكى فينا الحنين إلى الوطن ، حين أنضاء النوق^(١) ، بلامعات البروق ، تنبث من أفق بلادها ، وتنازعها الأشواق في أغوارها وأنجادها ، فشخصت إليه الأحداق ، ومالت نحوه الأعناق ، فقصدنا منبعه ، وأمَّنا مطلعه ، عسانا نجد عنده من آثار مصر فضلا ، ومن أشكال بلادنا شكلا ، يملأ العينَ جمالاً ، والصدرَ جلالاً ، ويؤنسنا في وحشة الفراق ، بما يخفف من لواعج الأشواق ، ويكون لنا في المعرض موضعاً للفخر والمباهاة ، في باب المسابقة والمباراة ، فوجدنا أخلاطاً من الزَّمَر والجماهير ، حول الطبول والمزامير ، ورأينا في وسطهم رجلا يعلوهم فظاً في هيئته ، كظاً في طلعه^(٢) ، لو استزاد من الغلاظة لم يجد له من مزيد ، كأنه جلود صخر أو قطعة جليد ، بوجه تشور منه السماجة ، ثوران العجاجة ، «وטר بوش» عليه طوق مثل الدُّهن من العرق والوضر ، لو لَجَّ فيه شعاع الشمس لاحتمد واستعر ، وهو يعجُّ مثل عجيج الإبل في الفلوات ، ويصيح بصوت من أنكر الأصوات ، دُونَهُ صوت العُمُرِ الناهقة ، أو الرعد بالصاعقة ، وفي يده مروحة يتزود بها هواء للتنفس ، خشية الاختناق من التهيُّج والتحمس ، وهو يتمايل عجباً واختيالاً ، ويذهب في الحلقة يميناً وشمالاً ، منادياً في الجمع ، بألفاظ مكروهة في السمع ، ترغيباً للرائح والغادى ، في دخول ذلك النادى ، ليروا من أسباب الأنس ، ومُسْتَمْتِعِ الحواس الخمس ، ما ينقى بلباب الصدور ، ويُجِلُّ بواعث السرور ، من كل منظر ليس له نظير ، لا يحيط به التخمين والتقدير ، مما بدَّتْ به مصرُ سائر الأمم ، وحلَّتْ به في الفخر محل الدُّرِّ والقِمَم ، ولا غرو فهي لا تزال في مضارها منذ القِدَم ، عالية الكعب راسخة القِدَم ، وأن هذه فرصة سانحة لا بدَّ أن تُتَلَمَّس ، وخلصة من الدهر يعقبها الندم إن لم تُختلس ، فمن لم يبادر إليها فقد أساء الاختيار ،

(٢) رجل كظ : عسر متشدد

(١) أنضاء : جمع نضو ، وهو المتعب منهوك

وأوقع نفسه في الخسار ، ولم يقف من المعرض على موضع حسنه وجماله ، بعد أن يفقد النفيسين من وقته وماله ، ومن لم يشاهد صنعة « زهرة » و « معتوقة » ، لم يشاهد في الدهر معشوقة ولا موموقة ، ولم يحصل إلا على الخيبة ، في السفر والأوبة ، فدخلنا نستكشف الأثر ، ونستشف الخبر ، فتلقنا بالباب رجل حسن الثوب والعمامة ، في زى أهل التشيخ والإمامة ، مشغول اللسان بالترحيب واليد بالتسييح ، كأنه إمام مُصلّى أو سادن ضريح ، لولا أن تأملته فعرفته رجلا من ذوى الرتب بين التجار ، مشهوراً بتجارة الطيب والأعطار .

ذُبُ تراه مُصَلِّياً فإذا مررت به ركع

يدعو وجُلُّ دعائه ما للفريسة لا تقَع

فَهَنَّا بالسلامة ، وبالع في الحفاوة والكرامة ، وتقدم بنا إلى ساحة من ساحات اللهو واللعب ، و « مسرح » من مراسح الرقص والطرب ، وانكشف لأعيننا الستر عن بنات الفجور والعهر ، فأخذن في « رقص البطن » بتلك الحركات الشنيعة ، والأشكال الفظيعة حتى تخيلنا أننا عدنا إلى أدوار تلك المدة ، في مصاحبة « الخليع » و « العمدة » ، فلوينا أعناقنا نحو الباب ، ونحن في حزن واكتئاب ، وخرجنا نسترجع وجوهنا بأيدينا خجلاً ، وتمنينا أن لا نُنسب إلى بلادنا أصلاً ، لنخلص من وصمة هذا العار ، وما يجره علينا من الأزدراء والاحتقار ؛ ورجعنا مهرولين ابتعاداً عن هذا « المعرض المصري » وما يحويه ، من مثل هذا المشهد المعيب والمنظر الكريه ، وأقسمنا على أن لا نمر من هذه الناحية ، مرة ثانية ، فأخذ « الحكيم » يهون علينا من وقع المصاب ، ويخاطبنا في معرض العتاب : (الحكيم) — لم هذا التسرع والتعجل ؟ أما علمتم أن المعرض ينقسم إلى قسمين : قسم الصناعات والآثار ، وقسم المشاهد والمراى ؛ وقد رأيت من « المعرض المصري » القسم الثاني ، فدعوه إلى سوء أدبه وقبح أثره ، ولا يمنعنا ذلك من زيارة القسم الأول منه الذي هو قسم الجد والعمل ، ولعلنا نجد فيه من محاسن الأعمال والآثار ما يصرف عنكم هذا الذي اعتراكم من الهم والكدر .

(الباشا) — ما أظن هذا القسم إلا عنواناً للقسم الآخر ، ومن أساء الاختيار في قسم المشاهدات ، فحذيره أن لا يحسن الاختيار في قسم الصناعات ، ومن بلغ به الانحطاط في انتخاب مشاهد بلاده ومراثيها إلى عرض بطون النساء وفحش العاهرات للرائح والغادى من أطراف المسكونة في هذا المعرض ، فلا يُرجى منه حسن الاختيار في آثار البلاد وأعمال صناعاتها .

(الصدیق) — لقد أعمى الطمع في الربح مثل هؤلاء التجار عن قبج هذه المشاهد ، وغرم ولع السفهاء بها في مصر ، فحسدوا عليها أصحاب الحانات ، ولم يكن من اللائق بهم أن يزاحمهم فيها ببلادهم ، فانتهزوا هذه الفرصة للتفرد بها في بلاد الغربية ، وظنوا أن الغربيين يقبلون عليها إقبال الشبان في بلادهم ، فيفوزون بالربح ، وليس من يعبر بقبيح وجهه في بلاد لا يعرفهم بها أحد ، فإن فيهم مثل هذا التاجر الوجيه ذى الرتبة الثانية الذى لو دعوته لرؤية الرقص في مصر لغطى وجهه بحجته ولوى عنقه يستعبد ويستغفر من هذا الإثم الذى ينهيه عنه دينه وأدبه ، ولكن جاء الأمر على خلاف ما قدره ، فلم ينالوا ربحاً ، ولم يستروا قبجاً ، فإن أدب زوار المعرض على اختلاف أجناسهم ينههم عن مشاهدة هذه الفضائح ، فلم يقبل عليها أحد ، ولم يبق لأصحابها إلا سحق المصريين عليهم جزاء تعيير الأمم لنا بسوء رأيهم وقبح اختيارهم .

قال عيسى بن هشام : ولما جاوزنا باب الملهى قليلاً ، انثنينا إلى القسم الأول من هذا المعرض المصرى مطاوعة لرأى صاحبنا ، فوجدنا بناء مشيداً مثل أبنية الجوامع والمساجد ، يفاجئك مدخله بجانة للخمر ذات اليمين تتخطر فيها شمطاء من عجائز باريس ومن حولها بناتها وحفدتها ، وعن ذات الشمال رجل معمم قد جلس متربعا ، عريق فى القبح والدمامة ، تنطبق عليه القبعة دون العمامة ، وأمامه منضدة عليها ذوات وقرطاس ، وقد التف عليه جماعة من أجناس الناس ، يتقدم إليه الواحد بعد الآخر فينقده بعض الدراهم ، فيسأله عن اسمه واسم أبيه وأمه ثم يخط له بالعربية فى ورقة معصفرة مزعفرة بعض الدعوات الصالحات ، وسمعنا بعض النظارة من الغربيين يقولون فى انكبابهم عليه : هلم إلى شيخ

المسلمين ليكتب لنا شيئاً من « قرآن محمد » ؛ فحز بنا الأمر ، وانتظرنا قليلاً حتى انفضّ الجمع عنه ، وأقبلنا عليه نسائله ، فانفضح لنا أمره عن لهجة سورية ، فزجرناه قِياماً بواجب الدين الإسلاميّ الذي ينكر مثل هذه البدع السافلة على أبنائه ، فأخبرنا أنه استأجر هذا المكان من « شركة المعرض المصريّ » للارتزاق بهذه الوسيلة التي دفعته إليها ضرورة العيش ، فتركناه وتوغلنا في داخل المكان ، وإذا برجل آخر معمم ومن حوله صبيان في أزياء المصريين التفؤوا حلقة على الأرض كحلقة أولاد الكتاب حول الفقيه ، وهو يقرئهم آيات الكتاب بصوت عال ويروضهم على اهتزاز الجسم في أثناء التلاوة ، وفي يده قطعة من جريد النخل يهددهم بها ويؤذبهم ، والجمع من حولهم يسخرون ويضحكون من شكل التدريس في مصر وتعليم الدين بين المسلمين . ولما سألنا هذا الفقيه عن أمره أيضاً وما فيه من المنكرتين لنا أنه رجل مسلم من عامة المصريين اجتلبه أعضاء الشركة مع صبيانه ليثبوا به هذا المنظر ، ولم يستنكروه ، وفيهم بضعة من صلحاء المسلمين ، وأن طمع الربح سهل عليهم هذا الموقف ، فكان إنكارنا لأمر هذا المسلم المتعبد ، أعظم من إنكارنا لحال ذلك المسيحيّ المتصيّد .

ولما توسطنا ساحة البناء وجدنا بها سوقاً تشبه أسواق الموالد وحوانيتها ، فعن اليمين بائع « لب وحمص » و « فول وترمس » ، وعن الشمال بائع « عرقسوس وسحلب » ، وفي هذا الجانب بائع « حراير شامية » ، وفي الجانب الآخر بائع « حلوى استامبولية » ، ومن دونهم بائع « أحذية صفراء وطرايش حمراء » ؛ ولما استخبرنا : أهذه كلها آثار مصر والمصريين ؟ قالوا : نعم ويزيد عليها « معروضات المصنوعات والمزروعات » في داخل هذا المكان ، وأشاروا إليه ، فدخلناه ، فإذا هو مكان متسع على شكل معابد القدماء من المصريين ، ووجدنا حوانيته أشبه شئً بحوانيت العطارين انتقلوا منها إلى سواها ، وتركوا في انحائها وزواياها بقايا من صنوف تجارتهم ، فهنا صرة فيها بذرة قطن ، وهناك قطعة بها حبوب حلبة وذرة ، وفي صدر المكان صوان^(١) من زجاج به كسوة مطرزة بالذهب مما

(١) صوان : هو المعروف في العامة بالدولاب

يلبسه العداءون « القمشجية » أمام الخيول بمصر ، فانقلبنا خارجين من « قسم المزروعات والمصنوعات » على حال من الغم والحزن أشد وأدهى من الحال التي خرجنا عليها من ملعب المغنيات والراقصات .

وفرعنا إلى الحرب من هذا المعرض المصريّ وسيئاته ، فعارضنا أحد المروجين له ، واستحلفنا ألا نتركه من غير أن نشاهد أعجوبة العجائب فيه ، فطاوعناه ، فدخل بنا غرفة محجّبة ، وانكشف لنا الستار عن فتاة مقطوعة الذراعين تغزل برجليها وتستعملهما استعمال اليدين في كثير من الشؤون ، فخرجنا لا نلتفت وراءنا ، وقد حان وقت الغروب ، حتى صرنا في الشارع ، فرأينا مثل القطيع من النساء المصريات وبأيديهن الدفوف والشموع ، وفي وسطهنّ امرأة عليها زينة العرائس ، وهن يُنشدنَ حولها أناشيد الأعراس في زفاف المصريات ، ففجعنا من تركهنّ لمكان اللعب والرقص إلى خارجه في وسط الشارع ، وبيننا نحن كذلك إذ بصر « الصديق » بأحد المصريين من أصحابه ، فاستوقفه يطارحه الحديث عن خبث ما رأى وسمع ، وينعى على المصريين سوء سمعتهم بين الأمم بهذا « المعرض المصريّ » :

(الصديق) - ألا تخبرني عن سر هذا التفضح ، فإنهم لم يكفهم ما يدور في داخل المعرض من كل مخجل معيب ، حتى انتشروا به في الشوارع على نحو ما تراه ، لو قلنا إن جماعة من أعداء المصريين تألبوا على النكاية بهم ، ليظهروهم بأسوأ المظاهر بين الأمم ، فاتهزوا هذه الفرصة لتنفيذ مكيدتهم ، كما أخطأنا الصواب .

(المصريّ) - ليس الأمر كما ذهبت إليه ، وإنما دفع أهل الشركة الشره والطمع واستجلاب الربح بكل سبيل ، كما تراه في تسيير موكب الزفاف في أنحاء الشوارع للإعلان والترغيب في زيارة المعرض بقطع النظر عما يجلبه من العار على أهل مصر جميعاً ، ولكن الذي يقف على حقيقة هذا المعرض وتأليف شركته لا يلبث أن يهون عليه الأمر شيئاً ما لأنه لا ينتسب للمصريين بنسبة رسمية ، فقد امتنعت الحكومة المصرية عن إجابة الدعوة

التي أرسلتها الحكومة الفرنسية إليها ولم تشترك فيه رسمياً ، كما أعلنته في الجرائد ، وليست شركة المعرض بالشركة المصرية ، لأن الجانب الأعظم فيها من الشرقيين المقيمين بمصر مع بعض من لا خلاق لهم من المصريين .

(الصدیق) — وهل تظن أنهم يرجون الشيء الكثير من هذا المعرض ، وهو على ما تراه من حال الكساد والبوار ؟

(المصري) — ما أظن الربح على هذه الحال بميسور ، ولكن الشركة لا تخسر شيئاً ، وإنما الخسارة على الذين اكتبوا فيها ، وهم يقدرّون الخسارة إلى اليوم ثمانين ألف فرنك ، وعسى أن يستمروا على هذه الخسارة عبّرة لهم وتأديباً ، حتى لا يقدموا مرة أخرى على مثل هذه المشروعات التي لا يسلّمون فيها من الخسارة ، ولا يسلّم المصريّ فيها من وصمة العار .

قال عيسى بن هشام : وزوّدنا الرجل بالتحية والسلام ، بعد أن خفف علينا بعض ما بنا من الآلام .

خـبـز المـدنية

قال عيسى بن هشام : وانتهى بنا التجوال في المعرض إلى « أقسام الدول » ، فرأينا فيها من مفاخر الأواخر ومآثر الأول ، ما يشهد لمن بالعلو والارتقاء ، في أبواب الإبداع والإنشاء ، وقد تبارين في ميدان المناضلة ، وتسامين في مضمار المفاضلة ، بما لا يشق لمن فيه غبار ، وتقصر دونه الأنباء والأخبار ، وكانت الدولة الألمانية من بينهن أسبقهن قدماً ، وأرفعهن علماً ، وأعز مكاناً ، وأعظم شأنًا ، كأنها لم تقع بالسبق عليهن في ميادين الحرب والطعان ، فأرادت أن تسبقهن أيضاً في حلبة العلوم والعرفان ، وأن تبذهن في حالتي الحرب والسلام ، بشدة البأس وقوة العلم .

وبينا نحن نمتع النظر بحسن الصنع ، وجمال الوضع ، إذ شعرنا بضجة ، والناس يتقاذفون بعضهم على بعض كالبحر الجي ، في الليل الدجوجي^(١) ، قد ركبا رؤسهم من شدة الفرع ، وطارت عقولهم من الملح والجزع ، وانتشر بينهم الصراخ والصياح ، واشتد فيهم العويل والنواح .

فسألنا عن الخبر ، فقبل لنا إن القنطرة القائمة على رأس المعرض ، هَوَتْ مِنْ فَوْقِهَا عَلَى مَنْ تَحْتِهَا ، فتوجهنا ناحيتها ، فوجدنا من المنظر الشنيع ما تنقبض له النفوس وتذرف العيون ، فمن جث هامدة وأجساد دامية ، ما بين فتاة وصبي وشاب وكهل ، من زوار المعرض ، يزدون على المائة ، والدماء تجري كالسيل ، والناس يترامون على الأرض ليتعرفوا بمن عسى أن يكون بين المصايين من أقربائهم وأصدقائهم ، وما فيهم إلا كل متوقع للمصيبة ومترب للمكروه ، فالبكاء شامل والأنين عام ، والأطباء يضمدون ، ورجال الصحة يحملون ، وأشد علينا الحال بأشتداد الهول ، وتكاثر الزحام فضاقت علينا التنفس كما ضاقت النفس عن احتمال هذا المشهد الفظيع ، فجذبني « الباشا » إليه لنخرج من هذا المأرق ، فأسرعنا إلى مطاوعته ، وسار بنا وهو يقول :

(١) الدجوجي : المظلم

(الباشا) — تالله ما يفي كل ما رأيناه في هذا المعرض من بهجة وسناء في ترويح النفس، بمقدار ما اعترانا من الضيق والكرب أمام هذا الموقف الهائل ، حتى لقد تخيلت أننى أشاهد يوماً من أيام الحرب تتمزق فيها الأعضاء وتتناثر الأشلاء .

(الصديق) — صدقت ، ويزيد على ذلك أن هول الوقائع الحربية قد يكون أقل في النفس وقعاً ، لأن للحروب رجالاً استعدادوا لها واستأنسوا بها وغلظت أكبادهم ، ولست ترى من حولهم مثل هؤلاء الصبية والأطفال ، وهاته النسوة اللواتى رقق النعيم أديمهن ، ورفق الرغد أجسادهن ، يفزعن من مس الإبرة ويدعرن من لمس الوبرة ، فأصبحت الأوصال ممزقة تحت الردم ، والأعضاء مدكوكة في الأنقاض ، وهكذا صارت وقائع المدنية فى سلمها أشد من الوقائع فى حربها .

(الباشا) — لقد آن لنا أن نغادر هذا المعرض ولا نعود إليه مرة أخرى ، فقد قطعناه طولاً وعرضاً ، واستوفيناها بحثاً وتدقيقاً ، وبدأ فىنا الملل من طول التردد عليه .

(الحكيم) — إن كنتم عقدتم العزم على الانتهاء من زيارات المعرض بعد اليوم ، فلا يفوتكم أن تحتმოها فيه برؤية العجيبة التى هى فى الحقيقة أم العجائب ، ومصدر هذه الطرائف والغرائب ، والأصل الذى تتفرع عنه الفنون والصنائع . والمنبع الذى تسيل منه مظاهر المدنية ، والمطلع الذى تشرق منه شمس الرفاهة والحضارة .

قال عيسى بن هشام : فشوقنا بكلامه إلى متابعته ، وسرنا وراءه إلى حيث يريد ، فاتتهى بنا إلى بناء فخم من أبنية المعرض لم يكن وصلنا إليه من قبل ، ولما دخلناه وقف بنا عند فوهة هاوية عميقة مظلمة يضطرب البصر عند رؤيتها ، وتحتلج النفس من هيئتها ، فدعانا للنزول فيها ودفعنا لركوب آلة هناك للهبوط والصعود ، كأعظم ما يكون من الدلاء ، فهوت بنا إلى قرار بئر عميق ، وجب سحيق ، فتولانى من الملح والذهول ما أنسانى كل شىء فى ذاكرتى مما يحفظه أهل الدنيا إلا ثلاثة أبيات لم يبق لى سواها ما أنا فيه من هذا الانحدار ، والهوى فى ظلمات بعضها فوق بعض ، قالها الفرزدق لما تعلق بجبال الغوانى من أعلى الجدران . فراراً من صولة النائر والغيران :

فلما استوت رِجلايَ في الأرض نادَتَا أَحَيَّ يُرَجِّيْ أُم قَتِيلٍ نَحَاذِرُهُ
فقلت ارفعوا الأسبابَ لا يشعروا بنا وولَّيت في أعجازِ كَيْلِ أبادرُهُ
هُمَا دَلَّتَانِي من ثمانين قامَةً كما انقضَّ بازٍ اقتمُ الريش كاسرُهُ

ولولا أن حسن العشرة وطول الخلطة مَكَّنَ الثقة من نفوسنا بالحكيم الفرنسيِّ ، لقلنا إنه
كاد لنا وأراد أن يجدد في عصرنا الحاضر ما فعله أبناء يعقوب بأخيه في عصرهم الغابر ؛
ولما أفقنا من الإغماء في بطن الأرض ، سألناه أين نحن من الآخرة ، أو في أية طبقة من
الطباق السبع ، فعلمنا أننا في مكان صوروه على نمط معادن الفحم الحجريِّ تحت
الأرض ، وكيف يستخرجه العمال في غياهب الجب ، فأخذنا نحدق العيون في حنادس
الظلماء عسانا نبصر شيئاً ، فتمثل أمامنا العمال يدأبون في عملهم على ضوء سراج معقود
بناحية كل عامل كأنه نار الحُباب تنقدح بين الأشجار في ظلمات الليل البهيم ، وأنى
لأضواء الشُّرُج الكهر بائية أن تشق عباب هذا الظلام الدامس ، وهو يكاد من تكاثفه
يُمسِك باليد ويُقبض بالراحة ، وحسبك أنها لا تفيد في كشف الظلام وإضاءته ، وإنما
تزيد في بيانه وإراءته ، ثم خطونا قليلا وعثرنا كثيراً ، فرأينا من السرادب والكهوف
ومن الأخاديد^(١) ما تضل فيه الصلال بالتوائها ، وتنكمش دون انسيابها ، ونظرنا في كل
فجوة أشباحاً يتشكلون بأجسامهم على كل أشكال الصراع الذي يتفنن فيها المصارعون
للممكن من العمل في ثنايا الفجوات والمنعطفات ، وفي أيديهم ما ثقل ودق من أدوات
القطع والحفر وأخشاب الإسناد يقيمون بها ما يريد أن ينقض من جدران المغائر والكهوف
فمنهم الواقف في عمله على أصابعه ، والمضطجع على جنبه ، والجاثي على ركبتيه ، والمنكب على
وجهه ، والمياه تسيل عليهم من الثنايا والشقوق ، هذا بعض ما تقاسيه الأجسام من المتاعب
والمشاق والله العليم بما يدور في القلوب والرؤوس من توقع الخطر وترقب الهلاك بما شئت
من أنواعه المتعدده انهياراً واندفاعاً ، وانفجاراً وانبثاقاً ، وغرقاً واحتراقاً ، وارتداماً واختناقاً ،

(١) الأخاديد : جمع أخدود وهو الحفرة العميقة

وَهُمْ الْكَبَرُ أَنْ يَرِاقِبُوا مَا عَلَى نَوَاصِيهِمْ مِنَ الشَّرْجِ ، خَشْيَةً أَنْ تَصَابَ بَرَصَةٌ تَنْثَلِمُ فِيهَا ثَلَمَةٌ ، فَتَتَّصِلُ بِغَازِ الْفَحْمِ الْمَتَسَرِّبِ فِي الْمَعْدَنِ تَسَرِّبُ الْهَوَاءَ ، فَتَمِيدُ الْجُدْرَانُ ، وَتَنْدَكُ الْأَشْجَارُ ، وَتَخْسَفُ بِهِمُ الْأَرْضُ ، وَاهْتَدَيْنَا آخِرَ الْأَمْرِ إِلَى مَنْفَذٍ فَخَرَجْنَا مِنْهُ ، وَتَرَكْنَاهُمْ يَعْمَلُونَ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثَ بَعْضِهَا فَوْقَ بَعْضٍ :

فَالْفَحْمُ ظِلَامٌ جَامِدٌ ، وَالظَّلَامُ فَحْمٌ سَائِلٌ ، وَعَيْشُهُمْ أَسْوَدُ حَالِكٌ ، وَكَفَانَا اللَّهُ شَرَّ الْمَهَالِكِ . ثُمَّ دَرْنَا قَلِيلًا فِي « مَعْدَنِ الذَّهَبِ » ، بَعْدَ أَنْ انْتَهَيْنَا إِلَيْهِ مِنْ « مَعْدَنِ الْفَحْمِ » ، فَلَمْ نَجِدْ أَرْبَابَ الْعَمَلِ فِيهِ أَسْعَدَ حَالًا ، وَلَا مَتَاعَهُ أَهْوَنَ احْتِمَالًا ، لَا نَصِيبَ لَهُمْ مِنَ الْأَصْفَرِ الرَّنَانِ ، مِمَّا يَجْلُو عَنْهُمْ صَدَأُ الْكَرُوبِ وَالْأَحْزَانِ ، سِوَى أَنَّهُمْ صَفَرُ الْأَيْدِي مِنَ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ ، صُفْرُ الْوُجُوهِ مِنَ النَّصَبِ وَالتَّعَبِ .

وَالْعَيْسُ أَقْتَلُ مَا يَكُونُ لَهَا الصَّدَى وَالْمَاءُ فَوْقَ ظَهْرِهَا مَحْمُولٌ وَكَادَتْ الرُّطُوبَةُ فِي الْمَعْدَنِ تَعْقِدُ دِمَاءَنَا فِي مَجَارِيهَا ، فَأَسْرَعْنَا إِلَى مَكَانِ الصُّعُودِ ، فَانْتَشَرْنَا مِنْ بَطْنِ الْأَرْضِ إِلَى ظَهْرِهَا ، وَأَقْمْنَا هَنِيمَةً نَعَالِجُ بِأَيْدِينَا غِشَاوَةَ الظُّلُمَاءِ عَنِ الْأَبْصَارِ ، عِنْدَ مَفَاجِئِ ضَوْءِ النَّهَارِ ، وَسَرْنَا نَتَمَتَّعُ بِفَضَاءِ الْأَرْضِ لَا نَنْطِقُ حَرْفًا وَلَا نَحْسُ خُطَابًا ، وَإِذَا بِصَاحِبِنَا « الْحَكِيمِ » يَسْتَوْقِفُ أَنْظَارَنَا إِلَى « مَسْبِكِ الْمَدَافِعِ » الَّذِي يُمَثِّلُ أَعْظَمَ الْمَسَابِكِ فِي فَرَنَسَا تُطَلُّ مِنْهُ أَعْظَمُ أُسْطُوَانَةِ الْمَدْفَعِ فِي الْعَالَمِ ، وَيَخَاطِبُنَا بِقَوْلِهِ .

(الْحَكِيمُ) — وَهَذَا هُوَ الثَّلَاثُ مِنْ أَمْهَاتِ الْمَدِينَةِ وَأَقَانِيمِ الْحَضَارَةِ ، فَقَدْ رَأَيْتُمُ الْأَقْنُومَ ^(١) الْأَوَّلَ وَهُوَ الْفَحْمُ ، وَالْأَقْنُومَ الثَّانِي وَهُوَ الذَّهَبُ ، وَهَذَا الْأَقْنُومُ الثَّلَاثُ وَهُوَ الْحَدِيدُ .

(الصَّدِيقُ) — « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » . (الْحَكِيمُ) — نَعَمْ إِنَّهُمْ يَسْتَخْرِجُونَ الذَّهَبَ ، لِيَشْتَرُوا بِهِ الْفَحْمَ ، لِيَصْهَرُوا بِهِ الْحَدِيدَ ، فَيَصْنَعُوا مِنْهُ مَا شَاءُوا مِنْ آلَاتِ السِّلَاحِ وَأَدَوَاتِ الصَّنَاعَةِ ، فَيَخْرِجُوا لِلنَّاسِ مَا تَشَاهَدُونَهُ مِنْ عَجَائِبِ الصَّنْعِ ، وَإِنْ كُلُّ مَا تَرَوْنَهُ مِمَّا يَبْهَرُ الْأَنْظَارَ ، وَيَسْتَهْوِي الْقُلُوبَ ، رَاجِعٌ فِي

الأصل إلى ذلك الفحم الأسود ، الذى هو اليوم الخبز الثانى للانسان فى عالم المدنية ، منه نعيمها ورفاهتها ، وبه بأسها وقوتها ، تباً للانسان ! فما أعقَّ عمله وأقبح صنعه ! يهوى بالملايين من العمال إلى أسفل طبقات الأرض ، فيخرجون باطنها ، ليستخرجوا منه ما يخرّبون به ظاهرها ، وتعالى له ! يزعم أنه يعمل لسعادة الحياة وراحة العيش ، وهو يقضى عمره فى الشقاء والبلاء حتى يأتيه حمامه ، فيخرج من الدنيا باكيًا كما دخلها باكيًا ، بعد أن قضى فيها لحظة العمر على حال تمّصلها حالة الحيوانات والحشرات ، وهو بزعمه أفضل الخلوقات ! (الباشا) — كم يكون عدد العمال الذين يستخرجون الفحم فى فرنسا ، وما مقدار أجرة العامل فى اليوم ؟

(الحكيم) — يشتغل فى معادن الفحم مائة ألف عامل ، ويبلغ ما يستخرجونه منه سبعة وعشرون مليوناً من الأطنان تباع بمائتين وستين مليوناً من الفرنكات ، ويعمل العامل منهم فى جوف الأرض على عمق المئات من الأمتار ، وفى وسط الأخطار التى لا تقل حوادثها فى العام عن ألف وخمسمائة حادثة ، فتذهب بالعدد الجم من القتل والجرحى ، هذا غير ما يصيب العمال من الأدواء الصدرية والأمراض الرئوية لاستنشاق « الكربون » وفساد الهواء ، ومنهم من يشتغل بالليل ومنهم من يشتغل بالنهار ، ومعهم أولادهم ونساؤهم ، كل هذا بأجرة تختلف من اثنين إلى خمسة فرنكات فى اليوم !

(الباشا) — وأين تذهب هذه المئات من الملايين من أثمان الفحم التى هى ثمرة كدّهم ونتيجة تعبهم ؟

(الحكيم) — تذهب إلى فئة معيّنة من أرباب الشركات والامتيازات ، فينفقونها على شهواتهم ، أو يدخرونها فى صناديقهم ، ولا تظنّ أن هذه الفرنكات التى يأخذها العامل أجراً له فى اليوم تصل إلى يده ، فإن أكثر الشركات تبنت بيوت السكنى للعمال فى أحياء بجوار المعدن ، وتقيم بجانبها الأسواق ، فيشتغل العامل فى معدن الشركة ، ويسكن فى بيت الشركة ، ويشتري طعامه ولباسه من سوق الشركة ، والشركة تخصم عليه من أجرته ، فإذا خرج آخر الشهر لا عليه ولا له ، كان رضى الحال ، رضى البال !

(الصديق) — مِنْ هُنَا نَشَأُ الْمَذَاهِبَ الاشتراكية ونحوها ، فإنه كيف يصبر الإنسان على هذه الحال ، يعمل عمل الحشرات في باطن الغبراء ، ليفنى المقعدين في قصور العز والهناء . قال عيسى بن هشام : ووصلنا في مسيرنا إلى البرج الشهير ، برج « إيقل » المهندس القدير ، فأسندنا إليه ظهورنا ، تنفكر في أعمال الانسان ، وما يأتيه من فنون الجنون في كل زمان ، وهو يدعى أنه المخلوق الكامل ، والحكيم العاقل .

المعجزة الثامنة

قال عيسى بن هشام : ووقفنا نشاهد ذلك البرج المنيع ، والعماد الرفيع ، فهالتنا رفعته ، وأدهشتنا صنعته ، فهو في باب المشاهد الفريدة العصماء ، والغرة الشهباء ، والهضبة العليا ، والقلة السماء ، أعجوبة الصنائع وضعاً وإتقاناً ، وبكر هذا المعرض وإن كان فيه عوانا ^(١) ، تنحني أمامه الأطام ^(٢) والآكام ، وتخزله الرُّبَا والأعلام ، فأين من ارتفاعه الهرمان ، ومن علوه صرح هامان ، لما أمره فرعون بقوله في كفره وعناده ، وجحوده وإلحاده : « يا هامانُ ابنِ لى صرحاً لعلِّي أبلغ الأسبابِ أسبابَ السمواتِ فأطلع إلى إلهِ موسى وإني لأظنه كاذباً » لورآه فرعون لهدم ما شاد وأعلى ، ولم يقل أنا ربكم الأعلى ، ولانحني على هامانه فجَلَدَهُ ألفاً ، وعلَّقه في الجذع شَنْقاً ^(٣) ، وأين « برج بابل » من برج يشافه بروج السماء ، ويشارف الشَّعْرَى الغُمُصَاء ، إذا حوِّم عليه نسر الجوصار ثالث النَّسْرَيْنِ ، واتخذ وَكْرَهُ في منازل الفرقدَيْنِ ، وأتَّى لخيال الشاعر أن يعلو في وصفه علوه ، ويسمو سموه ، لا جَرَمَ أنه يضيق عليه نطاق الوصف ، فيلجأ إلى تشبيهه الأكبر بالأصغر ، والأعظم بالأحقر ، كما شبهوا شمس النهار ، بكأس العقار ، والثريا بعنقود ، والجوزاء بعود ، ودَرَارَى النجوم ، بالودَّع المنظوم ، والليل الدجوجي ، بالعبد الزنجي ، والاشفاق ، بالدم المَهْرَاق ، فلعله يقول إذاً : إنه ألف الهجاء ، في كتاب التقدم والارتقاء ، هزئتُه رايته التي تخفق في صفحة الأفق ، أو أول العدد المرقوم في جدول الفنون والعلوم ، أو الابرة التي تُعَرِّزُ في خريطة الكرة الأرضية ، لتعين مواضع المدنية ، أو هو القلم الذي يخط في أديم البدر ، ما بلغته أم الغرب من علو الشأن والقدَر ، أو هو قرن الثور في زعم البعض ، نفذ إلى ظهر الأرض . ولما فرغنا من الطواف حوله مراراً ، وامتلاَّتْ له نفوسنا إعظاماً وإكباراً ، سمعنا « الصديق » يتنهد ويصعد ، ويعيد في قوله ويردد :

(الصديق) — هذه سنة الدهر منذ القدم ، وعادة الزمن في أبنائه ، كلما ترقى أمة من الأمم في معارج المدنية ، شيدت لها أثراً يفوق سواء من بدیع الصنعة ، يقوم لها شاهداً بين الوری علی ما بلغت من السمو والقدرة في زمنها ، ثم لا يلبث أن يححوه الدهر من صحيفته ، ليقوم مقامه آخر ينتهي إلى مثل نهايته ، لا يزال الدهر هكذا في محو وإثبات ، ولا يزال ابن آدم عن العبر في غفلة وسُبات ، اللهم إنه عمل باطل ، وظل زائل .

(الحكيم) — لا تَعْلُ بنا في أفكارك علو البرج قبل أن نصعد فيه ، ولا تشغلنا بأقوال الحكمة عن مشاهدته ، وهلم بنا إلى الارتقاء .

قال عيسى بن هشام : ودخلنا من أحد جوانبه في غرفة للصعود ، فارتفعت بنا من سطح الأرض إلى عنان السماء في لحظة كبح بالبصر ، فرست بنا في الدور الثاني منه ، وإذا هو سوق من أكبر الأسواق ، اصطفت فيه حوانيتُ التجار بأنواع البضائع ، والحاناتُ بأصناف الخمر ، وفي وسطه مطعم فخم يزرى بمطاعم الأرض ، فأخذنا مجلسنا في بعض حافاته ، وجعل « الباشا » يسأل « الحكيم » إجمالاً وتفصيلاً :

(الحكيم) — يرتفع هذا البرج عن سطح الأرض بثلاثمائة متر ، وهو من الحديد الخالص ، ويبلغ وزنه تسعة ملايين كيلوجرام ، وعددُ قِطْعِهِ التي يتركب منها اثنا عشر ألف قطعة ، والخطاطيف فيه مليونان ونصف وله من العمر عدة سنوات ، وبلغ دخله من الصاعدين فيه في أثناء المعرض الماضي سبعة ملايين فرنك ، ولو تم لأهل العصور الماضية بناء مثله لكان الثامن للآيات السبع .

(الباشا) — وما الآيات السبع ؟

(الحكيم) — إن ذكرها ليطول .

(الصديق) — نحن في مجلسنا هذا ، وفي علواننا عن الأرض ، وتفرغنا عن العالم ما يبعثنا على جولان الفكر في تاريخ البشر ، لمطابقة بين أعمال الإنسان في ماضيه وحاضره ، وأن اختلاف العصور ، ومرور الدهور ، لم يُغَيِّرْ شيئاً من جِبِلَّتِهِ ، فهو هو على عهده في غرامه بالمعجب المدهش ، يبيع نعيم الدنيا بشتائها في سبيل ذلك ، ويشغل بما لا تقضى به الحاجة ، لجرد الزهو والعجب ، والتباهي والتفاخر .

(الحكيم) — نعم يحق لك هنا أن تذهب مذاهبك الحكيمة في تعليل أعمال البشر وطباع الخلق ، وأنت تنظر إلى أهل العالم السفلى من هذا العالم العلوى ، كأنهم جموع النمل تغدو وتروح في سُبُل أرزاقها ، ولكن الفرق بين الجنسين أن النمل في تآزر وتآون ، والناس في تَصَارِب وتَقَاتُل ، والمصير واحد ، والفناء شامل ، وعمل النمل حق وعمل الإنسان باطل .

وإن أبيتُم إلا أن أحدثكم حديث المعجزات من أعمال البشر ، فهى : الأهرام ، والحدائق المعلقة ، وسور بابل ، وتمثال جوبيتير ، وصنم رودس ، وهيكَل إيفيز ، ومدفن الملك موزول .

أما أهرام مصر فأمره مشاهد معلوم .

وأما « الحدائق المعلقة » فى أرض العراق ، فقد أقامها « بختنصر » فوق البروة التى تعرف الآن بربوة « عمران بن على » ، وهى فى اتساع أربعين فداناً شُيدت بالبناء على أشكال الجبال ، وعقدت فيها القباب على عمد وأساطين أفرغوها وملاؤها بالطين ؛ وغرسوا فيها الأشجار تنساق جزورها فى أصولها ؛ وتورق فى رؤسها ؛ ووضعوا فيها الدَّرَج يصعد منها الصاعد إلى مثل رؤس الجبال ، حيث تثمر الأثمار ؛ وتزهر الأزهار ، وتعشب الأعشاب ؛ وتدور الدواليب لرفع الماء من مجرى الفرات إلى أعلى القباب ؛ ويقال إن السبب فى إقامتها على هذا الشكل أن امرأة الملك كانت تحنُّ دائماً إلى مناظر بلادها التى نشأت فيها ، فأنشأها لها الملك بالصناعة ما يعوضها به عن الطبيعة .

وأما « سور بابل » فهو عدة أسوار متداخلة بعضها فى بعض ، يتسع محيطها للإحاطة بسبع مدائن مثل مدينة باريس ، وكان ارتفاعه ثمانية وأربعين متراً ، وعرضه سبعة وعشرين متراً ، ومن حوله خندق عميق ، وعليه أبراج متعددة ، وله مائة باب من حديد .

وأما « تمثال جوبيتير » ، الآله الأكبر عند اليونانيين ، فقد صنعه لهم « فيدياس » النَّحات الشهير ، وطول قامته أربعة عشر متراً ، وهو جالس على العرش ، مكلل بورق الغار ، وفى يمينه تمثال « إله النصر » ، مصنوع من الذهب الخالص وسن الفيل ، وفى

يسراه الصولجان ، منضد بكرائم الأحجار ، وفي طرفه نسر من الذهب ، والطيلسان والحذاء من الذهب أيضاً ، أما العرش فكان من الرخام وسن الفيل والأبنوس ، وكان موطى قديمه من العرش أسدين من الذهب ، وقد أجاد صانعه وأتقن في تناسب الأعضاء في هذا الحجم العظيم ، حتى عده القدماء أنفس ما في الوجود من الصنع ، وكان كل يوناني يعد نفسه ناقص الإيمان إن مات ولم يحجج إليه .

وأما « صنم رودس » فهو تمثال « أبولون » ، إله الفنون مند اليونانيين أيضاً ، أقاموه تجاه المرفأ ، وكان ارتفاعه اثنين وثلاثين متراً ، وهو أكبر ارتفاع بلغته تماثيل القدماء ، وانتهى بأن أسقطته الزلازل وهشمته ، ونقلت العرب كثيراً من بقاياها في القرن السابع .

وأما « هيكل إيفيز » (وهي مدينة من مدن اليونان) ، فهو معبد « ديآن » ، الآهة الصيدوالقنص ، ولم يكن له مشيل في البناء والنقش والزخرف والتصوير بين معابد القدماء على الإطلاق ، ومما يذكر للدلالة على أنه أعظم أثر عندهم أن أحد أهل الشقاوة من المولعين بحب الشهرة ، على كل حال ، واسمه « إيروسطراط » بحث عن أكبر عمل يمتاز به في الوجود ، ويخلد ذكره على مدى الدهور ، فاحتال لإحراق المعبد ، فأكلته النار ، وأعلن الجاني عن نفسه أنه هو الفاعل لتلك الفعلة الشنعاء ، فحكم عليه القضاء بالتعذيب حتى يموت ، وأدركوا غرضه من إحراقه ، فأمرُوا أن يلحق به كل من ذكر اسمه ، فكان ذلك داعية انتشاره ، لأن الناس أخذوا يهمسون به بينهم ، حتى اشتهر وخلد ذكره بسوء فعلته إلى اليوم ، وكان حرقه في الليلة التي وُلد فيها الاسكندر ، فلما بلغ من الملك ما بلغه ، عرض على أهل « إيفيز » أن يعيد لهم بناء من ماله بشرط أن ينقشوا عليه اسمه ، فأبوا ذلك حتى لا يكون لأجنبي عنهم فضل عليهم في معبدهم ، وباشروا هم أنفسهم تجديد بنائه وزخرفته ، حتى تم لهم في مائتين وعشرين عاماً ، وما زال قائماً حتى جاء « نيرون » القيصر الروماني فنهب ما فيه من الذخائر والكنوز ونقل الفسيفساء من أرضه فوضعها في قصوره بمدينة « رومية » ، ثم انتهى الأمر بأن خرَّبه « الجرمانيون » في حروبهم .

وأما مدفن الملك « موزول » ، فهو مدفن أقامته له امرأته (وكانت أخته) بعد موته ، جمعت له مهرة الصناعات من سائر البقاع ، وخصت كل طائفة منهم بجانب من العمل ، وكان

ارتفاعه اثنين وأربعين متراً ، وأساطينه من المرمز النقش نُقشت عليها صور الحوادث التاريخية ، وكان غطاؤه صخرة من المرمز صُوِّرت فيه وقائع الحرية ، وبقي هذا المدفن سليماً إلى القرن الرابع عشر ، ثم اندثر أثره في القرون الوسطى ، ونُقل جانب من أجزائه قريباً منه لبناء قلعة « بودرون » بالأناضول في القرن السادس عشر ، وبقي منه قطع من الرخام المنقوش لاصقة بأرضه إلى أواسط هذا القرن ، فاشترتها انكلترا ووضعتها في متحف لوندرة .

(الصديق) — ما أشبه الليلة بالبارحة ! وما أبعد ابن آدم من العبرة والتذكرة ! !
تراكت القرون ، وشاب فود الدهر ، وتغيرت الأرض ، واندثرت المعالم ، في كل زمان ومكان ، والإنسان هو لا يزال على غيه ، يعتقد لأعماله البقاء ، ولأناره الخلود ، لا فرق في هذا الاعتقاد بين الآشوري عند برج بابل ، والفرنسي اليوم تحت « برج إيفيل » ، كلاهما يتعب ويشقى ، وكلا العاملين لا يدوم ولا يبقى ، وما تبقى إلا الأحاديث والذكر .

كل بيت إلى الهدم ما تبتني الـ ورقاء والسيد الرفيع العاد
والفتى ظاعن ويكفيه ظل السد ر ضرب الأطناب والأوتاد

(الحكيم) — نعم صدقت ، ويحضرني في هذا الباب محاوراة ابتكرها أحد قدماء العلماء وأجراها في عالم الأموات على لسان « ديوجين » الفيلسوف الزاهد القديم ، والملك « موزول » صاحب ذلك المدفن الشهير ، وأذكر منها :

(ديوجين) — مالي أراك أيها الرجل الأسوي مختلاً تيّهاً في أ كفانك ! كأنك تريد أن تنزل هنا أيضاً بين الأموات منزلة أشرف من منزلتهم ، وتحل تحت طبقات الأرض فوقهم مكاناً علياً .

(الملك) — وهل من شك في ذلك أو ارتياب ! ومتى تساوت الملوك بالسوقة ! وأنا أكبر الملوك ملكاً وسلطاناً ، وأحسن الخلق بهاءً وجمالاً ، وأعظم الفاتحين نصرة وجلالاً ، وقد كنت في الحياة أرفع ذوى التيجان عرشاً وقدرأ ، وأنا اليوم في الممات أعظمهم مدفنأ وقبرأ ، وإن افترى مُقتر منهم أنه كان يساويني في فخامة الملك ، فقد انقطعت ألسنتهم أن

يكون لهم مثل هذا القبر ، فهو معجزة البشر في النقش والحفر ، وآية الدهر في المجد والفخر ، فهل ترى بعد ذلك أيها المتكشف في الدنيا والمندثر في الآخرة أن ليس من حق التخيل والترفع ! (ديوجين) — ولكنى أراك أيها الملك العظيم الجليل لم يبق لك من سلطانك وجلالك أكثر مما بقي لى ، وهذه جمجمتك لا تمتاز عن جمجمتى بشيء ، فكلتاها مثقوبتا العينين ، مفحورتا الأنف ، بارزة الأسنان ؛ وأما ذلك المدفن الفخم والصخور المزخرفة فوق رأسك ، فلا فائدة لك اليوم منها بعد أن تساويت فيه بمن دُفِنَ فى بلقع من الأرض ، وإنما أصبحت فائدته للأحياء من أهل بلدكم يتباهون به على الوافدين إليه من الأقطار حيناً من الدهر ، ثم لا يلبث أن تندك أحجاره ، وتزول آثاره .

(الملك) — ما هذا الذى أسمعه ، يارب الصواعق والرواعد !! أيزهد كل ما أُوتيتُهُ من أسباب العز والمجد متاعاً باطلاً ، وأصبح مساوياً لـديوجين ، فيوسعى تأنيباً وتبكيثاً ؟ (ديوجين) — لا تقل أيها الخلق إنك أصبحت مساوياً لى ، فشتان ما بينى وبينك ، فإنك لا تفكك تتحسر على ما كان لك فى الدنيا من الملك والسلطان وزخرف الحياة ، وأنا أنا فلا يحزننى شيء ، ولا يكدرنى الآن مكدر ولم أترك فى الحياة شيئاً آسف عليه ، ويوجعنى فراقه ، ولئن خطر الزنبيل الذى كنت أسكنه فى الدنيا على بالى يوماً لكان للاغتياب بأن مسكنى الآن فى بطن الأرض أوسع لى مجالاً وأحسن منزلاً ، ولكن لى فى قلوب أهل الدنيا ذكراً حسناً ، وأثراً من الفضائل خالداً ، لا تمحوه الأيام ، ولا يبلى ببلاء الزمن ، فأين مكانك أيها المغرور من مكافى ، وأين ذكرك أيها المفتون من ذكرى ؟ (الباشا) — ما أحكم الموعظة وأجل العبرة !!

(الحكيم) — ولو علمتم أن « المسيو إيفيل » صاحب هذا البرج العظيم قد انتهى أمره بتهمة السرقة والاختلاس وسُجن فى قضية « بناما » الشهيرة ، لاشتدَّ بكم العجب فى نتيجة هذه الآثار ، وذهاب أصحابها بسوء السمعة والأخبار .

والآن فقد أحطتم بمشاهد المدينة ومناظرها فى صنائعها بآلاتها وأدواتها ، من بطن الأرض إلا سطح البرج متجلية لكم فى هذا المعرض بأجلى مظاهرها وأسمى مراتبها ، فإن

كان من عزمكم العودة متعجلين إلى بلادكم ، فقد كفاكم ما شاهدتموه ، مما يملأ الصدر
مهابة والعيون حسناً ، وأودعكم مع الأسف الشديد لفراقكم ، فقد رأيت فيكم من حسن
العشرة ، ولطف الخلطة ، وذكاء القريحة ، ودقه الفكر ما لم أكن أتوسمه من قبل في
كثير من أهل الشرق وإن كان في نيتكم الإقامة زمناً بيننا ، وكان الميل فيكم شديداً
لاستطلاع العالم الأدبي ، بعد العالم المادي ، في هذه الحضارة الغربية ، واحببتهم الوقوف
على ما تجرى عليه أحوال الجمعيه البشرية ، وما تدور به المعاملات في المعاش والمراق ،
وما تنطوي عليه من الأخلاق والصفات ، ويتسلط عليها من الطباع والعادات ، فأنا
حاضر بين أيديكم لمصاحبتكم ومرافقتكم ، والفضل كل الفضل لكم فيما أجده من الأنس
بكم ، ولذة النفس في مباحثكم ومناقشتكم .

قال عيسى بن هشام : فحبب إلينا البقاء بكلامه ، وحمدناه على حسن صنعه وإكرامه ،
وصادف رأيه لدينا حسن القبول ، ففضلنا الإقامة على القبول ، وبهذا انتهينا من زيارة
معرض النفائس والأعلاق ، لنبدأ بالنظر في معرض الأطوار والأخلاق .

من الغرب إلى الشرق

قال عيسى بن هشام : وأقننا مع صاحبنا « الحكيم » نهتدى فى سيرنا بهديه ، ونستضىء بنور فكره ورأيه ، ونتبعه اتباع الإبل لحاديها ، والرفقة لهاديها ، ونحمد القدر الذى ساقه لمرافقتنا ، وأنزله على موافقتنا ، وقضينا معه الليالى والأيام ، منذ انتهينا من المعرض العام ، وكأنها حلم من الأحلام ، يتنقل بنا فى الأنذية الحافلة ، والمجالس الآهلة ، ويدور بنا فى اختبار الأخلاق والصفات ، بين مختلف أهل الطبقات ، فيعلو بنا تارة إلى مراتب الخاصة والحامة^(١) ونسفل معه أخرى إلى أدنى منازل السوق والعامية ، فالיום مع كبار الرجال والأمراء ، وغداً بين شرادم الصناعات والأجراء ، ثم نتحول من محادثة أرباب القصور العالية ، إلى محاورة أصحاب الأكواخ البالية ، ومن منابر الوعظ والخطابة ، إلى مجامع ذوي الدعارة والدعابة ، ومن أروقة العلماء والفضلاء ، إلى أزقة الأوباش والسفهاء ، ومن جمعيات العلوم والمعارف ، إلى حانات المراقص والمعازف ، حتى لم يبق مجتمع تختبر فيه الفضائل والذائل ، وتُسبر فيه الطبائع بين الأعلى والأسافل ، إلا لدينا طرف من خبره ، وعلم من أثره ، باحثين فى العلل والأسباب ، مُستشفين لما وراء الحجاب ، إلى أن أدركنا الشتاء بخيله ورجله ، وجليده ووحله ، ورعوده وبوارقه ، وعواصفه وصواعقه ، وتوارت الشمس عنا الأيام بعد الأيام ، وانسدل على العالم ستر الظلام ، وأصبحنا نستضىء بمصابيح الكهرباء ، من الصباح إلى المساء ، وانطلقت فى الجوامد مداخل المعامل ومداخل الاصطلاء ، فعددت سحباً أخرى تحت سحب السماء ، وتدقت السيول والأمطار ، طول كل ليل وكل نهار ، حتى أغرقت الغدران والأنهار ، فطغى المساء بمثل الطوفان ، وسال فى الأودية والبلدان ، وامتد نهر المدينة فوصل إلى أرض المنازل والمساكن ، وقد يعلو إلى الأدوار والأماكن ، فانزونا فى الغرف والحجرات ، نقضى بها جميع الأوقات ، وكأننا نحن فى العذاب ، نُعَذَّب تارة بنار الاستدفاء ، وتارة بزمهرير الشتاء ، وأقننا عاكفين على الحديث والسمر ، بما وعيناه عن هذه المدينة من كل خبر وأثر ، وكان « الصديق » يبيننا كعهده ،

يرسل علينا القول إرسالا ، ويذهب في حدة انتقاده يميناً وشمالاً .

ويذكر من أسوء المدنية الغربية ما يهول السمع ، ويذرف الدمع ، حتى استفز « الحكيم » للرد عليه ، وتهوين ما ذهب إليه :

(الحكيم) للصديق -- لقد أسرفت أيها « الصديق » في القول ، وغاليت في الوصف ، وإن كان في بعضه الجانب الصحيح ، والحق الصريح ، ولكن لهذه المدنية الكثير من المحاسن ، كما أن لها الكثير من المساويء ، فلا تغمطوها حقها ، ولا تبخسوها قدرها ، وخذوا منها معشر الشرقيين ما ينفعكم ، ويلتئم بكم ، واتركوا ما يضركم ، وينافي طباعكم ، واعملوا على الاستفادة من جليل صناعاتها ، وعظيم آلاتها ، واتخذوا منها قوة تصدّ عنكم أذى الطامعين ، وشرّة المستعمرين ، وانقلوا محاسن الغرب إلى الشرق ، وتمسكوا بفضائل أخلاقكم وجميل عاداتكم ، فأنتم بها في غنى عن التخلق بأخلاق غيركم ، وتمتعوا في رخاء بلادكم ، وسعة أرزاقكم ، وأحمدوا الله على ما آتاكم .

قال عيسى بن هشام : ولم يبق لنا بُدٌّ في هذه الحال ، من السفر والانتقال ، فاستخرنّا الله في العودة إلى ديارنا ، والأوبة إلى أوطاننا . والحمد لله باطناً وظاهراً ، أولاً وآخراً .

(وإلى هنا انتهى الحديث)



بدأت هذه الكتاب بخير ما يبدأ به كتاب بعد اسم الله ، وذكر رسوله : رسالة الحكيم جمال الدين .

لم أرم في ذلك — علم الله — إلى التنبيه من ذكرى ، والتنويه بقدرى ، وأستغفره ثم أتوب إليه أن يكون الدافع إلى نشرها هذا الغرض دون سواه ، وأنا أعلم أن مثل هذه الرسائل من كبار العلماء إلى تلاميذهم إنما يكون مصدرها حث المتعلم على العلم والإغراء بالتعمق فيه ، كالطفل توضع في يده قطعة العاج المنقشه علالة يتعلل بها لتنتب أسنانه ، بل كان نشرها لأنها أثر من الآثار يجب عرضه على النظر ، ونفاضة بما يخطه ذلك القلم الجليل في أى قصد من المقاصد ومطلب من المطالب أن يبقى مطويًا في أدراج الأوراق ، وحقه أن ينشر على سائر الآفاق .

وأختتمه على مثل هذه النية بخير ما يختم به القول بعد حمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين : هذه الرسالة التي شرفني بها مولانا الأستاذ الشيخ سالم بو حاجب شيخ العلماء وصاحب الإفتاء بالملكة التونسية ، بعد أن قرأ هذا الكتاب في طبعته الأولى ، وناهيك بقدر هذه الرسالة بركة ويمناً وشرفاً وجلالاً ، ممن يمثل لك بالفعل ، ما يروى عن السلف الصالح بالقول ، ويشهد لك بسيرته في هذه الأيام ، كيف كان العالم العامل في صدر الإسلام ، ويعيد لنا ذكرى البصرى في الزهد والتقى ، والكوفى في الرأى والحجى ، والمسكى في الفقه والدين ، والمذنبى في العلم علم اليقين ، هذا إلى سعة في الإطلاع ، وتصرف في الأفكار ، ودقة في البحث ، واستنباط للأمر ، يؤلف الغابر بالحاضر ، ويطابق بين أحكام ما قضت به الحكمة في سالف الأوان ، وما تقضى به قواعد هذا الزمان :

أنفق العمر ناسكا يطلب العلم بكشف عن أصله وانتقاد

فهو المثال التام ، الذى ينشده الإسلام ، منذ السنين والأعوام ، من بين العلماء الأعلام ، ليعود إليه مجده ، ويرتد إليه حقه ، ويعرف بهم قدره ، ولو من الله بمن يأخذ بقدوته في

سائر الأقطار ، ولو جرى العلماء على مثاله في كل مصر من الأمصار ، لاستوى الأواخر بالأوائل في العلم والدين ، ولعاد الإسلام إلى ذلك العز القديم والنصر المبين .

وهذا نص الرسالة الكريمة :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

أيها الجليذ النحرير ، المتصرف في أحرار الألباب ، ورقيق الآداب ، بالاسترقاق والتحرير ، البالغ من رتب التهذيب أقاصيها ، المالك من بدائع التربية نواصيها . أما بعد تقديم التحية اللاتقة بعزة تلك الحضرة الحمدية المويلحية ، فقد وصل إلى — واصل الله في مدارج الإجابة ارتقاءكم ، وأدام لحسن الإفادة إتقانكم وانتقاءكم — كتابكم الجليل ، الذي يقوم به على تقدمكم في حلبة العرفان ، وبراعة البيان ، وكال تربية الإنسان ، أوضح دليل ، فوالذي علم بالقلم ، ومنح خير خلقه جوامع الكلم ، إن لقلمكم من السحر المبين ، ما تحرّله سحرة البيان ساجدين ، وإنه ليحقق اللطيفة الموسوية التي لمح لتأهلّكم لها كتاب الأستاذ جمال الدين كما يتحقق ما يُتفاد به عن إسناد مروياتكم لاسم عيسى ، وإحياء موتى الأفكار المؤسسة على حياة مَنْ كان في اللاحد رميسا ، فيأله من معلم قد علم منه كل أناس مشربهم ، ووجد فيه الباحثون عن وسائل الاستقامة مأربهم ، فرجال الحكم مثلا سواء كانوا من الأمة الاسلامية أم غيرها ، يتعرفون منه ملاك عز الأمة ونمو خيرها ، باسناد الوظائف إلى أهل المعرفة والفضل ، والضن بها عن غير الأهل ، وإقامة منار العلم والعدل ، لتدارك ما تخرب بيد الجور والجهل ، والعلماء يدركون به طرق النصح في التعليم ، وعدم النفرة من الحديث مجرد كونه لم يُعهد في القديم ، ومع ما يلزم لهم في اقتياد ذوى الجهالة والعناد من الملاحظات ، والتحذير مما يدنس الشريعة المصونة من مُحْتَلَقِ الخرافات ، والحاكم الغاشم ينتهى بمطالعته بالكف والإعراض ، عن كل ما يمس المروءة ويدنس الأعراض ، والمنشئ يتعلم منه كيف يسحر العقول بهيمنة لفظه ، ويستلب القلوب بحسن إرشاده ووعظه ، وكيف ينتحل الأديب مهارة الطبيب ، فيشرح النصائح بأسلوب عجيب ، لا يتطرقة إنكار

أو تكذيب ، وقد يجد المريض من حذق الطبيب عذوبة التعذيب ، ثم يسترشد به الوالد في تربية أبنائه ، ويدعوهم إلى حفظ مجد البيت والثروة بعد فنائه ، ويعينهم على استثمار دوحه البذور ، وينقذهم مما يُفرض عليه سوء السيرة من الأسواء والشرور .

ملاً الله أوقات الجميع بالسرور ، ولا زال يرينا من أعمالكم كل أثر مشكور ، وإذا كان لا يتيسر لغيركم ، رعاكم الله ، أن يصل بقلمه إلى منتهى آماله ، فحسبنا أن نقنع في أداء الواجب بإجماله .

هذا ما حملت عليه محاولة القيام ببعض الواجب ، من مقيم ودم وأدبكم
سالم بوحاجب

فهرست الكتاب

ترجمة حياة السيد محمد المويلحي بك
اهداء الكتاب
المقدمة

ج	صفحة	صفحة	
٢		١	العبرة
ع		٦	الشرطة أو البوليس
صفحة		١٢	النيابة
١٠٩	الوباء	٢٠	الحمايى الأهلى
١١٥	العزلة فى العلم والأدب	٢٣	المحكمة الأهلية
١٢٤	الأعيان والتجار	٣٥	لجنة المرافعة
١٣٣	أرباب الوظائف	٤١	محكمة الاستئناف
١٤٣	العرس	٥١	الوقف
١٦٤	العمدة فى الحديثة	٥٥	أبناء الكبراء
١٧٢	العمدة فى المجمع	٥٩	كبراء العصر الماضى
١٨٠	العمدة فى المطعم	٦٨	الحمايى الشرعى
١٨٨	العمدة فى الحان	٧٥	الدفترخانة الفرعية
١٩٧	العمدة فى الرقص	٨١	المحكمة الشرعية
٢١٨	العمدة فى الرهن	٨٧	قصر حفيد الباشا
٢٢٨	العمدة فى الأهرام	٩٥	الطب والأطباء
٢٣٥	قصر الجيزة والمتحف	١٠٣	الطاعون
٢٤٢	العمدة فى الملهى		
٢٥١	المدنية الغربية		

الردء الثانية

٣٠١	خبز المدينة	٢٥٧	باريس
٣٠٧	المعجزة الثامنة	٢٦٩	المعرض
٣١٤	من الغرب إلى الشرق	٢٧٦	القصر الكبير
٣١٦	خاتمة الكتاب	٢٨٤	الأشجار والأزهار
٣١٧	رسالة الأستاذ الشيخ سالم بوحاجب	٢٨٩	المرائى والمشاهد
		٢٩٥	الاقتراء على الوطن

DATE DUE

SEP 30 2005

JUN 13 2011

JUL 03 2015

JUN 06 2016

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

893.7M986
R4

Q655XXX2

NOV 4 1964

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58876448

893.7M986 R4

Hadith Isa ibn Hisha

RECAP